د. عبد الرحمن بدوي

سيرة حياتي






سيرة حياتي
2

سيرة حياتي [٢] / سيرة ذاتيّة
د. عبد الرحمن بدوي / مؤلّف من مصر
الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
الصفّ الضوئي :
حكمت مشموشي / المؤسّسة العربيّة - بيروت
التنفيذ الطباعيّ :
مطبعة سيكو ، بيروت - لبنان

د. عبد الرحمن بدوي

سيرة حياتي







الهجرة

وداعاً أيها الوطن المكبل بالقيود، الحافل بالجواسيس والمخبرين فضاع صوت الأحرار من المواطنين بين جمهور المواطنين المستسلمين.

أنت في جوهرك بلد زراعي، ونهوض الزراعة يحتاج إلى الأراضي الواسعة والأموال الوفيرة للانفاق عليها. لكن توالت عليك قوانين تحديد الملكية الزراعية: فصدر القانون الأول في سبتمبر سنة ١٩٥٢ فجعل الحد الأعلى للملكية الزراعية مائتي فدان (الفدان مساحته ٤٢٠٠ متر مربع). فاستولت الحكومة على كل الأطيان الزائدة عن هذا الحد. وزعمت أنها ستعطي تعويضاً عادلاً عن هذه الزيادات. لكنها لم تفِ بما تعهدت به. وجاءت في يوليو سنة ١٩٦١، فأصدرت القانون الثاني الذي أنزل الحد الأعلى للملكية الزراعية إلى مائة فدان. وفي الوقت نفسه ألغى كل ما وعد به في القانون الأول من تعويضات.

وعلى الرغم من الهزيمة الكبرى في يونيو سنة ١٩٦٧ أصدرت الحكومة القانون الثالث لتحديد الملكية الزراعية فأنزلتها إلى خمسين فداناً.

ثم تدخل الجيش في الحياة السياسية والاقتصادية للمواطنين وقام بما سمي باسم «تصفية الإقطاع» وتولى المشير عبد الحكيم عامر هذه المهمة، بدلاً من الاهتمام بالجيش والسلاح. فلا عجب بعد ذلك أن ينهار الجيش المصري من الضربة الأولى التي كالها له في يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ جيش صغير لدولة من أصغر الدول في العالم ومن أحدثها، فكانت هزيمة من أنكر الهزائم التي عرفتها مصر في كل تاريخها.

وفي أثناء ذلك كان الشيوعيون المؤتمرون بأوامر موسكو قد سيطروا على كل أدوات الاعلام: من صحافة واذاعة ودور نشر ومسارح ومؤسسات انتاج سينمائي، وصارت كل هذه الأدوات في خدمة التخريب والسطو والتسلّط وكبت كل ألوان

الحرية ـ أليست هذه هي الأدوات الرئيسة التي يستعين بها الشيوعيون للاستيلاء على الحكم في كل بلد استطاعوا فيه تولّي السلطة؟!

وكان النقص في كل مرافق الحياة وأسباب العيش هو الصفة الغالبة في كل شيء: في المسكون والمأكول والملبوس ووسائل الانتقال، وفقد الحد الأدنى الضروري من كل هذه الأمور عند كل الطبقات، باستثناء الطبقة الحاكمة ومَن يلوذ بها وينفذ مظالمها: فكل شيء كان مكفولاً وكان عندها موفوراً، وهل كانت للملحقين في الخارج مهمة غير هذه؟!

وكانت وسائل التنصّت والتجسّس كفيلة بإبلاغ كل نقد او تذمر حتى لو كان خافتاً شبه صامت إلى زبانية المخابرات الذين استباحوا كل حرمة، واختصوا أنفسهم بكل ما يطلبون من العملة الصعبة. هذا في الوقت الذي كانوا فيه يجهلون كل شيء عما يدبّره أعداء مصر من إعدادات للهجوم ومؤامرات للاطاحة بمصر ومكانتها وأسباب معاشها. وماذا كان يهمهم من أعداء مصر في الخارج؟! كل ما يهمهم هو أعداؤهم هم في مصر، حقيقيين كانوا أو وهميين. وكان التنافس في خدمة المخابرات شديداً للغاية، خصوصاً بين «المثقفين»: أساتذة الجامعات، وكبار الموظفين في الوزارات، والأدباء والفنانين ـ لأنّهم رأوا في ذلك أنجع وسيلة للوصول وأسهلها، حتى صار التفسير الشائع بين الناس لوصول أحد إلى منصب كبير هو انه من «رجال المخابرات»، فإذا كان المنصب أقل شأناً قيل عن صاحبه إنّه من «عملاء المخابرات». وصار «التجسّس» و«التبليغ» هما الزلفى الكبرى لدى الحكّام، والمؤهل الرئيسي لتولي المناصب الرفيعة او ما دونها.

وانقطعت العلاقات الثقافية مع العالم الحرّ المتحضر: فلا استيراد للكتب ولا استيراد للمجلات العلمية، ولا تبادل للمعلومات والخبرات، ولا استقدام للعلماء والأدباء والمفكرين، حتى باتت مصر في عزلة فكرية رهيبة «لا تتسرّب» إليها الكتب والأبحاث العلمية إلاّ اختلاساً وبمصاعب جمّة: مرّة بسبب الرقابة، وأخرى بسبب انعدام العملة الصعبة. وهكذا لم يعد في طاقة الباحث ان يتابع ما يجري في العالم من دراسات وأبحاث.

وانحسرت دور النشر والمطابع بسبب التأميم ومنع استيراد أدوات الطبع (من ورق، وحبر وآلات طباعة، ومواد تغليف او تجليد، الخ)، حتى كاد النشر ينحصر في دور حكومية (الدار القومية، الهيئة العامة للكتاب، الخ) سيطر عليها الشيوعيون

سيطرة تامة، وحاولوا قصر النشر فيها على أنفسهم أو أذنابهم من الكتّاب والمؤلفين. وراموا أن يجعلوا من «اتحاد الكتاب» اداة لحصر النشر في أيدي الشيوعيين وأذنابهم، على غرار نظيره في الاتحاد السوفييتي. وراحوا يسْخرون من المؤلفين الأحرار قائلين: اكتبوا ما شئتم، لكنكم لن تجدوا مَن ينشر لكم!

وتحوّلت مصر كلها إلى سجن كبير لا يسمح بالخروج منه إلاّ للسجّانين.



لهذا كم كانت فرحتي عظيمة حين سمح لي بالخروج من هذا السجن الكبير، في يوم الأحد التاسع عشر من شهر فبراير سنة ١٩٦٧، كي أقوم بالقاء محاضرات طوال الفصل الدراسي الثاني من العام الدراسي ١٩٦٦/١٩٦٧ في جامعة باريس، تطبيقاً للاتفاق الثقافي الذي عقد في أواخر عام ١٩٦٦ بين فرنسا ومصر على اثر عودة العلاقات الدبلوماسية بينهما.

وصلت الطائرة في حوالى الخامسة من مساء ذلك اليوم - ١٩/ ٢/ ١٩٦٧ - إلى مطار لو بورجيه Le Bourget، وما ان أتممت اجراءات الدخول حتى استقللت الحافلة إلى محطة الأنفاليد Invalides مكان الوصول والذهاب للمسافرين بالطائرات والعائدين في قلب باريس. وسارعت بالذهاب إلى فندقي المعتاد، Lutetia (٤٣ - ٤٥ بولفار راسپاي Raspail في الحي السادس). وما ان وضعت حقيبتي في الغرفة التي أُعطيتها، حتى خرجت قاصداً حيّ سان جرمان دي پريه St. Germain Des Prés، لأبدأ به استئناف صلتي بباريس، بعد ان انقطعت عنها احد عشر عاماً ونصفاً (من ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٥ حتى ٩ فبراير سنة ١٩٦٧). فهالني ما شاهدت من تغيرات في مقاهي هذا الحي، وزوّاره: فبينما كان حتى سنة ١٩٥٥ كعبة لمَن يدعون الانتساب إلى الوجودية - والوجودية منهم براء تماماً إنّما هو «البدع» Mode الصبياني المعهود دائماً في باريس - صار الحيّ خاوياً من كل عرش، وصار روّاد المقهيين الرئيسيين: مقهى Les Deux Magots ومقهى Café De Flore من الناس العاديين، وغالبيتهم من ذوي السنّ الناضجة او المتقدمة. أمّا الأماكن الأخرى «الشيطانية» التي تكاثرت في شارع سان بنوا St. Benoit وميدان سان جرمان دي پريه وشارع الدير l'Abbaye، وأوائل شارع رن Rennes - فقد اختفت كلها ولم يعد لها أي أثر، وصارت مكانها مطاعم او محلات أزياء. والسَّهَر الذي كان يمتد حتى الفجر، صار ينتهي في الحادية عشرة. والشوارع المحيطة الغاصّة بالشباب من كل لون وزيّ، صارت شبه خاوية إلاّ من بعض باعة

الهوى من الجنسين. والناشئة في الفن والأدب، الذين كانوا يزعمون ان مهبط الوحي هو في هذا الحيّ قد تفرّقوا أباديد، ولا تسمع لأحد منهم ركزاً.

لهذا عدت أدراجي إلى الفندق حوالى الساعة العاشرة مساء، وأنا أتوجس ان أواجه تغييرات كثيرة.

محاضراتي في السوربون وفي معهد الدراسات الاسلامية

وكان عليّ في صباح الغد، الاثنين، ان أتوجه إلى «معهد الدراسات الاسلامية» بوصفه هو مع قسم الفلسفة بالسوربون صاحب الدعوة. وكنت أعلم قبل ذلك انه في رقم ٤ بشارع «الفرن» Rue De Four، الواقع على امتداد شارع السڤر Sèvres الذي يُشرف عليه جانب من فندق لوتسيا، فمشيت إليه في التاسعة والنصف. وصعدت إلى الطابق الأول حيث كان مقرّه، فأخبروني أنه انتقل إلى المبنى الجديد لجامعة باريس، القائم في شارع سنسييه Censier بالحي الخامس، المتفرع من شارع مونج Monge. فركبت «المترو» من محطة الأوديون Odéon إلى محطة الكردينال لوموان Le Moine. ومضيت إلى مبنى الجامعة الجديد في شارع سنسييه (وسيسمّى فيما بعد باسم: جامعة باريس رقم ٣) وصعدت إلى حيث يوجد «معهد الدراسات الاسلامية»، وكان يديره آنذاك الأستاذ روبير برونشفك Robert Brunchvig، فاستقبلني هو والاستاذ شارل پلا Charles Pellat.

وكانت هناك بعض اجراءات ادارية لم تكن قد انجزت بعد. فشرع الأستاذ برونشفك في إنجازها، وطلب منّي الانتظار يومين فيهما يكون قد أتمّها مع إدارة الجامعة. وعدت بعد يومين وكانت ادارة الجامعة قد تولت الأمر. وبالاتصال مع الأستاذ موريس دي جانديلاك Maurice De Jandillac (وُلد سنة ١٩٠٦)، أستاذ تاريخ الفلسفة في العصور الوسطى، تمَّ الاتفاق على ان تكون محاضراتي كما يلي:

يوم الثلاثاء من ٣ إلى ٥ بعد الظهر: في معهد الدراسات الاسلامية.

يوم الخميس من ٣ إلى ٥ بعد الظهر: في قسم الفلسفة بالسوربون.

على أن أبدأ إلقاء المحاضرات في يوم الثلاثاء ٧ مارس، وان تكون مخصّصة لطلاب الدكتوراه.

وكنت ألقي المحاضرة الثانية في يوم الثلاثاء (من الساعة ٤ إلى ٥) بدلاً من

الأستاذ برونشفك؛ وأمّا يوم الخميس فقد كانت المحاضرة فيه متصلة طوال ساعتين، أحلّ فيهما محل الأستاذ جاندياك.

وكان الحاضرون في محاضرات مركز Censier يختلفون اختلافاً تاماً عن الحاضرين في محاضرات السوربون: الأولون كانوا من تخصصات عربية واسلامية متباينة الموضوعات، وغالبيتهم، أعني ٩٠٪ منهم من مواطني البلاد العربية، والشمال الأفريقي بخاصة. أمّا الحاضرون في السوربون فكانوا جميعاً من المتخصصين في فلسفة العصور الوسطى: الأوروبية والاسلامية، وبعضهم من شيوخ المتخصصين في هذه الفلسفة، مثل الأب ماري دومينيك شنّي Marie Dominique Chenu (ولد سنة ١٨٩٥) رئيس «الجمعية التوماوية» ومن المتخصّصين البارزين في القرن الثاني عشر والثالث عشر في تاريخ الفلسفة في العصور الوسطى الأوروبية، ومثل پيير تييه Pierre Thiellet (ولد سنة ١٩١٨) الذي صار استاذاً للفلسفة الاسلامية في السوربون فيما بعد. ولهذا كان مستوى المناقشة مستوى عالياً، وكانت المناقشة تستغرق الساعة الثانية من الساعتين وقد تمتد إلى أكثر من ذلك. اما في محاضرات مركز Censier فلم تتلها مناقشات تستحق الذكر، وإن وجدت فقد كانت على مستوى أوّلي غالباً.

والمحاضرات في كلا المكانين هي التي نشرتها في كتابي: «انتقال الفلسفة اليونانية إلى العالم العربي» La Transmission de la Philosophie Grecgue au monde Arabe (سنة ١٩٦٨، عند الناشر Vrin). وقد صدرت منه طبعة ثانية مزيدة بفصل وبإضافات عديدة في مواضع متفرقة تجديداً لبعض المعلومات أو إشارة إلى ما جدَّ من أبحاث ومنشورات منذ الطبعة الأولى، وظهرت هذه الطبعة الثانية في مارس سنة ١٩٨٧.

وكم كنت أود أن يحضر هذه المحاضرات المتخصصون في الفلسفة اليونانية، لأنّهم مع الأسف الشديد في جهل تام بالنتائج العظيمة التي تأدى إليها البحث والكشف عن الترجمات العربية لنصوص الفلسفة اليونانية: فكثير من هذه النصوص قد ضاع أصله اليوناني، ولم يبق لنا إلاّ في ترجمة عربية، ثم ان الترجمات العربية لمؤلفات ارسطو خصوصاً قد تمت على أساس مخطوطات أقدم مما لدى الناس في أوروبا من مخطوطات يونانية، ولهذه الواقعة أهميتها في تحقيق النص اليوناني لمؤلفات أرسطو. والمشتغلون بالفلسفة اليونانية في سائر بلاد أوروبا لا يعرفون اللغة العربية. وإذن حتى لو علموا بهذه

الحقيقة فإنَّهم سيبقون أمامها عاجزين، لأنَّهم لن يستطيعوا القيام بمقارنة النص اليوناني بالترجمة العربية. وإذا كان الأصل اليوناني مفقوداً، فلن يفيدوا من الترجمة العربية إلاَّ إذا ترجمت إلى لغة أوروبية حديثة. وهذا ما سعيت إلى الوفاء به، حين ترجمت في القسم الأخير من كتابي هذا: (١) الحجة الأولى من حجج برقلس لإثبات قِدَم العالم، إذ هي مفقودة في اليونانية، ثم (٢) احدى عشرة رسالة للاسكندر الافروديسي ضاع أصلها اليوناني ولم تبق إلاَّ في ترجمة عربية كنت قد نشرتها في سنة ١٩٤٧ ضمن كتابي: «أرسطو عند العرب» (ط ١ القاهرة سنة ١٩٤٧). ثم عثرت بعد ذلك على رسائل أخرى للاسكندر وغيره من المفسّرين لأرسطو فُقِدَ اصلها اليوناني، ونشرتها في سنة ١٩٧١ في مجلد بعنوان: «شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية» (بيروت سنة ١٩٧١)، لكني لم أترجمها بعد إلى اللغة الفرنسية او إحدى اللغات الأوروبية الحديثة. صحيح ان المقارنة بين النصوص اليونانية الباقية وبين ترجمتها العربية الموجودة لدينا قد لا تقدم نتائج كبيرة أو حاسمة في ميدان تحقيق النص لأنَّ اليونانية والعربية لغتان مختلفتان في النظم والتراكيب، لكن ثمَّ فوائد كبيرة حين يكون المعنى في النص اليوناني مختلفاً ولا سبيل الى إصلاحه بحسب الرسم الكتابي. أمَّا الجانب الآخر، وهو النصوص المفقودة في اليونانية، فالأمر في أهميتها البالغة لا يحتاج إلى فصل بيان ومن العبث غير المقبول اطلاقاً ان تجد مؤرخاً لفلسفة الاسكندر الافروديسي، أو برقلس، او ثامسطيوس او أولفيادورس ـ يكتب عن هؤلاء دون ان يعرف ما اكتشف لهم من نصوص مفقودة في ترجمة عربية. ومن الأسف البالغ ان هذه هي حال كل المؤرخين الأوروبيين الذين يكتبون الآن عن هؤلاء الشرّاح!! شيئاً من الخجل إذن، أيُّها المغرورون الجهلاء الأدعياء!

ثورة في التعليم العالي

وكان التعليم العالي في فرنسا يشهد آنذاك ثورة في النظم التي كان يقوم عليها، تولَّى كِبْرَها كرستيان فوشيه Christian Foucher الذي كان وزيراً للتعليم من ديسمبر سنة ١٩٦٢ إلى ابريل سنة ١٩٦٧. فأصدر مراسيم بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٩٦٦ عدّلت تماماً تنظيم الدراسات الجامعية في الآداب والعلوم على السواء. إذ بمقتضاها تقرّر تقسيم الدراسة إلى مرحلتين متواليتين، مدة كل واحدة منهما عامان. والمرحلة الأولى تجزى بدبلوم جامعية في الدراسات الأدبية (تسمى

اختصاراً Duel) او الدراسات العلمية (تسمى اختصاراً Dues). أمّا المرحلة الثانية ـ وتتلو الأولى مباشرة ـ فالسنة الأولى منها تؤدّي إلى الحصول على الليسانس، وتؤهل للتدريس، والسنة الثانية منها تؤدّي للحصول على الماجستير Maîtrise وتؤهل للبحث.

وكان قد سبق ذلك تعديل في نظام الدكتوراه، بموجبه أنشىء ما سمّي بدكتوراه المرحلة الثالثة Doctorat de 3ᵉ cycle، وتعادل الدكتوراهات الممنوحة من الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، وصدر القرار بإنشائها في ٢٠/٧/١٩٥٤ و١٠/٤/١٩٥٨. وهذه الدكتوراه في مرتبة وسطى بين دبلوم الدراسات العليا، وين دكتوراه الدولة. وتختلف اختلافاً تاماً عن دكتوراه الجامعة.

وكانت المرحلة الأولى تتفرع إلى تسعة أقسام في الآداب والعلوم الانسانية، ولكل قسم مواد محدّدة يجب على الطالب تحصيلها اذا أراد الحصول على الدبلوم الجامعية في الدراسات الأدبية Duel. وبسبب هذا التحديد الدقيق للمواد، جاء مرسوم ٢٧/٢/١٩٧٣ فعدّل الـ Duel والـ Dues إلى الـ Deug: أي: «دبلوم الدراسات الجامعية العامة»، وبمقتضاه صار في وسع الطالب أن يختار مواد من أقسام مختلفة، على غرار نظام المقررات المتبع في الجامعات الأمريكية، وهو نظام يقلل من التخصص ويفتح على فروع متباينة جداً.

وكان من أسباب هذه التغييرات الجذرية تضخم عدد الطلاب في التعليم العالي على نحو رهيب: لقد كان عددهم في سنة ١٩٤٥ هو ١٢٣,٠٠٠ طالب، فصار في سنة ١٩٦٠: ٢١٣,١٠٠؛ وفي سنة ١٩٦٧: ٤٥٨,٤٠٠؛ وسيصير في سنة ١٩٧٧: ٨٢١,٠٠٠. وتزايدت نسبة عدد الطلاب في كليات الآداب على نحو خطير: فقد كانت نسبتهم إلى مجموع الطلاب في التعليم العالي في العام الدراسي ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ هو ٢٣,٣٪ فصار في عام ١٩٦٧/١٩٦٨ هو ٣٤,٣٪! وفي الوقت نفسه زاد عدد أعضاء هيئة التدريس في الجامعات: فبعد ان كان في سنة ١٩٣٠ هو ١٦٦٨، صار في سنة ١٩٥١/١٩٥٢ هو ٥٧٩٩، وفي سنة ١٩٦٠/١٩٦١ هو ٧٩٠١، وفي سنة ١٩٦٦/١٩٦٧ هو ٢٠,٩٦٤.

ثورة في أخلاق الطلاب

وواكب هذه الثورة في التعليم تمرد اجتماعي بين الطلاب والطالبات. وكانت زيادة عدد هؤلاء في المدن الجامعية من أسباب هذا التمرّد. فقد كان عددهم في المدن الجامعية، أي في المساكن التي توفرها الجامعات للطلبة والطالبات، قد ازداد من ٧٠٠٠ تقريباً في سنة ١٩٥٨ إلى نحو ١٨,٠٠٠ في سنة ١٩٦٢ ، وإلى ٦٦,٠٠٠ في سنة ١٩٦٧. وكان ممنوعاً على الطلاب الذكور زيارة الطالبات الإناث في غرفهن، والعكس بالعكس. فأدّى هذا المنع إلى حرمان الجنسين من الاستمتاع الجنسي «الغليظ»؛ الذي كان الهمّ الشاغل الأكبر لهؤلاء الشباب والفتيات. وبنوع من النفاق المألوف عند الناس لتبرير شهواتهم، اعتبر الطلاب والطالبات هذا المنع: حجراً على الحرية، وامتهاناً لكرامتهم بدعوى ان هذه المعاملة تنطوي على اعتبارهم قصّراً غير مسئولين!! وتمادوا في هذا الزعم وجعلوا منه نظرية قائلين إنَّ الحياة الشخصية الخاصة هي أمر خاص بالفرد وحده وليس لأية سلطة ان تحد من هذا الحق. لقد تحرروا من سلطان الأب، ولا يريدون أن يذعنوا لسلطان الدولة. وعبروا عن هذه المزاعم بالرطانة المألوفة عند أصحاب التحليل النفسي: الكبت، عقدة أوديب، التحويل Transfert، التنفيس Défoulement إلى آخر هذه المخاريق التي هي البضاعة المزجاة لرجال التحليل النفسي.

فطالب الطلاب ـ والطالبات! ـ بإلغاء هذا المنع، وبالسماح لكلا الطرفين بزيارة الطرف الآخر في غرفته والاختلاء به كما يشاء ودون اية رقابة أو قيد. واندلعت الأحداث الأولى لهذا التمرد في خريف سنة ١٩٦٥ في المدينة الجامعية القائمة في ضاحية انتوني Antony جنوب باريس.

وأذعن مدير المدينة الجامعية في انتوني فسمح بتبادل «الزيارات» بين الطالبات والطلاب بشرط موافقة آبائهم؛ وفعلاً ـ وتحت التهديد في معظم الأحيان ـ وافق الآباء على إجراء هذه «الزيارات» المتبادلة!

لكن الأمر لم يتم بهذه السهولة في جامعة نانتر Nanterre: فلم تسمح الإدارة بزيارة الطلاب للطالبات في مساكنهن، والعكس. فلجأ الطلاب إلى العنف، فقام ١٥٠ منهم باحتلال بيت الطالبات في ٢١ مارس سنة ١٩٦٧، فلجأت الإدارة إلى الشرطة، فقامت هذه بإخلائهم بالقوة. وكما يحدث دائماً في حركات العنف في فرنسا، كان على رأس المثيرين للفتنة يهودي يدعى دانييل كون ـ بندت Daniel

Cohn - Bendit، الطالب في قسم الاجتماع. ومن الجدير بالذكر انه لما جاء وزير الشباب، ميسوف F. Missoffe لإفتتاح حوض سباحة في المدينة الجامعية في نانتر، صاح هذا الطالب في وجه الوزير قائلاً: لماذا لم تذكر شيئا عن مشاكل الشباب الجنسية في الكتاب الأبيض الذي أصدرته؟ فرد الوزير ميسوف قائلاً: «إذا كانت عندك مشاكل جنسية، فاغطس في هذا الحوض».

وفي داخل التنظيمات الطلابية نفسها كان الصراع عنيفاً بين الزعماء وبين القاعدة الطلابية، فضلاً عن التنافس الشديد بين التنظيمات بعضها وبعض. ففي منظمة «شبيبة الطلاب الكاثوليك» J.E.C حدث نزاع بين قادتها وبين المراتب الكاثوليكية أدّى إلى استقالة هؤلاء القادة. ومثل هذا حدث بين اتحاد الطلاب الشيوعيين U.E.C وبين الحزب الشيوعي الفرنسي، وأدّى ذلك إلى حلّ فروع هذا الاتحاد. هنالك أسّس المعارضون منظمة جديدة باسم «الشبيبة الشيوعية الثورية» J.C.R، وكانت ميولها تروتسكية؛ وذلك في عام ١٩٦٦.

وازداد اليساريون تطرفاً وطالبوا بتغيير جذري لكل الأنظمة، كائنة ما كانت، لأنهم رأوها تؤدِّي إلى الشلل، وتعيق الحرية الفردية، كما انها عقيمة لا تنتج شيئاً يذكر. وانتظمت هذه الدعوة الهدامة لكل نظام على شكل حركة سميت باسم: «الدولية الموقفية» l'Internationale Situationiste، واستولت على اتحاد الطلبة في جامعة استراسبورج سنة ١٩٦٦، وكان برنامجها هو: تدمير الجامعة وتدمير كل النظم القائمة واستلهمت خصوصاً تشي جيفارا Che Guevara وفيدل كاسترو Castro.

❀ ❀ ❀

كان الجو الجامعي في فرنسا إذن في النصف الأول من عام سنة ١٩٦٧ مشحوناً بعوامل الانفجار، لكنها آنذاك كانت تعمل في داخل النفوس، دون ان تنطلق اثرها على السطح:

- فالنظام الذي وضعه كرستيان فوشيه لن يطبق إلاّ مع العام الجامعي المقبل ١٩٦٧ - ١٩٦٨. ومع ذلك فالطلاب حائرون فيما عسى أن يجرّ على أوضاعهم هذا النظام الجديد. والأساتذة لا يعلمون كيف يطبقون هذا النظام.

- والتمرّد «الجنسي» بين الطلاب والطالبات عولج بمسكّنات وقتية، خفّفت من حدة المشكلة وحصرتها في نطاق ضيّق، إذ كان لا يزال هناك بقية من الحياء تحول دون اطلاق العنان إلى غير حد.

وبالجملة كانت هذه الفترة (النصف الأول من سنة ١٩٦٧) في جامعة باريس فترة ترقُّب وتربُّص، وقلق وحيرة؛ مع بقاء الجدّ في الامتحان والتحصيل، حتى إن لجنة الأجريجاسيون في التاريخ وفي الجغرافيا في سنة ١٩٦٧ لم تنجّح إلاّ ٤٥ مرشحاً، على الرغم من ان الأماكن المعروضة كانت ٦٥.

أمّا الطلبة العرب ـ ومنهم كان جُلّ طلابي في «معهد الدراسات الاسلامية» في فرع سانسييه Censier بجامعة باريس ـ فقد كان شاغلهم الشاغل ـ من الناحية العلمية ـ الحصول على الدكتوراه بأقل مجهود وأيسر طريق، طال هذا الطريق (إن كان من مبعوثي الحكومات) أو قصر (إن كان على حساب أهلهم). ولهذا كانوا لا يختارون إلاّ موضوعات عربية أو اسلامية، ويسعون ان يكون المشرف عليهم أبعد ما يكون في اختصاصه عن الموضوع الذي يختارونه، حتى يكون التعامل معه شكلياً ادارياً محضاً. ويسّر لهم هذا السلوك قلة عدد الأساتذة المتخصصين في الدراسات العربية والاسلامية، سواء انتسبوا الى كلية الآداب او «المدرسة العملية للدراسات العليا» او الكوليج دي فرانس، إذ كان مسموحاً لأساتذة هذين المعهدين بالاشراف على رسائل الدكتوراه، او الى معهد الدراسات الاسلامية. فلم يكن بينهم آنذاك أستاذ واحد مختص في الفلسفة الاسلامية، ومع ذلك كان ثم عدد غير قليل من هؤلاء الطلاب يحضرون رسائل في الفلسفة الاسلامية. ومن هنا كانت هذه الظاهرة الشاذة الفاضحة، والتي استفحلت في السنوات التالية حتى اليوم إلى أبشع درجة، وأعني بها ان يشرف استاذ على ثلاثين او أربعين رسالة في: الفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، والفقه، والأدب، والنحو، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، والعلوم الدقيقة (الرياضيات) وعلوم الحياة (الطب، البيولوجيا، الخ)، الخ الخ ـ في وقت واحد معاً!! بدعوى انها تتعلق بهذه العلوم عند العرب والمسلمين، وهو يعرف العربية، اذن هو يعرف كل شيء كتب بها، أيًّا كان العلم الذي يندرج تحته. لهذا كانت رسائل الدكتوراه في ميدان الدراسات العربية والاسلامية ذات مستوى منحط جداً.

وإلى جانب هذا السبب، وهو الافتقار إلى الأساتذة المختصين في مختلف فروع الدراسات العربية والاسلامية، هناك سبب آخر أشد نكراً وهو: التساهل الشائن مع الأجانب. وتسأل هؤلاء الأساتذة: لماذا تتساهلون كل هذا التساهل المخزي مع الطلاب الأجانب، بينما أنتم جادون مع الطلبة الفرنسيين ـ فيجيبون، إن صارحوك، بأنَّ لهذا التساهل دوافع عديدة: منها انه لا يهمهم مستوى الأجانب، لأنَّهم لن يعملوا في فرنسا بل في بلادهم، فالضرر لن يلحق بأبناء

فرنسا؛ ومنها ان ثم اعتبارات سياسية تحمل على تشجيع ابناء المستعمرات الفرنسية السابقة او بلاد العالم الثالث او حتى البلاد المتقدمة، كي يتعلقوا بالثقافة الفرنسية ويبثوها ويدافعوا عنها في بلادهم؛ ومنها أيضاً الالحاح واستجداء العطف بأساليب مختلفة، مما يحمل الأساتذة على التخلّص منهم بأي ثمن.

وللتدليل على هذا التساهل المخزي، والاستخفاف الاجرامي من جانب الأساتذة في الجامعات الفرنسية مع المثقفين للحصول على الدكتوراه ـ يكفي ان نسوق اليك بياناً برسائل الدكتوراه التي تقدّم بها الفرنسيون في ميدان الدراسات العربية، وبالرسائل التي تقدَّم بها بعض الحاصلين على دكتوراه الدولة من البلاد العربية:

ماسينيون: «عذاب الحلاج» حكمت هاشم:

بلاشير: «المتنبي» محيي الدين صابر: «ابن الرومي».

برونشفيك: «تونس في عهد الحفصيين» محمد طالبي: «دولة الأغالبة في تونس».

كلود كاهان: أحمد دراج: «السلطان برسباي».

شارلي بلاّ: «الجاحظ ومحيط البصرة» هشام جعيط: «الكوفة».

نكيتا اليسيف: «السلطان نور الدين زنكي».

جاك برك:

هنري لاووست: «ابن تيمية».

فلو قارنت بين رسالة الفرنسي ورسالة العربي لتبينت في الحال الفارق بين الثريا والثرى، بين السماء والأرض، بين الأصالة العميقة وبين السطحية التافهة.

والأمر نفسه تجده حين تقارن بين رسائل الفرنسيين ورسائل العرب (أو الأجانب) في ميدان الدراسات الأوروبية في أي فرع كان من فروع العلوم الانسانية. والأمر أوضح ها هنا من ان يعوز إلى ذكر أسماء أصحاب الرسائل وعنواناتها.

ومناقشة رسائل الدكتوراه هي الأخرى مهزلة وفضيحة: ففضلاً عن عدم وجود العدد الكافي من المختصين، ويجب أن يكونوا خمسة (وقد صاروا الآن أربعة)، تجد ان ثلاثة منهم على الأقل لا يعلمون شيئاً عن موضوع الرسالة، بل ربما سمعوا به لأول مرة في حياتهم! لهذا تأتي مناقشاتهم ـ ان صحَّ هذا التعبير هنا

ـ مجرد ملاحظات شكلية: املائية، او لفظية أو تتعلق بترتيب الصفحات والتعليقات! وينكشف للمشاهد في الحال ان معظمهم لم يقرأوا من الرسالة إلاَّ المقدمة وصفحة هنا وصفحة هناك، وربما أسماء المراجع!

وتبلغ الوقاحة وانعدام الضمير ذروتهما حين يعترف «المشرف» على الرسالة بأنَّه لم يقرأ منها إلاَّ نصفها أو فصولاً منها! وأذكر أنَّني حضرت مناقشة رسالة دكتوراه دولة، فاعترف «المشرف» بصريح العبارة انه لم يقرأ منها إلاَّ نصفها. وعقب انتهاء المناقشة التقى بي أستاذ كبير في السوربون حضر المناقشة، فسألني عن رأيي فيها. فقلت له: كيف يجرؤ «المشرف» على ان يعترف بأنه لم يقرأ من الرسالة إلاَّ نصفها؟ أليس هذا منتهى الاستهتار؟ فابتسم وقال: «وهل تعتقد أنه قرأ هذا النصف الذي ادَّعى انه قرأه؟! هيهات! هيهات!»

وهذا «المشرف» نفسه، وهو أستاذ في السوربون (باريس رقم ٤) قال لي ذات مرة متباهياً مزهوّاً: هل تعلم انني سأشترك في مناقشة خمس عشرة رسالة في الفترة ما بين ٢٠ مايو و٧ يوليو؟

فبالله عليك أي مناقشة هذه تلك التي سيشترك فيها شخص كهذا؟!

وحضرت مناقشة رسالة في موضوع: «المذهب الاسماعيلي». فقال رئيس لجنة المناقشة: اني لا أعرف شيئاً دقيقاً في موضوع الرسالة، لكني سأقول رأيي فيها بوصفه رأي شخص فرنسي من أوسط الناس Comme un Français moyen». فقلت في نفسي: وهل للفرنسي المتوسط رأي في المذهب الاسماعيلي؟! يا لقيمة العبث!

ولقد كان من شروط تقديم رسائل الدكتوراه قبل الحرب العالمية الثانية ان تكون مطبوعة؛ وحسناً فعلوا حين ألغوا هذا الشرط بعد الحرب، حتى تبقى هذه الرسائل التافهة في طيّ الكتمان والنسيان بعد ان وصل مستواها إلى ذلك المستوى القابع في قاع الهبوط.

وسيتواصل هذا الانحدار عاماً بعد عام، خصوصاً ابتداء من سنة ١٩٧٠ لما ان آثر عدد من الأساتذة الاستقالة قبل بلوغ سن التقاعد، بسبب الفوضى التي عمَّت الحياة الجامعية في فرنسا في اثر ثورة مايو سنة ١٩٦٨ وصدور قانون «توجيه التعليم العالي» في ١٠ اكتوبر سنة ١٩٦٨. وسنعود إلى هذين الأمرين في حينهما.

الحالة السياسية في فرنسا

كان الجنرال شارل ديجول، Charles De Gaulle رئيساً للجمهورية منذ ٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٨ وكان جورج پومبيدو Georges Pompidou رئيساً للوزراء منذ ١٤ ابريل سنة ١٩٦٢. لكن مكانة ديجول كانت قد تزعزعت، بدليل انه في الانتخابات التالية لرئاسة الجمهورية، بعد انقضاء فترة رئاسته الأولى، لم ينجح في الدورة الأولى التي عقدت في ٥ ديسمبر سنة ١٩٦٥ وانما كانت النتائج كالتالي: دي جول ٤٣,٧١% (أو ٣٦,٧٨ من المقيدين في جداول الانتخاب)؛ ميتران Mitterand ٣٢,٢٣/ (أو ٢٧,١٢% من المقيدين)؛ جان لوكانويه Lecanuet ١٥,٨٥% (أو ١٣,٣٤% من المقيدين)؛ و تكسييه ڤينانكور Tixier - Vignancour ٥,٢٧%؛ ومارسلهاسي Marcilhacy ١,٧٣%؛ وباربو Barbu ١,١٦%؛ لكن، بعد قليل من التردّد، قرّر الدخول في الدورة الثانية، فانتخب رئيساً للجمهورية بنسبة ٥٤,٥% من الأصوات المنقولة (٤٤,٧٩% من المقيدين؛ بينما حصل فرانسوا ميتران على ٤٥,٤٩% (٣٧,٣٩% من المقيدين).

وفي داخل حكومة پومبيدو كان الشقاق والتنافس ظاهراً بين الديجوليين، والمستقلين بزعامة ڤاليري جيسكار ديستان Valéry Giscard d'Estaing الذي كان وزيراً للمالية. وانتقد ڤاليري جيسكار ديستان بعض جوانب من سياسة ديجول، وكان يعبر عن نقده، بأن يبدأ بلفظين هما: «نعم، ولكن...» Oui, Mais. فصارت هاتان الكلمتان شعاراً لنقده. وقد ردَّ عليه ديجول في جلسة لمجلس الوزراء برئاسته قائلا: «لا يمكن الحكم عن طريق «لكن»...» «On ne gouverne pas avec des mais...».

وقد تحدّد يوم ٥ مارس سنة ١٩٦٧ لاجراء الانتخابات لمجلس النواب. لهذا كان الجو السياسي، حين وصلت إلى باريس في ١٩ فبراير سنة ١٩٦٧، مشحوناً بالاستعدادات والمساجلات الخاصة بهذه الانتخابات.

وجرت الانتخابات في ٥ مارس للدورة الأولى، وفي ١٢ مارس للدورة الثانية:

في الدورة الأولى كانت النتائج كما يلي:

الديجوليون والمستقلون وحلفاؤهم: ٣٧,٧٥% من الأصوات.

الشيوعيون ٢٢,٤٦% من الأصوات.

اتحاد اليسار الديمقراطي الاشتراكي F.G.D.S ١٨,٧٩% من الأصوات.

الوسط الديمقراطي (لوكانويه) ١٢,٧٩% من الأصوات.

الحزب الاشتراكي المتحد وأقصى اليسار ٢,٢٦% من الأصوات.

التحالف الجمهوري (تكسييه) وأقصى اليمين ٠,٨٧ من الأصوات.

اتجاهات مختلفة، ٥,٠٨% من الأصوات.

وفي الدورة الثانية كانت النتائج كما يلي:

الديجوليون ٤٢,٩٩% من الأصوات و٢٤٤ نائباً (ـ ٣٨ عن المجلس النيابي السابق).

اتحاد اليسار الديمقراطي والاشتراكي ٢٤,٠١% و١١٦ نائباً (+ ٢٥).

الشيوعيون ٢١,٥٥% و٧٥ نائباً (+ ٣٢).

الوسط الديمقراطي ٨,٨٦% و٢٧ نائباً (ـ ١٤).

الحزب الاشتراكي المتحد ٤ نواب (+ ٣).

اتجاهات مختلفة يسارية ٥ نواب.

اتجاهات مختلفة من المعتدلين ١٥ نائباً.

وهكذا حصل الديجوليون وأحلافهم على ٢٤٤ مقعداً ـ منها ١٢ من بلاد ما وراء البحار ـ من مجموع ٤٨٦، أي بأغلبية مقعد واحد فقط: وصارت «الأغلبية» لا تمثل إلاّ ٣٤% من مجموع الناخبين المقيدين في جداول الانتخاب. وسقط في الانتخابات أربعة وزراء هم: كوف دي ميرفيل Couve de Murville، ومسمير Messmer، وسانجنتي Sanguinetti، وشاربونل Charbonnel! هذا بينما كان للأغلبية في المجلس السابق ٢٧٠ مقعداً من مجموع المقاعد البالغ عددها ٤٨٢ مقعداً؛ أي بأغلبية ٢٩ مقعداً. وبينما كان للمستقلين بزعامة جيسكار ديستان ٢٠ مقعداً، صار لهم في المجلس الجديد ٧٣ مقعداً، وبذلك صار لهم نفوذ كبير في «الأغلبية» الجديدة.

وبعد اعلان النتائج النهائية لهذه الانتخابات، شكّل جورج پومبيدو، رئيس الوزراء السابق، الوزارة الجديدة في ٨ ابريل سنة ١٩٦٧. وكان ديجول يفكّر، قبل الانتخابات، في اسناد رئاسة الوزارة إلى كوف دي ميرڤيل، لكن هذا سقط في الانتخابات، فاضطر ديجول إلى ابقاء پومبيدو في رئاسة الوزارة.

ونظراً إلى ان الأغلبية الجديدة هي بصوت واحد فقط، فقد واجهت حكومة پومبيدو الرابعة هذه مشاكل عنيفة وعديدة في البرلمان، لم تشهد الجمهورية

الخامسة نظيراً لها من قبل. وفي وزارته الجديدة هذه أحدثت بعض التغييرات. فدخل وزراء جدد هم: ادمون ميشليه (الوظيفة العامة)، موريس شومان (البحث العلمي)، أوليفيه جيشار (الصناعة)، جان شامان Chamane (النقل)، هنري دوڤيار Duvillard (المحاربون القدماء)، ايڤ جيبيا Gueua (البريد والبرق والهاتف)، جورج جورس Gorse (الاعلام). كما بدّل بعض الوزراء مناصبهم، ومنهم وزير التربية: فصار ألان پيرفيت Alain Peyrefitte وزيراً للتربية الوطنية من ٧ ابريل سنة ١٩٦٧ حتى ٢٨ مايو سنة ١٩٦٨، وكان في وزارة پومبيدو السابقة (الثالثة) وزيراً مندوباً مكلفاً بالبحث العلمي والشؤون الذريَّة والفضائية. وهو كاتب ذو مؤلفات رائجة، منها: «حينما ستستيقظ الصين» (سنة ١٩٧٣)، و«الداء الفرنسي» (سنة ١٩٧٧)، ولهذا انتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية في سنة ١٩٧٧. ويعدّ من «بارونات» الحركة الديجولية ولهذا طمع في ان يكون رئيساً للحزب الديجولي: «التجمع من أجل الجمهورية» R.P.R، لكن شيراك Chirac هو الذي اختير رئيساً لهذا الحزب، مما جعله يحمل موجدة لهذا «الديجولي الجديد» (شيراك).

ويلاحظ على انتخابات مارس سنة ١٩٦٧ ما يلي:

١ ـ صعود الحزب الشيوعي: فبعد ان أخفق اخفاقاً شنيعاً في بداية الجمهورية الخامسة برز في هذه الانتخابات بروزاً واضحاً: ففي سنة ١٩٥٨ كان عدد الأصوات التي حصل عليها الحزب الشيوعي في الانتخابات هو ٣,٨٨٠,٠٠٠، فصار في انتخابات مارس سنة ١٩٦٧ هو ٥,٠٣٩,٠٠٠. وبعد ان كان ينظر اليه على انه الحزب المتورط مع «سفاحي بودابست» (في اكتوبر سنة ١٩٥٦)، صار ينظر إليه على انه مجرد حزب بين الأحزاب الفرنسية الأخرى: «حزب كأيّ حزب آخر». وفي استطلاع للرأي نشرته جريدة «اللوموند» Le Monde في ١٩ يناير سنة ١٩٦٧ تبيَّن ان ٤٠% من مَن استطلعت آراؤهم يحبذون ـ أو لا يعترضون على ـ وجود وزراء شيوعيين في الوزارة. ثم ان التقارب بين «اتحاد اليسار الديمقراطي الاشتراكي» F.G.D.S وبين الحزب الشيوعي أدّى إلى تقوية الشيوعيين؛ وإلى التفكير في وضع «برنامج مشترك لليسار». وهو ما سيتحقق فيما بعد في انتخابات سنة ١٩٨١ التي ستأتي بمتران رئيساً للجمهورية، وبوزراء شيوعيين في وزارة پيير موروا سنة ١٩٨١.

٢ ـ أمّا «اتحاد اليسار الديمقراطي والاشتراكي» فقد حصل على ٤,٢٠٧,١٦٦ صوتاً، وصار له ١٢١ نائباً. وكان الفضل في هذا النجاح في الدورة الثانية (كانت النسبة ١٨,٧٩% في الدورة الأولى، فصارت ٢٤% في الدورة الثانية) هو

للشيوعيين الذين تحالفوا معهم انتخابياً. لكنه كان تحالفاً انتخابياً فحسب. فإنّه لما عقد هذا الاتحاد F.G.D.S مؤتمراً في يوليو سنة ١٩٦٧ في ضاحية سيرن Sureynes، وجرى النقاش حول علاقته بالحزب الشيوعي، نصح جاستون ديفر Gaston Deferre بالتحوط والتريث، قائلاً: «لقد عقدنا تحالفاً انتخابياً، وكان مفيداً لنا. لكن بيننا وبين الشيوعيين اختلافات. ومن واجبنا ألاّ نعمي على هذه الخلافات، بل نسعى إلى حلّها... وإذا كان التحالف الانتخابي مفيداً، فإنه ليس كافياً. ولهذا ينبغي علينا ان نعثر على حل آخر هو ان نخلق تشكيلاً سياسياً كبيراً أقوى من سائر القوى السياسية. فإن استطعنا ايجاد هذه القوة السياسية الكبيرة، فسيكون في وسعنا ان نجتذب إلينا عدداً من المتردّدين الذين يمثلون ٣٠٪ من مجموع الناخبين، ويكفينا ان نحوّل ٥٪ من أصواتهم إلى صالحنا. وبهذا نستطيع ان نخلق قوة غالبة، وبفضلها ستتغير علاقاتنا مع الحزب الشيوعي وسائر التشكيلات. ان الوسيلة الوحيدة للتغلب على تناقضاتنا ولتأمين وصولنا إلى الحكم في الوقت الذي أخذت فيه الديجولية في الانهيار، هي ان نشيّد اتحاداً حقيقياً وان نسلك طريق الادماج بين فروعنا».

لكن اقتراح الاندماج بين فروع «اتحاد اليسار الديمقراطي والاشتراكي» هو الآخر لم يتحقق؛ بل اشتد الخلاف بينها بعضها وبعض. وانتهى الخلاف بأن تجمّع الحزب الاشتراكي التقليدي S.F.I.O مع «اتفاق المؤسسات الجمهورية» C.I.R، وألفوا فيما بينهم ما سُمّي «بالحزب الاشتراكي» Partisocialiste، وذلك في مؤتمر انعقد في ضاحية Issy - les Moulineaux في يوليو سنة ١٩٦٩. وشكّل مكتبه السياسي في ١٦ يونيو سنة ١٩٧١: فانتخب فرانسوا ميتران سكرتيراً أول، وپيير موروا Pierre Mauroy سكرتيراً قومياً للتنسيق، وجان پيير شڤنمان Jean - Pierre Chevènement سكرتيراً قومياً للبرنامج والبنى المتشاركة، الخ. وقد حدّد هذا الحزب أهدافه كما يلي:

١ ـ تغيير بنية المجتمع تغييراً أساسياً.

٢ ـ السعي للوصول إلى الحكم بطريق ديمقراطي، وذلك بتحالف اليسار مع كل مَن لا يقبلون استمرار المجتمع الرأسمالي.

٣ ـ الاهتمام بوضع تحليل وتوجيه جديدين للشئون العامة.

ومنذ ان تولّى فرانسوا ميتران زعامة هذا «الحزب الاشتراكي» P.S أخذ في العمل على التحالف مع الحزب الشيوعي. وانعقد هذا التحالف رسمياً في فجر يوم ٢٧ يونيو سنة ١٩٧٢ لما ان وقع زعماء الحزب الاشتراكي مع زعماء الحزب

الشيوعي الفرنسي ما سُمّي باسم: «البرنامج المشترك للحكم». وانضم إليهما فيما بعد الراديكاليون اليساريون.

ولما توفي پومبيدو فجأة في ٢ ابريل سنة ١٩٧٤ وخلا بذلك منصب رئيس الجمهورية، أُجريت انتخابات الرئاسة في مايو سنة ١٩٧٤، فاتفقت الأحزاب الثلاثة: الاشتراكي، والشيوعي، والراديكاليون اليساريون على تقديم مرشح واحد هو فرانسوا ميتران، ضد ڤاليري جيسكار ديستان، وحصل ميتران على ٤٩,٢% من الأصوات (١٢,٩٧١,٦٠٤) بينما حصل ڤاليري جيسكار ديستان على ٥٠,٨% (١٣,٣٩٦,٢٠٣ صوتاً) ففاز برئاسة الجمهورية بفارق ضئيل.

ومع ذلك ظلّ الاشتراكيون العريقون ينظرون إلى فرانسوا ميتران على انه «دخيل» على الاشتراكية، ونازعه الزعامة ميشيل روكار Michel Rocard الذي كان أميناً قومياً للحزب الاشتراكي المتحد P.S.V منذ سنة ١٩٦٧، وپيير موروا Pierre Mauroy الذي كان أميناً مساعداً للحزب الاشتراكي القديم S.F.I.O في سنة ١٩٦٦، وأميناً قومياً في سنة ١٩٧١.

والواقع ان ميتران تقلّب، خلال حياته السياسية الطويلة، بين مختلف الأحزاب والاتجاهات السياسية: ففي سنة ١٩٤٦ وهو في سن الثلاثين (وُلِد ميتران في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٦)، انتخب نائباً عن دائرة لانيفر La Nièvre بفضل اليمينيين وتوصية ادمون برشان Barrachin مؤسِّس «الحزب الجمهوري للحرية» وعضو اللجنة الادارية لحزب ديجول .R.P.F، وان كانت صفته الرسمية في البرلمان أنّه: مستقل؛ ثم صار وزيراً في حكومة رامادييه Ramadier (يناير ـ اكتوبر سنة ١٩٤٧) التي أخرجت الشيوعيين من الوزارة منذ ان كانوا مشاركين في الوزارات منذ سنة ١٩٤٥، أو في حكومة شومان (نوفمبر سنة ١٩٤٧ ـ يوليو سنة ١٩٤٨)؛ ووزير دولة في رئاسة مجلس الوزراء ومكلفاً بالاعلام (في وزارة اندريه ماري André Marie يوليو ـ سبتمبر سنة ١٩٤٨؛ ووزارة شومان في سبتمبر سنة ١٩٤٨؛ ووزارة كيّ Queuille سبتمبر ١٩٤٨ ـ اكتوبر سنة ١٩٤٩)؛ ووزيرا لفرنسا ما وراء البحار (وزارة پليڤن Plèven يوليو ١٩٥٠ ـ مارس ١٩٥١؛ ووزارة كيّ مارس ـ يوليو ١٩٥١)؛ ووزيراً للدولة (وزارة ادجار ڤور Faure ٢٠ يناير ـ ٢٩ فبراير سنة ١٩٥٢؛ ووزيراً منتدباً لمجلس أوروبا (وزارة لانييل Laniel ٢٩ يونيو ـ ٣ سبتمبر سنة ١٩٥٣)؛ ووزيراً للداخلية (وزارة مندس فرانس Mendes - France ١٩ يونيو سنة ١٩٥٤ ـ ٥ فبراير سنة ١٩٥٥)؛ ووزيراً للدولة مكلفاً بوزارة العدل (وزارة جي موليه Guy Mollet أول فبراير سنة ١٩٥٦ ـ ١١ يونيو سنة ١٩٥٧).

وكان مؤسِّساً ونائب رئيس لمنظمة معادية للشيوعيين تدعى: «اللجنة الفرنسية من أجل اوروبا حرة»، التي اشترك في تأسيسها سنة ١٩٥٢. وهو الذي أعلن في الجمعية الوطنية (مجلس النواب): «الجزائر هي فرنسا»، وكان من دعاة العفو عن جماعة «الجزائر فرنسية» التي ارتكبت أبشع الجرائم ضد استقلال الجزائر. وانضم الى «العصبة الدولية ضد معاداة السامية»، وهي مؤسسة يهودية مناصرة لليهود والصهاينة!

❀ ❀ ❀

ونعود إلى نتائج انتخابات مارس سنة ١٩٦٧؛ فنقول إنَّ عشية اجراء انتخاب رئيس للجمعية الوطنية (مجلس النواب) الجديد، انضم إلى الأغلبية عشرون نائباً، وذلك نتيجة لانقسام مجموعة «التقدم والديمقراطية الحديثة» إلى جماعتين كل واحدة منهما تساوي الأخرى تقريباً: احداهما تحت شعار «الوسط الديمقراطي»، والأخرى اتخذت علامات غير محددة. والأولى أيّدت الأغلبية، مما جعل الحكومة الجديدة التي ألّفها پومبيدو للمرة الرابعة تتمتع بأغلبية واحد وعشرين نائباً، بدلاً من نائب واحد كما أسفرت عن ذلك انتخابات ٥ و١٢ مارس سنة ١٩٦٧.

ولا جديد في وزارة پومبيدو الرابعة غير ميل قليل جداً إلى السياسة الاجتماعية، وذلك بدخول جورس Gorse وزيراً للإعلام، وقد كان قبل سنة ١٩٥٨ عضواً في الحزب الاشتراكي.

وقد طلبت الوزارة الجديدة من الجمعية الوطنية منحها سلطات خاصة، لإعداد الاقتصاد الفرنسي لمواجهة الانفتاح على السوق الأوروبية المشتركة. ونجحت الحكومة في الحصول على هذه السلطات الخاصة، بأن رفضت اقتراح المعارضة عدم الثقة بالحكومة، إذ لم يحصل هذا الاقتراح إلاَّ على ٢٣٦ صوتاً، وكان لا بد من ٢٤٤ صوتاً للأخذ به ـ هذا على الرغم من ان جلّ أعضاء مجموعة «التقدّم والديمقراطية الحديثة» قد صوّتوا لصالح اقتراح المعارضة هذا، أي ضد الحكومة، لكن الحكومة اعتبرت نفسها قد حصلت على أغلبية ٢٥١ صوتاً، هم الذين لم يوافقوا على اقتراح المعارضة.

لكن في داخل الوزارة نفسها كان ثَمَّ تنافس ـ أو صراع ـ بين «الجمهوريين المستقلين» بزعامة جسكار ديستان من ناحية، وبين الديجوليين من ناحية أخرى. لكن في مواجهة العدو المشترك: اليساريين بمختلف صفاتهم، ظلّوا جميعاً

متضامنين. كل ما هنالك ان «الجمهوريين المستقلين» مارسوا نوعاً من الاستقلال في الرأي في مجال التشريع.

❀ ❀ ❀

والنقّاد السياسيون حين يحاولون تفسير هذا الانتكاس غير المتوقع للديجوليين لا يقدمون غير تفسير غامض هو ان السلطة صارت مستهلكة l'usure du pouvoir. وهو تفسير سهل، وبالتالي لا يفسّر شيئاً. وهم يقصدون بذلك انه لما كانت السلطة الحاكمة لم تجد لديها جديداً تقدّمه للناس، وتغريهم به، فإنّها تفقد قوّتها وسرّ بقائها.

ومن رأينا نحن ان التفسير الأقرب إلى الحقيقة والواقع هو المزاج الفرنسي. فالفرنسي بطبعه متقلب المزاج، متغير الأهواء، لا يستطيع الصبر على حال واحدة مدة طويلة، لهذا ينشد التغيير، أيًّا كان هذا التغيير، ودون نظر إلى العواقب مهما كان من الميسور توقعها. لقد سيطر الديجوليين على الحكم منذ مايو سنة ١٩٥٨، أي صار لهم في الحكم قرابة ٩ سنوات، وهي فترة طويلة جداً بالنسبة الى مَن اعتادوا ان يروا تغير الوزارات كل ستة أشهر أو أقل من ذلك.

وإلى جانب هذا العنصر الجوهري في التقويم، تنضاف عناصر وقتية عارضية هي:

ـ انفراد ديجول بالسلطة المطلقة، التي صار يمارسها وحده، مما دفع انصاره «الجمهوريين المستقلين» يأخذون عليه: «الممارسة المتوحدة للسلطة» l'exercice solitaire du pouvoir.

ـ البطء في الاستجابة الى المطالب الاجتماعية للعمال وذوي الدخل القليل، في الوقت الذي تصاعد فيه الغلاء، وتناقصت فيه قيمة الفرنك الفرنسي.

ـ تزايد نفوذ التكنوقراطيين في ادارة الوزارات والشئون العامة للدولة، مما ولّد نوعاً من «التوجهية» dirigisime السياسية والاقتصادية والاجتماعية على نحوٍ ينتقص من الحرية والمبادرة الفردية.

ولعلاج هاتين النقطتين الأخيرتين طالب ديجول الوزارة الجديدة «بالعمل والتقدم إلى الأمام». وعبّر بومبيدو عن هذا الاتجاه في خطبة أمام الجمعية الوطنية التي قدّم إليها وزارته ـ بالعمل على مواجهة «الثورة الصناعية الجديدة» من ناحية، و«باشراك العاملين في تقدّم الاقتصاد» من ناحية أخرى.

أمّا النقطة الأولى فيلاحظ بالنسبة اليها:

ان دستور سنة ١٩٥٨ هو الذي كفل لرئيس الجمهورية سلطة مطلقة او شبه مطلقة. فصار من حقه:

- حل الجمعية الوطنية (مجلس النواب)؛
- اجراء الاستفتاء على ما يقترح عمله؛
- ممارسة السلطات الاستثنائية الممنوحة له بموجب المادة ١٦ من الدستور.

وتنص هذه المادة على ما يلي:

«إذا صارت نظم الجمهورية، واستقلال الأُمَّة، وسلامة أراضيها او تنفيذ التزاماتها الدولية - مهدّدة على نحو خطير ومباشر، وإذا توقّف العمل المنتظم للسلطات العامة الدستورية، يتخذ رئيس الجمهورية الاجراءات التي تقتضيها الظروف، بعد التشاور الرسمي مع رئيس الوزراء، ورئيسي المجلسين وكذلك مع المجلس الدستوري.

«وتبلغ الأُمَّة بذلك بتوجيه رسالة إليها.

«ويجب ان تستلهم هذه الاجراءات الارادة في ان تؤمّن للسلطات العامة الدستورية، في أقصر مدة، الوسائل الكفيلة بتنفيذ مهمتها. ويستشار المجلس الدستوري في هذا الشأن.

«ويجتمع البرلمان بموجب حقه المطلق في ذلك.

«ولا يجوز حل الجمعية الوطنية اثناء ممارسة السلطات المطلقة».

لكن على الرغم من الضمانات المنصوص عليها في هذه المادة، فإنَّ رئيس الجمهورية - شارل ديجول - في سنة ١٩٦١ أنكر على البرلمان الحق في مناقشة الأمور الخارجة عن المشاكل التي من أجلها أعمل المادة ١٦. كذلك قرّر رئيس الجمعية الوطنية أنَّه لا يجوز طرح قرار بعدم الثقة بالحكومة أثناء فترة سريان السلطات المطلقة. كما ان رئيس الوزراء رفض الاجابة عن أسئلة مكتوبة تتعلق بكيفية تطبيق هذه السلطات. وهذه التصرفات كلها لا تبررها المادة ١٦.

وقد استخدم ديجول المادة ١٦ هذه حين قام بعض الجنرالات في الجزائر بانقلاب عسكري في ٢١ ابريل سنة ١٩٦١، وهم: جوهو Jouhaux، وشال Challe، وزلّر Zeller، وصالان Salan، وفرضوا حالة الطوارىء، وأمروا بالقبض على كل الأشخاص الذين شاركوا في محاولة «التخلّي عن الجزائر والصحراء». وقاموا باحتجاز أحد الوزراء وكان آنذاك في مدينة الجزائر.

وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي استخدم فيها ديجول المادة ١٦. لكنه لم يستخدمها في مايو سنة ١٩٦٨، رغم ان الأوضاع في فرنسا كانت تسمح له بذلك. وهذا يدل على انه كان حكيماً في تصرفاته، لا يستخدم ما يسمح به القانون من سلطة مطلقة في بعض الظروف إلاَّ في أضيق الحدود: ودليل آخر على حكمته وبُعْده عن التعلق بالسلطة المطلقة، انه قد ألغى حالة الطوارىء هذه في ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦١، أي انها لم تستمر إلاَّ من ٢٣ ابريل حتى ٣٠ سبتمبر، أي خمسة أشهر وأسبوع فقط، بينما نجد نظائره في العالم الثالث يفرضونها عشرين عاماً او يزيد، ويستأنفها خلفاؤهم إلى غير نهاية منظورة!! فما أكبر الفارق بين ديجول، وبين مناظريه في العالم العربي والعالم الثالث بوجه عام!!

ولقد كان الكتّاب و«المثقفون» بوجه عام يشتركون في المظاهرات والاضرابات العنيفة التي قد تؤدِّي احياناً الى تخريب المنشآت وترويع المواطنين بل وقتلهم ـ وعلى ذلك لم يشأ ديجول أن يمنح هؤلاء «شرف» الاعتقال ولو مرة واحدة. ويكفي ان نذكر موقفه من جان پول سارتر وأمثاله ممن كانوا يحرّضون على احداث القلاقل ويشاركون في المظاهرات البالغة العنف والتخريب. ولو كان واحد من أمثالهم في البلاد العربية او دول العالم الثالث؛ ناهيك بالكتلة الشرقية!! ـ لكان مصيره الإعدام او التصفية الجسدية في غياهب السجون، فضلاً عن التعذيب المتواصل بكل الوسائل الجهنمية التي اخترعها عصرنا هذا وما أبشع ما اخترع من وسائل تعذيب وافناء لبني الانسان!!

وبالرغم من هذا كله، كان هؤلاء «المثقفون» يتبجّحون، ويصولون، ويصرخون في الصحف والمسارح والاذاعات، وتتوالى توقيعاتهم الرخيصة في بيانات تستغرق أعمدة الصحف اليومية والاسبوعية ومنهم محترفون، تقرأ توقيعاتهم على كل البيانات، أيا كانت الجهة الصادرة عنها او الاتجاه او الرأي الذي تدعو إليه. ومن هؤلاء «المحترفين» فنانون وفنانات، وكتّاب وكاتبات، وصعاليك متطفلون لا تذكر أسماؤهم إلاَّ في هذه البيانات.

وكم أحسن ديجول صنعاً حين ترك هذه «الفقاقيع» تنتفخ وحدها، ولا تلبث ان تفنى وحدها من تلقاء نفسها!

وسنرى كيف ستتطاير هذه «الفقاقيع» وتتوالى بياناتها الزائفة الكاذبة الدنيئة عشية حرب الأيام الستة في يونيو سنة ١٩٦٧!

البدع الفكري آنذاك

وهذا يقودنا إلى الحديث عن البدع الفكري الذي كان يسود فرنسا في سنة ١٩٦٧.

لما غادرنا فرنسا آخر مرة في صيف سنة ١٩٥٥، كانت «الوجودية» - على الصورة الشوهاء الزائفة الكاريكاتورية التي اتخذتها الوجودية في فرنسا منذ سنة ١٩٤٥ - لا تزال هي البدع السائد في الثقافة الفرنسية: في المسرح، والحياة الفنّية، والأدب بوجه عام.

فلما عدت إلى باريس في فبراير سنة ١٩٦٧ بعد انقطاع زاد على أحد عشر عاماً، وجدت ان البدع الجديد الذي بدأ ينتشر وتلوكه الألسنة - في الغالب دون ان تدري عن محتواه شيئاً - هو «البنياوية» Structuralisme وعامة مَن كانوا يذكرونها كانوا يربطونها باسم كلود ليڤي - استروس (وُلِد سنة ١٩٠٨) Claude Lévi-Straus، مع انه لم يكن إلاّ واحداً من دعاتها، وفي ميدان واحد هو علم الاجتماع، او على وجه التدقيق: الانثروپولوجيا الاجتماعية. لكنها وسائل الإعلام - ويسيطر عليها اليهود في فرنسا سيطرة تامة - هي التي أوقعت ذلك الوهم في نفوس عامة الناس.

ذلك ان منهج البنياوية - والبنياوية منهج أكثر منها مذهباً او نزعة فكرية - استخدم في ثلاثة ميادين: علم اللغة، بفضل سوسير Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣)؛ ورولان بارت Rolland Barthes (١٩١٥ - ١٩٨٠) وشومسكي Chomsky (وُلِدَ سنة ١٩٢٨)؛ وعلم النفس، بفضل جاك لاكان (١٩٠١ - ١٩٨١) Jacques Lacan؛ الانثروپولوجيا الاجتماعية بفضل ليڤي - استروس.

والفكرة الأساسية التي تقوم عليها البنياوية بسيطة بقدر ما هي قديمة، وهي ان الحادث الاجتماعي او النفسي إنَّما يدرك بحسب السياق الموجود فيه، وان ما هو جزئي يشير إلى الكلّي لا يمكن ان يفهم بدونه. لكن هذا الكلّي ليس هو الكلّي التاريخي الزمني، بل الكلّي الحاضر الذي هو جزء من تركيبه: إنَّه البنية Structure، لا التسلسل التاريخي.

ومن ثم صارت كلمة «البنية» هي مفتاح سرّ هذا المنهج. وشاعت على ألسن الكتّاب في مختلف الأوساط، حتى البعيدة جداً عن الميادين الثلاثة التي ذكرناها، حتى خُيِّل إلى بعض الكتاب والمؤلفين انه يأتي بالعجب العجاب حين يستخدم هذا اللفظ بكل مشتقاته: بنية Structure، بنياوي Structural، ذو بنية (أو مُبْتَنى) Structuralisation, Structuré، يتشدّق بها مَن أراد الظهور بمظهر التقدم،

والأصالة، والاكتشاف العلمي الباهر!! وقد أسرف زعماء البنياوية في اختراع رطانات طنانة لو حُلّلت معانيها لما كشفت عن شيء جديد.

❀ ❀ ❀

كذلك كان من بين الكتب التي كثر الحديث عنها آنذاك كتاب ميشيل فوكو Michel Faucault (١٩٢٦ ـ ١٩٨٤) وعنوانه: «الألفاظ والأشياء» (باريس، جاليمار، سنة ١٩٦٦). وكانت المهمة التي وضعها فوكو لنفسه في انتاجه هي البحث في تاريخ الانسان وهو يفكر. ولهذا راح يبحث عن العلاقة بين الانسان حين يفكر، وبين الموضوع الذي يفكر فيه، أي دراسة الذات المفكرة وما تخضع له من شروط وهي تفكر، وما موضعها فيما هو داخلي وما هو متخيل. لأنَّ هذه الذات ـ بحسب رأيه ـ ليست هي هي عينها حين تفسّر نصاً مقدساً، وحين تلاحظ ظاهرة طبيعية. وحين تحكم على سلوك فرد سويّ أو مجنون. والفكر لا يتناول فقط «الآخر»، بل يتناول ايضاً الأنا، ولهذا يتناول التحليل كيفية معرفة الأنا لنفسه.

بيد ان هذه الأمور كانت من موضوعات نظرية المعرفة منذ افلاطون وأرسطو حتى كَنْت وهيجل وبرجسون. لكن الجديد الذي أراغ إليه فوكو هو الدراسة «الأثرية» (الأركيولوجية) لهذه المسائل. ولهذا سمَّى عمله باسم: «علم آثار المعرفة» Archéologie du savoir. وفي كتابه هذا: «الألفاظ والأشياء»، يبيّن انه في مجال المعرفة عند الحضارة الغربية حدث انفصالان كبيران: الأول حدث عند بداية القرن السابع عشر، وبه يبدأ العصر الكلاسيكي الذي يقوم على التضامن بين نظرية الامتثال وبين نظريات اللغة والطبيعة والثروة؛ والانفصال الثاني حدث في مستهل القرن التاسع عشر، «الذي يمثل رصيد حداثتنا» ـ ويتميز بزوال نظرية الامتثال بوصفها الأساس العام لكل النُّظم الممكنة: اللغوية، والبيولوجية، والاقتصادية، والسياسية؛ وبصيرورة الانسان موضوعاً لمعرفة ممكنة.

ويتضح هدفه اكثر في كتابه الذي صدر بعد ذلك بثلاثة أعوام، وعنوانه: «علم آثار المعرفة» (سنة ١٩٦٩) ويلخصه في الدرس الاستهلالي الذي افتتح به سلسلة محاضراته لما ان عُيِّن استاذاً في الكوليج دي فرانس سنة ١٩٧٠، فيقول إنَّ الهدف هو بيان: ان أساس الفكر يقوم على الصدفة، والمنفصل، والمادية. ولهذا ينبغي بيان العمليات التي في كل مجتمع يهيمن على انتاج القول.

ولا شك ان هذه المهمة هدّامة للفكر الانساني كما تصرّف في كل تاريخه؛

ولهذا ينعي عليه البعض انه يعمل على «موت الانسان»، ويسعى «لتدمير الذات الانسانية بكل برود وتركيز».

وسيختم انتاجه في عمره القصير بدراسة ضخمة بعنوان: «تاريخ العلاقة الجنسية» في ثلاثة مجلدات: (١) «إرادة المعرفة» (سنة ١٩٧٦)؛ (٢) «استخدام اللذات»، (١٩٨٥)؛ (٣) «هم الانسان بذاته» (١٩٨٤).

وسنراه بعد سنة ١٩٦٨ ينخرط أحياناً قليلة في موضوعات الساعة: فيؤلف مع أثنين آخرين «جماعة للتعرف على أحوال السجون» (سنة ١٩٧١)، ويؤيد ـ لكنه سرعان ما يتراجع ـ الثورة الايرانية في سنة ١٩٧٩، ويناضل مع جماعة «التضامن» البولندية سنة ١٩٨١.

❁ ❁ ❁

ونقدم للقارىء موجزاً للنتائج التي توصل إليها فوكو من دراسة لعمل الفكر الانساني في الحضارة الأوروبية من القرن السادس عشر حتى اليوم.

خصائص الفكر في القرن السادس عشر: إنَّ الفكر في ذلك القرن كان يحكمه قانون واحد هو قانون التشابه، وله أربعة أشكال: (١) التلاؤم بين الأشياء بعضها وبعض»؛(٢) التنافس: وهو التشابه المتحرر من كل اتصال؛ (٣) قياس النظر: وهو التشابه في النِّسَب بين جميع الأشياء؛ (٤) التعاطف: الايجابي والسلبي.

في العصر الكلاسيكي: يسود قانون الترتيب. ولهذا كان رمز المعرفة في العصر الكلاسيكي هو: اللوحة، او المستوى ذو البعدين.

في القرن التاسع عشر: ينفصل الوجود عن الامتثال الذهني، وتصبح الذات الحاملة لامتثالات مجرد شيء نفسي.

ويحاول فوكو ان يفسّر المذاهب والتيارات والتصورات العلمية واللغوية والاقتصادية الخ وفقاً لهذه الخصائص في كل عصر. لكن محاولته في الغالب مفتعلة تلوي التفسير ليتفق مع الخصائص. وبالجملة، فإنَّ كتاب «الألفاظ والأشياء» كتاب مضطرب التأليف، ضعيف المادة، واهي الاحتجاج. ولهذا لم يكن يستحق هذه الشهرة التي حظي بها آنذاك، والتي ما لبثت ان تضاءلت أصداؤها بعد عامين، وأضحى الكتاب في عالم النسيان.

الظلام يخيّم على المسرح

أمّا المسرح فقد خيّم عليه الظلام، بعد ان تلألأت أضواؤه من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٠ بفضل مونترلان (١٨٩٦ ـ ١٩٧٢) وسارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠) وجان أنوي Jean Anouieh (١٩١٠ ـ ٣/ ١٠/ ١٩٨٧) فكانت آخر مسرحية لمونترلان[1]، وهي «كردينال اسپانيا» قد أصدرها في سنة ١٩٦٠، وكانت آخر مسرحية لسارتر، وهي «المحتجزون في ألطونا» قد صدرت في نفس السنة، سنة ١٩٦٠. وتوقف كلاهما بعد ذلك عن الانتاج المسرحي حتى آخر حياته. وهكذا افتقر المسرح الفرنسي إلى مؤلفين مبدعين.

والاخراج والتمثيل افتقرا أيضاً إلى مبدعين. فأكبر المخرجين، أو أشهرهم على الأقل، وهو جان ڤيلار Jean Vilar (١٩١٢ ـ ١٩٧١)، كان قد مضى أوانه ولم تعد تجاربه تثير حماسة ولا إقبالاً. لقد بدأت شهرته مع (عيد الفن المسرحي) الذي أقامه في أڤنيون في سنة ١٩٤٧، إذ صار هذا العيد ألمع ملتقى لفن المسرح في فرنسا، وفيه مثلث مسرحيات «رتشرد الثاني» لشيكسپير؛ و«السيد» لكورني Corneille؛ و«دمعت رانتون» لبوشنر Bouchner؛ و«أوديب» لأندريه جيد Gide؛ و«أمير هومبورج» لكلايست Kleist. ثمَّ عيِّن مديراً «للمسرح الوطني الشعبي» في أغسطس سنة ١٩٥١، الذي كان يعرض تمثيله في قصر شايو Chaillet. وفيه أنتج مسرحيات ممتازة نذكر منها «الأم الشجاعة» تأليف برشت Brecht و«المجنون پلاتونوف» لأنطون تشيخوف Tchekov. وبفضل سعة قاعة مسرح شايو ورخص أسعار التذاكر استطاع جمهور واسع من الناس تذوق التمثيل والمسرحيات الراقية لهذا أثره في ضعف الانتاج المسرحي في باريس في شتاء سنة ١٩٦٧. وقد استطاع ان يجعل هذا «المسرح القومي الشعبي» يمثّل أكثر من خمسين مسرحية: فرنسية وأجنبية، وبعضها مُثِّل لأول مرة. أمّا «عيد الفن المسرحي» في أڤنيون، ويحتفل به في كل عام في المدة من منتصف يوليو حتى منتصف أغسطس، فلم أستطع حضوره، نظراً لبعد المسافة جداً بين باريس وأڤنيون. وقد توفي ڤيلار قبل ان يبدأ الاحتفال الخامس والعشرين بهذا العيد.

وإلى جانب ڤيلار، كان جان لوي بارو Jean Louis Barrault (١٩١٠ ـ)

(١) في سنة ١٩٦٧ مثلت لأول مرة مسرحيته التي عنوانها: «المدينة التي أميرها طفل»، وذلك على مسرح ميشيل.

ينتج ويمثل خصوصاً مسرحيات الطليعة: «الزنوج» و«الشرفة» و«الحوائل» Paravents تأليف جان جينه Jean Genêt الكاتب الصعلوك، و«الخرتيت» لايونسكو Ionesco، و«آه! الأيام الجميلة» لصمويل بكت Becket. وقد صار مديراً لمسرح الأوديون من سنة ١٩٥٨ حتى سنة ١٩٦٨، ثم مديراً لمسرح اورسيه Théâtre d'Orsay من سنة ١٩٧٤ إلى سنة ١٩٨٠، ثم مديراً لمسرح الروند ـ پوان» -Rond Point في جادة الشانزليزيه.

وكان هناك مسرح مغمور اسمه «مسرح الشمس» Théâtre du Soleil بدأ في سنة ١٩٦٤ في شارع موفتار (بالحي الخامس) في قاعة صغيرة للغاية، من نوع قاعة لاهوشيت La Huchette التي تمثل عليها مسرحيات ايونسكو باستمرار. لكنه انتقل في سنة ١٩٦٧ إلى سيرك موغارت، حيث مثلت هناك مسرحية «المطبخ» تأليف أرنولد ڤسكر Arnold Wesker، وفي السنة التالية مثلت مسرحية «حلم ليلة منتصف الصيف» لشيكسبير. ويتميز هذا المسرح الشعبي بأنه يقوم على أساس «الخلق الجماعي»، بمعنى ان الممثلين يرتجلون، وهم الذين يرتبون المسرح والعَرْض؛ بينما المدير، وهو اريان منوشكين Ariane Mnouchkine، يراقب ويبدي رأيه في هذه المناظر. وبالجملة، فهو مسرح تجارب ثورية تضاد كل التقاليد المسرحية المقررة حتى الآن. ولهذا سينتهي بالاخفاق الذريع.

أمّا المسارح الراسخة، مثل «الكوميدي فرانسيز» فقد استمرت في مسيرتها التقليدية لا تقدم إلاّ المسرحيات الكلاسيكية والرومنتيكية التي لا خلاف عليها. ولما كنت قد شاهدت كل «ربوتوار» الكوميدي فرانسيز في المدة من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٥، وأحياناً أكثر من مرة للمسرحية الواحدة، فإنّي لم أشعر بالحاجة إلى مشاهدة هذه المسرحيات مرة أخرى.

وهكذا أستطيع القول بأنّني لم أشاهد مسرحية واحدة في باريس خلال مدة اقامتي بها في عام ١٩٦٧، بينما كنت في المدة من سنة ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٥٥ أحرص كل الحرص على مشاهدة كل مسرحية جديدة تمثل في أثناء اقامتي في باريس. وليس الذنب ذنبي، بل ذنب الانهيار المروّع الذي أصاب المسرح الفرنسي في سنة ١٩٦٧: تأليفاً، وإخراجاً، وتمثيلاً. وأحسب انه كان لمسرح اللامعقول دور كبير في هذا الانهيار، ذلك ان مسرح اللامعقول ـ الذي أوجده صمويل بكت، ويوجين ايونسكو، وأرابال، وأدَموف ـ هو عبث أدبي خالص، وانهيار عقلي وحضاري ونفساني منقطع النظير.

خذ مثلاً مسرحية: «في انتظار جودو» تأليف صمويل بكت Samuel Beckett (وُلِدَ سنة ١٩٠٨، وهو إيرلندي، كان كتب معظم مسرحياته باللغة الفرنسية):

إنَّها تتلخص في ان شخصين، هما ڤلادمير واستراجون ينتظران عند شجرة على الطريق في الريف، مجيء السيد جودو Jodot الذي ينتظران منه الكثير. وعند نهاية اليوم الأول، والمسرحية تجري في يومين اثنين؛ يأتي صبيّ يحمل رسالة مفادها ان جودو لن يحضر هذا المساء، لكنه سيحضر غداً قطعاً. فيقرر ڤلادمير واستراجون ان يذهبا؛ لكنهما لا يتحركان من موضعهما. وفي نهاية اليوم الثاني، يأتي نفس الصبي، ودون ان يتعرّفهما، يجيء بنفس الرسالة وهي ان جودو لن يحضر هذا المساء، لكنه سيحضر غداً قطعاً. وفي أثناء الانتظار كانا يتحدّثان لا عن شيء بعينه، لأنه لم يحدث شيء، وإنَّما ليمنعا نفسيهما من التفكير فيتبادلان الحديث على هذا النحو:

استراجون: كل الأصوات ماتت.

ڤلادمير: هناك حفيف أجنحة.

استراجون: حفيف (أوراق).

ڤلادمير: (حفيف) رمال.

استراجون: (حفيف) أوراق.

[صمت]

ڤلادمير: إنها جميعاً تتكلم في وقت واحد.

استراجون: بل كل واحدة تتكلم لنفسها.

[صمت]

ڤلادمير: هي بالأحرى تتهامس.

استراجون: هي تهمهم.

ڤلادمير: هي تهزّم.

استراجون: هي تهمهم.

[صمت]

ڤلادمير: ماذا تقول؟

استراجون: تتحدّث عن حياتها.

ڤلادمير: لا يكفيها أنها عاشت.

استراجون: لا بدَّ لها ان تتكلم عن حياتها.

ڤلادمير: لا يكفيها انها ميّتة.

استراجون: هذا ليس كافياً.

[صمت]

ڤلادمير: هذا يشبه حفيف ريش.

استراجون: أوراق.

ڤلادمير: رمال.

استراجون: أوراق.

[صمت طويل]

فقُلْ لي بالله عليك، هل لهذا الحوار أيّ معنى، وهل للمسرحية كلها أيّ مضمون؟!

ولما سئل بكت عن معنى المسرحية زعم انها مَثَل ضربه لتوضيح عبارة للقديس أوغسطين هي: «لا تيأس: فإنَّ أحد اللصين نجا. لا تدّع شيئاً: لأن أحد اللصين أُدين». والاشارة هنا هي إلى اللصين اللذين صلبا بجوار يسوع المسيح، ونجا أحدهما وهلك الآخر. لكننا في مسرحية بكت لا نعرف مَن الذي نجا ومَن الذي هلك: ڤلادمير، أو استراجون. بل لا يجري أي حديث عن النجاة او الهلاك. فمن أين لبكت أن يزعم ان مسرحيته هي مَثَل Parabole يوضح عبارة أوغسطين، وحال اللصين المصلوبين الى جوار يسوع المسيح؟!

ولما أخفق المعجبون بالمسرحية في تفسيرها، زعموا ان اسم: جودو Godot هو تصغير لاسم الله: God ـ وان الشخص الذي انتظره الرجلان هو الله، وان الناس ينتظرون الله ولأنَّه لا يحضر أبداً، أيّ: عبثاً ينشد الناس وجود الله. لكن هذا تأويل مفرط لم يخطر ببال بكت نفسه، وهو إمعان في الرمزية المستورة التي لا يسندها النص، ولا الحوار.

ومثل هذا العبث نجده بصورة أوغل في اللامعقول عند ايونسكو (وُلِد سنة ١٩١٢) Eugène Jonesen. ففي مسرحية «الكراسي» (سنة ١٩٥٢) يقوم العمل الدرامي على أساس صورة رمزية واحدة هي: كراسي لا حصر لها يحضرها على المسرح شخص بكل سرعة، بحيث تمتلىء خشبة المسرح كلها بهذه الكراسي. ولا

أحد يجلس عليها: إنَّها «الغياب» نفسه: الكل غائبون. وهناك شيخان عجوزان ينتحلان أشخاصاً غير مرئية وصامتة وهما يهذيان. فيضيقان بهذا «الغياب» ويلقي كل واحد منهما بنفسه من النافذة.

وتلك هي المسرحية كلها! وأمام هذا العبث راح البلهاء من المعجبين يطلقون الخيال للتأويل، كما فعلوا مع مسرحية بكت: فزعموا ان مغزى المسرحية هو التعبير عن الوحدة، وعن استحالة التفاهم بين الناس، وعن اخفاق الزواج!! من أين جاءا بهذا التأويل؟ لا شيء في المسرحية يسمح به.

وأمَّا مسرح أدموف Arthur Adamov (وُلِدَ سنة ١٩٠٨ وانتحر في ١٤ مارس سنة ١٩٧٠) فيستقي من عصاب أصيب به، وجعله مولعاً بأن يكون مُهاناً ذليلاً مسربلاً بالعار. وقد قال قبيل انتحاره: «أنا منفصل. لكني لا أستطيع ان أُسمِّي ما أنا عنه منفصل. بيد انِّي منفصل. في السابق كان هذا يدعى: الله. أمَّا الآن فلم يعُدْ له اسم».

ولهذا جاءت مسرحياته مظلمة عابسة تحفل بالعلاقات السادية والمازوخية (تعذيب الغير، وتعذيب الذات): فمسرحيته الأولى «المحاكاة الهزلية» La Parodie نجد فيها رجلين هما: الموظف والسيد «ن»، وكلاهما عاشق لنفس الفتاة، لِيلي Lili. أمَّا الموظف، وهو متفائل وذو طاقة كبيرة، فينتهي بالسجن وبالعمى؛ أمَّا السيد «ن» وهو متشائم وسلبي، فتدوسه سيارة. وهكذا كلا حالي الانسان عبث وباطل.

وفي مسرحية «الغزو» نجد رجلاً يدعى بطرس يحاول قراءة المخطوطات التي تركها زوج أخته بعد موته. لكنه لا يستطيع فك حروفها، فينتحر حين ينضاف إلى اخفاقه في قراءة هذه المخطوطات خيانة زوجته له.

ومسرحيته «المناورة الكبرى والصغرى»، وهي أول مسرحية له أُخرجت على المسرح، أخرجها جان ڤيلار على مسرح «استوديو الشانزليزيه»، تقوم على كابوس رهيب مزعج حلم به بطل المسرحية، الذي كان ثورياً وسعى للعمل من أجل تحقيق المثل الأعلى الذي اختاره، لكنه أخفق.

ورابعهم فرنندو أرّابال Fernando Arrabal (وُلِد في سنة ١٩٣٢) اسباني، لكنه صنع صنيع بكت فراح يكتب مسرحياته باللغة الفرنسية. وأشخاص مسرحياته يتّسمون بالتناقض، وعدم المعقولية في تصرفاتهم. خذ نموذجاً لذلك هذا الحوار بين ميتا Mita وكليماندو Climando في مسرحية: «الدراجة المثلثة العجلات» : Tricycle

ميتا: لكنني حزينة جداً.

كليماندو: ماذا جرى لك؟

ميتا: لا شيء.

كليماندو: لا شيء أبداً؟

ميتا: نعم، لا شيء أبداً.

كليماندو: لا شيء أبداً أبداً؟

ميتا: نعم، لا شيء أبداً أبداً.

كليماندو: أوه! يا للهول! أنت تستحقين فعلاً ان تكوني حزينة!

ميتا: أود أن انتحر لأني حزينة جداً.

كليماندو. تنتحرين بالفعل؟

ميتا: نعم.

كليماندو: ولماذا؟

ميتا: لا أدري، بدون أي سبب... هكذا لا أعود حزينة بعد.

كليماندو: آه! طيب. هذا صحيح. إنّي لم أُفكّر في هذا.

ميتا: لو كانت لديّ الشجاعة!»

والآن وقد عرضنا نماذج من مسرحيات هؤلاء الأربعة الذين تصدّروا التأليف المسرحي في الستينات، كيف يمكن التحدّث عن نهضة للمسرح الفرنسي في تلك الفترة؟!

الشعر الضائع

ولم تكن حال الشعر في سنة ١٩٦٧ في فرنسا أفضل، بل كانت بالأحرى أسوأ. ذلك لأنَّ اللامعقول كان قد غزا ميدان الشعر قبل ميدان المسرح بقرابة ربع قرن على يد أتباع السريالية Surréalisme: أندريه بريتون Breton (١٨٩٦ ـ ١٩٦٧) وسوين (١٨٩٧ ـ   ) وأراجون Aragon (١٨٩٧ ـ ١٩٨٢) وپول الوار Eluard (١٨٩٥ ـ ١٩٥٢) وكلهم ولدوا في ثلاث سنوات متوالية. وقد تأثّروا بحركة «دادا» Dada، وبالتحليل النفسي عند فرويد. ومن هنا استقوا من اللاشعور؛ ومما هو تحت عقلي: الأحلام، الهلوسة، التنويم المغناطيسي. وزعموا انهم انما ينظمون قصائدهم تحت تأثير آلي نفسي. وقد ورد في البيان الثاني الذي أصدروه في ١٥/

١٢/ ١٩٢٩ انه «يوجد نقطة ميتة في النفس عندها يكفّ التناقض بين الحياة والموت، بين الواقع والخيال، بين الماضي والمستقبل، بين ما يمكن التعبير عنه وما لا يمكن، بين الأعلى والأسفل. ومن العبث ان ننشد للنشاط السريالي دافعاً آخر غير الأمل في تحديد هذه النقطة».

وتصايحوا وتصاخبوا ضد ما سموه «قيم المدنية البورجوازية»، وضد الكتّاب والشعراء المتصدرين في الأدب: أناتول فرانس، وپول كلوديل، وغيرهما. وما لبثوا ان خاضوا بآرائهم هذه ميدان الشعر، فانتهوا إلى ان أفكارهم تتجسد في الحركة البلشفية من الحزب الشيوعي الفرنسي، فانضموا إليه وصاروا أبواقه، زاعمين انهم يريغون إلى «تحويل العالم» و«تغيير الحياة». لكنهم ما لبثوا ان انقسموا على أنفسهم، بل انقسم كل واحد على نفسه هو، وراح بطريرك الحركة ـ اندريه بريتون ـ يصدر قرارات الحرمان ضد منازعيه: سوپو Saupault، وأرتو Artaux، وقراك، الخ ـ فرد عليه هؤلاء بمنشور لاذع عنوانه «جُثّة» Un Cadavre.

وغداة الحرب العالمية الثانية انهارت السريالية، وصار أقطابها الأربعة مجرد أشباح واهمة لحركة كانت عنيفة نشيطة.

أمّا خصائص «شعرهم» فهي: المماطلة في الصور الشعرية، الأوصاف المتناقضة لنعت الشيء الواحد، عدم المعقولية في الأحكام، الربط بين الأمور البعيدة والمتباينة على كل ارتباط، ولهذا لا يمكن المرء ان يخرج بأي معنى من كل أشعارهم. وزادوا في الإبهام بأن ألغوا علامات الترقيم (شولة، شولة ونقطة، نقطة، علامات الاستفهام او التعجب)، وظنّوا ان في هذا قمة التجديد، مع ان جميع المخطوطات منذ عرف الانسان الكتابة حتى القرن الخامس عشر خالية من كل علامات الترقيم!! فأين التجديد اذن؟!

وأسوق الى القارىء ترجمة لقصيدة لبريتون عنوانها Aigrette يقول فيها:

«آه لو ان الشمس أشرقت في هذه الليلة

ولو انه في أعماق «الأوبرا» ألّف ثديان رفّافان واضحان

حول كلمة حب أروع مرحاض حيّ

ولو ان أرضية الشارع الخشبية قد انفتحت فوق قمة الجبال

ولو ان الفراء تنظر بحركة ضارعة

إلى القسيس ذي الأربطة الحمراء

والذي عاد من منفى التعذيب وهو يعدُّ العربات المغلقة

ولو ان الصدى المترف للأنهار التي أعذّبها
لم يرم إلاّ ببدني لأعشاب باريس
فكم من برد يتساقط في داخل محلات المجوهرات
فعلى الأقل لن يخيفني الربيع بعد
لو كنت فقط جذرا لشجرة السماء
وأخيرا الخير في قصبة سكّر الهواء
لو وُضِع سُلّم قصير للنساء
فماذا ترين أيتها الصامتة الجميلة
تحت قوس نصر «الكاروزل» Carrousel
ولو ان اللذة توجهت على شكل عابرة أبدية
ولم تعد الحجرات يخترقها غير النظرة البنفسجية للأروقة
أنا فداء ذراع «السين» Seine اذا انزلق تحت الصباح
الضائع على كل حال
انا لست مستسلماً للقاعات الملاطفة
التي فيها يرن تلفون غرامات المساء
وانا أرحل أشعلت النار في خصلة شعر هي خصلة قنبلة
وخصلة الشعر تحفر نَفَقاً تحت باريس
لو ان قطاري دخل في هذا النفق»
فهل حَصّلت، أيها القارىء، معنى أية جملة في هذه القصيدة؟!
وهاك نموذجاً آخر، من قصيدة بعنوان: «عُقدة المرايا»:
«النوافذ الجميلة المفتوحة والمغلقة
معلَّقة على شفاه النهار
النوافذ الجميلة اللابسة قميصاً
النوافذ الجميلة ذوات الشعر من النار في الليل الأسود
النوافذ الجميلة لصفات الاستقامة والقُبلات
من فوقي من تحتي من خلفي ثمَّ أقَلّ مما في داخلي.

حيث لا يكون غير بلّور أزرق واحد مثل القمحات

وماسة قابلة للانقسام الى عدد من الماسات التي يُحتاج إليها لاستحمام كل العصافير البنغالية

والفصول التي ليست أربعة بل خمسة عشر او ستة عشر

ومن بينها في نفسي الفصل الذي فيه يزهر المعدن

الفصل الذي الابتسام فيه أقل من دنتلة Dentelle

الفصل الذي فيه ندى المساء يوجد بين النساء والأحجار

الفصول النورانية مثل باطن تفاحة نزع منه الرُّبع

او مثل حيّ خارجي تسكنه كائنات متواطئة مع الريح»

❀ ❀ ❀

لكن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) غيّرت مجرى الشعر في فرنسا. ففي الفترة من ١٩٤٥ حتى سنة ١٩٦٠ سيطرت نزعة غنائية ذات اتجاهين: إمَّا مسيحي، وإمَّا انساني.

ذلك ان الحرب بما صاحبها من دمار وتقتيل ألجأت الناس الى التماس العزاء في الشعر. ومن ثم كثرت المجلات المتخصصة في الشعر أثناء الحرب، منها: «كراسات الجنوب» التي كانت تصدر في مرسيليا، و«الينبوع» Fontaine التي كانت تصدر في مدينة الجزائر، و«روافد ومواقع» التي كانت تصدر في ليون وسانت اتيين، و«البرانس» في تولوز، وغيرها. ويسود الشعر في هذه الفترة: التغني بالحرية، والقلق، والوحدة؛ او التعلق بالدين، ومناجاة الله، واستلهام الكتاب المقدس.

وقد عاد شعراء هذه الفترة الى عمود الشعر الفرنسي المستقيم، وإلى التعبير الواضح، والأحكام العقلية؛ ونجم عن ذلك: التمسك بالبحر السداسي (السكندري)؛ والاحتفال بالقصائد الطويلة ذات النَّفَس الواسع، والولع بالرنين الموسيقي الحافل.

ويمثل الاتجاه الديني بين هؤلاء الشعراء:

١ ـ باتريس دي لاتور دي پان Patrice de la Tour du pin (وُلِد سنة ١٩١١ ـ وتوفي سنة ١٩٧٥) الذي عبّر عن المعاني التالية: الانسان امام نفسه، وأمام العالم، وأمام الله ـ وذلك في ديوانه الكبير: «خلاصة الشعر» (سنة ١٩٤٦). وراح

يضع لنفسه هذه الأسئلة: كيف يحيا الانسان في الله ومع ذلك يظل حاضراً في هذا المجتمع الذي أنكر ناموس المسيح؟ ما معنى الهبة التي يمنحها اللطف الإلٓهي للشاعر؟

٢ ـ پيير امانويل Pierre Emmanuel (وُلِد سنة ١٩١٦ ـ توفي سنة ١٩٨٤). وهو شاعر شديد التأثر بالكتاب المقدس، يفيض شعره كالسيل، ويهدف إلى نشدان الله، ويستوحي حكاية لعازر، وأسطورة صوفيا، وأورفيوس بوصفه المسيح. ويتصارع في شعره معنيان رئيسان: الحب، والموت. وعنده ان الشعر شاهد على الضمير القلق أمام تطور العالم الحديث، هذا التطور الذي يوشك ان يجرّ الى دمار الروح. ومن دواوينه: «قبر أورفيوس» (سنة ١٩٤١). «أورفيات، معارك مع المدافعين عنك» (سنة ١٩٤٢)؛ «سدوم» (سنة ١٩٤٤)؛ «الحرية تقود خطانا» (سنة ١٩٤٥)؛ «أيها الحزن، انت وطني» (سنة ١٩٤٦).

٣ ـ جان جروجان Jean Grosjean (وُلِد سنة ١٩١٢): وفي شعره يعبّر عن يأسه الميتافيزيقي، مُنْطِقاً كبار الأنبياء، ويتأمل في العلاقات بين الالهي والانساني والعالم بوصفه «وجه الحيّ»: وله المؤلفات التالية: «أرض الزمان» (سنة ١٩٤٦)؛ «كتاب العادل» (سنة ١٩٥٢)؛ «ابن الانسان» (سنة ١٩٥٣)؛ «الأنبياء» (سنة ١٩٥٦)؛ «أوستراسيا» (سنة ١٩٦٠)؛ «سفر الرؤيا» (سنة ١٩٦٢). وقد ترجم «القرآن» ترجمة تمتاز بجمال الأسلوب.

ولنقدم نماذج من أشعارهم:

١ ـ من شعر پاتريس دي لاتور دي پان نقدم قصيدة عن «التكوين»، اشارة الى السفر الأول من أسفار التوراة:

«التكوين»! «التكوين»! لأتناول «تكويني»!!

أما من بد من ان أُخْصب نفسي حتى أستمتع اخيراً بنفسي؟

لدى شروق يومها تبدو عوالم ممكن أن تخلق.

لكن واحداً منها هو الذي يجب ان ينبثق على صورتي

وفيما بعد تخترق العوالم اللامرئية السماء التي أكون قد جاوزتها!

إنِّي استشعر الأضواء، اهتزاز الأضواء

التي يمكن ان تصير نجومي؛

إن آلافاً من الشائعات المطمورة الحارة تحوّم
وأريد أن أجعلها حرّة. . . هذه هي الساعة
الساكنة قبيل الاستهلال، واللذة
المؤخرة من أجل ان تفيض من كل الانسان. . .
ـ ذكر مقلق على أبديتها،
يهيمن على قوة لا يعرفها أحد
وليس له ان يستر عراءه
محتجزاً في نفسه، على حافة صخرة وعرة،
أمام هاوية شهواته التي لا تزال نائمة؛
صرخة الحب الإلهي التي ستُطلق كل شيء!
وتلك ليلة الواحد، ليلة «التكوين»!

عالم ينتظر ان يولد، ونظرتي تهبه الجاذبية. . .
لماذا أدفع نشيده نحو الهبوط
ما دام لا يوجد مشرق آخر في اللانهاية؟»

٢ ـ ومن شعر پيير امانويل ـ هذه القصيدة بعنوان: «نشيد الحرية»:

أي ذاكرة الموتى المنبعثة من التراب
أيُّها النور الصاعد من صمت الأرض
أنت تضعف، وفي الماضي تضيع الخُطَى
الانسان في مساء الأُمم وحيد
الطغاة أخضعوا حتى آخر جبال التاريخ
وقهروا نبض الأنهار تحت ثقلهم:
وتماثيلهم الماردة تتحدّى الليل المارد
وعلى جباههم يلمع ياقوت انك الشقاء
ولمعانه يعرّي شقاء البشر
لأنَّ برداً أسود يلمع منه، وفي الدم

يشعل وهج الظلام
بينما في الأعالي تموت السماء مع الحرية.
لكن بينما الآلهة يُعَيّشون في ليلهم
ويلطخ الشرُّ الوجوه بالكراهية
(إنَّ التحام الأجسام في السواد لا يرحم
وللدم رائحة الجحيم التي لا تنطفىء)
أنت تصعد إلى نظير سَمّت العالم المقلوب العريان
وها هي ذي في ليلنا تتأمل
موسيقى نجومك السعيدة
وها هوذا دمنا يهتز حنيناً
كما لو كانت عذوبتك قد انكشفت له»

٣ ـ ومن شعر جروجان نقدم هذه القصيدة التي التزمت القافية، بعكس القصيدتين اللتين أوردناهما:

«أيّتها الأتربة الثمينة!

(يقظة، نوم، ملح)
معارك كونية مستسرّة!
العالم يولد، يموت.
بالقرب من الهاوية المُرّة
عذوبة ينابيع البحر...
أيتها الجبال التي تضرب طوقاً حولي، لقد اصطفيتك.
أيّتها الجبال، لن أهْلِك بعد.
الشجرة وهي تكسّرني، واليوم العنيد
لن يدمّرا في ذاتي إلا ما وُلِد!
آه! من يُنْشِد النشيد؟ مَن يسعى
للإنشاد في صمت الصيف؟

آه! ان تعرف الخشب الغض! شعلة، مطر، لِحاء.

انفجر!

ابْق.

(مَن ينشد إلى غير نهاية؟

أية كلمة طاهرة جداً تمسك بسكون السماء؟

أي صوت لم يُوكل إليَّ؟)

أيّها الصيف، عذوبتك! عذوبتك، أيُّها السيف»

وهذه القصائد الثلاث تدل على نزعة غنائية تسري فيها نفحات روحانية، وأنفاس صوفية. وفيها تعبير عن الحنين الغامض، والأمل المبهم، والانصراف عن خشونة الحياة اليومية وعنف الأحداث العالمية. ولا تعثر فيها على المعاظلات اللفظية والصفات المتناقضة وانقطاع التسلسل الذهني ـ تلك الصفات التي وجدناها في شعر السريالية.

إنَّ أشعار هؤلاء الثلاثة: پاتريس دي لاتور دي پان، وپيير امانويل، وجروجان تعبّر جيداً عن تدفق الشعور الديني في فرنسا تحت تأثير الحرب العالمية الثانية، ويناظرهم في السياسة زعماء «الحركة الجمهورية الشعبية» M.R.P الذين تصدّروا الحكم منذ تحرير باريس في اغسطس سنة ١٩٤٤ حتى مجيء ديجول في مايو سنة ١٩٥٨.

❀ ❀ ❀

لكن في الستينات انحسرت موجة الغنائية، وأخذ الشعراء الجُدُد يجنحون إلى البساطة اليومية، وإلى اللغة المبرّأة من التحسينات اللفظية؛ وتبعاً لذلك جاءت أشعارهم في الغالب قصيرة الأنفاس، مهلهلة النّسج، أقرب ما تكون إلى لغة التخاطب العادي. وهم في هذا قد تأثّروا بشاعر وإن انتسب إلى جيل السرياليين فإنّه كان أبعد ما يكون عن أسلوبهم (وإن كان فيما بين سنة ١٩٢٥ و١٩٣٠ قد انتسب اليهم) ـ ونعني به جاك پريڤير Jacques Prévert (وُلِدَ سنة ١٩٠٠، وتوفي سنة ١٩٧٧). وهذه شواهد من شعره:

١ ـ قصيدة صغيرة عنوانها: «اليڤانت» (وهي مدينة في جنوب أسبانيا):

«برتقالة على المائدة

وفستانك على البساط
وأنت في سريري
هدية حلوة من الحاضر
طراوة الليل
حرارة حياتي».

٢ ـ «الشمس تشرق للناس جميعاً، لكنها لا تشرق في السجون
لا تشرق لأولئك الذين يعملون في المنجم...
وأولئك الذين يغطسون من الملال في يوم الأحد بعد الظهر
لأنهم يرون مقدم يوم الاثنين
ويوم الثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة
والسبت
والأحد بعد الظهر»

٣ ـ «على مسافة أبعد قليلاً توجد الحانة
قهوة بلبن وأهلّة (كرواسان) ساخنة
يترنح المرجل
وفي داخل رأسه
ضباب من الكلمات
ضباب من الكلمات
وسردين ليأكله
بيضة مسلوقة قهوة باللبن
قهوة مروّاة بالروم Rhum
قهوة بلبن
قهوة بلبن
قهوة بلبن مروّاة بدم!..
رجل محترم جداً في حيّه
ذُبح في رائعة النهار...»

وفي قصائده ـ كما هو ظاهر من هذه الشواهد ـ شعور رقيق بأحوال البائسين، وتعاطف مع المستضعفين، وتضامن مع ضحايا الظلم الاجتماعي. لكنه لا يصدر في هذا عن أية أيديولوجية، ولا عن نظريات سياسية أو اجتماعية، إنّما هو شعور تلقائي صادر من أعماق قلبه لا يمازجه أي تنظير فكري.

❀ ❀ ❀

ومن هؤلاء الشعراء الجُدُد من تأثروا بنوع من الشعر الياباني، يسمى هاي كاي: تتألف القصيدة فيه من ثلاثة أبيات: الأول والثالث منها من خمسة مقاطع والثاني من سبعة مقاطع؛ وممن سار في هذا الاتجاه جاك روبو Jacques Roubaud الذي تخصّص في الرياضيات، ومن هنا عنون أحد كتبه برمز مستعمل في نظرية المجاميع وفي المنطق الرياضي هو E (الرابطة الدالة على فعل الكينونة)! وقد حاول ان «يروّض» لغة الشعر، لكنه بذلك بلغ قمة الهراء!

ودعا إلى تغيير لغة الشعر (والقصة) جماعة تسمَّى Tel Quel (كما هو كذلك) تصدر مجلة بهذا العنوان منذ سنة ١٩٦٠. ويقوم اتجاهها على أساس ما نسميه «تداخل النصوص» Intertexualité، مفاده ان الأعمال الأدبية تنصهر في مادة (او جوهر) واحد، أو بالأحرى في «عملية» واحدة، ليس الكتّاب والشعراء إلاّ عاملين فعّالين فيها، ويشاركون في كتابة مشتركة. ومن أبرز رجال هذه الجماعة: فيليب سولّير Philippe Sollèrs، وجان ريكاردو Jean Ricardou وجان لوي بودري Baudry، وجان تيبودو Jean Thibaudeau. وخلاصة رأيهم هي انه ينبغي ألا نقيم وزناً للتبريرات غير الأدبية للنصوص الأدبية، ففي النص وحده ما يبرّر قيمته.

اللوكسمبور عارية موحشة

ولقد كان من أحبّ الأماكن إلى نفسي في باريس حديقة اللوكسمبور.

لهذا بادرت إليها في ثالث يوم من وصولي، أي في يوم ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٧ ـ فرأيت، ويا حزني مما رأيت!

إنّي لم أعرف هذه الحديقة إلاّ في الصيف حيث الأشجار والأزهار والأعشاب مكسوّة بأبهى رونق. وهذه هي المرة الأولى التي أشاهدها فيها في صميم الشتاء، حيث البرد والبَرَد، والريح الصرصر العاتية، والشمس المريضة الضئيلة الظهور، والمطر الثقيل الذي غالباً ما يتحول إلى ثلج.

فرأيتها مهجورة من الناس لا يكاد يمرّ بها أحدٌ إلاّ مضطراً، وفي عجلة

وضيق، على عكس روادها في الصيف: فهؤلاء يتمهّلون، ويتوقفون أمام كل مرقد زهر، ويجلسون طويلاً للاستمتاع بمناظر الزهر والشجر، والماء المتدفق من نافورة آل مدتشي، او من نافورة البركة الوسطى. والعشاق يلوذون بالخمائل او الأشجار السامقة الوارفة الظلال المنزوية عن عيون الفضوليين، وان كانوا لا يخشون نظرة أحد ولا فضول أيّ متطفل.

أمّا الآن فهي خالية من كل انس، والأشجار عارية من كل ورقة، وماء النوافير إمّا متجمد وإمّا صامت لا يتدفق، ولا زهرة واحدة تغير اللون الكابي الحزين السائد في كل الحديقة.

وواأسفاه على ما تعانيه تماثيل الشعراء والكتّاب: بودلير، ڤرلين، هرديا، سانت بيڤ، فلوبير، الخ - من وحدة، وبرد، وانصراف عيون المعجبين الذين كانوا إبّان الصيف يحجون إليهم لإلقاء تحية أو التعبير عن الجميل الذي أسدوه إلى نفوسهم.

ولا أدري لماذا خلت هذه الحديقة من الأشجار التي لا تفقد أوراقها، وخصوصاً من رتبة المخروطيات. الصنوبر، والتنّوب، والطقسوس - حتى لا تتعرى من كل خضرة إبان الشتاء.

أم تُرى القائمون عليها قصدوا لهذا قصداً حتى يبرزوا التقابل الحاد بين الصيف والشتاء، بين الحياة والموت، بين الشباب وأواخر الشيخوخة؟! يا لقسوتهم إذن!

إن عمر الخضرة في حديقة اللوكسمبور قصير لا يتجاوز ستة أشهر في كل عام: فمنذ النصف الثاني من سبتمبر تصفرّ أوراق أشجار القسطل والكستناء، وتتساقط على الأرض فيسري الشحوب في كل الحديقة لكثرة هذا الصنف من الشجر فيها، وهو لا يعود إلى الخضرة إلاّ في منتصف ابريل بل وقد يتأخر حتى منتصف مايو، والربيع لا يكشف عن نفسه فيها إلاّ بالبراعم المنبثقة من الغصون. وسائر الأشجار نماذج أكثر منها غرائس منتظمة.

❀ ❀ ❀

وبهذه الوحشة المروّعة التي سَرَتْ في حديقة اللوكسمبور فقدت ملاذاً جميلاً طالما كنت آوي إليه عصر كل يوم في باريس. وسبّب لي ذلك انطواءً لم أعهده فيها من قبل، وألجأني إلى المقاهي المكتظة بالشباب من الجنسين، وما يجرّه هذا الزحام من صخب وامتعاض، خصوصاً وان سنّي لم تعد تسمحُ لي الآن بالتعاطف

مع هذا الشباب، كما كانت الحال في السنوات الأولى من زياراتي لباريس (من سنة ١٩٤٦ حتى سنة ١٩٥٠).

وحتى المقهى الذي كنت آوي إليه في الخامسة من كل يوم، وهو مقهى «المركيزو» Marcusot الذي كان قائماً في الزاوية التي ضلعاها شارع راسين وشارع مدرسة الطب ـ قد صار تماماً غير المقهى الذي طالما عرفته: فصاحبه توفي، وزوجته التي تولت الأمر من بعده كانت متبرمة بالعيش متضايقة من عملها في المقهى؛ تشعر بالوحشة لفقد زوجها ـ رغم انه كان ـ بحسب ما أخبرتني ـ كثيراً ما يخونها رغم تقدّمه في السن ـ ولاستقلال ابنها بمقهى آخر (قريب (إمّا في بداية شارع المدارس، او في شارع سوفلو، لست أدري، لأنّي لم أتردّد عليه). ولقد وجدت المقهى متغيّراً تماماً يساير مظاهر التحديث الذي شمل كل المقاهي في باريس، فتغيّر روّاده، وصاروا من الطلاب المفلسين السخفاء ذوي الضجيج الصبياني. لهذا لم أطق التردّد عليه، واكتفيت بالجلوس فيه مرة واحدة، حادثتني هي ابّانها عن أحوالها وأحوال المقهى، وكان حديثها كله مملوءاً بالشكوى واليأس. ولهذا اضطرت إلى بيعه خلال الشتاء التالي، فلما عدت في صيف السنة التالية، سنة ١٩٦٨، وجدته قد تحوّل إلى ما يُسمّى Pub بإدارة شخص آخر، ما لبث هو أيضاً ان باعه ليصبح محلاً لأزياء النساء بعد عام واحد، ولا يزال هكذا حتى اليوم، مع تعاقب أصحابه.

وهكذا فقدت معلَماً آخر من معالم إقامتي في باريس.



ثم فقدت معلماً ثالثاً لما ان هرعت ساعة الغداء إلى المطعم الذي كنت معتاداً تناول طعام الغداء والعشاء فيه حين أكون في الحيّ اللاتيني، وهو «مطعم صوفي» في شارع سوميرار Sommerard الموازي لشارع المدارس والمجاور لمتحف كلوني.

و«صوفي» Soffie، صاحبة هذا المطعم، كانت أرمنية جاءت إلى باريس في سنة ١٩٢٤، وأقامت هذا المطعم الذي كان يقدم اطباقاً شرقية خالصة، والتركية منها بخاصة: شيش كباب، ضولمه، بسطرمه وسجق، يوغورت، مُسَقّعة، امام بايلدي، كنافة، بقلاوة، مهلبية، الخ.

وكان سعر الوجبة الجيدة المؤلفة من: سلطة متنوعة، وشيش كباب مع الأرز، وبقلاوة أو كنافة ـ في حدود فرنكين اثنين جديدين (٢٠٠ فرنك فرنسي

قِديم) ـ وهي الوجبة التي لا يقل ثمنها اليوم ـ في سنة ١٩٨٧ ـ عن مائة فرنك جديد أو يزيد!

وعلى الرغم من اقامتها في باريس أكثر من خمسة وعشرين عاماً، فقد كانت لا تعرف من الفرنسية إلاّ ما يعينها على قضاء حوائجها. وكانت لا تعرف بتصريف الأفعال، لهذا كانت جُمَلها مؤلفة من مصادر فقط فيما يخص الأفعال، ومن أسماء وحروف تضعها حيثما اتفق من الجملة. فكانت عبارتها الفرنسية مبعثاً على الضحك المتواصل؛ إلى جانب انها كانت مشوّهة البدن، تحب المزاح.

ولما كان جل المترددين على المطعم من الطلبة العرب الدارسين في باريس، وكانت تعلم ان شغلهم الشاغل هو التغزل مع الفتيات، فقد كانت تختار للخدمة في المطعم فتيات جميلات هن بمثابة «طُعْم» لهؤلاء الشباب الأغرار.

لكن لجودة طهوها ورخص أسعارها كان يؤمّ المطعم بعض المولعين بالطعام الشرقي الملتمسين لرخص الأسعار، خصوصاً في فصل الصيف حين يقلّ وجود الطلاب في باريس. ولهذا كان وضع المطعم مختلفاً تماماً في الصيف عنه في سائر فصول السنة.

فلما حانت ساعة الغداء في ثالث يوم من وصولي لباريس، غدوت إلى هذا المطعم، وإذا بي أُفاجأ بورقة كبيرة على بابه يحيط بها اطار من السواد، وعلى الورقة نبأ وفاة السيدة «صوفي» منذ أسبوعين أو يزيد قليلاً. فانتابني غمّ شديد، ودخلت المطعم، وكان مفتوحاً، لأعرف جليّة الأمر، فأخبرني مَن كان يساعدها، وهو أرمني مثلها، انها توفيت. فرحنا نترحم عليها، وجلست لأتناول الطعام، وإذا بي أشعر بفارق هائل بين مستوى ما قدّمه، والمستوى الذي كان عليه الطعام في أيام وجود السيدة «صوفي». لقد كانت هي حياة المطعم كله، فلما ماتت مات هذا المطعم. ولم أعُد إلى هذا المطعم مرة أخرى، وصرت أترحّم عليها كلما مررت به بعد ذلك. ولكم تعاقب عليه منذ ذلك الحين من مالكين حتى اليوم، لكنهم جميعاً لا يساوونها في شيء.

فوارحمتاه عليك يا «صوفي»!

أفول نجم المقاهي الأدبية

ومن معالم باريس التي آلت إلى الذبول بل والركود: المقاهي الأدبية. فبعد ان كان حيّ سان جرمان دي پريه عامراً بالمقاهي الأدبية، وعلى رأسها مقهى Aux

DeuxMagots ومقهى الفلور Café de Flore؛ نتيجة لما زُعِمَ آنذاك ـ كذباً ـ من ارتباطها بالحركة الوجودية، خلا هذان المقهيان من الكتّاب والفنانين المرموقين؛ وصار روّادهما من السائحين، والسيدات او الفتيات نصف الدنيويات، كما يقول الفرنسيون Demi-Mondaines أي اللواتي هن بين بين: بين بائعات الهوى المأجور وبين المتظاهرات بالصون والعفاف! كما صار يغشاهما بعض المنسيين من أهل الأدب والفن.

وللمقهى الأدبي في أوروبا تاريخ عريق يرجع إلى القرن السادس عشر: إذ كان الأدباء والفنانون يلتقون في مقاهي أو حانات تجمع بين الخمارة والمقهى: فيتبادلون الأحاديث إمَّا في الشئون العامة، وإمَّا في شئون الأدب او الفن. ويجدون في المقهى مسرحاً لاستعراض أصناف مختلفة وأحياناً فريدة، من الناس، فيُفيدون من هذه المشاهدة في استلهام موضوعات أدبية أو فنية ورسم شخصيات فريدة في قصصهم أو لوحاتهم.

ففي فرنسا في القرن الثامن عشر اشتهر مقهيان أدبيان هما: مقهى پروكوپ Le Procope (في مواجهة الكوميدي فرانسيز) ومقهى «الوصاية» La Régense، وهذا المقهى الثاني اشتهر لما أن اتخذ منه ديدرو Diderot إطاراً لأقصوصة تهكمية ألفها بعنوان: «ابن أخي رامو» Le Neveu de Rameau في سنة ١٧٧٤، والتي هي حوار لاذع بين «الفيلسوف» (= ديدرو) وبين بوهيمي ساخر هو جان فرانسوا رامو (١٧١٦ ـ ١٧٨١؟)، وهو ابن أخي الموسيقي الشهير رامو. وهذا الحوار يجري داخل مقهى «الوصاية». وكان يغشاها: شامفور، وروسو، وڤولتير، وجرم.

وبعد أن حلَّت «الندوات الأدبية» Cénacles Littéraires محل المقاهي الأدبية في عهد الدومينيك الفرنسيين، عادت إلى المقاهي الأدبية الحركة والازدهار على يد الشعراء الرمزيين Symbolistes، واتخذوا مقراً لهم مقهى ڤولتير. ثم جاء پول فور Paul Fort (١٨٧٢ ـ ١٩٦٠) الذي كان يلقب بـ «أمير الشعراء» Le Prince des Poètes فاتخذ من مقهى Closerie des Lilas بجادة مونپرناس (عند أقصى الطرف الغربي من حديقة اللوكسمبور) منتدى أدبياً يعقد جلساته في يوم الثلاثاء من كل اسبوع. وبين الحربين العالميتين اشتهر حيّ مونپرناس بمقاهيه الفنية والأدبية، وعلى رأسها المقاهي الثلاثة الكبرى: Le Dôme و La Coupole و La Rotoude، لكنها كانت تغص بالفنانين أكثر مما تغصّ بالأدباء. ومعظم من كان يرتادها من الأدباء كانوا ممن ينتسبون إلى تيار السريالية، ولا عجب فإن السريالية في الأدب مرتبطة، بل ومشتقة من السريالية في الفن.

وما هو جدير بالذكر ان مقهى «پروكوپ» Procope، المواجه للكوميدي فرانسيز في ميدان القصر الملكي Palais Royal، قد انشىء قبل سنة ١٧٠٠، وصار في الثلث الثاني من القرن الثامن عشر أشهر مقهى أدبي وسياسي، وكان يتردّد عليه ڤولتير ـ واختص بمنضدة صار المقهى يحتفظ بها طويلاً حتى بعد وفاة ڤولتير سنة ١٧٧٨؛ كما كان يتردّد على هذا المقهى: ديدرو، ودالمبير، وبوفون Buffon، ومارمونتل Marmantel، وجان جاك روسو وكثيرون غيرهم من الأدباء. وقبيل قيام الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩ انتقلت ملكيتها الى شخص آخر، سمّاها باسم Café Zoppi، وراح يتردّد عليها كبار رجال الثورة الفرنسية: دانتون Danton، فابر ديجلنتين Fabre Diglantine، وهيبر Hébert، ومارا Marat، وروبسپيير Robespierre. ويقال إن «الطاقية الحمراء» Bonnet Rouge، رمز الثوريين الفرنسيين، إنّما ظهرت في هذا المقهى لأول مرة. وفي القرن التاسع عشر يذكر من بين مَن تردّدوا عليها كثيراً من الأدباء: بلزاك Balzac، وتيوفيل جوتيه Théophile Gautier، وڤرلين Verlaine، وويسمانص Huysmans، وأوسكار وايلد Oscar Wilde.

كذلك ينبغي ان نذكر مقى ڤاشت Café Vachette (اتخذ هذا الاسم في سنة ١٨٢٧، وكان يسمَّى قبل ذلك باسم «مقهى العظماء» Café des grands Hommes فقد كان يغص بالأدباء في أواخر القرن التاسع عشر، نذكر منهم مورياس Moreas (١٨٥٦ ـ ١٩١٠)، ولؤيس Pierre Loüys (١٨٧٠ ـ ١٩٢٥)، وموريس بارس Maurice Barrès (١٨٦٢ ـ ١٩٢٣).

كثير من هؤلاء الأدباء كانوا يؤلفون كتبهم وقصصهم ومقالاتهم النقدية والأدبية في هذه المقاهي. بل إنَّ كثيراً من الحركات الأدبية، والمجلاّت الأدبية، قد تأسّست في هذه المقاهي، خصوصاً حركة الرمزيين والوجوديين والسرياليين. كما ان كثيراً من القصائد قد أُلقيت في هذه المقاهي.

ولهذه المقاهي في باريس نظائر في سائر العواصم الأوروبية منذ القرن الثامن عشر على الأقل حتى اليوم. ففي مدريد كان «جيل سنة ١٨٩٨» Generacion del 1898 يعقد اجتماعاته في المقاهي: أولاً في «مقهى مدريد» Café de Madrid (في ميدان باب الشمس المشهور). وبعد ذلك انتقلوا إلى «مقى الليڤانت الجديد» Nuevo Café de Levainte يتصدرهم هناك بناڤنته Benaventé، وبالي ـ انكلان Valle-Inclan، ثم تلاهما پيو باروخا Pio Baroja، ومن بعده أثورين Azorin ولما سافرت إلى مدريد لأول مرة في سنة ١٩٤٩ وجدت الحركة الأدبية قد انتقلت إلى

مقهى خيخون Café Gijon في جادة الكستلانا Paseo de la Castellana لكني لما عدت في سنة ١٩٨٠ وجدت هذا المقهى قد استحال تماماً، خصوصاً ابتداءً من العاشرة مساء، ليصبح ملتقى لأصحاب الشذوذ من الشباب!!

وفي انجلترة أُنشيء أول مقهى في سنة ١٦٥٠ بمدينة اوكسفورد. لكن الملك شارلمان أمر بإغلاق المقاهي في سنة ١٦٧٥ لأنها كانت أماكن نشر الأخبار والشائعات السياسية. بيد ان الأمر ما لبث ان أُلغي، وعادت المقاهي إلى فتح أبوابها. وتعددت في لندن، وصارت شبه متخصّصة ـ وان كان الارتياد مسموحاً لجميع الناس دون استثناء ـ لأصناف من الناس: فمقهى لويد Loyd's Coffee House، كان يلتقي فيه خصوصاً المشتغلون بالتأمين البحري، ومقهى جروي Garraway's كان ملتقى تجار مدينة لندن. أمّا المقاهي الأدبية في لندن فكان أشهرها Will's و Buttan's.

وفي سويسرة نجد «المقهى الأدبي» Le Café Littéraire في زيورخ، وكان يؤمّه الأدباء وأهل الفن أثناء مقامنا في سويسرة (من سنة ١٩٥٦ حتى أواخر سنة ١٩٥٨).

وفي كوبنهاجن عاصمة الدانمرك في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان الأدباء والمفكرون يكتبون العديد من مؤلفاتهم في المقاهي، وأبرزهم جميعاً سيرن كيركجور، الأب الروحي للوجودية، فقد كان كثيراً ما يكتب مؤلفاته في المقاهي.

محاضرتان عامّتان
في الكوليج دي فرانس والسوربون

ودعاني «الكوليج دي فرانس» Collège de France، بناء على ترشيح من الأستاذ جاك بيرك Jacques Berque وتأييد من الأستاذ هنري لااووست Henri Laoust ـ إلى القاء محاضرة عامة.

ويرجع الفضل في انشاء «الكوليج دي فرانس» إلى الملك فرنسوا الأول. فبناء على نصيحة من عالم الانسانيات (الدراسات اليونانية واللاتينية) العظيم: جيوم بوديه Guillaume Budé (١٤٦٧ ـ ١٥٤٠) عيّن الملك فرنسوا الأول عدداً من المدرِّسين الملكيين لتدريس اللغة العبرية، واللغة اليونانية، والرياضيات. فلما رأت جامعة باريس ان في ذلك اضراراً بها وافتئاتاً على امتيازاتها باختصاصها وحدها بالتدريس العالي، حثت كلية اللاهوت على محاكمة المدرسين الملكيين أمام البرلمان بتهمة الهرطقة. وصدر الحكم بادانتهم لكن الملك فرنسوا الأول منع من تنفيذ آثار هذا الحكم؛ وقرّر في سنة ١٥٣٤ انشاء كرسي للفصاحة اللاتينية امعاناً في تأييده لهؤلاء المدرسين الملكيين. ومنذ ذلك الحين اتخذ هؤلاء المدرّسون اسم «كلية اللغات الثلاث» (أي: العبرية، واليونانية، واللاتينية)، وبعد ان كان عدد الكراسي خمسة: اثنان للغة اليونانية، واثنان للغة العبرية، وخامس للرياضيات، صارت في سنة ١٥٤٥ سبعة: اثنان لليونانية، واثنان للعبرية، واثنان للرياضيات، وواحد للاتينية. وعند وفاة الملك فرنسوا الأول في سنة ١٥٤٧ كان في الكوليج دي فرانس احد عشر كرسياً: ٣ للعبرية، ٣ لليونانية، ٢ للرياضيات، واحد للطب، واحد للفلسفة، واحد للاتينية. ولكي يحمي الأساتذة من بطش السوربون La Sorbonne أعطى الملك فرنسوا لهؤلاء الأساتذة الامتياز بألاّ

يحاكموا إلاّ أمام غرفة قضايا القصر الملكي، وبهذا جعلهم بمأمن من مطاعن كلية اللاهوت في السوربون.

ومنذ انشائه حتى اليوم استمر الكوليج دي فرانس في نشاطه العلمي المستقل، وإن تغيرت أسماؤه: فكان اسمه «الكوليج الملكي» منذ انشائه حتى الثورة الفرنسية؛ وإبّان الثورة الفرنسية صار اسمه: «الكوليج الوطني» Collège National؛ وفي عهد الامبراطور ناپليون، سُمِّي باسم «الكوليج الامبراطوري» Collège Impérial؛ وبعد سقوط ناپليون في سنة ١٨١٥ وعودة الملكية، صار اسمه: كوليج دي فرانس، وهو الاسم الذي لا يزال يحمله حتى اليوم.

ومهمة الكوليج دي فرانس هي العمل على تقدّم العلم:

١ ـ بالأعمال والأبحاث العلمية؛

٢ ـ وبإلقاء المحاضرات ودروس تتعلق بهذه الأبحاث والأعمال العلمية؛

٣ ـ وبالقيام ببعثات علمية، ونشر الأبحاث والنصوص والنقوش.

ويشترط ـ أو هذا هو المفروض من حيث المبدأ، وإن كان الواقع كثيراً ما يغاير ذلك! ـ ان تكون الأعمال والأبحاث مبتكرة، وبالتالي ان تكون المحاضرات والدروس Cours مبتكرة أصيلة لم يُسْبَق إليها: فالخبرة والأصالة صنفان جوهريان ينبغي توافرهما في الأبحاث والدراسات والمحاضرات والمنشورات. ويختار الأستاذ موضوع محاضراته ودروسه داخل نطاق اختصاص الكرسي المسنود إليه.

وحضور المحاضرات والدروس مباح لجميع الناس. لهذا لا يُسجّل أحد، ولا يدفع أي رسم، ولا يطالب بأية شهادة او مستوى علمي معين. ذلك انه لا تعقد امتحانات في أي فرع من فروع المحاضرات والدروس، وبالتالي لا تمنح أي شهادة او اجازة دراسية.

ومع فضائل هذه الحرية، ظهرت نتائجها السيئة وهي:

١ ـ قلة عدد الحاضرين، بل وانعدامهم خصوصاً في التخصّصات النادرة والرفيعة، والدقيقة. لهذا يحدث كثيراً ألا يجد الأستاذ مستمعاً واحداً يُلقي عليه المحاضرة او الدرس، فيضطر إلى البقاء في مكتبه وحده طوال الوقت المخصص للمحاضرة او الدرس.

٢ ـ وحتى الذين يحضرون يندر أن تجد من بينهم مَن يستطيعون متابعة الدروس او مجرد فهمها. وحتى في محاضرات أساتذة الأدب تجد ان الغالبية العظمى هم من السيدات المسنّات اللواتي شدون القليل جداً من الأدب او اللواتي

يزجين أوقات فراغهن، وما أكثرها! وتبلغ المأساة، أو المهزلة، فالأمر ها هنا سواء! ـ حين يغشى مقاعد قاعات المحاضرات أخلاط من البطالين والبطالات Clochards الذين يلتمسون الدفء أو الستر من المطر والهواء في أيام الشتاء!!

والمؤسف حقاً هو انه لا وسيلة ابداً لتغيير هذا الوضع: فالطلاب الجامعيون لا يطلبون العلم للعلم، بل للشهادات؛ وأعضاء هيئة التدريس في الجامعات هم من الغرور والتكبّر بحيث يرفضون ان يحضروا محاضرات الأساتذة الكبار في الكوليج دي فرانس.

وعدد كراسي الأساتذة الآن في الكوليج دي فرانس يناهز الخمسين في مختلف فروع العلم: اليونانيات، واللاتينيات، والمصريات، والشرق القديم والمتوسط، والآثار بمختلف ميادينها ـ هذا فيما يتصل بالعلوم الانسانية؛ اما العلوم الفزيائية والكيميائية والحيوية فيمثلها الطب، والفيزياء، والبيولوجيا؛ وللرياضيات وتاريخها عدة كراسي. وملحقة بالكوليج دي فرانس عدة معامل: للفيزياء، والكيمياء، والبيولوجيا، والطب.

والكوليج دي فرانس يتبع، إدارياً، وزارة التربية الوطنية؛ لكن يتولى ادارتها احد الأساتذة.

ويعيّن الأساتذة رئيس الجمهورية بناء على قائمة مرشحين يقدمها معهد فرنسا وهيئة أساتذة الكوليج دي فرانس. والتعيين في كرسي أستاذ بالكوليج دي فرانس هو مطمح الكثيرين من أساتذة الكليات الجامعية في فرنسا لسببين:

أ) زيادة المرتبات، وان كانت الحدود القصوى واحدة (٢٧,٠٠٠ فرنك فرنسي الآن، في سنة ١٩٨٧).

ب) التفرغ، لأنَّ الأستاذ في الكوليج دي فرانس مكلّف بثلاثين درساً فقط في العام الأكاديمي، يختار هو مدة معينة من العام لإلقائها، دون التزام بتواريخ محددة.

بيد ان بعض أساتذة الكليات الجامعية لا يطمحون إلى كراسي الأستاذية في الكوليج دي فرانس بسبب انحطاط مستوى المستمعين، أو انعدامهم تماماً، أو لعدم التواصل بين الأستاذ والحاضرين لقلة اهتمام هؤلاء الأخيرين وعدم فهمهم او تجاوبهم او مثابرتهم، الخ.

ولو سألني سائل: أيّ الموضعين تفضل؟ ـ لفضّلت الموقف الثاني. فلكم كان يحزّ في نفسي، حين كنت أحضر محاضرات ماسينيون في الكوليج دي

فرانس، ان تذهب أقواله سدى وتلقى على أسماع غير واعية، وعقول ناضبة وانتباه مفقود، وان يكون أغلب مستمعيه من أولئك البطالات والبطالين والمتشردات والمتشردين الذين أووا إلى قاعة محاضرته التماساً للدفء في الشتاء، أو ازجاءً للوقت في الخريف، أو الربيع.

صحيح ان طلاب الليسانس مزعجون كالجراء الصغيرة، على حد تعبير نيتشه؛ لكنهم حريصون على الحضور والاستماع، يجبرون على التقييد إن لم توجد كتب، مضطرون إلى المراجعة وإعادة القراءة.

ثم إنَّ الفكرة الأساسية في مضمون المحاضرات، وهي ان تقوم على أبحاث جديدة أصيلة ـ هي فكرة خيالية وليست واقعية. فمن هو هذا الأستاذ الذي يستطيع ان يلقي ثلاثين محاضرة جديدة في المبحث أصيلة في النتائج كل عام؟!

لهذا فإنَّ محاضرات الأساتذة في الكوليج دي فرانس هي في الغالب كلام معاد، او قراءة نصوص، او خواطر تنثال دون أي ترابط. ولهذا فإنَّ من النادر ان يتمخض عنها كتاب يمكن نشره. وإلاَّ فليذكر لي أحد ما الذي تمخضت عنه محاضرات برجسون في الكوليج دي فرانس، أو ڤاليري، او ماسينيون، او مرلو پونتي، او لوي لاڤل، أو ادوار لوروا ـ وعشرات بل مئات غيرهم؟! وقصارى ما ينشر منها هو المحاضرة الافتتاحية La Leçon Inaugurale.

وكان موضوع محاضرتي هو: «موفق الدين (عبد اللطيف) البغدادي» (٥٥٧ هـ ـ ٦٢٩ هـ) المفكر والمؤرخ والجغرافي والطبيب المشارك في معظم علوم الأوائل، والذي عمل في خدمة صلاح الدين الأيوبي وبعض خلفائه الأيوبيين في الشام ومصر. وكان مولعاً في العلم بالملاحظة، ولهذا وصل إلى نتائج جديدة في علم التشريح، لأنَّه كان يقوم بملاحظة الجثث وبقايا الموتى في المقابر المهجورة. وكتابه في وصف مصر، وعنوانه «الافادة والاعتبار» حافل بالملاحظات المباشرة الصائبة. ويعدّ فتحاً في بابه، لأنه يقوم على منهج الملاحظة، لا على المنقول والروايات كما كانت الحال في كتب الجغرافيا والرحلات في العالم الاسلامي من قبل.. ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة يزعم انها بخط المؤلف. ولهذا قام (....) بنشرها مصوّرة، وزعم انه استطاع تحضير روح عبد اللطيف البغدادي، وان هذه الروح أيدت صحّة هذه النسخة وألقت عليه املاءات!!

ولموفق الدين عبد اللطيف البغدادي هذا ترجمة ذاتية نقلها ابن ابي أصيبعة في كتابه: «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وفي هذه الترجمة الذاتية يرسم صوراً دقيقة لبعض السلاطين والعلماء في عصره تتسم بالبراعة في وصف الشخصية

ومناقبها وطباعها، مما يجعل منه واصف شخصيات Portraitiste من الطراز الأول.

وكان عدد الحاضرين يتجاوز المائتين، وعلى رأسهم نائب مدير الكوليج دي فرانس، رينيه لابات René Labat المتخصص في اللغة الأكديَّة (الأشورية والبابلية) وحضارة ما بين النهرين، وهنري لاؤوست الأستاذ في الكوليج دي فرانس، وكلود كاهن Claude Cahen الأستاذ في السوربون فرع معهد الدراسات الإسلامية، وغيرهم.

وقدّمني الأستاذ جاك بيرك، الأستاذ في الكوليج دي فرانس، وأثنى على انتاجي العلمي ثناء مستطاباً مسهباً استحق منّي أصدق الشكر وعرفان الجميل.

ونص المحاضرة ـ وهو بالفرنسية ـ قد ضاع ضمن «الغنائم» التي نهبتها الشرطة الليبية في «غارتها الظافرة» على منزلي في بنغازي في ٢٣ ابريل سنة ١٩٧٣ بينما أنا في معتقل «الكريفيه» القريب من بنغازي!! هو ومجموعة من الدراسات بالفرنسية والانجليزية والأسپانية كنت قد ضممتها لتنشر في كتاب بباريس. وما سبق نشره من هذه الدراسات، وتبعاً لذلك استطعت الحصول على نسخ منه، هو الذي أدرج ضمن كتابي: «بعض موضوعات وشخصيات في الفلسفة الاسلامية» Quelques Thèmes et figures de la Philosophie Islamique الذي صدر في سنة ١٩٧٩ عند الناشر Maisonneuve et la Rose في باريس.

محاضرة عامة في السوربون

كذلك طلب مني مدير معهد الدراسات الاسلامية، الأستاذ روبير برونشفك Robert Brinschvig، القاء محاضرة عامة في قاعة كوشي Cauchy بالسوربون.

فألقيت هذه المحاضرة، وعنوانها: «تأملات في الحضارة العربية»، بحضور عدد كبير من الأساتذة والطلاب يناهز المائتين، يتصدرهم: روبير برونشفك الذي تولّى تقديمي، وشارل پلا Pellat، وريجي بلاشير Régis Blachère، وهنري كوربان Henry Corbin و Marios Canard. وتلا المحاضرة مناقشة طويلة حامية أحياناً.

وفي هذه المحاضرة قمت بتحديد الخصائص العامة للتفكير والابداع العلمي والفلسفي والديني والأدبي في الحضارة العربية، وأهمها في نظري: الدورية في تصور الزمان، والتكرار في التعبير وفي ادراك تسلسل الأحداث، والاهابة بالسلطة في الاحتجاج والتفسير، وازدراء الحاضر لصالح الماضي، والانفصال في السّرد

وفي تصور المكان. وسقت على هذا شواهد من التفكير العلمي والديني والانتاج الأدبي والفني.

ومع الأسف البالغ كان مصير نص هذه المحاضرة، هو مصير نص المحاضرة السالفة الذكر: لقد ضاع نصها هي الأخرى في نفس «الغارة الظافرة»!!

عار الهزيمة

وبينما كان معرض توت عنخ آمون الذي أُقيم في «القصر الصغير» Petit Palais في جادة الشانزليزيه في باريس ابتداءً من ١٧ فبراير سنة ١٩٦٧ يجتذب آلاف الزوّار كل يوم، حتى بلغ عددهم عند انتهائه في ٣١ يوليو مليوناً وثلثمائة ألف زائر، ويتردد اسم مصر متألقاً بالنسبة إلى ماضيها الفرعوني العظيم، اذا بمصر تُهزم هزيمة نكراء بتعدادها البالغ ثلاثين مليوناً أمام دويلة لم تبلغ من العمر إلاّ تسعة عشر عاماً، وهي اسرائيل ولم تدم الحرب بينهما سوى أربعة أيام هي ٥، ٦، ٧، ٨ يونيو سنة ١٩٦٧.

وقد بدأت الحرب بأن أغارت الطائرات الاسرائيلية في الساعة السابعة صباحاً (بالتوقيت المحلي، الخامسة بتوقيت غرينتش)، على تسعة عشر مطاراً مصرياً. فدمّرت الطائرات الحربية المصرية وهي رابضة على الأرض فأُشل سلاح الطيران المصري تماماً. وفي خلال ثلاث ساعات، أي في الساعة العاشرة، كان سلاح الطيران المصري قد انهار بوصفه قوة مقاتلة. وكان لذلك اثره البالغ في مجرى المعارك في سيناء: إذ صار الجيش المصري في سيناء معرّى تماماً من ناحية الجو، لا يحميه شيء من غارات سلاح الطيران الاسرائيلي لأنَّ سيناء صحراء رملية مكشوفة.

ولا تفسير للنجاح الهائل الذي أصابته هذه الغارة الجوية الاسرائيلية إلاَّ الغفلة التامة التي كان فيها القائمون على الجيش المصري بكل أسلحته: فلم يرتبوا شيئاً لاحتمال وقوع هذه الغارة: من تخزين الطائرات في مخازن تحت الأرض، واليقظة التامة لأي تحرك اسرائيلي، ونصب أجهزة الدفاع عن المطارات إذا أُغير عليها واستعدادها للتصدي للطائرات المغيرة، وتأهب الطائرات المصرية المقاتلة للتصدي للطائرات المغيرة. أمَّا الأسباب التي ينتحلها المحلّلون العسكريون لنجاح

هذه الغارة الاسرائيلية فهي: أسباب واهية، من مثل ما ورد في الكتاب السنوي لدائرة المعارف البريطانية عن سنة ١٩٦٨ (ص ٢٧٦) من ان هذا النجاح يعزى إلى ثلاثة أسباب:

الأول: ان أي سلاح طيران في العالم تسهُل اصابته اصابة بالغة إذا وقع عليه هجوم جيد التنسيق، خصوصاً إذا كان المتحاربون متجاورين.

الثاني: ان اسرائيل هجمت بعد أول مشرق الشمس حين كانت القوات المصرية قد تراخت في يقظة الصباح الباكر.

الثالث: ان قوات الدفاع الاسرائيلية برعت في جمع المعلومات. وشاع آنذاك ان اسرائيل استفادت من المعلومات التي جمعتها أقمار التجسّس الأمريكية.

فهل لو كانت مصر هي التي بدأت الهجوم، كانت نتيجة المعركة ستتغير؟! أمّا السبب الثاني فأتفه من ان يحتاج إلى رد، لأنّه اذا كان هناك استعداد ويقظة لكانا مستمرين دون استراحة. والسبب الثالث هو من أساطير الدعاية الاسرائيلية، بدليل ما حدث في حرب ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣.

ولهذا فإنَّ التفسير الوحيد المقبول في نظرنا هو ما قلناه من أنَّ المسؤولين عن الجيش كانوا في غفلة تامّة عن كل ما يتعلق بشئون الحرب وإعداد الجيش لخوض معركة. ولا يستطيع هؤلاء المسئولون ان يدّعوا وجود عنصر المفاجأة. وتسلسل الأحداث قبل اندلاع الحرب أبلغ شاهد على ما نقول:

ففي ١٢ مايو سنة ١٩٦٧ أنذر ليڤي اشكول، رئيس وزراء اسرائيل، بأنَّ اسرائيل «ستختار الوقت، والمكان، والوسائل اللازمة لمواجهة المعتدي» ـ وهو يقصد هنا ما تقوم به فصائل من منظمة فتح من هجمات على الحدود بين سوريا واسرائيل.

وفي نفس الوقت تقريباً حذّر الاتحاد السوڤييتي كلاً من سوريا ومصر بأن اسرائيل قد حشدت ما بين ١١ إلى ١٣ لواءً ـ تمثل ثلث الجيش الاسرائيلي ـ على الحدود مع سوريا. وكان هذا الخبر غير صحيح، لأنَّ اسرائيل انما كانت تستعدّ في الداخل لشن هجوم كاسح على مصر.

وبناء على تهديد اشكول في تحذير السوڤييت أخذت وحدات من الجيش المصري في التحرك نحو سيناء.

وفي مساء يوم ١٦ مايو بعث رئيس اركان حرب الجيش المصري عبد

المحسن كمال مرتجى برسالة إلى قائد قوات الطوارىء الدولية التابعة للأمم المتحدة - وكانت قوات الطوارىء تتمركز، منذ سنة ١٩٥٧، على اثر حرب اكتوبر سنة ١٩٥٦، على الحدود بين مصر واسرائيل، ثم في شرم الشيخ، المسيطرة على مضايق تيران التي هي مدخل خليج العقبة ومنها تدخل السفن الاسرائيلية المتوجهة إلى ميناء ايلات الاسرائيلي. وفي هذه الرسالة طلبت مصر انسحاب قوات الطوارىء من الحدود، لأنَّ مصر تريد تحريك قواتها لمواجهة اسرائيل. وبعث قائد قوة الطوارىء بالرسالة إلى يوثانت، السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة باعتباره الجهة التي تتبعها قوة الطوارىء الدولية. ووافق يوثانت على هذا الطلب في ١٨ مايو بانسحاب قوات الطوارىء، سواء من حدود سيناء الشرقية وقطاع غزة، ومن شرم الشيخ.

ولما كان المعادون لعبد الناصر في العالم العربي - وما أكثرهم! - يسخرون منه لأنَّه يسمح للسفن الاسرائيلية بالمرور في خليج العقبة منذ أوائل سنة ١٩٥٧ بعد وضع قوات الطوارىء الدولية في شرم الشيخ - فقد اندفع، كعادته، دون تبصر بالعواقب، وعلى طريقة «التهويش» التي جرى عليها دائماً في كل تصرفاته، وقرّر منع مرور السفن الاسرائيلية من خلال مضايق تيران، وذلك في يوم ٢٢ مايو. وكانت اسرائيل قد أعلنت من قبل انها ستعتبر منع مرور سفنها في خليج العقبة عملاً حربياً.

وكان رد فعل اسرائيل الفوري هو إعلان التعبئة العامة. وشفعت ذلك بأن أرسلت أبا ايبان، وزير الخارجية، للقيام بجولة طلب تأييد لاسرائيل من فرنسا وانجلترة والولايات المتحدة الأمريكية، وهي الدول التي وقعت على البيان الثلاثي الصادر في سنة ١٩٥٠ بضمان الأوضاع في منطقة الشرق الأدنى بين اسرائيل وجاراتها العربية. أمّا في فرنسا فقد قال الرئيس ديجول لإيبان بأنَّ فرنسا لا يعنيها الأمر، لكنه حذّر إيبان بألاّ تكون اسرائيل هي البادئة بالعدوان. اما انجلترة فإنَّ رئيس وزرائها هارولد ولسن أيّد موقف اسرائيل من حرية الملاحة في خليج العقبة، ويقال انه شجّعه على القيام بالحرب. وفي الولايات المتحدة الأمريكية كان الرئيس هو ليندون جونسون، وكان يكره عبد الناصر كراهية شديدة لتطاوله المستمر على الولايات المتحدة ولانحيازه إلى صف السوفييت وتغلغل نفوذ هؤلاء في مصر، ولعله لم ينس ما قاله عبد الناصر في خطبة ببور سعيد في ٢٣ ديسمبر من العام قبل الماضي (ديسمبر ١٩٦٥): «إذا لم يعجب هذا أمريكا، فلتشرب من البحر؛ وإن لم يعجبها الشرب من البحر الأبيض، فلتشرب من البحر الأحمر» - ويقال ان ليندون

جونسون حين قرأ ترجمة عبارة عبد الناصر هذه قال: «سأضطره أنا إلى الشرب من المجاري»!

فلما التقى بايبان أخبره ان الولايات المتحدة ستساعد اسرائيل بطريقتين: أولاً بالاتفاق مع بريطانيا ستصدر الدولتان اعلاناً بالتزام حرية الملاحة في خليج العقبة والدخول فيه من مضايق تيران لكافة الدول فإن لم ينجح هذا الاعلان، فإنّ الولايات المتحدة ستنظر في القيام بعمل بحري دولي لإرغام مصر على السماح بحرية الملاحة في مضايق تيران. هذا مع العلم بأنّه لم تمر أية سفينة اسرائيلية من مضايق تيران خلال العامين السابقين، وان تجارة اسرائيل عن طريق خليج العقبة لا تمثل إلاّ ٢% من مجموع تجارتها مع الخارج، وان ابحار السفن الأمريكية والانجليزية في خليج العقبة قليل جداً.

ولهذا فإن دعوى حرية الملاحة في مضايق تيران كانت دعوى زائفة لا تبرّر عدوان اسرائيل على مصر. إنّما أدركت اسرائيل ان تسلح مصر من الاتحاد السوفييتي قد يجعل الجيش المصري خطراً عليها لهذا بادرت باهتبال هذه الفرصة لتوجيه ضربة قاصمة لإجهاض الجيش المصري. وتمّ التفاهم بين ليندون جونسون وبين اسرائيل على القيام بهذه الضربة التي سيستفيد منها كلتاهما: الولايات المتحدة الأمريكية للانتقام من عبد الناصر وسياسته المعادية لأمريكا وحلفائها العرب في المنطقة (السعودية، والأردن والعراق)، واسرائيل التي ستقضي بذلك على تزايد قوة مصر العسكرية.

وبتسرعه المعهود واندفاعه الأهوج وعدم تبصره بعواقب الأمور، أتاح جمال عبد الناصر الفرصة السانحة لكي تقوم اسرائيل بضربتها. فصرّح في ٢٦ مايو سنة ١٩٦٧ أمام اتحاد النقابات العربية قائلاً ان الوقت قد حان للعمل.. وقال ما معناه: نحن نشعر الآن بأنّنا أقوياء ولدينا القدرة الكافية لخوض المعركة ضد اسرائيل. وبمعونة الله سننتصر. وعلى هذا الأساس قررنا المضيّ قدماً... واستيلاؤنا على شرم الشيخ معناه أننا مستعدون للدخول في حرب شاملة ضد اسرائيل. وقد قمت بتحركاتي الأخيرة لهذا الغرض. والآن خوّلتني اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي أن أقوم بتنفيذ هذه الخطة في الوقت المناسب، وقد جاء الوقت المناسب الآن إذ صارت سوريا مهدّدة بالعدوان.. ونحن واثقون أنّنا متى خضنا المعركة فإنّنا سننتصر.

ويظهر من تصريحات لعبد الناصر فيما بعد انه قام بتحركات في سيناء في اكتوبر سنة ١٩٦٦ وفي مايو سنة ١٩٦٧ بناء على توجيهات من الاتحاد السوفييتي.

ثم إنَّ الاتحاد السوفييتي هو الذي ضغط على عبد الناصر لتوقيع ميثاق دفاع عن سوريا في ٤ نوفمبر سنة ١٩٦٦.

وكانت العلاقات بين سوريا من ناحية، وبين السعودية والأردن والعراق من ناحية أخرى في غاية السوء. كما ان حرب اليمن التي خاض فيها الجيش المصري حرباً ضد جيش الامام البدر المدعوم دعماً كلياً من العربية السعودية قد جعل مصر في شبه حرب معلنة مع السعودية التي كان يعتلي العرش فيها آنذاك الملك فيصل، الذي طرد أخاه الملك سعود وحلَّ محله على العرش، وهنالك لجأ سعود إلى مصر. وكانت قوات كبيرة من الجيش المصري تحارب في اليمن حرب عصابات شرسة.

في هذه الظروف البالغة السوء والتعقيد، أليس من الجنون المطبق اذن ان يدّعي عبد الناصر ان الفرصة سانحة لخوض معركة ضد اسرائيل؟

لكن الغرور كان قد تملكه تماماً حتى أعماه عن كل شيء. ولِمَ لا يستولي عليه الغرور، وقد «انتصر انتصاراً هائلاً» على «الاقطاعيين» في مصر، انتصاراً لا يدانيه كل انتصارات الاسكندر المقدوني، ويوليوس قيصر، وسعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، ونابليون؟!!

وكيف لا ينتصر على اسرائيل بجيشه الذي كان قائده هو «المشير عبد الحكيم عامر» الذي حقّق انتصاراً عظيماً في المعركة التي خاضها ضد «الاقطاع» بواسطة «اللجنة العليا للاقطاع» التي رأسها وضمّت وزير حربيته، شمس بدران، وأبطال «المعارك العظمى»: علي صبري، عباس رضوان، كمال رفعت، أمين هويدي، صلاح نصر، أولئك القادة العظام الذين يقصر دونهم ـ وبمراحل عديدة ـ فون مولتكه، وهندنبورج، وفوش، ومونتجمري!!

لقد انصرف هؤلاء «الأبطال العمالقة» عن الحرب وشؤونها، والتدريب والإعداد، والتخطيط والتحصين لما هو أهم من هذا كله، ألا وهو «القضاء على فلول الاقطاع في مصر». فظلوا يعقدون الجلسات في كل أسبوع طوال عام ١٩٦٦ وأوائل ١٩٦٧ ليبحثوا ويتعقبوا قيراطاً من الأرض لم يسجله «اقطاعي» في اقراره المقدم إلى «الاصلاح الزراعي»، لأنّه دون هذا «القيراط» المنسي تهون سيناء كلها (رغم انها تمثل خمس مساحة مصر كلها)، وقناة السويس بما تدره من أرباح، وبترول سيناء!!

وقد بلغ استخفاف عبد الناصر بعقول المصريين حدًّا جعله يقول، في الخطبة

التي ألقاها في ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧، أي بعد الهزيمة المنكرة بشهر ونصف، ان اسرائيل لم تحقق هدفها، لأنَّ هدفها هو اسقاط عبد الناصر والقضاء على الثورة في مصر! إي والله، وكأن هرتسل وزعماء الحركة الصهيونية منذ مؤتمر بازل في سنة ١٨٩٩ إنَّما كانوا يهدفون من حركتهم الصهيونية كلها ان يسقطوا بعد سبعين عاماً حاكماً في مصر ويقضوا على ثورة قام بها؟!

وكانت مسرحية الاستقالة الرهيبة في مساء يوم ٩ يونيو من أحقر المهازل وأخسّها! لقد دبرها مع علي صبري وسائر زبانيته على أساس ان تخرج جماعات مأجورة في الشوارع تطالب بعودته إلى الحكم. وانطلت الحيلة على السُّذّج من العامة التي فقدت عقلها بسبب الهزيمة النكراء، وراحت حناجرها الكاذبة تطالب بعودته، إي والله: عودة القائد الذي مُنِيَ بأبشع هزيمة في تاريخ مصر كلها منذ حينها حتى ذلك اليوم! ولا يعرف التاريخ قائداً هُزِم هذه الهزيمة ثم طالبت الجماهير بعودته!

ولم يكن عنده في هذه المرة الحجة التي تذرَّع بها في هزيمة حرب السويس (٢٩/ ١٠ إلى ٧/ ١١ سنة ١٩٥٦) وهي أنَّه كان يواجه دولتين كبيرتين هما: انجلترة، وفرنسا، وليس فقط «ذيلهما» اسرائيل، رغم ان هذه الحجة واهية تماماً لأنَّ اسرائيل كانت قد اكتسحت معظم سيناء ووقفت على بعد عشرين كيلومتراً شرقي قناة السويس، قبل دخول انجلترة وفرنسا هذه الحرب، وانسحب الجيش المصري من كل سيناء الى غربي قناة السويس.

فحتى هذه الحجة الواهية لم يعد لها وجود هذه المرة في حرب يونيو سنة ١٩٦٧: لقد كانت مصر في مواجهة اسرائيل وحدها في المعارك الفعلية لهذه الحرب.

وامعاناً في التضليل الوقح الكالح الوجه، راح يلقي المسؤولية كلها على القائد العام للجيش عبد الحكيم عامر، وقائد سلاح الطيران، زاعماً في صفاقة منقطعة النظير انه نبّه هذا القائد العام في يوم الجمعة ٢ يونيو بأنَّ اسرائيل ستهجم في يوم الاثنين ٥ يونيو وانها ستوجه ضربتها الأولى الى سلاح الطيران بالذات. فإن كان صحيحاً ما زعمه هذا المتنبىء الكذّاب، فلماذا لم يقم بنفسه بالتأكد من استعداد سلاح الطيران وسائر الجيش للتصدي لهذا الهجوم؟ أليس هو رجلاً عسكرياً وحارب في سنة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩؟ ثم اذا كان هذا صحيحاً، فلماذا انتظر حتى تضرب اسرائيل اولاً وأبسط قواعد ما تعلمه في فن الحرب، هو ان يعاجل العدوّ بالضربة الأولى قبل ان يقوم هذا العدوّ بها، خصوصاً وقد كانت لديه فسحة

من الوقت ـ ثلاثة أيام ـ كي يوجه هو هذه الضربة الأولى إلى اسرائيل؟! لكنه الكذب الفاضح المفضوح الذي تعوّد عليه خلال خمس عشر سنة قد سوّل له ان يفتري هذه الأكذوبة الأخرى.

ثم ما معنى إلقائه المسؤولية على القائد العام وقائد سلاح الطيران وغيرهما من القوّاد، بينما كان هو المستبدّ وحده بكل شؤون الحكم، والمتصرف الوحيد في سياسة مصر، وهو الذي انفرد باتخاذ القرارات والتصرّفات التي أعطت اسرائيل الحجة والفرصة للهجوم على مصر؟! إنَّ مسئوليته عن الهزيمة مثل مسؤولية هؤلاء القوّاد سواء بسواء، وتزيد عليها كثيراً جداً من حيث السياسة التي أدّت إلى نشوب هذه الحرب. فأيّ تضليل أكبر من ان يحاول التخلص من المسؤولية الكاملة بإلقائها على قادة الجيش؟! نعم هم مسؤولون مسؤولية فادحة عن الهزيمة العسكرية، لكنه هو أيضاً مسؤول عنها بنفس الدرجة، ويزيد عليهم بمراحل بمسؤوليته عن الأسباب التي أدّت إلى اندلاع الحرب.

أمّا «جماهير ٩ و١٠ يونيو» فيا حسرتاه على مصر منها! ويا له من عار ليس أشنع منه عار حين راح نواب مجلس الأمة يرقصون في صباح يوم ١٠ يونيو في مجلس الأمة ـ فرحين بعودة مَنْ؟ بعودة منْ جرَّ على وطنهم أخسّ هزيمة عرفها في كل تاريخه الطويل المقدّر بسبعة آلاف عام! والذي أذلّهم وسامهم أبشع المظالم طوال خمس عشر سنة! والذي بدّد أموالهم في مغامرات دون كيخوتية في البلاد العربية؛ وألّب هذه البلاد بعضها على بعض في مؤمرات دنيئة جعلت كل بلد عربي يتربص بالبلاد العربية الأخرى فتمزق شمل العرب تمزُّقاً لم يعرفوا مثله في كل تاريخهم؛ وسلب كل مصري كرامته وحريته وشرفه حتى صار مسخاً ذليلاً بائساً مُعْدماً مهيناً في كل مكان.

فهل كانت حركة «جماهير ٩ و١٠ يونيو» تطبيقاً للمثل العاميّ الشائع في مصر، والذي يقول: «القط ما يحبّش إلاَّ خنّاقه» (القط لا يحب إلاَّ مَنْ يُعَذّبه ويواصل خنقه)؟

أم ان ما سُمِّيَ بحركة «جماهير ٩ و١٠ يونيو» هو أكذوبة اخترعتها أبواق عبد الناصر، ومهزلة مفضوحة مثّلها علي صبري وسائر زبانية الاتحاد الاشتراكي، بدليل انها قامت عقب اعلان عبد الناصر في الاذاعة استقالته بدقائق معدودة؛ ولم تشارك فيها إلاَّ عصابة المنتفعين من أعضاء الاتحاد الاشتراكي في الاسكندرية اولاً ثم القاهرة ـ بينما بقي سائر الشعب مذهولاً فاقد الوعي من وقع الهزيمة مشلول التفكير فيما ينبغي عليه ان يواجه به هذا الموقف.

المواقف في فرنسا تجاه هذه الأحداث

أمّا هنا في فرنسا فقد كانت المواقف من هذه الأحداث متباينة:

١ ـ أمّا رئيس الجمهورية، شارل ديجول، فقد كان ساخطاً على اسرائيل لأنها لم تستمع إلى نصيحته وهي عدم البدء بالهجوم على مصر. وكان يعلم في الوقت نفسه ان جيش اسرائيل أقوى من الجيش المصري، ولهذا قال لإيبان بالحرف الواحد: «أنا أعلم ان اسرائيل أقوى من مصر، وأنكم ستهزمون الجيش المصري اذا قامت الحرب لكن لا تكونوا البادئين بالحرب». وكانت الأسلحة التي انتصرت بها اسرائيل اسلحة استوردتها من فرنسا، وخصوصاً طائرات «الميراج» Mirageصاحبة الدور الأكبر في ضرب سلاح الطيران المصري منذ اول دقيقة، وحتى نهاية عمليات القتال. فكان ديجول إذن أدرى الناس بقوة السلاح الذي تسلّح به الجيش الاسرائيلي. ومن هنا كان حكمه هذا بأنّ اسرائيل هي التي ستنتصر. وربما كان يقصد بنصيحته تلك خدمة قضية اسرائيل دولياً، فما دامت هي التي ستنتصر قطعاً، فالأفضل لها ان تقع مسؤولية البدء بالحرب على الطرف الآخر، مصر، وستكون اسرائيل في موقف مَن يدافع عن نفسه ضد اعتداء وقع عليه دون ان يتسبّب فيه، وبذلك يكفل لنفسه تأييد الرأي العالمي.

وهذا ما يفسّر تردد الحكومة الاسرائيلية في البدء بالهجوم. اذ كان من رأي وزير الخارجية أبا ايبان في يوم ٢٤ مايو الانتظار وعدم استباق العدوان حتى لا تتخذ الدول الكبرى، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية، موقفاً معارضاً، بينما كان من رأي رئيس أركان الحرب، اللواء اسحق رابين المبادرة إلى شن الهجوم حتى لا تجلب مبادأة مصر بالهجوم البلاء على اسرائيل. وفي سلسلة من الاجتماعات التي عقدتها الوزارة الاسرائيلية برئاسة ليفي اشكول في أواخر مايو وفي ٣ يونيو اعترضت الوزارة على البدء بشن الهجوم. لكن تعيين موشي ديان

وزيراً للحرب في اول يونيو حسم الموقف لصالح رأي رابين، وقررت الوزارة الاسرائيلية بدء الهجوم.

وهكذا يمكن ان يقال ان نصيحة ديجول بألاَّ تكون اسرائيل هي البادئة بالعدوان لم يكن المقصود بها مصلحة مصر، بل مصلحة اسرائيل نفسها. لكن ليس معنى هذا أنَّه كان يتمنَّى هزيمة مصر، بل ربما كان الأولى بالانصاف ان يقال انه لم يكن يريد ان تقوم هذه الحرب، لأنَّ العلاقات بين مصر وفرنسا كانت منذ بداية سنة ١٩٦٦ قد أخذت في التحسُّن، وبعد زيارة المشير عبد الحكيم عامر لباريس ومقابلته لديجول وتوقيع اتفاقات بين البلدين ازدادت العلاقة بين البلدين توثقاً. وبعد ان كان ديجول يقول عن اسرائيل في السنوات السابقة: «اسرائيل: صديقتنا وحليفتنا» أخذ طوال سنة ١٩٦٦ والنصف الأول من سنة ١٩٦٧ يتباعد عنها قليلاً قليلاً، وإن ظلَّ يمدّها بطائرات الميراج باستمرار. ثم ازداد حنقه على اسرائيل لما بدأت بالعدوان، لأنَّها لم تستمع لنصيحته فجرحت بذلك كبرياءه وهو الحريص كل الحرص على هذه الكبرياء.

وقد عبّرت الحكومة الفرنسية عن موقفها من تسلسل الأحداث في تصريح أصدرته في ٢ يونيو سنة ١٩٦٧ تقول فيه: تؤكّد الحكومة الفرنسية ان كل دولة من الدول المعنية بهذه المشكلة في الشرق الأدنى لها الحق في ان تعيش... لكن أول دولة تستعمل السلاح لن تحْظى بتأييد فرنسا.

وفي ٧ يونيو قررت فرنسا حظر ارسال أية أسلحة إلى اسرائيل.

وفي ١٥ يونيو أعلنت فرنسا انها لن تعترف بأيّ تغيير يتم الحصول عليه بقوة السلاح في الوضع القائم في الأراضي في بلاد الشرق الأدنى قبل اندلاع القتال.

وثم دافع آخر جعل ديجول يدين العدوان الاسرائيلي وهو أنَّه رأى فيه توسيعاً للنفوذ الأمريكي في الشرق الأدنى: فمع انتصار اسرائيل سيرسّخ النفوذ الأمريكي في المنطقة أكثر فأكثر. وكما قالت جريدة «الايكونومست» البريطانية في عددها الصادر في ١٠ يونيو: «إن رجال الجنرال موشي ديان قد غيّروا نِسَب القوى في الشرق الأوسط. لقد التقطوا الكستناء من النار ليس فقط لحساب اسرائيل، بل وأيضاً لحساب امريكا وبريطانيا». وديجول كان أغير ما يكون من تزايد نفوذ هاتين الدولتين في تلك المنطقة التي كان له فيها، خصوصاً فيما بين الحربين العالميتين، نفوذ ضخم، عملت انجلترة اولاً أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة على تقليصه، وجاءت امريكا فأجهزت

عليه تماماً، حتى صار رمزياً ابتداء من الخمسينات..

٢ ـ لكن أنصار اسرائيل في فرنسا تحركوا منذ بداية الأزمة في أوائل مايو سنة ١٩٦٧. وكان على رأس هؤلاء الجنرال ماري ـ پيير كينج (١٨٩٨ ـ ١٩٧٠) Kaenig الذي كان يترأس جماعة تسمى «التحالف بين فرنسا واسرائيل» Alliance France - Israël. إذ راح يجمع التوقيعات المؤيدة لإسرائيل، ويعقد الاجتماعات لتأييد اسرائيل، وكان على رأس الموكب الذي سار في شارع الشانزليزيه صوب ميدان النجمة l'Etoile في عصر يوم الأربعاء ٣١ مايو سنة ١٩٦٧ وهم يهتفون بالنصر لإسرائيل. وحتى بعد انتهاء حرب الأيام الستة راح يطالب الحكومة الفرنسية بابقاء الحظر الذي فرضته على توريد السلاح إلى اسرائيل.

ويتلوه في الحماسة لاسرائيل جاك سوستل Jacques Soustelle الذي كان حاكماً عاماً للجزائر في الفترة من ١٩٥٥ حتى سنة ١٩٥٦، وكان من أبشع الجلاّدين الاستعماريين، وشارك في الفتنة التي قام بها راؤول صالان وشال Challes وزلّر Zêller في سنة ١٩٦١ ضد سياسة ديجول في الجزائر. وكان ولا يزال حتى اليوم من ألدّ أعداء العرب، ويحمل في قلبه حقداً أزرق على كل ما هو عربي أو إسلامي؛ وفي الوقت نفسه هو من غلاة المدافعين عن الصهيونية وعن اسرائيل، ويتجلّى ذلك في كتاب: «المسيرة الطويلة لإسرايل» La longue marche d'Israël (سنة ١٩٦٨).

وإلى جانب هذين السياسيين، كان هناك عدد من الكتّاب المشايعين لاسرائيل بسفاهة لا حدود لها، وأسفلهم جميعاً الكاتب المسرحي الروماني الأصل يوجين أيونسكو Eugène Ionesco الذي راح يكتب مقالات حشاها بأقذع عبارات الهجوم على مصر وحكّامها بأسلوب تجاوز كل فحش، وبعبارات هي مجرد وصف لكل ألفاظ البذاءة والسفالة في اللغة الفرنسية. صحيح ان أمّه تيريز ايكار Thérèse Icard يهودية فرنسية وكانت تعلّم اللغة الفرنسية في رومانيا، وهناك تزوّجت من محام مسيحي يدعى يوجين يونسكو. وهاجرت الأسرة إلى فرنسا في سنة ١٩٢٥، وبعد ذلك بقليل من السنوات تركها هذا الزوج هي وولديها. فهل هذه الأم اليهودية الفرنسية هي التي غذّته بالروح الصهيونية المتطرفة؟ ربما. وقد بلغ به التعصب لاسرائيل أنه زارها عشية حرب الأيام الستة وراح يلقي بسيل من التصريحات المؤيّدة لاسرائيل والطاعنة في مصر وسائر البلاد العربية. وقد أصدر في سنة ١٩٦٨ الجزء الثاني من مذكراته بعنوان: «حاضرٌ ماضٍ، ماضٍ حاضر»، وفيه يؤكّد شعوره القوي العميق بأصله اليهودي، وانتمائه اليهودي، واعتزازه البالغ

بهذا الانتماء وذلك الأصل اليهوديين، فاتضحت حقيقة نيّاته التي كان قبل ذلك يغلّفها بالكلمات الجوفاء الزائفة. العطف على المضطهدين، الاخاء الانساني، الحرية الانسانية، إلى آخر هذه الأكاذيب المفضوحة التي يرددها هو وأمثاله من الكتّاب المنافقين الكذّابين الدجّالين.

وتتلوه في التعصب لليهود والصهيونية كاتبة تدعى نتاليا ساروت Nathalie Sarraute (١٩٠٢ ـ   )، وهي يهودية وُلِدت في روسيا، وجاءت إلى فرنسا وهي في الثانية من عمرها وحصلت على ليسانس الحقوق، واشتغلت بالمحاماة حتى سنة ١٩٤٠ لما ان احتلت المانيا فرنسا. وأصدرت أول روايه في سنة ١٩٤٤ بعنوان: «صورة مجهول». وتوالت بعد ذلك رواياتها: «مرتيرو» Martereau (سنة ١٩٥٣)، و«الزيج» Planetarium (سنة ١٩٥٩)، و«ثمار الذهب» (سنة ١٩٦٣) ـ واتخذت فيها اسلوباً خاصاً في الرواية: هو «الأسلوب المضاد للرواية»، الذي سيشارك فيه جماعة من القصصيين مثل الان روب ـ جرييه Alain Robbe Grillet وميشيل بوتور Michel Butor الذين سينشئون ما سُمِّي باسم «الرواية الجديدة» Le nouveau roman، وهو نوع من «الرواية» خال من كل قصّ ورواية! ـ وقد راحت هي الأخرى طوال شهر مايو سنة ١٩٦٧ تجمع التوقيعات وتعمل على اصدار بيانات تأييد لإسرائيل من كتّاب وفنّانين لا يعرفون عن المشكلة شيئاً وإنّما هم يجارون الموجة، او هم مأجورون للمؤسسات الصحفية ودور النشر التي يسيطر عليها اليهود في فرنسا. وقد زارت اسرائيل في سنة ١٩٦٩ وقوبلت بحفاوة بالغة بسبب موقفها ذاك.

وإلى جانب هذين الكاتبين اليهوديين اللذين تزعما حملة التأييد لإسرائيل والهجوم القذر على مصر والعرب، يجب ان نذكر كاتباً يهودياً ثالثاً طال ما ادّعى قبل ذلك حياده ازاء اسرائيل والعرب ـ وهو ريمون آرون Raymond Aron (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠)، أستاذ علم الاجتماع في السوربون (منذ سنة ١٩٥٦)، والكاتب السياسي الغزير الانتاج. لكنه طوال النصف الثاني من شهر مايو سنة ١٩٦٧ راح يكتب في مختلف الصحف، وخصوصاً في جريدة Le Monde دفاعاً عن اسرائيل. وفي مقال له بهذه الجريدة راح يعبّر بصراحة عن مكنون اعتقاده فقال ما معناه: «حتى الآن كنت على الحياد في قضية اليهود والعرب. أمّا الآن وقد صار الأمر يتعلق بإسرائيل فإنّني منحاز كل الانحياز الى صف اسرائيل، واؤيّد موقفها بكل قوة. ان الأمر اذا تعلّق بإسرائيل فلا يمكنني أبداً ان أقف موقف الحياد أو عدم الاكتراث». وفي الوقت نفسه راح يهاجم ديجول وموقف الحكومة الفرنسية تجاه

اسرائيل؛ وقد جمع هذه المقالات وغيرها في كتاب أصدره في سنة ١٩٦٩ تحت عنوان: «ديجول، واسرائيل، واليهود)، وتبيّن منها بكل وضوح انه متعصب لليهود ولاسرائيل تعصباً أعمى، وبهذا هتك قناع الموضوعية والتحرر الفكري والسياسي الذي طالما دجّل به، من قبل وموّه به على الأغرار من الناس.

أمّا غير اليهود من الكتّاب الذين أيدوا اسرائيل إمّا بالمقالات، أو بالاشتراك في توقيع بيانات التأييد، او بالتصدر في المواكب المشايعة لإسرائيل فقد كانوا:

١ ـ إمّا من محترفي التوقيعات لأسباب مختلفة: منها الظهور، والتظاهر بالتحرّر في الرأي، والعطف العام على اليهود والأقليات المضطهدة (فيما يزعمون). وهم كتّاب من الدرجة العاشرة او دون ذلك، لا يجدون وسيلة للظهور وعدم النسيان إلاّ الاشتراك في هذه التوقيعات التي تنشر في الصحف اليومية الكبرى (الموند، الفيجارو، فرانس سوار، الخ). وبعضهم من الكاثوليك الملتزمين، والغالبية من اليساريين الهامشيين.

٢ ـ وإمّا من المأجورين الذين يعملون في مؤسسات صحفية أو دور نشر، ودور انتاج سينمائي، ومسارح وفرق موسيقية: يسيطر عليها النفوذ اليهودي إمّا بالمال، أو بالارادة، أو بالإعلان. وقد لاحظ الرئيس ديجول بحق وصرّح «بتغلغل النفوذ اليهودي الصهيوني في الأوساط المتصلة بالإعلام» على حد تعبيره الذي قاله في احدى الحفلات. يضاف إلى ذلك قوله المشهور عن اليهود بوجه عام إنّهم «شعب من الصفوة، واثق بنفسه ومتسلط» Un Peuple d'élite, sûr de lui - même et dominateur ـ وذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقده في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٦٧.

لا أحد يدافع عن مصر

وفي مقابل هذه الهستيريا في تأييد اسرائيل، لم اجد أحداً يدافع عن موقف مصر والعرب بعامة في أدوات الإعلام الفرنسية.

فجمعية الصداقة بين مصر وفرنسا اختفت تماماً وكأنّها لم توجد ابداً، وهي نفس الظاهرة التي شاهدتها في سويسرة أيام أزمة السويس (يوليو ـ نوفمبر ١٩٥٦).

والأساتذة الذين كانوا على علاقة وثيقة بمصر وكانوا تظاهروا بالصداقة لها وللعرب صمتوا طوال الأزمة السابقة على قيام الحرب، ولم يكتبوا إلاّ بعد انتصار اسرائيل وهزيمة مصر وسائر العرب، أي حين لم يعد ثم فائدة في التأييد ـ وهذا

شأن جاك بيرك، ومكسيم رودانسون. وما كتبه في جريدة «لوموند» (في شهر يونيو ويوليو) كان مجرد استدرار للعطف على المهزوم واستعطافاً للظافر كي لا يبالغ في إهانة وتمزيق الفريسة.

وموقف جان پول سارتر كان التظاهر بالحياد مع التأييد المستور لإسرائيل. وكان قد زار مصر قبل هذه الحرب بثلاثة أشهر بدعوة من جريدة الأهرام، وأصدر عدداً خاصاً من المجلة التي يشرف عليها: «الأزمة الحديثة» Temps Modernes في أول يونيو سنة ١٩٦٧ يقع في قرابة ألف صفحة، خصّصه للنزاع العربي الاسرائيلي، واستكتب فيه عدداً متساوياً من الكتّاب العرب والكتّاب اليهود، يعرض كل جانب منهما رأيه في هذا النزاع. والملاحظ ان الكتّاب العرب الذين استكتبهم هم من اليساريين المؤيّدين للتقارب بين العرب واسرائيل، وهم بالتالي لا يمثلون الموقف الحقيقي للعرب ازاء هذا النزاع. وقد كتب سارتر مقدمة لهذا العدد تتسم بالالتواء والغموض والمداراة للتظاهر بالحياد، لكنها في حقيقتها إذا قرئت بإمعان كشفت عن موقف سارتر الممالىء لإسرائيل. فمثلاً يقول: «إنَّ لدينا حساسية لكل ما يبدو، من قريب أو من بعيد، انه معاداة للسامية. وكثير من العرب يجيبون قائلين: «نحن لسنا من أعداء السامية، وإنَّما نحن ضد دولة اسرائيل». وهم لا شك على حق: لكنهم هل يمكنهم أن يمنعوا ان هؤلاء الاسرائيليين ليسوا في نظرنا يهوداً ايضاً؟». وهذا كلام في غاية الخبث والتضليل. إذ معناه هو انه يؤيد كل ما ترتكبه اسرائيل من مظالم واعتداءات حتى لا يتهم بأنّه يعادي السامية! وقياساً على هذا المنطق كان عليه ان يؤيّد كل جرائم الاستعمار الفرنسي، حتى لا يتهم بمعاداة فرنسا، وأن يؤيد كل استعمار أوروبي حتى لا يتهم بمعاداة أوروبا!!

وحين يقول العرب للأوروبيين: «إنَّكم ارتكبتم جرائم عنصرية في أوروبا، فلماذا يجب علينا نحن ان ندفع ثمنها؟» ـ لا يجد سارتر جواباً عن هذه الحجة الدامغة إلاَّ أن يقول بكل صفاقة واستخفاف: «ليست مهمتنا هنا أن نتبادل الحجج والبراهين» ـ خبّرنا إذن ما مهمتك إذن في إصدار هذا العدد، يا سيد سارتر؟! وهكذا حين يُضيّق عليه الخناق يحاول الافلات بهذا الكلام الواهي السخيف.

وقد كتب سارتر هذه المقدمة في يوم ٢٧ مايو سنة ١٩٦٧، أي قبيل قيام الحرب بتسعة أيام.

أمَّا موريس ديڤرجيه Maurice Duverget، أستاذ القانون الدستوري والنظم

السياسية، والغزير الانتاج في الصحف اليومية والاسبوعية، فقد التزم الصمت حيال المشكلة طوال شهر مايو والنصف الأول من يونيو، ثم جاء في العدد الصادر بتاريخ ١٤ إلى ٢٠ يونيو فعلّق على نتيجة الحرب تعليقاً مجانياً، أي يُحلّل وينصح من علٍ: فهو يقول: «رغم الدمار والضحايا، فإنَّ الحرب الإسرائيلية ـ العربية الثالثة اكتسبت طابعاً نصف مُطَمئن: لقد برهنت على ان الهم الأساسي للاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية هو تجنب مجابهة مباشرة قابلة لأن تجر إلى نزاع عالمي»!! وبعد هذا الاطمئنان راح يفتي في الحرب فيقول: «بعد ان سيطر عبد الناصر على مضيق تيران، كانت مصلحة العرب هي المحافظة على السلام. واذا صارت الحرب لا مفرّ منها، فإنَّ مصلحتهم كانت في أن يكونوا هم البادئين بفعل ما فعلته اسرائيل: أي تدمير طيران العدو وهو على الأرض في الساعات الأولى من هجوم مفاجىء. وأخيراً، اذا خسروا المعارك الأولى، فقد كان من مصلحتهم الاستمرار في حرب طويلة فيها عدم التكافؤ بين القوى يمكن ان يتحول إلى صالحهم. أمّا مصالح الاسرائيليين فكانت على العكس من هذا تماماً».

وكلام ديفرجيه هذا كلام تافه يمكن ان يكتبه أصغر صحفي، لا أستاذ في العلوم السياسية في كلية الحقوق ويتصدر للكتابة في الصحف باعتداد بالنفس وكبرياء مثله! فقد جاء بعد وقوع الأحداث وليس قبلها. وهو يتخيل ما لا ينطبق على واقع الحال: عسكرياً وجغرافياً: عسكرياً لأن الجيش المصري كان قد انهار تماماً رجالاً وعتاداً فلم يكن في وسعه مواصلة المقاومة، وجغرافياً لأن اسرائيل لن تعبر قناة السويس الى الضفة الغربية لأنها لم تكن في حاجة الى مثل هذا العبور إلاَّ اذا كانت تريد الاستيلاء على مصر كلها، وهو أمر لم يخطر لها أبداً ببال.

ولا يقل عن هذا الكلام سخافة ما قاله ريمون كارتييه Raymond Cartier في مجلة Paris Mateh (بتاريخ ١٧ يونيو سنة ١٩٦٧ ص ٩٣): إنَّ عبد الناصر «بمنعه المرور في خليج العقبة وبدعوة العالم العربي إلى الجهاد لمحو ظل اسرائيل، فإنَّه قامر بالكلّ من أجل الكل. لكن حظه الوحيد كان ان يدخل الأمريكان والروس في الحرب. لكنهما لم يفكرا في ذلك. لقد راهن عبد الناصر على حرب عالمية، فخسر». فالواقع هو ان عبد الناصر، مهما يكن ضيق عقله وافتقاره إلى التفكير فإنَّه لم يكن يفكر أبداً في نشوب حرب عالمية من أجله. وكل ما في الأمر انه لم يخطر بباله ابداً ان اسرائيل ستهاجم مصر بسبب إغلاق مضايق تيران. ولم يجد أحداً ممن حوله يبصّره بعواقب هذا العمل بعد ان أعلنت اسرائيل على لسان رئيس وزرائها ليفي اشكول انها تعد إغلاق مضايق تيران مبرراً للقيام بحرب Casus Belli.

وقد ورد في بعض المذكرات ان الوحيد من بين الوزراء والقادة العسكريين الذي عارض اغلاق مضايق تيران هو رئيس الوزراء آنذاك المهندس صدقي سليمان. ولئن صح هذا، فما قيمة صوته إلى جانب سائر الخشب المسندة التي يتألف منها مجلس الوزراء، والتي لا بدَّ انها راحت تمجّد هذه «الحركة الجبارة» التي أقدم - أو سيقدم عليها لست أدري - عبد الناصر، بما صبغوا عليه من نفاق وجبن وجهل فاحش.

موقف ديجول وموقف رئيس حكومته پومبيدو

ولئن كان ديجول منذ بداية المشكلة قد صرّح في ٢ يونيو بأنَّ «مَن يبدأ الحرب فإنَّه لن يحظى بتأييد فرنسا»، ورفض اقتراح ايبان بأن يصدر ديجول اعلاناً رسمياً يضمن فيه حرية الملاحة لكل السفن ومنها الاسرائيلية في خليج العقبة، واقترح عقد مؤتمر رباعي تشترك فيه: الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوڤييتي، وانجلترة وفرنسا لتأمين استمرار السلام في الشرق الأوسط، وأخيراً أعلن في ٢١ يونيو ان اسرائيل هي المسئولة عن نشوب الحرب، وانه يرفض الحق في غزو اراضي الغير بالقوة، واشار إلى وجود علاقة بين التدخل الأمريكي في ڤيتنام وبين الموقف في الشرق الأوسط - نقول إذا كان هذا هو موقف ديجول، فإنَّ موقف رئيس وزرائه جورج پومبيدو كان موقف المؤيّد لإسرائيل. والدليل على ذلك عملياً هو انه هو الذي أوعز إلى جريدة «فرانس سوار» ان يكون عنوانها الضخم في الطبعة الأولى التي أصدرتها في الساعة التاسعة من صباح يوم ٥ يونيو هو: «مصر تهاجم اسرائيل» وهنالك تدخل ديجول وجعل مدير مكتبه يتصل بهذه الجريدة وتغير العنوان في الطبعة التالية، وفعلاً صدر العنوان في الطبعة التالية - حوالى الظهر - هكذا: «الحرب بين مصر واسرائيل». وقد ذكرت هذا الخلاف بين ديجول وپومبيدو مجلة Nouvel Observateur (بتاريخ ٧ إلى ١٣ يونيو سنة ١٩٦٧).

ولا يستغرب هذا الموقف من جورج پومبيدو، فقد كان موظفاً في بنك روتشيلد منذ سنة ١٩٥٤، وترقّى في وظيفته هذه حتى صار مديراً لهذا البنك اليهودي. ولما صار ديجول رئيساً للوزراء بعد انقلاب مايو سنة ١٩٥٨ عيّن پومبيدو مديراً لمكتبه. بيد انه لم يبقه في هذا المنصب إلاَّ ستة أشهر. وعاد في يناير سنة ١٩٥٩ إلى بنك روتشيلد مديراً له من جديد. واستمر في هذا العمل حتى عيّنه ديجول رئيساً للوزراء في ابريل سنة ١٩٦٢. وإذن كان يعمل في خدمة أكبر رأسمالي يهودي في فرنسا، ومن أبرز الرأسماليين اليهود في العالم كله، وهو الآن

دي روتشيلد، لكنه لم يكن يستطيع ان يخالف عن أمر ديجول. وينطبق هذا أيضاً على الوزراء اليهود في حكومات ديجول: موريس شومان، وميشيل دبريه، Michel Debré، وليو هومو Léo Homo. ولم يشذّ عن هذا الموقف بين وزراء ديجول إلاّ الكساندر سانجنتي المولود مع ذلك في القاهرة!!

موقف الحزب الشيوعي الفرنسي

أما موقف الحزب الشيوعي الفرنسي قبيل نشوب الحرب وبعدها فيحتاج في تصوّره وفهمه إلى بيان موقف الاتحاد السوفييتي.

بيد ان هذا البيان عسير التحديد، بسبب غموض موقف روسيا وغموض دورها:

هل هي التي دفعت عبد الناصر إلى خوض حرب مع اسرائيل؟

للاجابة عن هذا السؤال، لنذكر بعض الوقائع:

في ٢٩ مارس سنة ١٩٦٧ وصل اندريه جروميكو، وزير الخارجية السوفييتي، فجأة إلى القاهرة، وأجرى محادثات مع جمال عبد الناصر.. وفي هذه المحادثات أخبر جرومبكو جمال عبد الناصر ان اسرائيل تستعد لشن حرب ضد سوريا، بسبب سماح سوريا للفدائيين الفلسطينيين بالقيام بعمليات ضد اسرائيل، وحدّد موعد الهجوم الإسرائيلي بحوالى منتصف مايو. وقبيل ذلك بقليل كانت روسيا قد أخبرت سوريا بنبأ اعتزام اسرائيل شن هجوم عليها.. فطلبت سوريا من روسيا ان تتوسط لتتطلب من عبد الناصر ان يدافع بجيشه عن سوريا إذا هاجمتها اسرائيل.

ولقد تبيّن فيما بعد ان الخبر الذي أوعز به جروميكو ان اسرائيل ستهاجم سوريا هو خبر غير صحيح، وان موسكو هي التي اختلقته اختلاقاً، لحاجة في نفسها. وهنا يختلف تحديد هذه الحاجة:

فالبعض، ومنهم ديجول، يقول إنَّ روسيا أرادت اشعال نزاع مسلح في الشرق الأوسط لصرف الأنظار عن حرب ڤيتنام.

والبعض الآخر يقول إنَّ روسيا أرادت بهذا النزاع العربي الاسرائيلي ان تسترد كل نفوذها السياسي في مصر وسوريا بعد ان أخذت الصين الشعبية في تقليصه لحسابها هي.

لكن التفسير الأول غير مفهوم: فما هو غرض روسيا من صرف الأنظار عن

حرب ڤيتنام؟ ألم تكن مصلحتها على العكس من ذلك، تركيز الاهتمام عليها، حتى تستطيع إخراج الولايات المتحدة الأمريكية من ڤيتنام، كي تخلص هذه لروسيا وحدها؟

ثم، هل كانت روسيا تجهل مقدار قوة الجيشين المصري والسوري في مواجهة الجيش الاسرائيلي؟ ألم تكن تعرف تماماً ان الجيشين المصري والسوري لن يثبتا أمام اسرائيل؟ فما مصلحتها إذن في جلب الهزيمة على حليفتيها: مصر وسوريا المسلّحتين بالسلاح الروسي؟

نحن نستبعد تماماً ان تكون روسيا على هذا القدر من الجهل بالقوى العسكرية في ميدان الشرق الأوسط.

أمّا التفسير الثاني المبني على التنافس في مقدار النفوذ في مصر بين الاتحاد السوڤييتي والصين الشعبية فهو أتفه من أن يحتاج إلى تفنيد. فماذا يفيد الاتحاد السوڤييتي، في مواجهة الصين، من نشوب حرب ستخسرها مصر وسوريا قطعاً؟!

وعندي ان التفسير المقبول لما فعله جروميكو بوصفه وزير خارجية روسيا من اخبار مصر وسوريا بأنَّ اسرائيل تستعد للقيام بهجوم عسكري وشيك على سوريا هو انه لما كانت روسيا تعلم ان اسرائيل هي الأقوى فإنَّ مصر ستصاب بهزيمة بالغة ستؤدِّي بمصر إلى الاعتماد الكلي على الاتحاد السوڤييتي والخضوع التام لأوامره والتحوّل السريع الى دولة تابعة للاتحاد السوڤييتي، مثل دول أوروبا الشرقية.

ومن ناحية أخرى، كانت روسيا تريد ان تتخذ من هزيمة مصر وسوريا دليلاً آخر على دور الولايات المتحدة في إشعال حروب «امبريالية» ضد الدول المستضعفة ودول العالم الثالث، على أساس ان «اسرائيل هي أمريكا، وأمريكا هي اسرائيل». فإذا كانت اسرائيل هي التي شنت هذه الحرب واعتدت على الآخرين، فكأن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي شنت هذه الحرب واعتدت على مصر وسوريا وسائر دول العالم الثالث. وقد يؤيد هذا التفسير القرار الذي أصدرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوڤييتي في الاتحاد السوڤييتي، وهذا نصّه: «ان حرب الولايات المتحدة الأمريكية في ڤيتنام والعدوان الذي قامت به اسرائيل يكوّنان حلقتين في نفس السلسلة من سياسة الأوساط الامپريالية».

وإذا كان تفسيرنا نحن هذا هو التفسير الحقيقي لما قصده السوڤييت بتبليغ مصر وسوريا أنباءً كاذبة عن اعتزام اسرائيل الهجوم على سوريا، فإنَّهم سيدفعون

ثمناً غالياً جداً: من مساعدات اقتصادية وتزويدات عسكرية وامتهان لكرامتهم وسقوط لمنزلتهم بين دول العالم الثالث: فقد صاروا ملتزمين بتعويض مصر وسوريا عما خسرا من اسلحة عديدة جداً، وبتقوية دفاع مصر في مواجهة اسرائيل، ويمد مصر وسوريا بالمعونات الاقتصادية خصوصاً وقد قطعت مصر علاقتها بالولايات المتحدة وكانت قبل ذلك تمد مصر بالقمح والزيوت وبعض المواد الغذائية الأخرى التي كانت مصر في أشد الحاجة إليها. وقد استوردت مصر في سنة ١٩٦٦ مليوناً ونصف مليون طن من القمح، بعد ان كانت في سنة ١٩٥٠ مكتفية بإنتاجها من القمح!

لكن الانصاف يقتضينا ان نعرض وجهة نظر الاتحاد السوفييتي على لسانه هو، كما جاءت في كتاب: «تاريخ السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي» الذي صدر تحت اشراف پونوماريف B. Ponomarev، وأندريه جروميكو André Gromyko، وخفوستوف V. Khovostov (الترجمة الفرنسية، Editions du progrés, Maseon سنة ١٩٧٤):

فتحت عنوان: «الاتحاد السوفييتي يساعد البلاد العربية على رد عدوان اسرائيل» ورد ما يلي: (ص ٦٧٣ وما بعدها):

«إنَّ الشرق الأدنى منطقة أخرى» ساخنة في العالم. ذلك ان الامپريالية خصوصاً الأمريكان، وهم يريدون الاحتفاظ بمواقعهم في هذه المنطقة وامساك أيديهم بالثروات البترولية في هذه البلاد، يحاولون منع الدول العربية من تثبيت استقلالها ومن السير في طريق التقدم. فالارهاب، والمؤامرات، واثارة المنازعات والحروب بين هذه الدول ـ كل هذا يستخدم لتعويق التطور القومي للبلاد العربية وتقدمها نحو الاشتراكية، ولإضعاف بلاد الشرق العربي. واسرائيل والصهيونية الدولية يستعملان سلاحاً رئيسياً للامبريالية الأمريكية ضد البلاد العربية.

«إنَّ الاتحاد السوفييتي يحترم كل الشعوب: كبيرها وصغيرها. لكل شعب الحق في تأسيس دولته القومية المستقلة. وهذا بعنيه هو الذي حدّد موقف الاتحاد السوفييتي تجاه دولة اسرائيل في سنة ١٩٤٧، حينما صوّت لصالح قرار هيئة الأمم المتحدة القاضي بأن تنشأ على الأرض القديمة لفلسطين الخاضعة للانتداب الانجليزي دولتان مستقلتان: يهودية وعربية. واخلاصاً لهذا الموقف المبدئي، أقام الاتحاد السوفييتي بعد ذلك علاقات دبلوماسية مع اسرائيل.

وبالرغم من ذلك، فعلى مدى وجود اسرائيل تقريبا، مارست أوساطها

الحاكمة سياسة الغزو وتوسيع أرضها على حساب البلاد العربية المجاورة، طاردة بل ومبيدة للشعب المحلي ومنتهكة باستخفاف وقح قرارات هيئة الأمم المتحدة.

حدث ذلك في عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩، حين استولت اسرائيل بالقوة على جزء ضخم من الأرض المخصّصة للدولة العربية التي كان يجب تأسيسها في فلسطين بموجب قرار هيئة الأمم المتحدة. وطُرِد أكثر من مليون عربي من الأرض التي ولدوا فيها، وأُسلِموا للجوع والبؤس. وهؤلاء الناس، وقد فقدوا الوطن ووسائل العيش، أصبحوا الآن في وضع المنفيين. والمشكلة الخطيرة الخاصة باللاجئين الفلسطينيين، وهي مشكلة قد خلقتها سياسة اسرائيل، لم تُحلّ حتى الآن وهي تزيد باستمرار من التوتر في هذه المنطقة.

وجدّدت اسرائيل عدوانها في سنة ١٩٥٦، لما ان اشتركت في الهجوم الفرنسي ـ الانجليزي ضد مصر. وفي هذه المرة أيضاً حاولت اسرائيل الاحتفاظ بالأراضي التي اغتصبتها، لكنها أُلزمت بسحب قواتها إلى ما وراء خط الهدنة المحدّد في سنة ١٩٤٩ وفقاً لاتفاق عقد بين اسرائيل والبلاد العربية.

وطوال كل السنوات التالية، ظلّت اسرائيل تهاجم مرة الجمهورية العربية المتحدة، ومرة أخرى سوريا والأردن. وحرب العدوان التي شنتها اسرائيل في ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ضد البلاد العربية هي النتيجة المباشرة للسياسة التي فرضتها الأوساط الحاكمة المتطرفة على بلادهم طوال كل تاريخها. وكان الهدف من هذا العدوان ليس فقط الاستيلاء على أرض عربية لتأسيس دولة اسرائيلية «كبيرة» تمتد من البحر المتوسط حتى الدجلة والفرات، ومنع الملاحة في قناة السويس لتدمير اقتصاد الجمهورية العربية المتحدة (مصر) ـ بل وايضاً الاطاحة بالأنظمة الحاكمة التقدمية في العديد من البلدان العربية.

«وتمشياً مع ما أشار به المؤتمر الثالث والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي من ضرورة الرد بقوة على قوى العدوان، فإنّ الاتحاد السوفييتي اتخذ مباشرة، الاجراءات لوقف الأعمال الاجرامية التي قام بها المعتدي ولمساعدة البلاد العربية. وبالاتفاق مع قادة هذه الدول عملت الحكومة السوفييتية فحصلت بسرعة على قرار من مجلس الأمن بوقف القتال.

«وفي نفس الوقت اتخذت الحكومة السوفييتية اجراءات عملية وفعّالة من اجل مساعدة الدول العربية على النهوض من الهزيمة وتنظيم الدفاع. فمنذ يونيو ـ يوليو سنة ١٩٦٧ سافر رئيس مجلس السوفييت الأعلى في الاتحاد السوفييتي،

نقولاي پودجورني Podgorny ـ إلى الجمهورية العربية المتحدة (مصر)، وسوريا، والعراق. وتعدّدت الاتصالات الشخصية بين القادة السوفييت وقادة البلاد العربية، ومكّنت هذه الاتصالات من ترتيب أعمال منسّقة لتصفية نتائج العدوان الاسرائيلي.

«وفي ذلك الوقت ظلّ المكتب السياسي للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي والحكومة السوفييتية متابعين لأحداث الشرق الأدنى وعملوا دون ابطاء ما هو ضروري. وفي يونيو سنة ١٩٦٧ اجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي واتخذت قراراً يحدد سياسة الاتحاد السوفييتي فيما يتعلق بعدوان اسرائيل. وصارت المهمة هي: منع المعتدي من الانتفاع بنتائج أعماله الغادرة، وتحقيق انسحاب قوات الغزاة إلى ما وراء خط الهدنة.

«وبمبادرة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي انعقدت في موسكو وفي بودابست، إبان شهري يونيو ويوليو سنة ١٩٦٧، مؤتمرات لقادة الأحزاب الشيوعية والعمالية ورؤساء الدول الإشتراكية في أوروبا، ووضعوا خطة مشتركة ترمي إلى وقف العدوان الاسرائيلي ومعالجة نتائجه.

«وبناء على اقتراح الاتحاد السوفييتي، عقدت في صيف سنة ١٩٦٧ دورة استثنائية للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. وفي هذه الجلسة تكلّم الكسي كوسيجين وأدان بشدة المعتدين الاسرائيليين وحماتهم. وقال: «تمشياً مع مثله العليا في السلام، والحرية، والاستقلال، سيعمل الاتحاد السوفييتي كل ما يتوقف عليه، سواء في داخل هيئة الأمم المتحدة، وخارج هذه المنظمة، من اجل تصفية نتائج العدوان، والاسهام في اقامة سلام مستقر في هذه المنطقة» (جريدة «الپرافدا» بتاريخ ٢٠/٦/١٩٦٧).

لكن الدورة الاستثنائية (لهيئة الأمم المتحدة) لم تستطع العثور على وسيلة لتصفية نتائج عدوان اسرائيل وتحقيق انسحاب القوات الاسرائيلية من أراضي الجمهورية العربية المتحدة (مصر) والأردن وسوريا. ان الأغلبية الساحقة لوفود الدول أعلنت معارضتها لأعمال العدوان وتأييدها لمصالح الشعوب العربية. لكن الولايات المتحدة الأمريكية وسائر القوى الامپريالية التي زودت اسرائيل بمساعدات مادية هائلة وبتأييد معنوي، واستخدمت هذا البلد (اسرائيل) أداة للضغط على البلاد العربية ـ سعت لتأخير تسوية النزاع. ونتيجة لمناوراتها، أخفقت الجمعية العامة (للأمم المتحدة) من اتخاذ قرار مناسب.

لكن في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ اتخذ مجلس الأمن قراراً يقضي بانسحاب

القوات الاسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة، وبإنهاء حالة الحرب، وباحترام والاعتراف بالسيادة، وكامل التراب الوطني والاستقلال السياسي لكل دولة من دول المنطقة، وبحقها في العيش بسلام داخل حدود معترف بها وآمنة، وبالتسوية العادلة لمشكلة اللاجئين وبعدم جواز انتهاك الأراضي والاستقلال السياسي لكل دولة، وتأمين ذلك باجراءات مختلفة.. بما في ذلك نزع سلاح بعض المناطق. وهذا القرار كان خطوة مهمة في الكفاح من اجل تسوية ازمة الشرق الأدنى.

«وقد صوّت الاتحاد السوفييتي بالموافقة على مشروع القرار هذا، لأن المطالبة بانسحاب القوات الاسرائيلية جاءت في المقام الأول بمثابة مبدأ لا غنى عنه لإقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط». (ص ٦٧٣ ـ ٦٧٧).

ويلاحظ على هذا التقرير لموقف الاتحاد السوفييتي من أزمة مايو ـ يونيو سنة ١٩٦٧ ومن اسرائيل بعامة ما يلي:

١ ـ ان تبريره للاعتراف باسرائيل في مايو سنة ١٩٤٨ تبرير واهٍ للغاية، إذ يزعم ان ذلك تمَّ بناء على مبدأ ان «لكل شعب الحق في تأسيس دولته القومية المستقلة الخاصة به» ـ فإن كان هذا هو ما يؤمن به الاتحاد السوفييتي فلماذا لا يبدأ بنفسه ويسمح لكل شعب من الشعوب التي يتألف منها ان يؤسّس لنفسه دولة قومية مستقلة خاصة به؟! لماذا يؤيّد هذا المبدأ في فلسطين لجماعة من اليهود الطارئين عليها منذ وقت قريب، ولا يسمح به لعشرات الشعوب من التركمان والقزخيين والتتار والبشكير والآذريين (أذربيجان) والأرمن، الخ، الخ من الشعوب التي يتألف منها الاتحاد السوفييتي.

٢ ـ ولماذا لم يسحب اعترافه باسرائيل في سنة ١٩٤٩ لما تبيَّن له، على حد تعبيره؛ ان اسرائيل استولت بالقوة على جزء ضخم من الأراضي المخصصة للدولة العربية التي كان يجب تأسيسها في فلسطين بموجب قرار هيئة الأمم المتحدة، وطردت أكثر من مليون عربي من الأرض التي ولدوا فيها فأسلموا للجوع والبؤس»؟ لقد كان على الاتحاد السوفييتي ان يسحب اعترافه باسرائيل في سنة ١٩٤٩ لقيام اسرائيل بهذه الأعمال التي تتناقض تناقضاً تاماً مع المبدأ الذي زعم انه على أساسه اعترف باسرائيل غداة انشائها في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨.

٣ ـ أما كلامه عن العدوان سنة ١٩٥٦ فقد أحسن البيان حين لم ينسب إلى الاتحاد السوفييتي الفضل في انسحاب اسرائيل، بل أطلق القول بحيث يمكن نسبته

الفضل اليه وإلى غيره، أي إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

٤ ـ أما عن حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، فإنّه ينسب إلى نفسه الفضل في الحصول «السريع» من مجلس الأمن على قرار بوقف القتال. لكنه بهذا يغفل ما حدث وهو رفض الولايات المتحدة الأمريكية لمشروع القرار الروسي في ٥ يونيو بوقف القتال «مع انسحاب القوات إلى المواقع التي كانت عليها قبل نشوب القتال»؛ فاضطر الاتحاد السوڤييتي إلى اسقاط هذا الشرط، فأدّى ذلك إلى موافقة الولايات المتحدة الأمريكية وصدور قرار مجلس الأمن بالاجماع في يوم ٦ يونيو بوقف القتال، وهو القرار الذي وافقت عليه الأردن وإسرائيل في يوم ٧ ومصر في يوم ٨، وسوريا في يوم ٩.

٥ ـ وبالنسبة الى التحرك الدبلوماسي فقد قام الاتحاد السوڤييتي فعلاً بنشاط واسع في هيئة الأمم، وفي نطاق الدول الشيوعية على النحو الذي ورد في هذا التقرير السوڤييتي. فبناء على اقتراح الاتحاد السوڤييتي اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورة استثنائية في ١٩ يونيو، لكنها لم تتوصل إلى قرار لعدم حصول الاقتراحات المقدمة على أغلبية الثلثين المطلوبة في هذه الحالة. لهذا ضاع اجتماع هيئة الأمم هذا أدراج الرياح.

أمّا الاجتماعات التي عقدتها الأحزاب الشيوعية في موسكو وبودابست سنة ١٩٦٩ فقد اقتصرت قراراتها على منح مصر وسوريا معونات اقتصادية فقط.

٦ ـ اما المعونات والامدادات العسكرية المقرّرة أثمانها ديوناً على مصر فقد كانت بطيئة وغير كافية، ولم يسمح الاتحاد السوڤييتي بتزويد مصر بما هو متقدم جداً من هذه الأسلحة، مما جعل العلاقات بين مصر والاتحاد السوڤييتي من نوفمبر سنة ١٩٦٧ حتى ربيع سنة ١٩٧٣ في جذب وشد وتوتر شديد احياناً أدّى في النهاية الى اخراج المستشارين العسكريين السوڤييت من مصر في يوليو سنة ١٩٧٢.

ولم يرد في التقرير المذكور أية إشارة إلى مساعدات او تزويدات عسكرية سوڤييتية لمصر.

❀ ❀ ❀

وما دام هذا هو موقف الاتحاد السوڤييتي، فقد كان من الطبيعي والمنطقي ان يتخذ الحزب الشيوعي الفرنسي موقفاً مماثلاً.

وقد عبّر الحزب الشيوعي الفرنسي عن موقفه هذا بمقالات في جريدة

l'Humanité ـ لسان حال الحزب ـ كتبها Ives Moreau ابتداءً من يوم الأربعاء ٣١ مايو، وفيها دافع عن موقف البلاد العربية، وهاجم موقف اسرائيل ووصفها بأنّها انما تعمل «لمصلحة ماريل داسّو، Mareel Dassault، المورّد الكبير للطائرات الحربية إلى الجيش الإسرائيلي، ولمصلحة البارون ادمون دي روتشيلد Edmond de Rothscild، الرئيس المدير العام لشركة اسرائيل الأوروبية Israel European Company».

لكن باستثناء مقالات ايف مورو هذه في جريدة الحزب الشيوعي الرسمية l'Humanité، لم نر الحزب الشيوعي ـ وكان زعيمه آنذاك هو ڤالدك روشيه Waldeck Rochet الذي خلف موريس توريز Maurice Thorz في مايو سنة ١٩٦٤ ـ يقوم بأية مظاهرة تأييد لمصر وسوريا: لا في الشارع، ولا في قرارات رسمية تصدرها لجنته المركزية، ولا حتى في تصريحات شفوية او صحفية يتفوه بها رئيس الحزب او أقطابه على ان الحزب الشيوعي الفرنسي سبّاق دائماً وحريص باستمرار على اخراج المظاهرات لأتفه الأسباب.

كذلك لم يتحرك «الاتحاد العام للعمل» C.G.T وكان آنذاك أمينه العام هو بنوا فراشون Benoit Franchan (١٨٩٣ ـ ١٩٧٥) ثم خلفه في شهر يونيو سنة ١٩٦٧ جورج سيجي Séguy (وُلِدَ في ١٦/ ٣/ ١٩٢٧) الذي سيتخذ ابتداء من العام التالي ـ سنة ١٩٦٨ ـ موقفاً مؤيداً للعرب ومعادياً لإسرائيل، وسنراه يعقد اجتماعات في العديد من المدن الفرنسية تأييداً للعرب، أبرزها الاجتماع الذي عقد في «بورصة العمل» La Bourse du travail والذي سيثير ثائرة الصهاينة في فرنسا. لكن سيخلفه في يونيو سنة ١٩٨٢ هنري كرازوسكي Henri Krasucki، البولندي الأصل (واسمه الأصلي افنوخ)، واليهودي الديانة، والذي لم يحصل على الجنسية الفرنسية إلاَّ في ٢٤ يوليو سنة ١٩٤٧، وهو ضالع مع الصهيونية ومؤيِّد لاسرائيل.

موقف الحزب الاشتراكي الفرنسي

أمَّا الحزب الاشتراكي الفرنسي S.F.I.O (= القسم الفرنسي من الدولية العمالية) فقد كان صريح العداوة لمصر والتأييد المطلق لاسرائيل ولا عجب فقد كان رئيسه آنذاك هو جي موليه Juy Mollet المسئول الأول ـ من الجانب الفرنسي ـ عن الحملة الفرنسية الانجليزية على مصر في نوفمر سنة ١٩٥٦. وفي حديث له نشر في مجلة l'Express (بتاريخ ٢٩/ ٥ ـ ٤/ ٦/ ١٩٦٧) حمل جي موليه على موقف مصر حملة شعواء قائلاً، انه لم يكن من حق عبد الناصر طلب انسحاب قوات

الطوارىء الدولية «لأنَّ فرنسا وانجلترة والولايات المتحدة، في سنة ١٩٥٧ وبالاتفاق مع السكرتير العام للأمم المتحدة داج همرشولد، لم يحصلا على موافقة اسرائيل على سحب القوات الاسرائيلية من شرم الشيخ ومضايق تيران إلاَّ باعتبار انه ستحل محلها القوات الدولية لتأمين الملاحة في مضايق تيران. فعبد الناصر، بتشكيكه، في هذا الاتفاق، أخطأ وصار يهدّد وجود دولة اسرائيل نفسها».

ومنذ بداية الأزمة في مايو سنة ١٩٦٧ أخذت جريدة الحزب، وكانت تدعى Le Populaire de Paris تنشر مقالات بقلم محرّرها كلود فوزييه (وُلد في باريس في ٢/ ٦/ ١٩٢٤) Claude Fuzier يؤيد فيها اسرائيل والصهيونية بعامة تأييداً أعمى مطلقاً. وكلود فوزييه هذا كان عضواً بارزاً في الحزب الاشتراكي، وصار الأمين العام للاتحاد الاشتراكي لمنطقة السين (١٩٥٦ - ١٩٦٧)، وصار عضواً في مكتب الحزب الاشتراكي (سنة ١٩٦٣) ثم سكرتيراً عاماً للاتحاد العام للاشتراكية (١٩٦٨ - ١٩٦٩)، وسكرتيراً للحزب (١٩٦٩ - ١٩٧٠) وعضواً في مكتب الحزب (سنة ١٩٧١). . وكما ورد في «قاموس السياسة الفرنسية» (جـ ٣ ص ٢٨٣، باريس سنة ١٩٧٩) فإنَّ فوزييه هذا «صهيوني متحمس، شأنه شأن زوجته الثانية نيقول أزولاي Nucole Azoulay، وقد شكل في سنة ١٩٦٧، غداة «حرب الأيام الستة»، «لجنة خاصة بحق اسرائيل في الوجود Comité pour le droit à l'existence d'Israël كان هو سكرتيرها العام».

ومن المعلوم ان الحزب الاشتراكي الفرنسي منذ انشائه في ابريل سنة ١٩٠٥ وحتى اليوم كان يضم يهوداً بارزين، نذكر منهم: ليون بلوم Léon Blum (١٨٧٢ - ١٩٥٠) الذي صار رئيساً للوزراء (أول مرة في سنة ١٩٣٦، وثاني مرة في سنة ١٩٤٦ - ١٩٤٧)، ودانيل ماير Daniel Mayer (١٩٠٩ -) الذي ضمّه ليون بلوم إلى وزارته الثانية وزيراً للعمل والتأمين الاجتماعي وهو من أشد السياسيين حقداً وغلاً؛ ويذكر عنه في هذا الصدد انه حين عرض على مجلس الوزراء اقتراح بالسماح للماريشال پتان Pétain المعتقل في جزيرة يو Yea بالعودة ليموت بين أهله، صاح دانيل ماير: «إنَّ هذا العجوز في مكانه المناسب حيث هو، فليفطس هناك!»؛ كذلك يذكر عنه انه قال في اجتماع «للعصبة الدولية ضد معاداة السامية» بمناسبة التطهير الذي حدث في فرنسا غداة الحرب: «كانت هناك رؤوس كثيرة محلوقة، لكن لم يحتزّ العدد الكافي من الرؤوس» (اجتماع الـ LICA في ٣١/ ١/ ١٩٥٠). ودانيل ماير هذا كتب مقالات عديدة في جريدة Le Monde وغيرها في مايو سنة ١٩٦٧ يدافع فيها عن اسرائيل دفاعاً أحمق أعمى.

وحتى اليوم فإنّ لليهود نفوذاً ضخماً في الحزب الاشتراكي الفرنسي، وتولّى رئاسة الوزارة منهم في الوزارة الاشتراكية الأخيرة لوران فابيوس Laurent Fabius «يوليو ١٩٨٤ ـ مارس ١٩٨٦) وضم معه في الوزارة ثلاثة وزراء من اليهود الاشتراكيين وهم: بادنتر Robert Badinter وزير العدل، وجاك لانج Jack Lang وزير الثقافة، وهارون تازييف Haroun Tazieff وزير الكوارث الطبيعية.

موقف الحزب الديجولي

لكن اذا كان موقف ديجول وحكومته هو على النحو الذي شرحناه، فإنَّ عدداً كبيراً من أعضاء حزبه لم يشايع هذا الموقف، بل أعلنوا التأييد الصريح لاسرائيل. وعلى رأس هؤلاء كان لوسيان نويڤرت Lucien Newvrit (١٩٢٤ ـ)، وهو يهودي، اشترك في الحركة الديجولية منذ سنة ١٩٤٧، وصار من المنادين بأن «الجزائر فرنسية»، وصار عضواً في «المحالفة فرنسا ـ اسرائيل». ومنذ سنة ١٩٥٨ صار عضواً في المجلس النيابي، وأُعيد انتخابه (عن الدائرة الثانية من اقليم اللوار) في السنوات ١٩٦٧، ١٩٦٨، ١٩٧٣ و١٩٧٨. وأصبح الأمين العام المساعد الديجولي U.N.R. وهو الذي وجّه سؤالاً إلى وزير الخارجية، كوڤ دي ميرڤيل في بداية الحرب، يسأله عن موقف الحكومة الفرنسية من «عدم الالتزام» ازاء الحرب، وصاح قائلاً إنَّ معه بياناً موقعاً من ١٦٠ نائباً من مختلف الأحزاب، باستثناء الحزب الشيوعي، يطلب من الحكومة ان تتخذ موقفاً في صالح اسرائيل. وكان عشية ذلك اليوم، في اجتماع لنواب الحزب الديجولي، قد سأل رئيس الوزراء چورج پومبيدو السؤال التالي: «هل توافق فرنسا على تزويد اسرائيل بقطع الغيار للمواد الحربية التي يستعملها الاسرائيليون؟»

وفي اليوم الأول للحرب سافر إلى اسرائيل ـ على متن طائرة «الـ عال» القادمة من نيويورك والمتجهة إلى تل أبيب مع التوقف في باريس ـ نائبان من حزب ديجول هما لوتاك Le Tac وكلوسترمن Closterman، إلى جانب النائب الاشتراكي روست Raust والراديكالي پرونيه Peronnet، كما سافر على نفس الطائرة الان دي روتشيلد وابن عمه ادمون.

وفضلاً عن ذلك، فإنَّه في الوقت الذي أعلنت فيه الحكومة الفرنسية قرارها بوقف تصدير الأسلحة إلى اسرائيل، فإنَّ ما حدث عملياً هو استمرار تدفق

الأسلحة الفرنسية إلى إسرائيل بدعوى «الوفاء» بالتعهدات التي سبق تعهد فرنسا بها!! ومعنى ذلك في الواقع استمرار تدفق السلاح الفرنسي إلى اسرائيل بناء على الاتفاقات السابقة مع عدم عقد اتفاقات جديدة! وهذه مغالطة خسيسة لا تنطلي على أبله البلهاء. ولهذا فإنّه إذا كان پومبيدو، في اجتماع الحزب الديجولي المشار إليه آنفاً والذي فيه وجه نويڤرت Newvirt السؤال إليه عن هذا الموضوع ـ لم يجب عن السؤال، فقد تولّى بعض الوزراء عقب الاجتماع طمأنة نويڤرت على استمرار تدفق قطع الغيار والسلاح من فرنسا إلى اسرائيل. (راجع في هذا l'Express عدد ١٢ ـ ١٨ يونيو سنة ١٩٦٧ ص ٦٧).

موقف الصحافة الفرنسية

أمّا الصحف الفرنسية فقد تفاوت تأييدها لإسرائيل بين الحماسة الهستيرية الحمقاء وبين الاعتدال في التأييد، وبين التظاهر بالموضوعية والحياد.

١ ـ وعلى رأس الفريق الأول المتعصب تعصباً أعمى لإسرائيل جريدة France - Soir، وهي صحيفة يومية تصدر في العادة الساعة الحادية عشرة صباحاً، وقد تصدر أكثر من طبعة في اليوم الواحد. وكان يديرها في ذلك الوقت مجموعة من اليهود الصهاينة المتعصبين، وهم: Pierre Lauzareff و Robert Salmere و Charles Weisskoff (ويدعى أيضاً Gaubault) و Sam Cohen. وكانت تعدّ حتى مجيء ديجول إلى الحكم في سنة ١٩٥٨ ذات ميول اشتراكية، فلما تولّى ديجول السلطة صارت من مؤيّديه. لكنها في كل ما يتعلق باسرائيل تلتزم الدفاع المطلق المتحمس لجانب اسرائيل، ولو تعارض ذلك مع سياسة ديجول. وربما كانت حماستها لديجول إنّما ترجع إلى كون ديجول قبل سنة ١٩٦٦ كان مؤيداً قوياً لاسرائيل، وهي الفترة التي كان يردد فيها قوله: «اسرائيل: صديقتنا وحليفتنا».

وهذه الجريدة هي ـ بحكم انها تصدر في الضحى ـ التي أصدرت طبعة في الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم ٥ يونيو ملأت الصفحة الأولى منها بعنوان ضخم جداً هو: «المصريون يهاجمون اسرائيل». وكما أشرنا من قبل ـ بحسب ما ورد في مجلة Le Nouvel - Observateur ـ كان وضع هذا العنوان بالاتفاق مع رئيس الوزراء پومبيدو. فتدخل القصر الجمهوري بإيعاز من ديجول، وطلب من الجريدة تغيير العنوان في الطبعة التالية ـ في الساعة الثانية عشرة ظهراً ـ إلى: «الحرب بين مصر واسرائيل». لكن ينبغي ان نذكر هنا ان أول برقية لوكالات الأنباء في صباح ذلك اليوم عن القتال هي تلك التي بعث بها مراسل وكالة رويتر

في تل أبيب واسمه Fabıen Vecomte وسجلت على آلة «التِكَر» في باريس في الساعة السابعة و٢٤ دقيقة كان نصها هو: «مصر تهاجم اسرائيل على الحدود الجنوبية».

واستمرت جريدة France - Soir طوال أيام الحرب وبعدها تدافع عن مواقف اسرائيل كلها: الهجوم، ورفض قرار وقف اطلاق النار الصادر في مساء يوم ٦ يونيو؛ وراحت تهوّل في انتصارات اسرائيل وتبالغ فيها بروح من التشفي والانتقام والتحريض المسعور.

أمَّا من المجلات الأسبوعية والشهرية والفصلية فقد كان أخسّها جميعاً مجلة Revue des deux Mondes في المقالات السياسية التي يختم بها كل عدد، وكانت تمهر بتوقيع Verax (= صادق ـ مع انه أكذب الكذابين). ولم أهتد إلى مَن هو صاحب هذا اللقب الزائف. هذا على الرغم من ان هذه المجلة هي في جوهرها مجلة أدبية تعنى بتاريخ الأدب والقصص والمسرح!. وهذا الكاتب المجهول الهوية بالغ في التعصب لإسرائيل طوال أعداد هذا العام والدفاع عنها حتى ضد قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن إلى حد يجعله في أحسن مراتب الصهيونية.

٢ ـ أمَّا الصحف المؤيدة لإسرائيل باعتدال فهي:

أ ـ من الصحف اليومية: «الفيجارو» Le Figaro ـ إذ كان تأييدها يظهر على لسان مراسلها في اسرائيل Yves Cuan ـ وكل مكاتباته من هناك تفيض بالتأييد التام لإسرائيل والهجوم على مصر. وخَلَفَه R. Bandne وكان أسفل منه وهو الذي جاء إلى مصر غداة توقيع معاهدة كمب ديفد في مارس سنة ١٩٧٩ فرحّب به توفيق الحكيم ترحيباً حارًّا وراح يفيض عليه بالأحاديث ويتوسل إليه ان ينشرها!! أمَّا في افتتاحيات الصحيفة في مايو ويونيو فلم يظهر تأييد صريح مبالغ فيه، لكن يشتم منها تأييد خفي ماكر.

وجريدة l'Aurore ـ وهي تعبّر خصوصاً عن رجال الأعمال (وأكبر مموليها كان آنذاك بوساك، ملك الملابس القطنية في فرنسا) ـ فإنَّ تأييدها الواضح لإسرائيل كان خصوصاً بسبب تأييد هذه الجريدة لبقاء الجزائر فرنسية، وبسبب معاداتها لروسيا (والشيوعية بعامة) ولديجول. وستواصل هذا الموقف لعدة أشهر بعد نشوب الحرب.

أمَّا الصحف الأسبوعية التي كانت تؤيد اسرائيل باعتدال فهي: l'Express، ومديرها العام هو Jean - Jacques Servan - Schreiber. ويظهر ذلك في مقالة هذا

المدير التي نشرت في عدد ٥ ـ ١١ يونيو قبيل اندلاع القتال، فهو يدافع فيها بخبث عن اسرائيل ويحمد الله على ان واشنطن ولندن لن تسمحا بسقوط اسرائيل. لكنه لا يهاجم مصر مهاجمة صريحة. وفي مقالة في العدد التالي (١٢ ـ ١٨ يونيو)، وكانت الحرب قد انتهت، راح يحلّل الوضع على أساس التنافس بين روسيا وأمريكا. فقال:

«ان أزمة الشرق الأوسط بَدَت في نهاية الاسبوع السابق (مباشرة على الحرب) كأنَّها ضربة مُعَلّم من جانب السوفييت، إذا استخدموا بمهارة الوضع المحلّي من اجل وضع أمريكا في موقف حرج، وللانتقام لعجزهم المهين في ڤيتنام. لكن العكس هو الذي حدث. فليس فقط جاء الشرق الأوسط فعوّض عن ڤيتنام في توازن القوى بين الدولتين العظميين بل وأيضاً تأكّد، على العكس من ذلك، عدم التوازن لصالح أمريكا. إن الحرب الخاطفة التي شنّها موشي دايان قد كشفت عن موقف عالمي جديد. ويمكن تصويره ببساطة بالموازاة بين «نقطتين ساختنين» يربط بينهما كل شيء على الرغم من وجود مسافة قدرها ثمانية آلاف كيلومتر بينهما، وهما: ڤيتنام، والشرق الأوسط. ولإيضاح الأمور لنطابق بينهما: ان ڤيتنام الشمالية هي اسرائيل جنوب شرقي آسيا: صلبة، مدرّبة، قوية العزيمة. وجياب Giap هو ديّان. وڤيتنام الجنوبية تناظر العرب: رخاوة، عدم عزيمة، فساد، عجز عن تكوين جبهة متحدة للدفاع عن أنفسهم». ويمضي في تحليله على هذا الأساس فيقول إنَّ روسيا قوة نووية كبرى، أمّا أمريكا فقوة نووية + قوة تقليدية قادرة على التدخل خلال ساعات في أي مكان في العالم. وهذا يفسّر تقاعس روسيا عن مساعدة مصر. وعن طريق الخط الأحمر بين البيت الأبيض (أمريكا) والكرملن (روسيا) أعلنت روسيا لأمريكا انها لن تتدخل لمساعدة مصر؛ ولما اطمأنت أمريكا إلى عدم تدخل روسيا، أعلنت في الساعة ١٦,٥ (الرابعة بعد الظهر وثلاثين دقيقة) من يوم الاثنين انها لن تتدخل هي الأخرى.

٣ ـ أمّا الصحف التي التزمت بالحياد والموضوعية فهي من الصحف اليومية جريدة Le Monde. لقد جعلت العنوان الكبير على طول الصفحة، وقد خرجت الجريدة بطبعتها الأولى مبكّرة عن المعتاد في الساعة الثانية عشرة ـ هو: «معارك عنيفة تدور بين القوات الاسرائيلية والعربية» وتحته: «اورشليم والقاهرة تتهم كلتاهما الأخرى ببدء القتال». وطوال أيام الحرب ظلّت تلتزم الموضوعية وعدم الإثارة في ايراد المعارك، وتكتفي بسرد الأحداث دون حكم عليها في المقالات الافتتاحية. فلما انتهت الحرب، كتبت افتتاحية تعلّق على النتائج وتطلب في

نهايتها من اسرائيل ان تكون «كريمة» عند المقدرة، الآن وقد تحقّق انتصارها. وكتب في الداخل اريك رولو Eric Rouleau مقالته بهذا المعنى.

استبيان الرأي العام الفرنسي

فإن حاولنا استبيان موقف الرأي العام الفرنسي، فمن العسير تحديده. لكن لِنُشِرْ هنا الى استبيان قامت به هيئة استبيان للرأي العام في فرنسا تسمى اختصاراً SOFRES جاءت فيه الأسئلة والاجابات على النحو التالي:

س ١: في النزاع بين اسرائيل والبلاد العربية مَنْ، في رأيك، هو المعتدي، أي مَنْ هو الذي بدأ الحرب؟

جـ: اسرائيل، ١٤٪

البلاد العربية: ٢٧٪

مصر: ٢٦٪

سوريا: ١٪

أمريكا: ٢٪

روسيا: ١٪

بدون رأي: ٢٩٪

س ٢: فيما يتعلق بنتيجة القتال، ماذا تتمنى؟

جـ: انتصار البلاد العربية: ١٪

انتصار اسرائيل: ٢٤٪

وقف القتال وإلزام كلا الفريقين بالانسحاب إلى خلف الحدود: ٧٢٪

بدون رأي: ٣٪

س ٣: في الأسبوع الماضي كان موقف الحكومة الفرنسية هو: «لن تتدخل لصالح اسرائيل ولا لصالح البلاد العربية، لكن مَن يطلق أول طلقة نار سنعتبره معتدياً وسنعمل ضده». هل تعتقد ان الحكومة الفرنسية كانت على صواب في اتخاذها هذا الموقف؟

جـ: نعم ٧١٪

لا، بل كان على الحكومة الفرنسية مساندة اسرائيل ١٧٪

لا ، بل كان على الحكومة الفرنسية مساندة البلاد العربية ١٪

بدون رأي: ١١٪

س ٤ : والآن وقد نشب القتال. هل تعتقد انه يجب على فرنسا التدخل في النزاع؟

جـ : نعم، يجب عليها ان تتدخل عسكرياً لصالح اسرائيل ٤%

: نعم، يجب عليها ان تتدخل عسكرياً لصالح البلاد العربية ١٪

: يجب عليها مساعدة اسرائيل، لكن دون التدخل عسكرياً ٢٤٪

: يجب عليها مساعدة الدول العربية، لكن دون التدخل عسكرياً ١٪

: كلا، يجب ان تبقى على الحياد ٧٠٪

(راجع مجلة l'Express عدد ١٢ ـ ١٨ يونيو سنة ١٩٦٧ ص ٧٠).

وهذا الاستبيان الذي اجرته SOFRES لحساب مجلة «الاكسبرس» هو كذب واضح فاضح:

أولاً: لأن عدد أصوات الشيوعيين في انتخابات باريس سنة ١٩٦٧ كان ٢٢,٤٦% من مجموع أصوات الناخبين. ومن المعلوم ان الحزب الشيوعي كان يؤيّد موقف مصر كما ذكرنا منذ قليل، ومن المعلوم ايضاً ان أنصار هذا الحزب يطيعون توجيهات الحزب السياسية. فكيف يزعم إذن هذا الاستبيان في معظم الاجابات ان نسبة مَن يؤيدون مصر والبلاد العربية تدور حول ١%؟! والكذب أبشع يكون في الاجابة عن السؤال الأول، لأن مفادها هو أن ٥٤% يرون ان مصر والبلاد العربية هي البادئة بالاعتداء، بينما ١٤% فقط يقولون ان اسرائيل هي البادئة بالعدوان ـ مع انه منذ ظهر يوم ٥ يونيو أجمعت كل وسائل الاعلام الفرنسية على ان اسرائيل هي البادئة بالعدوان، بل ما لبثت اسرائيل نفسها في اليوم التالي ـ أي ٦ يونيو ـ أن اعترفت ضمناً بذلك، ومن المعلوم ان هذا الاستبيان قد جرى في اليوم الثاني او الثالث من الحرب.

ثانياً: يوجد في فرنسا في ذلك الوقت حوالى مليونين من المسلمين الفرنسيين، أي ما يعادل ٤% من سكان فرنسا، فكيف يقول هذا الاستبيان إذن إنَّ عدد المؤيّدين لمصر والبلاد العربية يدور حول ١% فقط ـ هذا بغض النظر عن موقف الشيوعيين؟! وهل من المعقول ـ كما في جواب السؤال رقم ٣ أن يقول ١% فقط إنَّه كان على الحكومة الفرنسية مساندة البلاد العربية؟!

والحقيقة هي ان كل استبيانات الرأي العام زائفة ومُضَلِّلة ولا تعبّر أبداً عن الواقع. إنَّما تعبّر عن وجهة نظر أو أماني الجهة التي من أجلها أُجرِيَ الاستبيان. ومن الواضح ان الاجابات الواردة ها هنا إنَّما تعبّر عن موقف مجلة «الاكسبرس»، وهو التأييد التام لموقف الحكومة الفرنسية. وقد أثبتت الشواهد كلها تقريباً كذب النتائج التي تقدّمها الاستبيانات. ولهذا ينبغي رفضها وعدم الاعتماد عليها لتقدير اتجاهات الرأي العام في أي موضوع مطروح: سواء في السياسة، والاقتصاد، والدين. والعلاقات الاجتماعية، والتذوق الفنِّي، الخ الخ. إن دور استبيان الرأي العام في عصرنا الحاضر شبيه بدور التنجيم في العصور القديمة والوسطى.

وتقديري أنا الشخصي لموقف الرأي العام الفرنسي من أحداث يونيو سنة ١٩٦٧ هو كما يلي:

أ ـ ٩٥% من الشعب الفرنسي لا يهمهم هذا الموضوع، وبالتالي ليس لهم أيّ رأي، لأنَّ هذه الأحداث لم تؤثّر على حياتهم اليومية، او الاقتصادية، ولم ترتبط بهم من قريب ولا من بعيد.

ب ـ الخمسة في المائة الباقية تتوزع كما يلي:

ـ ١% وهم اليهود (وعددهم في فرنسا ٥٣٥,٠٠٠ من مجموع السكان وقدره آنذاك ٥٣ مليوناً) كانوا مؤيّدين لإسرائيل تأييداً تاماً مطلقاً أعمى؛ وهم الذين نظموا وخرجوا في مظاهرة ٣١ مايو في جادة الشانزليزيه، ومظاهرات شارع ڤجرام (حيث توجد السفارة الاسرائيلية) في ٦ يونيو وما تلاه؛ وإلى جانب عشرات قلائل من المتعاطفين الفرنسيين غير اليهود.

ـ ٢% من الفرنسيين غير اليهود، وهم الذين طردوا من الجزائر بعد استقلالها في سنة ١٩٦٢، وكانوا مملوئين حقداً على كل ما هو عربي، ويتمنون العودة إلى احتلال الجزائر بل وسائر بلاد المغرب العربي، ويشملهم اسم جامع لا يعرف اصل اشتقاقه وهو Pieds noirs (= الأقدام السود).

ـ ١% من طبقة مَن يسمُّون: «المحاربين القدماء» وهم أوزاع من كبار السنّ والكهول الذين يحلمون أحلاماً امپريالية مبهمة، وكانوا يعتقدون ان استقلال ونهضة البلاد العربية بدَّدت هذه الأحلام

ـ ١% من الساسة واللائذين بهم، وغالبيتهم ينتسبون إلى الحزب الاشتراكي، الذين كانوا يعارضون ديجول، فحسبوا ان تأييدهم لإسرائيل إنَّما هو في المقام الأول معارضة لسياسة حكومة ديجول.

وبالجملة، فإنَّ ما يسمَّى بـ «الأغلبية الصامتة» كانت غير مكترثة مطلقاً للحرب بين مصر والبلاد العربية من ناحية، وبين اسرائيل من ناحية أخرى. ولأنها «صامتة» لم يظهر موقفها بوضوح، بينما الـ ٥% كانت صخّابة شديدة الحركة والضوضاء والاثارة والتهيج، خصوصاً اليهود الفرنسيون، وهم كما قال ديجول: «قريبون جداً من وسائل الاعلام»: الصحافة، الاذاعة، التلفزيون، شركات الإعلان. وكان من السهل على اليهود ان يجتذبوا زملاءهم في هذه الوسائل، لأنَّ هؤلاء الزملاء غير اليهود لم يكن يعنيهم الأمر في شيء، فمن باب مجاملة الزملاء للزملاء، ما دامت هذه المجاملة لا تكلّف شيئاً، انجرَّ أو تساهل هؤلاء الزملاء غير اليهود.

وساعد هؤلاء العاملين اليهود في وسائل الاعلام حماقة عبد الناصر في تصرفاته طوال شهر مايو سنة ١٩٦٧: فكل تصرفاته ردود فعل صبيانية الطابع ضد خصومه من الحكّام العرب الذين كانوا يُعَيّرونه بأنَّه يسمح لإسرائيل ـ منذ أواخر سنة ١٩٥٦ ـ بالمرور بسفنها من مضايق تيران وفي خليج العقبة، وكانت علاقته بهم آنذاك في أسوأ أحوالها: مع السعودية بسبب حرب اليمن؛ ومع الأردن بسبب تواطؤه مع الفلسطينيين على الاطاحة بعرش الملك حسين؛ ومع العراق بسبب المنافسة على الزعامة الثورية منذ عهد عبد الكريم قاسم؛ ومع تونس، بسبب موقف بورقيبة من اسرائيل مما أدّى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وتونس في سنة ١٩٦٥؛ ومع المغرب الأقصى بسبب تأييد مصر للجزائر في عهد بن بلاً خصوصاً ضد المغرب واشتراك قوات وضباط مصريين في جيش الجزائر الذي وقع في مناوشات مع جيش المغرب الأقصى. ـ هذا إلى جانب ما اعتاده عبد الناصر من القيام بأعمال عصبية لا معقولة لم يستشر فيها أحداً ولم يتبصّر نتائجها ابداً. ـ كذلك استغلَّ رجال الاعلام اليهود هؤلاء التصريحات الرعناء الحمقاء التي أفرط في اصدارها الزعماء الفلسطينيون، وعلى رأسهم آنذاك أحمد الشقيري. فوجد هؤلاء الاعلاميون مادّة وفيرة جاهزة للاستغلال عند عامة الناس ضد الموقف العربي.

الشعور بالخزي والعار

ولا تَسَلْني عمَّا انتابني طوال الأيام الستة للحرب والأشهر التي تلتها ـ من شعور بالخزي والذل أمام مَن يعرفونني ها هنا من الفرنسيين: لقد كانت نظراتهم وبوادرهم وكلماتهم سهاماً مسمومة مهما تكن مشاعر مَن صدرت عنه منهم: تشفياً، أو تعاطفاً. وحتى لو لم يلفظ المتشفّي منهم بأية عبارة مهينة، فقد كان شعوري إزاءه هو أنه في صميم قلبه مغتبط أيما اغتباط بما حل بنا. وعبارات المتعاطفين كانت في حقيقتها أشد وقعاً على النفس «من وقع الحُسام المهنّد» ـ كما قال الشاعر. لهذا كان صوتي حين أُحدّثهم خفيضاً ذليلاً ينم عن المهانة والخزي والعار، رغم أنَّني لم أكن مسئولاً بأي حال من الأحوال عن وقوع هذه الهزيمة النكراء بوطني: فأنا لم أشغل أيّ منصب سياسي أو إداري او عسكري، ولم يكن لي أيّ رأي في الأحداث السياسية والعسكرية والإدارية ولا حتى عن طريق الكتابة في الصحف خلال الخمس عشرة سنة التي سبقت ومهدّت لهذه الهزيمة. بل على العكس تماماً كنت مبعداً عن كل رأي، مُطّرحاً من كل صاحب نفوذ وسلطة، ومفروضاً عليّ الحراسة وهي بمثابة قرار الحرمان الذي كان يصدره البابوات والأباطرة في العصور الوسطى الأوروبية. ورغم ذلك كان الألم يعتصرني إلى أقصى درجة، لأنَّ مصر وطني الأغر وليس وطن أولئك الأفاقين والدجالين والطغاة المهازيل الذين جرّوا عليها تلك الهزيمة النكراء. إنَّ هؤلاء ما هم إلاَّ عصابة من قطاع الطرق واللصوص الذين نهبوا ما نهبوا وتسلّطوا ما تسلّطوا، فماذا يهمهم من مصير فريستهم ـ مصر ـ إن حلَّ بها ما حل. ومتى شعر اللص بأيّ أسف، إذا أصاب المتاع الذي طالما تمتع به ـ بعد ذلك أيّ مصاب؟! فما بالك والضحية المسكينة تطلب إلى اللص الاستمرار في سرقتها ونهبها وإذلالها؟! هل عرف العالم كله موقفاً أخس من هذا الموقف؟! وبلغت الوقاحة بالأبواق المأجورة ان زعمت ان هذه المطالبة بالبقاء والاستمرار انما قصد بها

الدعوة إلى الصمود وغسل عار الهزيمة واسترداد الأرض الضائعة. أي منطق هذا أيُّها الكذابون المنافقون الجاهلون! هل يطلب ممَن تسبّب في الهزيمة (سنة ١٩٦٧) تلو الهزيمة (اكتوبر ـ نوفمبر سنة ١٩٥٦) ان يغسل عار الهزيمة؟ كيف يطلب من السبب في كارثة ان يصير هو نفسه السبب في انتصار يعوض عن الكارثة؟ بأيّ عقل يفكر مَن يزعمون هذا الزعم؟

لقد كانت هذه المطالبة باستمرار عبد الناصر في الحكم أشد هولاً من الهزيمة نفسها، لأنَّ معناها هو انه لا أمل أبداً في التعويض عن هذه الهزيمة. نعم، بهذه المطالبة صارت الهزيمة هزيمتين: هزيمة عسكرية، وهزيمة معنوية معناها اليأس التام من امكان إصلاح أيّ شيء مما فسد وانهار.

وفعلاً انتهز عبد الناصر هذه المهزلة ـ المأساة العجيبة التي لم يسمع بمثلها في تاريخ البشرية، فاستجمع من جديد كل سلطة في شخصه:

ـ في يوم ١١ يونيو اعتبر استقالة عبد الحكيم عامر قائمة، وبذلك عزله عن قيادة الجيش؛

ـ في ١٩ يونيو أقال الوزارة التي كان يرئسها (من سبتمبر ١٩٦٦) المهندس صدقي سليمان وقرَّر ان يتولى هو رئاسة الوزارة إلى جانب رئاسة الجمهورية، وبذلك استأثر بكل السلطة التنفيذية.

ـ قرَّر أن يحل حزبه: «الاتحاد الاشتراكي العربي» محلَّ الجيش فيما كان هذا يتولاه من سلطات ـ غير عسكرية ـ في حكم البلاد، وكانت سلطة المشير عبد الحكيم عامر وعصابة الضباط المحيطين به هم الذين يتولون السلطة في قطاعات كبيرة من شئون البلاد: فرض الحراسات، الاعتقالات السياسية، مصادرات الأموال، الرقابة على كل أدوات الاعلام، المخابرات، التموين، الخ، الخ.

ـ فصل ٦٥٠ ضابطاً بتهمة الاهمال، والحقيقة ان السبب الجوهري في عزلهم هو ولاؤهم لعبد الحكيم عامر ورجاله.

وهكذا انقلب الوضع انقلاباً في غاية الغرابة: فصار المسئول الأول عن الهزيمة والهوان هو القاضي الوحيد الذي لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه!!

لك الله يا مصر، فأنتِ لم تعرفي في كل تاريخك مثل هذا الذل والهوان!

والأدهى هو ان هذه لم تكن المرة الأولى التي يقوم فيها جمال عبد الناصر بهذه المهزلة المسرحية، أعني اعلانه التخلي عن السلطة. فقد فعل ذلك مرتين من قبل. وفي كل مرة كان يريد ان يستعيد السلطة الكاملة في يده. ورغم ذلك استمر

الشعب الساذج يصدّق هذه المهزلة الرخيصة الحقيرة. ولقد كانت هذه المرة مفضوحة إلى أبشع درجة. فإنَّ اعلانه التخلّي عن السلطة كان في التلفزيون في الساعة الخامسة مساء، وكان اعلانه العدول عن الاستقالة في الساعة الثامنة والربع مساء من نفس اليوم، ٩ يونيو سنة ١٩٦٧!! أي ان هذه المسرحية الهزلية لم تستغرق هذه المرة إلاَّ ثلاث ساعات وربع الساعة، بينما استمرت في المرتين السابقتين بضعة أيام. فما أفظع هذا الاستخفاف بالشعب المصري المسكين.

❀ ❀ ❀

وكانت الأنباء التي ترد من منظمة الأمم المتحدة تزيد اليأس يأساً. فقد اجتمعت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢١ يونيو في جلسة استثنائية دعت اليها روسيا، وحضرها رئيس وزرائها كوسيجين. وتوالت مشروعات القرارات. فكان أولها المشروع الذي تقدّمت به يوغسلافيا، ويقضي بانسحاب كل القوات الاسرائيلية من الأراضي العربية التي احتلتها نتيجة حرب ٥ ـ ١٠ يونيو. لكن هذا الاقتراح لم يحصل على أغلبية الثلثين المطلوبة في قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة. وتلاه مشروع اقترحته دول أمريكا اللاتينية، وأيدته واشنطن، وكان يقضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها في مقابل اعتراف الدول العربية بوجود اسرائيل داخل حدود آمنة ومعترف بها. وقد كان على الدول العربية ان توافق على هذا المشروع، لأنَّه كان مؤيداً من أمريكا ولأنَّه كان الاقتراح الوحيد الذي يضمن انسحاب اسرائيل من الأراضي التي احتلتها، فما دامت أمريكا مؤيدة ففي وسعها ان تفرضه على اسرائيل. لكن بسبب الحماقة المستمرة لدى العرب ومَن يمثلونهم في الأمم المتحدة عارضت البلاد العربية هذا الاقتراح، فلم يظفر هو الآخر بالأغلبية المطلوبة. وكانت النتيجة هي اخفاق الجمعية العامة في دورتها الاستثنائية اصدار أي قرار يتعلق بنتائج حرب يونيو وبالمشكلة العربية ـ الاسرائيلية بعامة. وتمخّض الجبل فولد فأراً. اذ كانت القرارات الوحيدة التي خرجت بها الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها الاستثنائية هذه قرارين فارغين عارضين: الأول يتعلق بمساعدة اللاجئين، والثاني يدين ضم القسم العربي من مدينة القدس إلى اسرائيل!!

ولقد اجتمع كوسيجين، رئيس وزراء روسيا مع لندون جونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في يومي ٢٣ و٢٥ يونيو في جلاسبرو Glassboro

(بولاية نيوجيرسي) للنظر في مشكلتي الشرق الأوسط وفيتنام. وعقب الاجتماع صرح لندون جونسون بأنَّ الاجتماع كان «جيداً جداً ومفيداً جداً. . . على الرغم من اختلاف وجهات النظر فيما يتعلق بالموقف في الشرق الأوسط وفيتنام» ـ ولا معنى لقوله: «جيد جداً ومفيد جداً» إلاَّ ان أمريكا استطاعت ان تجعل الاتحاد السوفييتي يمتنع من التدخل العملي لصالح البلاد العربية وأن تسلّم بنتائج الحرب. أمّا كوسيجين فقد صرح بأنه «لم يتم التوصل إلى قرارات»، وأضاف ان كلا الطرفين يؤمن بأنه من المهم الوصول إلى تفاهم حول عقد معاهدة دولية تتعلق بمنع انتشار الأسلحة النووية!!

وهكذا لم يظفر كوسيجين من جونسون بأي شيء في مقابل الموقف السلبي الشائن الذي وقفه الاتحاد السوفييتي من حرب الأيام الستة، ولا حتى موافقة أمريكا على أي مشروع قرار يطالب اسرائيل بانسحاب قواتها من الأراضي العربية المحتلة دون شروط.

ودون أدنى حياء جاء عبد الناصر في خطبة مسهبة في ٢٣ يوليو وألقى مسئولية الهزيمة الحربية على القوات المسلحة، وخصوصاً على سلاح الطيران. ثم زعم بكل وقاحة ان اسرائيل لم تحقق هدفها من الحرب ـ وما هو هذا الهدف في نظر هذا الرجل الذي لا يتورع عن أفحش الأكاذيب؟ إنَّه تحطيم الثورة المصرية!! أي خلع عبد الناصر عن عرشه في مصر! وكأن كل جهود الصهيونية، العالمية منذ أواخر القرن الماضي حتى سنة ١٩٤٨، وما تلاها كانت تنصب على هدف واحد هو: الاطاحة بحكم رجل سيتولى حكم مصر، اسمه جمال عبد الناصر!

ولكي يسكت كل صوت في مصر، سعى للتخلص من عبد الحكيم عامر ومَن معه من المؤيدين، فاغتيل عبد الحكيم عامر في ٥ سبتمبر واتهم بأنَّه كان يدبّر ـ هو ووزيرين ومدير المخابرات ـ مؤامرة لقلب الحكم بالقوة والاستيلاء على السلطة. وفي ١٤ سبتمبر أُعلن ان عبد الحكيم عامر انتحر بتناول سمّ كان يخفيه. في حزام بنطلونه! وقد تبيّن فيما بعد انه قد دُسَّ له السم في شراب جوافة، فلما شربه أدى التسمم إلى وفاته في ذلك اليوم.

ومن ناحية أخرى جعل أبواقه في الصحف والاذاعة تعلن انه «لا صوت يعلو على صوت المعركة» ـ أي بصريح العبارة: اخرسوا أيُّها المصريون وتجرّعوا الهزيمة والاستبداد والذل والهوان دون ان تنطقوا بكلمة واحدة!



وأحاول ان أجد تفسيراً لموقف الشعب المصري هذا، موقف الخزي والاستسلام والخنوع المفرط - فلا أجد. وأروح أُعزّي نفسي بقول الشاعر أحمد شوقي في بداية مسرحيته. «مصرع كليوبطرة»:

«حابي: اسمع الشعب، «ديون» كيف يوحون إليه
ملأ الجو هتافاً بحياتي قاتليه
يا له من ببغاء عقله في أذنيه
ديون: حابي! سمعت، كما سمعت وراعني ان الرميّة تحتفي بالرامي»

ثم بدّلتُ كلمات الأبيات التالية لهذا البيت حتى تستقيم مع الحال الراهن، فقلت:

هتفوا بمَن جلب الهوان عليهم وأحالهم قطعاً من الأغنام
وسعى بكل الحمق نحو هزيمة عارٍ لمصر على مدى الأعوام
ومضى يعربد بالمكاذب فاجراً متردّياً في البُطْل والأوهام

كنت أُسائل نفسي: هل خمسة عشر عاماً من الظلم والقهر والاستبداد تكفي لإرهاق روح شعب؟ ولجعله أعمى لا يبصر شيئاً، وأبله لا يدري ما ينبغي عليه ان يفعل، ومسلوب العقل بحيث يتصرف على النقيض مما ينبغي أن يكون عليه تصرف العاقل؟ وهل خمسة عشر عاماً من العيش في الظلام تكفي لتُغْشي على الأبصار؟ صحيح ان مصر في كل تاريخها لم تعرف استبداداً أقسى وأشمل من الاستبداد الذي استولى عليها طوال تلك السنوات الخمس عشرة، لأنَّ أدوات القهر لم تبلغ مثل هذه الدرجة من الاحكام والشمول والفعالية كما بلغت في هذا العصر التعيس، المتباهي مع ذلك بهذا التقدم «التكنولوجي» الهائل حتى في أدوات وأساليب التعذيب والقهر. كان الناس قبل هذا «التقدم» الشرير يفرّون بأنفسهم إلى البوادي او الجبال فلا تلحق بهم قوّات السلطة الغاشمة، أمَّا اليوم فقد صارت الطائرات المحورية (الهليكوپترات) تستطيع ان تتعقبهم في أعماق الصحراء وفي كهوف الجبال الشاهقة. وكانت الأسلحة متكافئة بين المتمردين وأصحاب السلطة، أمَّا الآن فلا قبل مطلقاً للأفراد، ولا للجماعات بمواجهة الطائرات والمدافع واالدبابات والصواريخ التي يملكها صاحب السلطة القائمة

فليت شعري ماذا كسب الانسان من هذا التقدم التكنولوجي الهائل!!

الحق انه فَقَد كل حرية، وكل كرامة، وكل ما كان الانسان في الماضي يفخر

به بوصفه انساناً، أعني كائناً حراً عاقلاً متصرفاً في مصيره، واعياً بكرامته، متطلعاً إلى تحقيق مثله العليا.

الراقصون في مجلس الأُمَّة!

أمّا الراقصون من النوّاب في مجلس الأُمَّة فلم يكن رقصهم من ذلك النوع الذي يعبّر عنه شطر البيت المشهور: «والطير يرقص مذبوحاً من الألم» - وإلاّ لالتمسنا لَهُمْ وجه العذر. بل كان دليلاً قاطعاً على انهيار المستوى العقلي والوطني وانهيار كل القيم نتيجة خمس عشرة سنة من الاستبداد والارهاب والنفاق واهدار كل كرامة.

وحتى يكون حكمنا عادلاً، فإن الصور التي نشرتها الصحف «المهلّلة الممجّدة» لهؤلاء «الراقصين» تدل على انهم كانوا جميعاً من نواب «الخمسين في المائة»، أي من العمال والفلاحين. وهذا يفسّر بعض الأسباب التي أدّت إلى وضع هذا النص الشاذ الغريب في قانون الانتخاب في مصر. لقد وضعه واضعوه حتى يضمنوا على الأقل خمسين في المائة من النواب الموالين لهم ولاءً أعمى دون تفكير ولا سؤال ولا استفهام. وكأنهم لم يكفهم تزوير كل الانتخابات لصالح مرشحي الحكومة: فقد خشوا ان يفيق عقل بعض هؤلاء وهم في مقاعدهم النيابية، فينتقدوا، أو يستفهموا، أو حتى ينطقوا بما هو دون: آمين! أمين! أمين.

وتسأل هؤلاء الزبانية الذين وضعوا هذا النص: ألستم تصيحون على الملأ بأنَّ الفلاحين والعمال يشكّلون نسبة تسعين في المائة من الشعب المصري؟ فلماذا إذن لا يختار هؤلاء التسعون في المائة من الشعب تسعين، بل ثمانين، بل سبعين، بل ستين في المائة من بينهم هم أنفسهم ليكونوا ممثلين لهم في مجلس الأمة؟ ماذا تخشون إذن لو تركتم الناخبين أحراراً في انتخاب مَن يشاؤون كي يمثلوهم في المجلس النيابي؟! إنَّكم بهذا النص تقرُّون بأنَّ التسعين في المائة من الناخبين لن ينتخبوا إلاّ مَن يرون أنهم أقدر على فهم الشئون السياسية والاقتصادية والقضائية والادارية والتعليمية الخ الخ التي تعرض قوانينها على مجلس الأُمَّة. وهذا يدل على ان غرضكم من هذا النص - أعني ضرورة نسبة خمسين في المائة من العمال والفلاحين بين نواب الأُمَّة - ليس هو التمثيل الصحيح لهؤلاء، بل ضمان خمسين في المائة من النواب على الأقل ممَن لا يفهمون شيئاً مما يعرض عليهم، وبالتالي ضمان تمرير أي قانون دون اعتراض، بل بالتصفيق الأبله الدائم.

واليساريون الذين لا يزالون حتى اليوم يهبّون - أو يعوون وينبحون - في وجه

كل مَن يطالب بإلغاء هذا النص الشائن إنّما هم منافقون يريدون ان يتملقوا مشاعر غوغائية رخيصة. وفي الدول التي يدينون لها بالولاء لا يوجد مثل هذا النص، لأنَّ جهاز الحزب الحاكم هو الذي يحق له وحده أن «يعيّن» المرشحين، ودون منافسين في غالب الأحوال، وما على الجماهير إلاَّ ان تصادق على مَن رشَّحهم الحزب مصادقة عمياء. وهم لهذا يريغون إلى أن يكون في مصر مجلس نيابي من نوع تلك المجالس الموجودة في دول أوليائهم.

اليأس التام

يئست نفسي إذن من كل شيء في مصر: حاكم طاغية مستبد طيّاش، وشعب مسلوب العقل والارادة مطواع لكل ظالم قاهر، وطبقة «متعلمة» تتنافس وتزايد في تملّق الحكّام والتزلّف اليهم بمختلف الأساليب كيما يلقي إليها هؤلاء بعض الفتات المتناثر من موائدهم المحتكرة لكل أصناف السلطة.

نعم، قد يزول الحاكم بعد وقت ربما يكون قصيراً، وسيزول فعلاً بعد ثلاث سنوات، لكن لن يتغيّر شيء كثير، لأنَّ داء الاستبداد قد تمكن من نظام الحكم فصار من العسير اقتلاعه. فحتى لو جاء حاكم جديد مستنير عادل، فسرعان ما ستلتف حوله كأعشاب العلّيق حاشية من الانتهازيين والمتملقين والدسّاسين الذين سيضعون بينه وبين رؤية الحق والعدل حواجز عالية بعد حواجز، وسيملأونه غروراً بنفسه حتى يصدّق ما تقوله ألسنتهم، وما تصف ألسنتهم إلاَّ الكذب. ومهما أُوتي الانسان من صلابة في الخلق فإنَّه لا بدَّ عما قليل ان يجرفه تيار الأكاذيب والمبالغات والاتهامات بحيث يكون هو نفسه أول المصدّقين لهذه الأكاذيب. ثم ها هي ذي الصحافة ووسائل الاعلام كفيلة بإفساد كل صالح، والتمويه عن كل فاسد، وقلب المعاني رأساً على عقب، واهدار كل قيمة صحيحة. يكفيهم أن يقولوا عن الحاكم إذا خطب خطبة تافهة معادة مبتذلة: «خطاب تاريخي له». وإذا هدر بأوامر لا معنى لها في زيارة ميدانية، كتبوا بالخط العريض وصاحوا في الاذاعة بصوت راعد: «توجهات سامية لـ. . . .». واذا تعطلت كل المرافق: من مواصلات، وتليفونات، وكهرباء، وماء، وصرف، الخ صاحت هذه الأبواق الكاذبة: «رغم توجيهات. . .». وكأن كل كلمة يقولها هي «كلمة الحضرة»: «كُنْ!» ـ فلا بدَّ للشيء أن يكون، أليس الحاكم بمثابة الإله الخالق؟! ولقد قلت معارضاً لشوقي في مطلع قصيدة عن «الصحافة»:

لــكــل زمــانٍ مــضــى آفــةٌ   وآفــة هــذا الــزمــان الــصُّــحُــف

أمَّا الشعب، فما أدراك ما الشعب! إنَّه كما يقول كيركجور مارد هائل على رجلين من طين. باسمه ترتكب أبشع المظالم؛ وباسمه تُدمّر أضخم الأبنية؛ وباسمه تُهدَر كل القيم النبيلة التي أمضى الانسان كل تاريخه حتى الآن في سبيل تحريرها وتصعيد قواعدها، وترتيب درجاتها. والشعب هو مثل «ليلى» التي عناها الشاعر حين قال:

وكــلّ يــدّعــي وَصْــلاً بــلــيــلــى   ولــيــلــى لا تُــقِــرُّ لــهــم بــذاكــا

فما من حاكم مستبد ظالم إلاّ وزعم انه إنَّما يرتكب ما يرتكب «باسم الشعب»، و«لصالح الشعب»، و«من أجل الشعب». وتبلغ قمة الوقاحة عند بعضهم فيقول: «نحتكم إلى الشعب» ـ وما الشعب عنده إلاّ وزير الداخلية الذي يرتب له ما يشاء من نِسَبٍ وأرقام.

باسم شعب أثينا حُكِمَ على سقراط بالموت متجرّعاً لسُمّ الشوكران

وباسم شعب أثينا حُكِمَ على أرسطوطاليس بالنفي إلى آسيا الصغرى

وباسم الشعب اليهودي حكُمِ على السيد المسيح، يسوع الناصري، بالقتل مصلوباً

وباسم شعب بغداد حُكِمَ على الحسين بن منصور الحلاّج بالقتل والصلب واحراق الجثة

وباسم شعب روما البابوية حُكِمَ على جوردانو برونو Bruno بالاحراق في سوق الأزهار في روما

وباسم الشعب الفرنسي أعدِمَ زعماء الثورة الفرنسية خلال الفترة المسماة بـ «الارهاب» (١٧٩٣ ـ ١٧٩٤) La Terreur قرابة أربعين ألفاً، بتهمة أنهم «أعداء الشعب»!! ومَن هم «أعداء الشعب» هؤلاء، إنَّهم في المقام الأول الزعماء الذين قاموا بالثورة الفرنسية نفسها! فقد أُعدِم الرؤساء الجيروندان (حكمت محكمة الثورة على ٢١ منهم بالاعدام بالمقصلة في نهاية اكتوبر سنة ١٧٩٣ ومنهم الفيلسوف والرياضي الشهير كوندورسيه Condorcet) كما أعدم زعماء مَن أعدموهم، وعلى رأسهم دانتون Danton وأنصاره (أوائل ابريل سنة ١٧٩٤)، ولحق به منافسه في الارهاب: روبسپيير الذي أُعدِمَ في ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤ وهكذا وباسم الشعب، وبتهمة انهم «أعداء الشعب» أعدم «الارهابيون» منافسيهم وخصومهم، ثم جاء الدور عليهم هم وبنفس التهمة تمَّ إعدامهم هم!!

وباسم الشعب أعدم استالين زعماء الثورة البلشفية، في التطهير الشنيع الذكر الذي تمَّ بين ١٩٣٦ و١٩٣٨: فأعدم ٣٥,٠٠٠ (خمساً وثلاثين ألف) ضابط في الجيش الأحمر (من بينهم الماريشال توختشفسكي)، وأعدم مليوناً وتسعمائة ألف بتهمة أنهم «أعداء الشعب»!! وعبثاً حاول خروشوف في سنة ١٩٥٦، ويحاول الآن جورباتشوف أن يبرّىء هؤلاء المقتولين «باسم الشعب» وباعتبارهم «أعداء الشعب» وادانة استالين!! فهيهات هيهات ان ترد الحياة إلى هؤلاء الضحايا! وقبل ذلك، وباسم الشعب ايضاً، أعدم استالين قرابة ستة ملايين من الفلاحين الروس بدعوى انهم يعارضون «التجميع الزراعي»!!

ذلك إذن هو تاريخ «باسم الشعب»!

❀ ❀ ❀

أمّا طبقة «المتعلمين» (أو «المثقفين» أو الأنتلجنسيا) فخصالها معروفة: ركوب الموجة حين الحركة والاضطراب والتغيير، والدس الخبيث إبّان استقرار الأوضاع، والوصولية السالكة أخسّ السُّبُل وبأقل مجهود، وقاعدتها في السلوك هي التي صاغها شاعر معاصر (هو أحمد الزين) حين قال:

يَـزن الـعُـمْـرَ وعُـمْـراً مـثـلـه ... سـاعـة تـنـفـقـهـا فـي الـمَـلَـق

وقد عرضنا نماذج لها في القسم الأول من هذه «السيرة» بما يغني عن المزيد في هذا الباب.

❀ ❀ ❀

وازاء هذا اليأس التام قرّرت ان أعمل بقول البُسْتي (أبو الفتح علي، توفي سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١٠ م):

وإن نَـبَـتْ بـك أوطـانٌ نـشـأت بـهـا ... فـارحـل! فـكـل بـلاد الله أوطـان

فقررت الاقامة في خارج مصر لمدة طويلة.

ومن أجل ذلك كتبت الى الجامعة الليبية، ومقرّها في بنغازي، أسألها هل من الممكن تعييني استاذاً للفلسفة بكلية الآداب التابعة لها. وكان ذلك في أواسط شهر مايو (سنة ١٩٦٧). وسرعان ما جاءني ردّها بالموافقة على تعييني أستاذاً للفلسفة بقسم الفلسفة في كلية الآداب ببنغازي ابتداء من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٧.

وقرّرت التوجه إلى بنغازي في مستهل شهر سبتمبر (١٩٦٧).

أحداث فكرية

أ ـ برجسون في الپانتيون

ونستأنف الحديث عن الأحداث الفكرية في فرنسا، بيد ان قطعته أحداث حرب الأيام الستة (٥ ـ ١٠ يونيو سنة ١٩٦٧) بتمهيداتها وعواقبها المباشرة.

فمن الأحداث الفكرية التي شهدتها في باريس الاحتفال بوضع لوحة تذكارية على أحد أعمدة «الپانتيون» (مقبرة العظماء) تخليداً لبرجسون (١٨٥٩ ـ ١٩٤١) الفيلسوف الفرنسي (البولندي الأصل) الشهير، وكان ذلك تكريماً رسمياً بعد وفاته، وهو الذي نال إبّان حياته كل أنواع التكريم الرسمي: فقد كان رئيساً لأكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية منذ سنة ١٩١٤، وعضواً في الأكاديمية الفرنسية منذ سنة ١٩١٤ أيضاً وحصل على جائزة نوبل Nobel في الآداب في سنة ١٩٢٨، ومُنح وسام اللجيون دونير من طبقة «الصليب الكبير» Grand Croix وهي أعلى طبقة في هذا الوسام. ولا نعرف فيلسوفاً في العصر الحديث حظي بكل هذه التشريفات الرسمية. وفضلاً عن ذلك كانت فلسفته نوعاً من «البِدْع» الفكري (= الموضة) فيما بين الحربين العالميتين يتباهى بالانتساب إليها أو التأثر بها: في الفلسفة، والدين، والأدب مَن يفهمونها ومَن لا يفهمون منها حرفاً واحداً!!

لكن ما كاد برجسون يموت في ٤ يناير سنة ١٩٤١ حتى دخل في عالم النسيان شيئاً فشيئاً، بل صار نسْياً منسياً في حدود سنة ١٩٦٠ وما تلاها.

وبمناسبة لست أذكرها قام التلفزيون الفرنسي في صيف سنة ١٩٨٠ بتحقيق لمعرفة مدى معرفة الطلاب وعامة المتعلمين باسم برجسون ومذهبه. وبدأ بمدرسة ثانوية (ليسيه) تحمل اسم برجسون Lycée Bergson في باريس، وسأل الطلاب والطالبات عمّا يعرفن عن برجسون فلم يعرف من بين حوالى ٥٠٠ طالب وطالبة غير اثنين فقط انه فيلسوف فرنسي! وهذا كل ما عرفه هذان الطالبان الوحيدان عن برجسون! فلما سُئلا بماذا تمتاز فلسفته، لم يحيرا أيّ جواب! فلما خرج القائمون بالاستبيان إلى المقاهي والشوارع لم يصادفوا شخصاً واحداً يعرف حتى اسم برجسون!!

ومن الأسف انهم لم يوسّعوا نطاق دائرة التحقيق ليشمل طلاب الجامعة. لكني أزعم بأنهم لن يحصلوا إلاَّ على نفس النتيجة بين طلاب وربما كل أساتذة كليات الجامعة، باستثناء قسم الفلسفة من كلية الآداب (السوربون)! هذا والرجل لم يمض على وفاته إلاَّ أربعون عاماً!

ولقد أقيم الاحتفال بوضع تلك اللوحة التذكارية في صباح ذلك اليوم. وتولّى كِبْر الاحتفال الأكاديمية الفرنسية، باعتبار ان برجسون كان عضواً فيها. وأنابت الكلية عنها لإلقاء الخطبة الرئيسية ايتين جلسون Etienne Gilson (١٨٨٤ ـ ١٩٧٨) مؤرخ فلسفة العصور الوسطى الأوروبية الشهير، وعضو الأكاديمية الفرنسية منذ ٢٤/١٠/١٩٤٦، وكان يلبس زي عضو الأكاديمية الأخضر المطرّز الحواشي، وإن كنت لا أذكر الآن هل كان يحمل في جانبه «سيف» عضو الأكاديمية!

لكن رغم هذا الاحتفال، فقد ظلَّ اسم برجسون يغط في النسيان! فما أعجب حظ هذا الفيلسوف! لقد كان شهاباً سطع برهة سطوعاً شديداً ثم هوى في هاوية النسيان.

ب ـ معرض لوحات مصورين من القرن الحالي

وفي متحف «الاورانجري» «Orangerie» القائم في حديقة التويلري من ناحية ميدان الكونكورد، عرضت مجموعة لوحات اقتناها پول جيوم Guillaume وجان ڤالتير Walter وتبرعت بها زوجتاهما إلى المتاحف القوميّة في فرنسا، فعرضتها في هذا المتحف.

وتشمل هذه المجموعة:

ـ ١٦ لوحة لسيزان (١٨٣٩ ـ ١٩٠٦) Cézanne، من بينها صورة زوجته، وصورة ابنه، والباقي صور لطبائع غير حيّة.

ـ ٢٤ لوحة لرينوار (١٨٤١ ـ ١٩١٩) Renoir.

ـ ١٠ لوحات لماتيس (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤) Henri Matisse.

ـ ١٤ لوحة لپيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣) Pablo Picasso.

ـ ٢٧ لوحة لديران (١٨٨٠ ـ ١٩٥٤) André Derain، أبرزها «نموذج شقراء».

ـ ١٠ لوحات لأوتريلّو (١٨٨٣ ـ ١٩٥٥) Maurice Utrillo.

ـ ٥ لوحات لمودلياني (١٨٨٤ ـ ١٩٢٠) Amadeo Modigliani.

ـ ٢٢ لوحة لسوتين (١٨٩٤ ـ ١٩٤٣) Chaim Soutine.

ـ لوحة للجمركي روسو (١٨٤٤ ـ ١٩١٠) Douanier Rousseau عنوانها: «زفاف وعربة الأب جونيه».

واستمر المعرض من ٢١ يناير حتى ٥ سبتمبر سنة ١٩٦٧، وقمت بزيارته ثلاث مرّات لأنه يضم مجموعة فريدة التنوع معاصرة يستطيع المرء بمشاهدتها الاطلاع على خير ما أنتجه التصوير المعاصر التالي مباشرة لحركة «الانطباعيين» Impressionistes. وخلال مدة المعرض زاره ٣٤٧,٦١٢ زائراً، وهو عدد على ضخامته لا يعد شيئاً بالنسبة الى عدد مَن زاروا في نفس السنة المعارض الأخيرة: فمعرض مزمير Jan Vermeer (١٦٣٢ ـ ١٦٧٥) زاره ٣١٧,٧٠٢ زائراً في تسعة أسابيع فقط، ومعرض پيكاسو (من ١٨ نوفمبر سنة ١٩٦٦ إلى ١٣/ ٢/ ١٩٦٧) زاره ٦٠٣,١٣٢ في ثلاثة أشهر، ومعرض بونار Pierre Bonnard (١٨٦٧ ـ ١٩٤٧) زاره ٢٠٥,٣٦٦ في شهر واحد فقط. واكتسح جميع المعارض في جميع البلدان وجميع الأزمان معرض توت عنخ أمون الذي استمر من فبراير حتى يوليو سنة ١٩٦٧، إذ زاره مليون وثلثمائة ألف زائر في خمسة أشهر فقط!!

وأمام لوحات سيزان توقفت طويلاً للنظر في فنه الجادّ الصارم التقاطيع، الذي كان بمثابة رد فعل ضد الخطوط الضبابية التي سادت لوحات زملائه السابقين: الانطباعيين. وعلى الرغم مما ووجه به فنه هذا من عداء، سواء من جانب زملائه الفنانين ومن الجمهور، في أثناء حياته، فإنَّ هذا الفن قد استطاع ان يلقي بكل تأثيره في الربع الأول من القرن العشرين وسواء عليه صَّور أشخاصاً، أو مناظر طبيعية، او طبائع غير حيّة، فالخصائص واحدة: الصرامة، عمق التعبير، غلظ الخطوط، كبرياء الفنان، قسوة المصير الانساني.

وعلى العكس من ذلك نجد لوحات رنوار تنضح بالشهوانية، وملاء الحياة، والفرحة بالأحاسيس المتوهّجة. ويكفيك للمقارنة بين فنه وفن سيزان ان تتأمل لهما لوحتين ذواتي موضوع واحد هو: «المستحمات» Les Baigneuses لترى الفارق الهائل بين كلا الرجلين. مع سيزان تشعر بتجّهم المصير وقسوة الحياة، ولكنك مع رنوار تقول للحياة: هل من مزيد، وللمصير: ما أمتع العمر! ونفس الانطباع يستقرّ في نفسك حين تشاهد لهما لوحتين أخريين بنفس العنوان l'Estaque، وقد رسماهما في نفس الوقت (سنة ١٨٨٢).

أمّا ماتيس Matisse فيمتاز بالخطوط العمودية والمستقيمة، وبالتأثر بفن «الأربسك» الاسلامي، وبزوال الملامح الطبيعية في سبيل الزخرفة التي لا تراعي الأوضاع الطبيعية، بل تتصرف في النسب والخطوط والقسمات من اجل احداث اثر عام لا يتحدد بشيء بذاته. ورسومه تتسم بالبدائية التي نجدها في رسوم الأطفال. والمنظور لا وجود له مطلقاً في اللوحات. وبالجملة فهو في تعارض تام

مع كل ما عرفه فن التصوير من قبل من قواعد والتزامات.

أمَّا الحديث عن پيكاسو فلا ينتهي: لقد ملأ الدنيا وشغل الناس، إلى حد جاوز كل معقولية. ومعه يصير كل شيء ممكناً، بحيث لا يكاد عنوان اللوحة يدل على شيء. لقد صار عنوان اللوحة مجرد ايحاء، وتقرأها كما تشاء. وشهرته المبالغ فيها إلى أقصى حد ربما ترجع إلى هذا الافلات من كل معنى محقق، إلى جانب ما برع فيه من الدعاوة والتهريج، وما طبع عليه الناس من العدوى بالشائعات والاعلانات والمعاضلات.

وقد رسم له موديلياني صورة في سنة ١٩١٥ (موجودة في مجموعة جورج موس Moos في جنيف) عبّر فيها تماماً عن شخصية پيكاسو: التشتت، والتشعث، والغرابة، وانعدام الوضوح في الرؤية. لكن موديلياني نفسه وإن كان أوضح رؤية وأقرب الى الطبيعة، فإنَّ في شخوص لوحاته سذاجة الطفولة وأحلامها، وانطواء النفس على أحزانها وأسرارها. ويبدو في لوحات موديلياني التأثر الواضح بالفن الزنجي الافريقي.

وقد كان موديلياني صديقاً لسوتين: وكلاهما يهودي، ولكن موديلياني ايطالي، بينما سوتين من أصل لتواني (لتوانيا، احدى دول البلطيق)؛ واجتمعا معاً في باريس. اذ جاء سوتين الى باريس في يوليو سنة ١٩١٣، والتحق بمدرسة الفنون الجميلة. وتعرّف الى شاجال، وزادكين وموديلياني. لكن ما أبعد الفارق بين اسلوب موديلياني واسلوب سوتين في التصوير! ان سوتين يحتفل للألوان، ويميل إلى تشويه الوجه الانساني، وسائر الأعضاء، ويفرط في استعمال الألوان المتعارضة كل التعارض في اللوحة الواحدة مع ايثار للون الأحمر الدموي. وهو مولع بتصوير الحيوانات المذبوحة: «الثور المسلوخ» (سنة ١٩٢٥)، سلسلة من الدواجن (من ١٩٢٥ حتى ١٩٢٧): دجاج، ديوك رومية، بط، وهي في الغالب معلّقة من رقابها، ومنتوفة الريش، ومن ذلك: لوحة «الدجاجة المنتوفة»، وهي احدى اللوحات المعروضة في المعرض الذي نتحدث عنه؛ ولوحة: «الديك» (حوالى سنة ١٩٢٦، وتوجد في معهد الفن في شيكاغو).

أمَّا ديران Derain فأوضح تأثراً بسيزان، كما يتجلى ذلك بقوة في «صورته الذاتية» Autoportrait التي رسمها في سن الرابعة والعشرين (سنة ١٩٠٤). بيد انه ما لبث ان تخلّى عن تأثير سيزان، وبدأ يتأثّر بالفن الزنجي الافريقي مثل موديلياني. ومن المعلوم انه هو الذي كشف لپيكاسو عن الفن الزنجي الافريقي والپولينين» ولوحة: «نموذج شقراء» Le Modèle Blond الموجودة في هذا المعرض تُعد أهم

لوحاته، وقد رسمها حوالى سنة ١٩٢٥. وكان قد تناول نفس الموضوع قبل ذلك بعامين في لوحة بعنوان: «نموذج جميلة» Le Beau Modèle، وهي موجودة في نفس المجموعة. وعلى الرغم من ان «النموذج» شقراء، فإنَّ ملامح وجهها زنجية، وتلافيف بطنها ووفرة عجيزتها تجعلها أقرب ما تكون إلى زنجية.

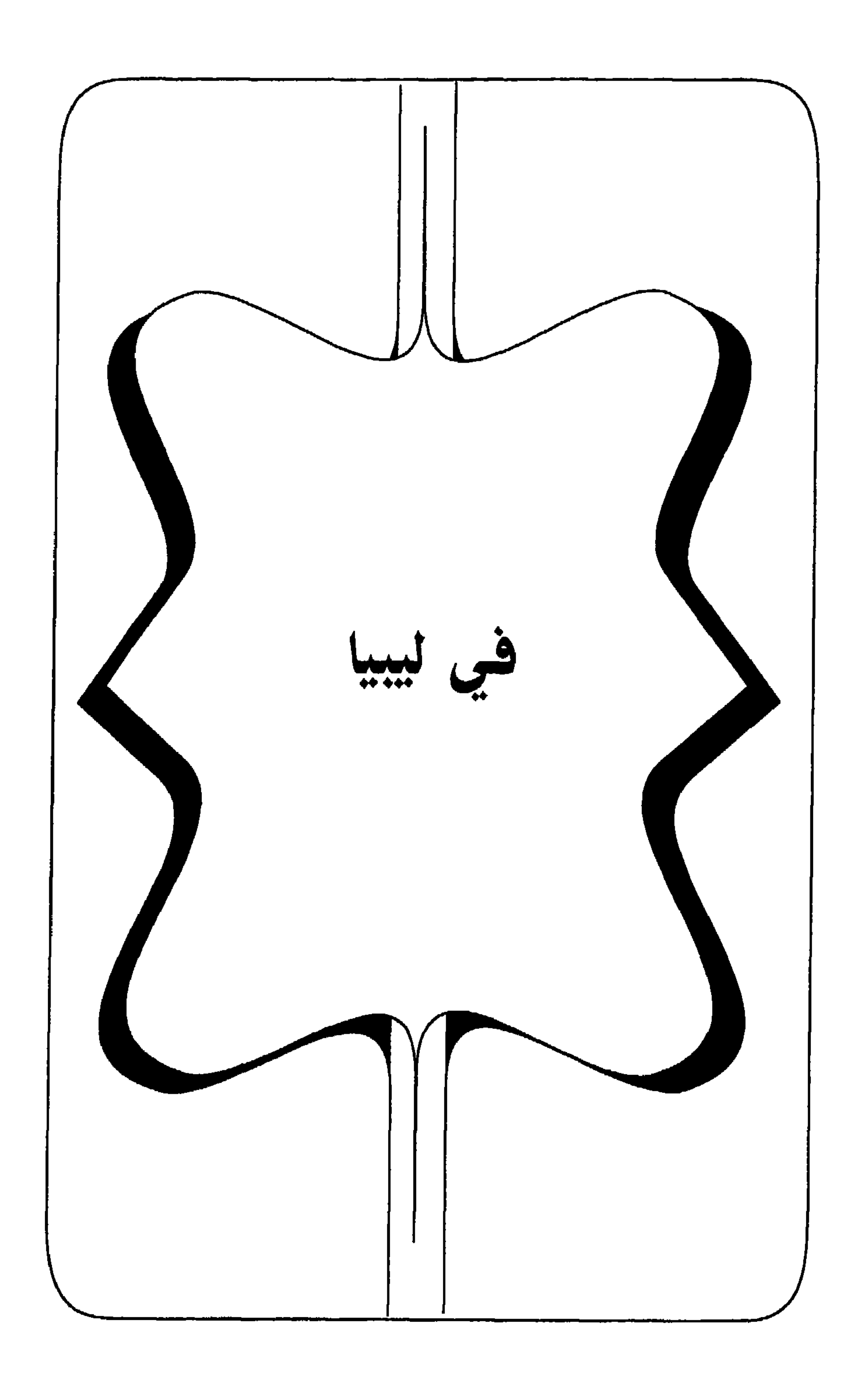
وأخيراً نتحدث عن موريس اوترليو Maurice Utrillo، وهو ابن غير شرعي للرسّامة سوزان ڤالادون Valadon (١٨٦٧ ـ ١٩٣٨)، لكن اعترف به كاتب اسپاني مغمور كان يعيش في حي مونمارتر؛ واسمه Migud Utrillo، ومن هنا سمّي موريس باسم أوترليو هذا. وقد بدأ بلوحات تصوّر مواضع من حيّ مونمارتر: «حارة كوتان» حوالى سنة ١٩١٠؛ «ميدان الترتر» سنة ١٩١٢، وتوجد في متحف تيت Tate الشهير في لندن). وبدأت شهرته في سنة ١٩٠٩ لما ان أشادَ به الكاتب اوكتاف ميربو Mirbeau، وبالتدريج حلّق في أفق الشهرة. وتزوّج في سنة ١٩٣٤ من لوسي ڤالور Lucie Valorc وكانت كاثوليكية شديدة التديّن، فتأثّر بها وصار رسم الكنائس آثر موضوعات لوحاته، ومن ثم أخذ فنه في الضمور والجفاف.



وهكذا كان المعرض حافلاً بالشواهد على حيوية وتنوع فن التصوير في فرنسا في الربع الأول من هذا القرن وقد أسهم في ايجاده مَن هم من أصل فرنسي خالص، ومَن هم من الأجانب الذين اجتمعوا في باريس التي صارت آنذاك بوتقة للجميع على اختلاف اصولهم ومراتبهم. وكل واحد منهم ذو أسلوب متميز كل التميّز، بحيث لا يخطىء العارف المدقق لو عرضت عليه هذه اللوحات مغفلة من الاسم والعنوان لاستطاع في التو ان يردّ كل لوحة إلى صاحبها.

ومثلما هي باريس في النصف الأول من القرن العشرين بعد الميلاد، كانت مدينة طيبة منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد ولعدة قرون عاصمة لفن التصوير في العالم، وأكبر متحف للتصوير في العصر القديم. تشهد على ذلك حتى اليوم مقابر وادي الملوك، وأبرزها مقابر: أمينوفيس الثاني، وتحتمس الثالث، ورمسيس السادس، ورمسيس التاسع. ويتلوها مقابر وادي الملكات، وأبرزها مقبرة تيتي ومقبرة نفرتاري زوجة رمسيس الثاني.

فواحسرتاه! أين القاهرة اليوم من طيبة بالأمس!



في ليبيا



في بنغازي

ومن باريس سافرت إلى بنغازي في ليبيا، يوم الأحد العاشر من سبتمبر سنة ١٩٦٧، وابّان الرحلة نزلنا في طرابلس الغرب لمدة ساعتين. ووصلت إلى بنغازي في حوالى الساعة التاسعة مساءً. ونزلت في فندق ضيق كئيب بشارع الاستقلال، يبعد عشرين متراً عن مقرّ كلية الآداب. ومع ذلك فإنّني حين سألت موظفي الفندق عن مكان ادارة الجامعة الليبية أشاروا عليّ بأن أركب تاكسي لإيصالي إلى هناك!! لكني شككت، وأنا أعرف مقدماً ان بنغازي بلدة صغيرة، ولن أحتاج إلى ركوب تاكسي، فقررت السير في شارع الاستقلال وسؤال المارّة، وأخيراً أخبرني أحدهم انها على بعد أمتار فقلت في نفسي: أهذا ما ينتظرني ها هنا!! إنَّ البداية لا تبشر بأيّ خير!

ودخلت «كلية الآداب والتربية» كما كانت تسمَّى آنذاك، وسألت عن العميد وبعض الأساتذة المصريين، فعلمت ان الذي يتولّى العمادة بالنيابة هو د. ابرهيم نصحي، العميد السابق والزميل في كلية الآداب بجامعة عين شمس، فالتقيت به، وأرسل يدعو د. علي عيسى رئيس قسم الفلسفة والاجتماع آنذاك فحضر. ومع د. علي عيسى ذهبت للقاء مدير الجامعة، الأستاذ عبد المولى دغمان، الذي كان قبل ذلك مدرساً لعلم الاجتماع في كلية الآداب. فرحّب بي أجمل ترحيب، وكان على شبابه واسع الاطلاع على آخر الأبحاث في علم الاجتماع، إذ كان قبل ذلك بفترة قصيرة طالباً يحضّر للدراسات العليا في احدى الجامعات بالولايات المتحدة؛ وحصل من هناك على الماجستير في علم الاجتماع، وعاد قبل ان ينجز رسالة الدكتوراه ليتولّى منصب مدير للجامعة الليبية. وكان أول مدير ليبي كفء، مختص يتولى هذا المنصب، بعد ان تولاه قبل ذلك أشخاص لا شأن لهم بالعلم ولا بالجامعة.

فمسح هذا اللقاء الجميل الانطباع السيّىء الذي بدأ يساورني. وطوال العامين اللذين كان فيهما الأستاذ عبد المولى دغمان مديراً للجامعة الليبية كنت أشعر بالاطمئنان وأحظى بالتقدير البالغ، لهذا كان هذان العامان الأولان من الأعوام الستة التي أقمتها في ليبيا الفترة المضيئة الخصبة في مقامي هناك. أمَّا السنوات الأربع التالية (من سبتمبر سنة ١٩٦٩ حتى أوائل مايو سنة ١٩٧٣) فكانت فترة قلق وتبرّم بالمقام هناك، وتربّص متلهف للافلات من ليبيا، لكن لم تسنح لي فرصة في دولة أخرى، فاضطررت إلى مواصلة العمل هناك كارهاً، لأنّي كنت عازماً على عدم العودة إلى مصر، رغم انها في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ تحررت من الطاغوت الرهيب الذي ظلَّ جاثماً عليها طوال ثماني عشرة سنة.

الأحوال السياسية في ليبيا

وكانت ليبيا آنذاك تحت حكم الملك ادريس الأول السنوسي (سيدي محمد ادريس المهدي السنوسي) الذي صار ملكاً على ليبيا غداة استقلالها في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١. وقد وُلِد في سنة ١٨٩٠ في اقليم برقة، وكان أبوه رئيساً للطريقة السنوسية، وهي طريقة صوفية سياسية معاً اتخذت مركزاً لها في برقة، وان كانت قد قدمت في الأصل من مستغانم في الجزائر. ولما توفي أبوه في سنة ١٩٠٢ خلفه على رئاسة الطريقة السنوسية، لكن لما كان قاصراً (١٢ سنة) فقد تولّى تدبير شئون الطريقة ابن عمه، أحمد الشريف السنوسي (١٨٧٣ ـ ١٩٣٣). وفي سنة ١٩١٦ تولّى محمد ادريس ادارة شئون الطريقة بنفسه، لكن ايطاليا كانت قد استولت على ليبيا في عامي ١٩١١ ـ ١٩١٢، بيد ان سلطتها لم تتجاوز المنطقة الساحلية. فاضطرت السنوسية الى مقاومة الاحتلال الايطالي في برقة. وتمَّ بعد ذلك وقف القتال بموجب صلح اركوما في سنة ١٩١٧، وتثبّتت سلطة الادريسي في داخل برقة وجنوبها. وعقد اتفاق اخر في سنة ١٩١٩ بموجبه انتخب برلمان في برقة، ومنح ادريس السنوسي وأتباعه معونة مالية من الحكومة الايطالية. وفي مقابل ذلك طلبت ايطاليا من ادريس تجريد القبائل التابعة لنفوذه من السلاح. فلم يستطع ادريس ذلك ولم يشأ القيام به. فكان في وضع العاجز امام هذا الوضع، مما حمله على الهجرة إلى مصر في سنة ١٩٢٢. ومن مصر استمر يبعث بالتوجيهات لأتباعه في ليبيا، لكنه استمر يقيم في مصر حتى سنة ١٩٤٧. ولما قامت الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩، أعلن ادريس انضمامه الى الحلفاء، وكوّن جيشاً صغيراً حارب في صفوف القوات البريطانية التي هاجمت ليبيا لطرد الايطاليين.

واستطاعت القوات البريطانية بقيادة مونتجمري طرد الايطاليين من ليبيا في سبتمبر سنة ١٩٤٢، وأقامت هناك ادارة بريطانية. ولما وضعت الحرب اوزارها في مايو سنة ١٩٤٥ كان يخشى على ليبيا من ان تقسّم بين انجلترة وفرنسا وايطاليا. فعرض الزعماء الليبيون قضيتهم على هيئة الأمم المتحدة فأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ قراراً يقضي بأن يتحدد مصير برقة وفزان وولاية طرابلس بواسطة ممثلين عن هذه الأقاليم الثلاثة في جمعية وطنية ينتخبونها. فقررت هذه الجمعية الوطنية توحيد كل الولايات في ليبيا في حكومة واحدة يرئسها ملك بنظام دستوري. وفي ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ اختارت الجمعية الوطنية الأمير محمد ادريس المهدي السنوسي ليكون ملكاً على ليبيا. وتمَّ اعلان الدستور في ٧ أكتوبر سنة ١٩٥١؛ وفي ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ أعلن الملك ادريس الأول استقلال ليبيا استقلالاً تاماً. وانضمت ليبيا إلى الجامعة العربية في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٥٣، وصارت عضواً في هيئة الأمم المتحدة في سنة ١٩٥٥.

لكنها في سنة ١٩٥١ كانت تعد واحدة من أفقر دول العالم: فمواردها الطبيعية ضئيلة للغاية، وطبيعة الأرض وعرة، وعدد السكان في حدود المليون نسمة. لهذا كان عدد كبير من أهلها يهاجرون إلى مصر وإلى تونس بحثاً عن العمل. ولهذا كانت الحكومة الليبية تعتمد على اعانات من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية إمَّا على شكل هبات مالية وعينية، وإمَّا كمقابل لاستئجار القواعد العسكرية البريطانية (العدم، في برقة) والأمريكية (الملاحة، في طرابلس).

لكن ما لبث الوضع ان انقلب تماماً لما ان اكتشف البترول بكميات وفيرة ومن نوع خفيف جيد. وكان أول اكتشاف للبترول في ليبيا هو في سنة ١٩٥٦ قرب حدودها مع الجزائر، ثم توالت الاكتشافات الغنية في السنوات التالية في محافظة بنغازي: حقول زلطن، امل، وانتصار؛ ومحافظة درنة: حقل سرير؛ ومحافظة مصراتة: حقل دهرة. وصارت احتياطيات البترول في سنة ١٩٧١ ثمانية وعشرين مليار برميل.

وبُني أول خط أنابيب لحمل البترول من حقوله في سنة ١٩٦١، وامتد الخط من زلطن إلى مرسى البريقاء (البريجا، كما ينطق بها في اللغة العامية) على الساحل الشرقي لخليج السرت. وتلاه خطان آخران من دهرة إلى السّدر ورأس الأنوف، وخط من حقل طبرق إلى مرسى الحويقة، ومن حقل الانتصار (أ) إلى الزويتينة (على الشاطىء الأيمن لخليج السّرت). وكان انتاج ليبيا من البترول في سنة ١٩٧١ هو ١٥٢,٠٠٠,٠٠٠ طن من النفط الخام، وصارت بذلك سابع دولة في العالم

بعد: الولايات المتحدة، فالاتحاد السوڤييتي، فالعربية السعودية، فإيران، ففنزويلا، فالكويت. وصار البترول يمثل ٩٩٪ من الدخل القومي في ليبيا. كل هذا وعدد السكان بحسب تقدير سنة ١٩٧٢ هو: ٢,٠٨٤,٠٠٠ نسمة!!

القبائل ودورها

والسلطة في ليبيا موزعة بين:

١ ـ الملك وحاشيته.

٢ ـ زعماء القبائل.

٣ ـ النفوذ البريطاني.

٤ ـ النفوذ الأمريكي.

١ ـ أمَّا الملك محمد ادريس السنوسي فحاكم دستوري نظرياً، ولكنه الحاكم المطلق فعلياً. فعلى الرغم من وجود برلمان، فإنَّ السلطة الفعلية كانت في يد الملك وحاشيته. وكان أقوى شخصية في هذه الحاشية هو: محمد المنتصر، الذي تولَّى رئاسة الوزارة عدة مرات، لكن سواء أكان في الحكم أو خارجه فإنَّه كان أقوى رجل في ليبيا. ويتلوه في الحاشية أبناء الشلحي: عبد العزيز الشلحي، والبوصيري الشلحي، وغيرهما. وكان يعمل في الحاشية، وإن لم يظهروا على الملأ، مستشارون بريطانيون وأمريكيون، يصعب تحديد دورهم الفعلي في ادارة الحكم في ليبيا.

٢ ـ أمَّا زعماء القبائل فكان أبرزهم آنذاك (سنة ١٩٦٧): حسين مازق، زعيم قبيلة البراعصة ومركزها الرئيسي في البيضاء، وعبد القادر البدري، من قبيلة العواقير. وكان حسين مازق رئيساً للوزراء حتى نهاية يونيو سنة ١٩٦٧، ثم خلفه عبد القادر البدري في أول يوليو سنة ١٩٦٧. ولم يستمر طويلاً، اذ عُيِّن عبد الحميد البكّوش في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٧؛ وكان شاباً في حدود الخامسة والثلاثين من عمره، ولم يكن له مكانة في قبيلة معروفة. وسيخلفه ونيس القذافي وهو الآخر لا ينتسب إلى قبيلة معروفة.

وكان سكان ليبيا يتمسكون بالاعتزاء، إلى قبيلة ويتعصبون لها تعصباً شديداً. وقد وضع دي أجوستينو De Agostino جداول بأنساب القبائل في ليبيا حوالى سنة ١٩٢٧ في ثلاثة مجلدات: أحدهما خاص بقبائل برقة والثاني بقبائل طرابلس، والثالث بقبائل فزّان. واعتمد في وضع هذه الأنساب على مشافهة زعماء القبائل،

ولهذا جاء غير موثّق، ولا ينبغي الاعتماد عليه إلاّ بتحفظ وحذر.

والعنصر الأساسي في القبائل الليبية كان إلى ما قبل القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري) هو: البربر. لكن بعد غزو بني هلال لليبيا (ثم تونس والجزائر) في سنة ١٠٤٩ م ومن بعدهم بنو سليم ازداد العنصر العربي في تكوين سكان ليبيا. وبالتزاوج المتبادل اختلط الدم العربي بالدم البربري، وسيطرت اللغة العربية وانحسرت اللهجات البربرية. وفقط في جبل نفّوسة، وفي بعض القرى بقيت السيادة للعنصر البربري واللهجات البربرية، وهذه القرى هي: أوجلة، والهون، وسوكنة، وزوابرة.

وبربر ليبيا ينتسبون إلى ثلاثة فروع من البربر: لواتة، ونفّوسة و Adassa.

أمّا قبيلة بني سُليم العربية فتتكون من أربع بطون رئيسية هي: بنو حبيب، بنو عوف، الضّباب، وزغبة. وقد استقر بنو حبيب في برقة، بينما استقر الباقون في طرابلس. وكان للضّباب خصوصاً أوسع سيطرة في طرابلس.

لكن في ليبيا إلى جانب العرب والبربر طوائف صغيرة أخرى، أهمها:

أ ـ الأشراف، ويزعمون الانتساب إلى بيت النبي محمد (ﷺ)، لكنهم جاءوا في الأغلب من اقليم فزّان، ويغلب عليهم اللون الأسود؛ وكانت لهم أملاك واسعة في واحات غربي ليبيا.

ب ـ المرابطون، وهم يدّعون الولاية، وقد جاءوا في الغالب من الساقية الحمراء في مراكش.

جـ ـ القولوغلي، وهم ينحدرون من الأنكشارية العثمانية، ومقرّهم في ولاية طرابلس.

د ـ الكريتلية، وهم مهاجرون من جزيرة كريت بعد استقلالها عن تركيا في سنة ١٨٩٦، وهم منتشرون في مدن برقة، خصوصاً في: سوسة، ودرنة، وبنغازي.

هـ ـ الطوارق، ويوجدون في الطرف الجنوبي الغربي من ليبيا، خصوصاً في واحة غدامس وواحة غات.

و ـ وكانت في ليبيا حتى سنة ١٩٣٩ جالية كبيرة من اليهود. ثم استمر عددها في التناقص تدريجياً، خصوصاً بعد عام ١٩٤٨، حتى زالوا نهائياً من ليبيا عقب حرب الأيام الستة في يونيو سنة ١٩٦٧. كان عددهم قبل سنة ١٩٣٩ حوالى ثلاثين

ألفاً، فلما وصلت إلى ليبيا في سبتمبر سنة ١٩٦٧ لم يكن في ليبيا أيّ يهودي. وينبغي أن نذكر هنا انه من بين البلاد التي اقترح لليهود ان يقيموا دولة لهم فيها، كانت ولاية برقة. وقامت فعلاً بعثة من اليهود الصهاينة بتصريح من السلطان التركي في سنة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨ بدراسة أحوال برقة اقتصادياً وجغرافياً للتمهيد لإقامة دولة يهودية فيها وقدّمت هذه البعثة تقريرها في سنة ١٩٠٨، وينصح التقرير بعدم اقامة دولة لليهود في برقة لضعف مواردها الطبيعية: عدم خصوبة التربة، وقلة الأمطار وندرة الآبار، وانعدام الثروات المعدنية!!

وهاك بياناً بعدد الكاثوليك والپروتستنت واليهود في ليبيا في سنة ١٩٦٦:

- الكاثوليك ٣٥,٦١٠
- البروتستنت ٤,٠٠٠
- اليهود ٣,٥٠٠

والكاثوليك والبروتستنت ينحدرون جميعاً من الأسرى المسيحيين الذين وقعوا أسرى للأتراك منذ ان احتلت تركيا ليبيا في سنة ١٥٥١ م. وقد وفدت، خصوصاً على اقليم طرابلس، بعثات تبشيرية كاثوليكية منذ ان دخلت هيئة «نشر الايمان» De Propaganda Fide إلى الطريقة الفرنسيسكانية في سنة ١٦٤٣ في ليبيا، وقد قتل من رجالها الكثير، وكان أوّلهم الأب Juan Bautista de Ponte الذي اغتيل في سنة ١٦٥٤ م. وكان الهدف الظاهري ـ من ايفاد هذه البعثة التبشيرية الفرنسيسكانية هو توفير الرعاية الدينية للأسرى النصارى؛ فلما تجاوزوا هذا الهدف إلى التبشير بين المسلمين كان جزاؤهم الاغتيال ثم الحرمان من دخول ليبيا، حتى استولى الايطاليون على ليبيا في عامي ١٩١١ ـ ١٩١٢ فعادت البعثات التبشيرية وتكاثرت في طرابلس وبنغازي ودرنة. وحين وصلت بنغازي، كان لا يزال فيها بعثة تبشيرية تنتسب إلى رهبانية أڤريا Ivrea، وكانت تدير مدرسة ابتدائية ملاصقة لكليتي التجارة والآداب. لكن هذه المدرسة أغلقت في سنة ١٩٧١، وأجليت البعثة التبشيرية، وحوّلت الكاتدرائية الضخمة إلى مقر للحزب الاشتراكي الليبي.

وعلى الرغم من نفوذ البعثة الفرنسيسكانية، فإنها ـ فيما يذكر الليبيون ـ لم تفلح طوال الحكم الايطالي في تنصير أحد من المسلمين باستثناء شخص واحد تسمّى بعد التنصر باسم «بطرس البرعصي»، وبعد زوال الحكم الايطالي صار يقيم في ايطاليا. وبه كان يتندر الناس في بنغازي.

وأمّا اليهود فكانت لهم حارة في بنغازي موازية لسوق الظلام. وكان لهم معبد، أغلق في يوليو سنة ١٩٦٧، وما وجد به من كتب وأوراق أودع في مكتبة الجامعة الليبية. وقد اطلعت على هذه الكتب والأوراق: فأمّا الكتب فكانت كلها كتب صلوات وأدعية دينية باللغة العبرية، أمّا الأوراق فكان بعضها يتعلق باجتماعات مجلس الطائفة اليهودية، وفي هذه المحاضر ما يدل على مساهمات الجالية اليهودية الليبية في «صندوق الجباية» اليهودي، وهو الصندوق المخصّص لشراء أراضي العرب في فلسطين، وترجع هذه الأوراق إلى سنة ١٩٢٦ وما تلاها حتى سنة ١٩٤٧. وتعترف «الموسوعة اليهودية» بهذا النشاط الصهيوني، فتقول: «وفي أثناء هذه الفترة (= الحكم الايطالي) واصل النشاط الصهيوني سيره دون عائق». (جـ ١١ عمود ٢٠٢).

ومنذ سنة ١٩١٩ واليهود في ليبيا يهاجرون إلى فلسطين: ففي الفترة من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٤٥ هاجر إلى فلسطين حوالى ٤٥٠ يهودياً، ثم تزايد عدد المهاجرين في الأعوام الثلاثة التالية: ففي عام ١٩٤٦ و١٩٤٧ هاجر ١٥٠ يهودياً؛ وبعد إنشاء دولة اسرائيل هاجر من مايو سنة ١٩٤٨ إلى يناير سنة ١٩٤٩ حوالى ٢٥٠٠ وعند نهاية سنة ١٩٥١ كان عدد المهاجرين اليهود من ليبيا هو ٣٠,٠٠٠، فلم يبق من اليهود في ليبيا غير حوالى ٨٠٠٠، وكان معظمهم يسكنون في طرابلس، بينما كان يقيم في بنغازي حوالى ٤٠٠. وبعد حرب الأيام الستة (يونيو سنة ١٩٦٧) لم يبق من اليهود في ليبيا غير اربعمائة يهودي عاشوا في معسكر اعتقال في طرابلس: وبعضهم كانوا مواطنين ليبيين، والبعض الآخر كانوا يهوداً يحملون جنسيات بريطانية او ايطالية أو فرنسية، والبعض الثالث كانوا بدون جنسية. وعند نهاية سنة ١٩٧٠ لم يبق في ليبيا إلاّ حوالى تسعين يهودياً. وغالبية المهاجرين اليهود من ليبيا توجهوا إلى فلسطين، ثم إلى اسرائيل بعد قيامها في سنة ١٩٤٨.

وكانت الشدّات على اليهود في ليبيا منذ سنة ١٩٤١ حتى سنة ١٩٦٧ كما يلي:

١ ـ في ٣ ابريل سنة ١٩٤١ قام الشباب بهجوم على اليهود في بنغازي.

٢ ـ في فبراير سنة ١٩٤٢ لما استردّت قوات المحور (ألمانيا وايطاليا) بنغازي من البريطانيين الذين كانوا قد احتلوها لمدة قصيرة في نهاية سنة ١٩٤١، هاجم أهل بنغازي المحلات اليهودية، وأصدرت السلطات الايطالية امراً بترحيل ٢٤٠٠ يهودي إلى مدينة جادو (جنوب مدينة طرابلس على بعد ٢٤٠ كم)، وأرغموا

على العمل في تعبيد ورصف الطرق. واستمر نفيهم هذا طوال ١٤ شهراً، وتوفي منهم ٥٦٢ شخصاً إمَّا من الجوع وأمَّا من التيفوس.

٣ ـ وفي ابريل سنة ١٩٤٢ أمر اليهود في طرابلس بتقديم اقرار عن ثرواتهم، وارسل منهم بين الثانية عشرة والخامسة والأربعين للعمل في رصف الطرق: ١٤٠٠ إلى مدينة الخُمس، و٣٥٠ لرصف الطريق بين ليبيا ومصر.

٤ ـ وفي ٤ يوليو سنة ١٩٤٥ قامت أعمال عنف ضد اليهود في طرابلس وغيرها من البلدان. فقُتِل بعض اليهود، وأحرقت خمسة معابد يهودية. كذلك قُتِل عدد من اليهود في زنزور (على بعد ٤٨ كم غربي طرابلس)، ومسّلاته، وتاجورا (١٦ كم شرقي طرابلس). ويقدر عدد مَن قتلوا من اليهود في هذه الشدّة ما بين ١٢٠ إلى ١٨٠ يهودياً.

٥ ـ على اثر قيام اسرائيل هوجم اليهود في يونيو سنة ١٩٤٨ في بنغازي وطرابلس. وقد قُتِل منهم ١٤ في طرابلس.

٦ ـ في يونيو سنة ١٩٦٧ كانت الشُدّة الأخيرة على اليهود في ليبيا في بنغازي وطرابلس، وفي أثنائها قُتِل ١٧ يهودياً. ولم يبق بعدها من اليهود في ليبيا إلاَّ حوالى أربعمائة.

وفي مقابل ذلك كان النشاط الصهيوني بين يهود ليبيا كبيراً. ويكفي ان نورد ها هنا ما قالته «الموسوعة اليهودية» Encyclopaedia Judaica (جـ ١١ عمود ٢٠٤ ـ ٢٠٥) تحت عنوان «النشاط الصهيوني» في ليبيا:

«بعد غزو ايطاليا لليبيا بزمن وجيز، تمَّ الاتصال بين اليهود الليبيين وبين المنظمة الصهيونية الايطالية، خصوصاً عن طريق المجلات التي كانت تصل إلى طرابلس وليبيا. وفي سنة ١٩١٣ حاول بعض قراء هذه المجلات، يتقدمهم ايليا نحيسي، انشاء منظمة صهيونية. وفي البداية أنشىء درس «تلمود توراة» في سنة ١٩١٤، من أجل نشر اللغة العبرية. وبعد ذلك انشئت «جمعية صهيونية» في مايو سنة ١٩١٦. وأفلحت لجنة هذه «الجمعية الصهيونية» في الدخول في لجنة «الطائفة» اليهودية في طرابلس، وحصلت على ١١ مقعداً من بين المقاعد الإحدى والثلاثين، وذلك في يونيو سنة ١٩١٦. وأصدرت «الجمعية الصهيونية» أول مجلة صهيونية في ليبيا، بعنوان «دجل صهيون» (١٩٢٠ ـ ١٩٢٤). وفي سنة ١٩٢٣ غيّرت هذه الجمعية اسمها إلى: «الاتحاد الصهيوني الطرابلسي». وتلا ذلك انشاء «جمعية بن يهودا» في سنة ١٩٣١، وكانت نشطة جداً في نشر اللغة العبرية. وفي سنة ١٩٣٣

أصدرت مجلة اسبوعية بعنوان: «عدّوا عبريت» (= تَعَلّم العبرية). كذلك أنشأت هذه الجمعية مدرسة عبرية في طرابلس سنة ١٩٣١، كان يؤمّها ٥١٢ تلميذاً في سنة ١٩٣٣؛ وازداد عددهم إلى ١٢٠٠ في العام الدراسي ١٩٣٨/١٩٣٩. وفي سنة ١٩٣٩ أصدرت الحكومة امراً بإغلاق المدرسة وحلّ الجمعية.

ولما غزا البريطانيون ليبيا في سنة ١٩٤٣ وجاء معهم جنود يهود فلسطينيون، استأنفت الحركة الصهيونية نشاطها في ليبيا. فتأسّس عدد من منظمات الشباب الصهيونية، وأصدرت عدة مجلات باللغة العبرية: «حيّنو»، وهي مجلة عبرية شهرية، في سنة ١٩٤٤؛ نظنيم، وهي مجلة عبرية شهرية ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨؛ «حيّنو» وهي مجلة اسبوعية باللغات الثلاث: العبرية، والايطالية، والعربية، ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠. وفي سنة ١٩٤٣ تأسست منظمة «هـ ـ حلوص»، وانشئت مزرعة تدريب زراعية، هُجِرَت في نوفمبر سنة ١٩٤٥ لما اندلعت الشدة على اليهود: وهاجر المدرّبون إلى اسرائيل (= فلسطين) في سنة ١٩٤٦. وبعد ذلك استؤنف التدريب الزراعي، إلى ان أرغم ٢٣ من المدرّبين على ترك المزرعة أثناء شدة يونيو سنة ١٩٤٨.

«وفي مايو سنة ١٩٤٦ أسّس مبعوث من فلسطين منظّمة للتدريب على استعمال الأسلحة وصُنْع «قنابل» محلية: وهذه المنظمة هي التي دافعت عن الحي اليهودي في طرابلس أثناء شدّة يونيو سنة ١٩٤٨. وفي سنة ١٩٤٦ ايضاً بدأت الهجرة غير القانونية إلى فلسطين، وكانت تتمّ باجتياز الحدود بطريقة غير قانونية إلى تونس، ومن هناك إلى مرسيليا. وفي سنة ١٩٤٨ نظمت الهجرة غير القانونية إلى اسرائيل عن طريق ايطاليا. فهاجر المئات عن هذا الطريق، إلى ان صارت الهجرة القانونية (؟) ممكنة (سنة ١٩٤٩).

«ولما كان اليهود الليبيون أتقياء، فإنّ معظم المنظمات الصهيونية كانت دينية، بما في ذلك جماعات الشباب التي تأسّست بعد سنة ١٩٤٣، وكانت تنتسب إلى تيار «ها ـ پوئل ها مزراحي».

وإزاء هذا النشاط الصهيوني الكثيف في ليبيا كان من الطبيعي ومن المتوقع ان يقوم المسلمون في ليبيا بأعمال عنف واضطهاد لليهود في ليبيا حتى تخلّصوا من هؤلاء الغادرين الخائنين للوطن الذي آواهم ومكّنهم من العيش الرغيد واقتناء الثروات، بل وحماهم من اضطهاد الحكومة الايطالية التي أخذت منذ سنة ١٩٣٩ في تطبيق السياسة والقوانين المعادية لليهود التي صارت مطبّقة في ايطاليا نفسها غداة التحالف الكامل بين المانيا النازية وايطاليا الفاشستية.

وكان على اليهود في ليبيا على أقل تقدير أن يتحاشوا أي اتصال او تورط مع الحركة الصهيونية. لكن التعصب الأعمى المغروز في طبيعة الشعب اليهودي سوّل له الغدر بكل مَن يصنع لهم الجميل. لهذا كانت الشدائد التي وقعت عليهم في ليبيا جزاءً وفاقاً لما ارتكبوا من غدر وخيانة ونكران للجميل في حق ليبيا التي آوتهم وآزرتهم وحمتهم لعدة قرون.

المذاهب الاسلامية في ليبيا: الإباضية

وهكذا تخلّصت ليبيا نهائياً من اليهود، كما أخذت تتخلص تدريجياً من النصارى الطارئين عليها مع الغزو الايطالي حتى لم يعد فيها من النصارى حين جئتها في سبتمبر سنة ١٩٦٧ إلاّ بضع مئات، وكانوا جلّهم من الأجانب الطارئين للعمل في حقول البترول او في مرافق الدولة المختلفة.

وإذن فسكان ليبيا المتمتعون بالجنسية الليبية كلهم مسلمون.

وهم في الفقه على مذهب مالك، بسبب سيادة مذهب مالك في شمالي افريقية غرب مصر.

اما في العقيدة فالمذهب السائد هو مذهب أهل السُّنَّة. لكن يوجد إلى جواره في بعض المناطق الغربية مذهب الاباضية.

والاباضية فرع من الخوارج، يتسم بالاعتدال إذا ما قورن بسائر فِرَق الخوارج.

وأول مَن دعا إلى المذهب الإباضي في ليبيا هو سلامة بن سعيد، الذي قدم من البصرة (في العراق) في بداية القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) ـ ووصل إلى القيروان بصحبة داعية من فرقة الصفرية (وهي فرقة من الخوارج معتدلة) يدعى عكرمة، مولى ابن عباس (توفي في سنة ١٠٧ هـ/ ٧٢٥ ـ ٧٢٦ م). ويلوح ان سلامة لقي بعض النجاح في دعوته، إذ نجد في اقليم طرابلس بعد ذلك بعشرين عاماً جماعة كبيرة من الإباضية يرئسها عبدالله بن مسعود النُجيبي. وقد استند عبدالله بن مسعود النجيبي هذا في البداية على قبيلة هوّارة البربرية التي كانت تحتل آنذاك الاقليم الواقع شرقي مدينة طرابلس حتى سبخة تاورغا. وخلفه على رئاسة الإباضية عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي. وبفضل هذين ـ وقد استندا أيضاً إلى قبيلة هوّارة ـ صارت ولاية طرابلس الحالية كلها إباضية المذهب. كذلك أخذ بهذا المذهب في تلك الفترة ايضاً من القبائل

البربرية: بعض قبيلة زناتة في غربي ولاية طرابلس، وبعض قبيلة نفّوسة الذين كانوا يسكنون الجبل الذي لا يزال يحمل حتى اليوم اسم جبل نفّوسة. وبعد مصرعهما في سنة ١٣١ هـ (أو سنة ١٣٢ هـ) اختير اسماعيل بن زياد النفوسي رئيساً للجماعة مع لقب «امام الدفاع». وقد استولى على مدينة قابس (في تونس الآن) في سنة ١٣٢ هـ لدى قيام الدولة العباسية. لكنه ما لبث ان قُتِل في معركة مع القوات التي بعث بها والي القيروان عبد الرحمن بن حبيب، وهو عربي. وخلفه عُمَر بن المكتن (وهو من أصل بربري). وكان أول مَن درّس القرآن في جبل نفّوسة، وكان قد قرأ القرآن وهو على الطريق الساحلي الذي يربط المغرب بالمشرق، في نواحي مغْمداس (مرسى زعفران، حالياً). وبعد موت اسماعيل بن زياد النفوسي، انهارت الدولة الإباضية في ولاية طرابلس، لكن بقي أهلها على المذهب الإباضي.

وقبيل سنة ١٤٠ هـ (٧٦٠ م) رحل إلى البصرة عدد كبير من البربر الإباضيين للأخذ عن شيخ المشايخ الإباضية في البصرة، ويدعى أبو عبيدة التميمي. ومن بين هؤلاء الذين ذهبوا الى البصرة نذكر ابن مغْتير (أو مُغْتير)، وهو من قبيلة نفّوسة وكان لا يزال حياً حوالى سنة ١٩٦ هـ؛ ثم عاصم السّدراتي (نسبة إلى قبيلة سدراتة، احدى قبائل البربر)؛ ثم أبو داود القِبّلي النفزاوي؛ ثم اسماعيل بن دِرّار الغدامسي - وقد قام هؤلاء بتأسيس امامة إباضية في ولاية طرابلس، وعُيِّن أبو الخطاب عبد الأعلى بن المسمح المعافري الحميري (كان مولى لبني معافر في اليمن) في سنة ١٤٠ هـ اول إمام إباضي في ولاية طرابلس. وقد قامت قبائل هوّارة ونفّوسة وغيرهما، تحت إمرة هذا الامام، بفتح كل ولاية طرابلس، وصارت مدينة طرابلس مقراً لهذا الامام. ثم استولوا بعد ذلك في صفر سنة ١٤١ هـ (يونيو - يوليو سنة ٧٥٨ م) على مدينة القيروان التي كانت آنذاك عاصمة افريقية (= تونس) وكان يحكمها آنذاك صُفْرية خوارج من قبيلة ور فجُّومة البربرية. وهكذا صارت للإباضية دولة كبيرة شملت ولاية طرابلس كلها حتى حدود ولاية برقة شرقاً، وتونس، وكل شرقي الجزائر الحالية، وبلاد كُتامة في شمالي ولاية قسنطينة في الجزائر.

لكن إمامة أبي الخطاب لم تستمر إلاّ أربع سنوات، فقد قضى عليها جيش أرسله العباسيون بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي، والي مصر، بعد معركة جرت في تاورغا شرقي مدينة طرابلس، هلك فيها أبو الخطاب وعدة آلاف من أتباعه. واستولى ابن الأشعث هذا على القيروان، وأعادها إلى حكم الخلفاء العباسيين.

هنالك انسحب الإباضية إلى داخل ولاية طرابلس، أو ارتحلوا إلى المغرب الأوسط. ومن هؤلاء الأخيرين عبد الرحمن بن رُسْتم، الذي كان والياً من قِبَل

الإباضية على القيروان وكان أحد «حَمَلة العلم». فقد مضى إلى بلاد الجريد حيث هرب العديد من علماء الإباضية الطرابلسيين، ومضى إلى غرب الجزائر (الحالية) حيث أسَّس مدينة (أو أعاد بناء) مدينة تاهرت. هنالك انضمت إليه جماعات من البربر الإباضية، من قبائل لدنة، ولواته، ونفزاوة.

وعلى اثر ذلك قامت ثورة إباضية في سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) انضم اليها الصُّفرية، وتولَّى كبر هؤلاء الثوار أبو حاتم، الذي اتخذ لقب «إمام الدفاع» واستطاع ابو حاتم الاستيلاء على القيروان من الوالي العباسي، وحاصر مدينة طُبنى في اقليم الزّاب. لكنه ما لبث ان انهار أمام الجيش الذي أرسله العباسيون بقيادة يزيد بن حاتم. وتوفي ابو حاتم في سنة ١٥٥ هـ. فلجأت فلول المهزومين إلى عبد الرحمن بن رستم في تاهرت، التي صارت منذ ذلك الحين مركز الإباضية في شمالي افريقية. وانتخب عبد الرحمن بن رستم إماماً للإباضية في سنة ١٦٠ هـ أو سنة ١٦٢ هـ. ومن ثم تعاضدت الجماعات الإباضية في الشمال الافريقي حول أئمة تاهرت، حتى بلغت الإباضية اوجها في عهد خليفتيه: عبد الوهاب بن عبد الرحمن (١٦٨هـ ـ ٢٠٨ هـ) والأفلح بن عبد الوهاب (٢٠٨ هـ ـ ٢٥٨ هـ). فقد استطاع عبد الوهاب هذا ان يخضع لسيطرته كل القبائل البربرية التي تدين بالمذهب الإباضي، وذلك عند نهاية القرن الثاني الهجري.

وبعد إخماد الفتنة التي قام بها نُصَير بن صالح الإباضي في سنة ١٧١، مما أدَّى إلى قتل عشرة آلاف إباضي على يد روح بن حاتم الوالي على القيروان من قِبَل العباسيين. هنالك رأى إمام تاهرت عقد الصلح مع الوالي العباسي، وبذلك استتب الصلح في الشمال الافريقي، طوال نصف قرن ـ وكانت إمامة تاهرت تمتد من تلمسان غرباً حتى طرابلس شرقاً. أمَّا دولة الرستمية فكانت تشمل نواحي تاهرت، وبلاد سرسو التي كانت تسكنها جماعات إباضية تنتسب إلى قبائل: لواتة، هوّارة، نَفُوسة، زواغة، مطماطه، كلناسة، أزداحه، عُمارة. لكن غالبية هذه القبائل تركت المذهب الإباضي عند نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري. وفي الشمال الغربي كانت حدود دولة الرستميين تقترب من البحر المتوسط بالقرب من مَرسى فرّوخ ومَرسى الَخزر (بين أرزو ومستغانم) او بالقرب من مَرْسى الدجاج (بين مدينة الجزائر وبجاية). وفي الجنوب كانت الإمامة الرستمية تشتمل على واحة وادي ريغ وورجله.

وفي بداية القرن الثالث كانت الدولة الإباضية تشمل كل جنوب تونس، أي:

قفصة، واقليم الساحل، وبلاد الجريد، وتشملّ: قسطيلية، قنطرارة، نغزاوة، وحَرث نفاثه ـ وكل ولاية طرابلس، ما عدا مدينة طرابلس نفسها.

لكن الأغالبة، حكّام تونس في الشمال، استطاعوا في سنة ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) الاستيلاء على المنطقة الإباضية الواصلة بين تاهرت وولاية طرابلس، أي على: قفصة، والساحل، وبلاد الجريد.

وانقضى نهائياً نفوذ الرستميين في ولاية طرابلس في سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) لما ان تغلّب جيش الأغالبة على قبيلة نفوسة الإباضية في معركة مانو (بين طرابلس وقابس). أمّا دولة تاهرت الرستمية الإباضية فقد قضى عليها جيش أبي عبد الله الشيعي مؤسّس الدولة الفاطمية في المغرب في سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م).

لكن تكوّنت امامة إباضية جديدة في جبل نفوسة، على يد أبي يحيى زكريا الإرجاني، الذي أتخذ لقب «إمام مدافع»، وظلّ يحكم جبل نفوسة خمس عشرة سنة، ولم يتجاوز سلطانه جبل نفوسة، وتوفي سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م). وكما كان مستقلاً عن حكم الفاطميين، كذلك سيكون حلفاؤه، وكان الواحد منهم يلقب بلقب: «حاكم». وظلّ هؤلاء «الحكام» يحكمون جبل نفوسة حتى القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي).

وفي النصف الأول من القرن الرابع الهجري قامت معادلة جديدة لإقامة دولة إباضية في الشمال الافريقي، وذلك على يد أبي يزيد مخلد بن كيداد (المتوفى سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م) وهو على مذهب النكارية. فقد استطاع ان يجمع حوله القبائل الإباضية في ولاية طرابلس والزاب ومناطق أخرى من المغرب.

وبعد ذلك بعشرين عاماً خرجت اباضية المغرب على الفاطميين في سنة ٣٥٨ هـ، في بلاد الجريد بزعامة شيخين إباضيين من قبيلة بني وسيان، هما: أبو القاسم، وبعد موته: أبو خَزَر (في تاريخ ابن خلدون: أبو جعفر الزناتي). فاستطاعت الإباضية السيطرة على ولاية طرابلس، وجنوبي تونس، وجزيرة جربة، والزاب، وواحة ريغ ووَرْجلان (وَرْجله). وأُعلنت هذه المناطق «ولاية الدفاع»، وعُيِّن حكّام لكل المناطق، وفكروا في اقامة علاقات مع الأمويين في الأندلس. لكن هذه الدولة ما لبثت ان انهارت بعد هزيمة الإباضيين في باغاي على يد الجيوش الفاطمية.

ومنذ هذا التاريخ لم تقم للإباضية دو لة في الشمال الافريقي، ولجأوا إلى «الكتمان». ومع مجيء بني هلال إلى ليبيا وتونس والجزائر انحسرت الإباضية

انحساراً شديداً، ابتداءً من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) في مناطق نائية او منعزلة، حتى يوم الناس هذا. فإباضية الجزائر وتونس التجأوا إلى اقليم الزاب (في جنوبي الجزائر الحالية) حيث انضم إليهم إباضية ورجلا وريغ. وإباضية ولاية طرابلس تركزوا في جبل نفوسة.

واليوم اقتصر وجود الإباضية في الشمال الافريقية على: اقليم الزاب، وثلثي جزيرة جِرْبة (في خليج قابس) ومدينة مزوارة على ساحل البحر المتوسط غربي مدينة طرابلس، ونصف جبل نفوسة. وينقسمون إلى فرقتين: الوَهْبية، والنكارية. (راجع مادة الإباضية في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الثانية جـ ٣ ص ٦٧٥ ـ ٦٧٧ بقلم لوسكي T. Lewicki خير المتخصصين المعاصرين في تاريخ الإباضية).

وقد انقسمت الإباضية الى عدة فرق، أبرزها اثنتان: النكارية، والوَهْبية. والثانية أوسع الفرق انتشاراً، وهي الوحيدة التي بقيت حتى اليوم. وهم يسمّون أنفسهم: «أهل المذهب»، و«أهل الدعوى». أمَّا النكارية فقد أقاموا إمامة منشقة على إمامة تاهرت عند نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وأول أئمتهم هو أبو عمّار عبد الحميد الأعمى، وعليه تتلمذ أبو يزيد مَخْلد بن كيداد، السابق الذكر وهو الذي خلفه على امامة النكارية. وقد خالف أبو زيد عامة الإباضية في كونه أباح «الاستعراض»، أي القتل لمخالفيه في المذهب، وهو قول الأزارقة، والصُّفْرية المغاربة. وقد انتشر النكارية في المغرب، كذلك وجد بعضهم في عُمَان ونرى أبرز علمائهم هارون المخالف، وله مناظرات مع فرقة الوهبية حفظت في مجموع إباضي من عمان عنوانه: «السِّيَر العُمَانية».

ومن الفرق الإباضية في جبل نفوسة برز فرقتان: «النّفاثية، وقد نشأت أولاً في قنطرادة ببلاد الجريد، أسَّسها نفّاث (تشديد الفاء أو تخفيفها)، الذي رأى ان «الخطبة» بدعة ويجب إلغاؤها. وقد فنَّد مذهبه مهدي النفوسي، أحد كبار علماء الإباضية الوهبية. ولا تزال من أتباعها جماعة في أيامنا هذه في مدينة غريان (غربي طرابلس)، وجبل نفوسة. ـ والفرقة الثانية هي «الحَلَفية» التي نشأت في ولاية طرابلس عند نهاية القرن الثاني للهجرة، أسَّسها خَلَف بن السَّمْح، وهو ينحدر من سلالة الإمام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السّمْح المعافري الحميري. وانتشرت هذه الفرقة في ولاية طرابلس.

مذهب الإباضية

والإباضية، كما قلنا، أقرب فرق الخوارج إلى مذهب أهل السُّنَّة، سواء في الفقه وفي العقيدة، إذا فهمنا «أهل السُّنَّة» بالمعنى الأوسع الذي يشمل: المرجئة، والمعتزلة، والأشاعرة، أي في مقابل الشيعة من ناحية، والخوارج من ناحية أخرى. وهم في أمور العقيدة متأثرون كثيراً بالمعتزلة. وهذا التأثر والتشابه، يظهر في المسائل التالية:

١ ـ فهم يقولون إنَّ القرآن مخلوق، وليس قديماً، أي انه خلقه الله وأنزله على محمد (ﷺ) لأول مرّة في حياة النبي؛ وليس أزلياً موجوداً منذ الأزل، ثم أنزله الله على محمد (ﷺ) في حياة النبي، كما يقول أحمد بن حنبل وأهل السُّنَّة والجماعة، أي السلفية بعامّة. وهذه العقيدة أحدثت خلافاً شديداً في عصر المأمون الذي كان يؤيد رأي المعتزلة، فأدّى ذلك إلى حبس أحمد بن حنبل.

٢ ـ وقالوا: «بطاعة لا يراد بها الله تعالى»، كما قال أبو الهذيل العلاّف، أحد شيوخ المعتزلة، أي قالوا بأن غير المسلمين يمكنهم أن يفعلوا أفعالاً مرضية عند الله ومثاباً عليها.

٣ ـ وقال بعضهم: «بالقدر على مذهب المعتزلة»، وهم الحارثية أصحاب الحارث الإباضي وإن خالفوا بهذا سائر الإباضية. ونتيجة لهذا قال الحارثية بأن الاستطاعة موجودة قبل الفعل، أي ان الانسان قبل اتيانه الفعل كان مريداً وقادراً عليه. (الشهرستاني: «الملل والنحل» نشرة كيورتن، جـ ١ ص ١٠١، لندن سنة ١٨٤٦).

ويلخص الشهرستاني («الملل والنحل» جـ ١ ص ١٠٠ ـ ١٠١) مذهب الإباضية كما يلي:

«**الإباضية**: أصحاب عبدالله بن إباض، الذي خرج في أيام مروان بن محمد. فوجّه إليه عبدالله بن محمد بن عطية، فقاتله بقبالة. وقيل إنَّ عبدالله بن يحيى الإباضي كان رفيقاً له في جميع أحواله وأقواله.

وقال (أي عبدالله بن إباض): إنَّ مخالفينا من أهل القبلة كُفَّارٌ، غير مشركين. ومناكحتهم جائزة. وموارثتهم حلال. وغنيمة أموالهم من السلاح والكُراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام. وحرامٌ قتلهم وسَبْيهم في السرّ غِيلةً إلاَّ بعد نصب القتال، وإقامة الحجة.

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلاَّ معسكر السلطان: فإنَّه دار بَغْي.

وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم.

وقالوا في مرتكبي الكبائر إنَّهم موحّدون، لا مؤمنون.

وحكى الكعبي عنهم: ان الاستطاعة عَرَضٌ من الأعراض، وهي قبل الفعل، بها يحصل الفعل. وأفعال العباد مخلوقة لله ـ تعالى ـ إحداثاً وإبداعاً، ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً.

ولا يسمّون امامهم: «أمير المؤمنين»، ولا أنفسهم: «مهاجرين».

وقالوا: العالم يفنى كله إذا فني أهل [١٠١] التكليف.

وأجمعوا على ان مَن ارتكب كبيرة من الكبائر كفَرَ كُفْر النعمة، لا كُفْر المِلَّة.

وتوقفوا في أطفال المشركين. وجوّزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام.

وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضّلاً.

وحكى الكعبي عنهم أنَّهم قالوا بطاعة لا يراد بها الله تعالى، كما قال أبو الهذيل.

ثم اختلفوا في «النفاق»: أيسمَّى شركاً، أم لا؟ قالوا إنَّ المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا موحِّدين، إلاَّ انهم ارتكبوا الكبائر، فكفروا في الكبيرة، لا بالشّرك.

وقالوا: كل شيء أمرَ الله تعالى به فهو عامّ، ليس بخاصّ. وقد أمر به المؤمن والكافر. وليس في القرآن خصوص.

وقالوا: لا يخلق الله تعالى شيئاً إلاَّ دليلاً على وحدانيته. ولا بدَّ أن يدل به واحداً.

وقال قومٌ منهم: يجوز أن يخلق الله تعالى رسولاً بلا دليل، ويُكلِّف العباد بما يوحى إليه، ولا يجب عليه إظهار المعجزة. ولا يجب على الله تعالى ذلك، إلى أن يظهر دليلاً ويخلق معجزة.

وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم تفرُّق الثعالبة والعجاردة:

الحفصية منهم: أصحاب حفص بن أبي المقدام. تميّز عنهم بأن قال: إنَّ بين الشرك والايمان خصلة واحدة، وهي معرفة الله تعالى وحده. فمن عَرَفه، ثم

كفر بما سواه: من رسول، أو كتاب، أو قيامة، أو جنّة، أو نار، أو ارتكب الكبائر من: الزنا والسّرقة وشرب الخمر ـ فهو كافر، لكنه بريء من الشرك.

الحارثية: أصحاب الحارث الإباضي: خالف الإباضية في قوله بالقدر على مذهب المعتزلة، وفي الاستطاعة قبل الفعل، وفي إثبات طاعة لا يُراد بها الله تعالى.

اليزيدية: أصحاب يزيد بن أنيسة: الذي قال بتولّي المحكِّمة الأولى قبل الأزارقة، وتبرّأ ممن بعدهم إلاّ الإباضية، فإنه يتولاّهم».

ومن هذا يظهر اعتدالهم بالنسبة إلى الأزارقة من الخوارج، لأنَّ الأزارقة:

١ ـ أباحوا قتل أطفال المخالفين لهم والنساء، بينما لم يبح الإباضية ذلك.

٢ ـ وأجمعوا «على أنَّ مَن ارتكب كبيرة من الكبائر كَفَر كُفر ملة، خرج به من الإسلام جملةً ويكون مخلّداً في النار مع سائر الكفار»، بينما يقول الإباضية إنَّ مرتكب الكبيرة كافر كفر نعمة، وليس كفر ملة، ولهذا لا يخلّد في النار، لأنهم موحّدون وإن كانوا غير مؤمنين.

٣ ـ وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار كفر، بينما قالت الإباضية إنّها دار توحيد، باستثناء معسكر السلطان فإنّه دار بَغْي. (راجع الشهرستاني، جـ ١ ص ٩٠ ـ ٩١).

❀ ❀ ❀

وهنا نتساءل: ما السبب في نجاح مذهب الخوارج في الشمال الافريقي بين البربر؟

في نظرنا ان هذا النجاح يُعزى إلى العوامل التالية:

١ ـ مذهب الخوارج يسوِّي بين المسلمين كافة في الترشيح للخلافة، لا فرق في ذلك بين عربي وعجمي، بين قرشي وغير قرشي. أمَّا سائر فرق الاسلام فتقول إنَّ الخلافة لا تجوز إلاَّ لمن هو من قبيلة قريش العربية، ويخصصها الشيعة أكثر فيقصرونها على آل بيت النبي (ﷺ). فبحسب مذهب الخوارج يمكن لأيّ مسلم أن يصبح خليفة للمسلمين «ولو كان عبداً حبشياً» على حد تعبيرهم. وتبعاً لذلك يمكن أن يكون الخليفة من البربر. فكان طبيعياً ان يرحّب البربر بمذهب كهذا يفتح المجال أمامهم لتولّي خلافة المسلمين.

وينفسح هذا المجال أكثر فأكثر فيما لو طمح البربري إلى أقل من منصب

الخلافة. فعند الحمزية، وهم فرع من فرقة العجاردة، إحدى فرق الخوارج الرئيسية، انه يجوز وجود عدة أئمة في وقت واحد (راجع الشهرستاني). وهذا الرأي يفسح المجال لوجود أئمة إباضية في شرقي العالم الاسلامي، وفي الشمال الافريقي في وقت واحد معاً. وفي البداية كان «المشايخ» هم الذين يختارون الامام، ثم يعلن هذا الاختيار على الملأ لمبايعة الشعب له. و«المشايخ» هم أيضاً الذين يعزلون الإمام، إن رأوا فيه انحرافاً عن واجبات الإمام. ذلك ان الإمام يجب أن يحكم وفقاً للقرآن وسُنَّة النبي. فإن خالف عن شيء من أحكام القرآن والسُّنَّة وجب عزله. و«إمام البَيْعة» كما يسمون الإمام الحاكم هو قائد حربي، وقاض، وعالم بالعقيدة. وهو يحكم حكماً مطلقاً لا يحده أي شرط.

٢ ـ مذهب الخوارج يتّسم بالخشونة وشدة الاستقامة، والصرامة في العبارات. وهذه الصفات أقرب إلى طبيعة القبائل البربرية في الشمال الإفريقي، لبعدها عن الحضارة والعمران، وقلة بضاعتها من التفكير العقلي المستقل. ولهذا فإن كتب علماء الإباضة تكاد تخلو تماماً من الحجاج العقلي، والتأمل الفكري الدقيق، والتعمق في التحليل والاستدلال. وما عليك إلاَّ أن تقرأ كتبهم الرئيسية، لتدرك ذلك على الفور. وأبرز هذه الكتب:

١ ـ الشماخي: «كتاب الايضاح»؛ «السِّيَر»؛ «أصول الديانات» (مع شرح عمر الثلاثي).

٢ ـ الجيطالي: «قناطر الخيرات»، طبع حجر، القاهرة بدون تاريخ.

٣ ـ السّدراتي: «كتاب الدليل والبرهان».

٤ ـ عبد العزيز الاسجيني: «كتاب النّيل» (وقد شرحه الشيخ الاطفيشي، الذي كان يعيش في القاهرة ويعمل موظفاً في دار الكتب المصرية حتى أواخر الخمسينات).

النشاط الفكري والسياسي لإباضية ليبيا

فإن نظرنا الآن في النشاط الفكري والسياسي لإباضية ليبيا في القرن العشرين؛ برزت لنا في المقام الأول شخصية سليمان الباروني. وأسرة الباروني أُسرة بربرية الجنس، إباضية المذهب، موطنها الأساسي في جبل نفوسة، ولها فروع في مدينة جادة، وكابو وجزيرة جربة. وكان أبوه، عبدالله الباروني، شاعراً

وفقيهاً ومتكلماً وكان يقوم بالتدريس في زاوية البخابخه بالقرب من مدينة يفرن. وتلقّى سليمان العلم في تونس، وفي الأزهر بالقاهرة، وفي اقليم مزاب (جنوب الجزائر). وأسَّس مطبعة في القاهرة تولّت طبع أمهات كتب علماء الإباضية. كما أصدر جريدة، لكنها لم تعمّر طويلاً لأنها كانت ممنوعة من الدخول في تونس والجزائر.

وبعد قيام الثورة في تركيا سنة ١٩٠٨ وإصدارها للدستور، انتخب سليمان الباروني نائباً عن لواء جبل نفوسة، في مجلس المبعوثان باستانبول، لهذا سافر إلى استانبول، وهناك تعلّم اللغة التركية.

ولما أخذت ايطاليا في غزو ليبيا ونزلت جيوشها في طرابلس، في ١١ اكتوبر سنة ١٩١١، قام سليمان الباروني بتنظيم مقاومة عنيفة للغزو الايطالي، واستمر نضاله ضد الغزاة الايطاليين حتى بعد توقيع معاهدة الصلح بين تركيا وايطاليا في أوشي بلوزان في ١٨ اكتوبر سنة ١٩١٢. وأخذ سليمان الباروني في ادارة عمليات المقاومة في جبل نفوسة، وفكّر في تكوين امارة بربرية مستقلة في جبل نفوسة، لكنه هزم في موقعة الأصابعة في ٢٣ مارس سنة ١٩١٣. فسافر إلى استانبول، وهنا عُيِّن عضواً في مجلس الشيوخ ونال لقب الباشوية، فأصبح سليمان باشا الباروني.

ولما قامت الحرب العالمية الثانية، وكانت تركيا في صف المانيا والنمسا ضد انجلترة وفرنسا، أُرْسِل سليمان الباروني إلى السلّوم (على الحدود المصرية الليبية) في اكتوبر سنة ١٩١٤ بصحبة نوري بك أخي أنور باشا، من اجل دفع رئيس السنوسية في برقة أحمد الشريف السنوسي إلى مهاجمة الانجليز من ناحية السلّوم. لكنه لم يفلح في مهمته، واكتشفت المؤامرة، وقُبض على سليمان الباروني، لكنه أفلح في الهرب في يناير سنة ١٩١٥.

وبعد دخول ايطاليا الحرب إلى جانب الحلفاء، عيَّنه الأتراك في نهاية سنة ١٩١٦ والياً وقائداً عاماً على ولاية طرابلس ونواحيها. وقدم في غوّاصة، ونزل في مصراتة. ونظم المقاومة ضد الايطاليين الذين تحصّنوا في طرابلس والخُمس وزوارة، لكن الايطاليين هزموا قوّاته في ١٦ و١٧ يناير سنة ١٩١٧. لهذا عيّن الأتراك محلّه قائداً عسكرياً هو نوري باشا أخو أنور باشا.

ولما أعلنت الهدنة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ وعقدت هدنة بين تركيا والحلفاء، قام الوطنيون في ولاية طرابلس باعلان «الجمهورية الطرابلسية». وهنا ظهر تياران بين هؤلاء الوطنيين: تيار يدعو إلى الاستقلال التام، وآخر - يمثله البربر خصوصاً - يدعو إلى التعاون مع ايطاليا على أساس تطبيق «النظام

الطرابلسي» الذي اقترحته ايطاليا في أول يونيو سنة ١٩١٩. وكان سليمان الباروني من أنصار التيار الثاني، أي التعاون مع ايطاليا، وكان هدفه هو انشاء امارة بربرية في جبل نفوسة مع منفذ على البحر المتوسط. لكن التيار الأول هو الذي تغلّب في اجتماع عُقِدَ في مدينة غرْيان ـ في نوفمبر سنة ١٩٢٠ ـ إذ قررت الأغلبية انشاء إمارة عربية (لا بربرية) في ولاية طرابلس. وقام القتال بين أنصار التيارين: العربي، والبربري، واتهم العرب البربر بأنهم مبتدعة لأنَّهم إباضية، وحاول البربر الاستعانة بالايطاليين؛ وانتهى النزاع بأن استطاع العرب طرد البربر من الجبل الغربي (نفوسة) وأرغموهم على الفرار حتى ساحل البحر المتوسط، وذلك في يوليو سنة ١٩٢١.

ونتيجة لذلك أُبعد سليمان الباروني من ولاية طرابلس في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١ بسبب موقفه المريب، فسافر إلى أوروبا، وإلى الحجاز، ثم نزل في مسقط ضيفاً على السلطان سعيد بن تيمور، ثم من هناك نزل ضيفاً على امام الإباضية في عمان، ويدعى محمد بن عبدالله الخليلي. ثم عاد إلى مسقط في سنة ١٩٣٨، حيث عيَّنه السلطان مستشاراً له بسلطات واسعة. وتوفي في بمباي بالهند في سنة ١٩٤٠.

وألّف كتاباً يدعى «الأنصار الرياضيَّة في الأئمة والملوك الإباضية»، لم يطبع منه إلاَّ الجزء الثاني (القاهرة، دون تاريخ [١٩٠٦ ـ ١٩٠٧]).

ولأبي القاسم الباروني دراسة عنه بعنوان: «حياة سليمان باشا الباروني، ط ٢، سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م).

وهكذا قام سليمان الباروني بآخر محاولة لإعادة سلطان الإباضية البربر في ليبيا، وإيجاد امارة لهم.

وثاني شخصية جديرة بالذكر من بين إباضية جبل نفوسة في ليبيا هي: علي يحيى مُعَمّر، وهو عالم معاصر عني خصوصاً بتأريخ الإباضية. فأصدر كتاباً بعنوان: «الإباضية في موكب التاريخ»، صدرت منه ثلاث مجلدات كبيرة (القاهرة سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م) وهو كتاب يقوم على الجمع دون التدقيق التاريخي. ورغم تقدم سنّه (٧٣ سنة آنذاك) أُودع السجن في عام ١٩٧٣!!

وثالث شخصية علمية جديرة بالتنويه والتقدير الدكتور عمرو النامي، الذي حصل على الدكتوراه من جامعة كمبردج في سنة ١٩٧١ برسالة عن الإباضية الأوائل حتى القرن الرابع الهجري، وتعدّ عملاً علمياً جيداً. وقد أُودع السجن أيضاً في أواخر السبعينات و«توفي» فيه!!

الطرق الصوفية في ليبيا

- ١ -

وفي ليبيا طرق صوفية عديدة:

ويأتي على رأسها من حيث السلطة وسعة الانتشار: الطريقة السنوسية.

وهذه الطريقة أسَّسها سيدي محمد بن علي السنوسي الخطابي الحَسَني الادريسي. أمَّا: «الادريسي» فلأنه يزعم انه ينحدر من ادريس، حفيد حفيد الحسن بن علي بن أبي الطالب. أمَّا «الخطابي» فنسبة إلى قبيلة الخطاطبة (وِلاد سيدي يوسف). وقد وُلِدَ في سنة ١٢٠٦ هـ - ١٧٩١ م في تُرْش؛ بالقرب من مدينة مستغانم (الجزائر)، في دُوّار الخطاطبة، والخطاطبة، وِلاد سيدي يوسف بطن من البربر من قبيلة بني زيّان البربرية.

أخذ العلم أولاً على أبي راس (المتوفى سنة ١٨٢٣) وبلجندز (المتوفى سنة ١٨٢٩ م) في مسقط رأسه. ثم هاجر مع والده الى مدينة فاس (في المغرب) في سنة ١٨١٤ م. وهناك أخذ على الشيخ أحمد التجاني، مؤسس الطريقة التجانية الواسعة الانتشار في المغرب وغربي افريقية، ودرس التفسير، والحديث والفقه وأصول الفقه.

وفي سنة ١٨٢٩ توجّه إلى الحج، فمرَّ بجنوب تونس، وأقام فترة قصيرة في القاهرة حيث حضر بعض الدروس في الأزهر ووقع في خلاف مع بعض مشايخ الأزهر. فغادر القاهرة متوجهاً إلى مكة للحج في سنة ١٨٣٠.

وفي مكة ارتبط بسيدي أحمد بن ادريس الفاسي، زعيم الطريقة الخِضْرية التي كان قد أسّسها في سنة ١٧١٣ سيدي عبد العزيز دبّر. وظل سيدي أحمد بن ادريس يُعَلّم في مكة من سنة ١٧٩٧ حتى سنة ١٨٣٣؛ ثم وقع في نزاع مع السلطة في مكة، فاضطر إلى الفرار الى سَبْيا في اليمن، وصحبه إلى هناك محمد بن علي السنوسي وأتباعه. فلما توفي أحمد بن ادريس الفاسي في سنة ١٨٣٥ انقسمت الطريقة الخِضْرية إلى فرقتين: احداهما برئاسة سيدي محمد صلاح المغراني، والثانية - برئاسة محمد بن علي السنوسي - وعاد كلاهما إلى مكة، وهنا أقام محمد بن علي السنوسي أول زاوية سنوسية على جبل أبي قُبَيْس المشرف على مكة. لكنه لقي المعارضة من جانب الفرقة الأخرى التي يرئسها سيدي محمد صلاح المغراني الذي استطاع ان ينال الحظوة لدى السلطة القائمة في مكة. فاضطر محمد بن علي

السنوسي الى ترك مكة في سنة ١٨٤٣، لكنه زعم ان تركه لمكة كان بأمر من النبي محمد (ﷺ) الذي ظهر له في المنام وأمره ان ينشىء زوايا أخرى في بلاد أخرى. فتوجه إلى المغرب، واستقر في برقة (ليبيا الشرقية) وأنشأ في «البيضاء» التي تقع في منتصف الطريق بين درنة (شرقاً) وبنغازي (غرباً) زاوية. لكن بسبب معاداة السلطات التركية والمصرية لهذه الطريقة، بسبب ارتباطها بمذهب الوهّابية فقد اضطر محمد بن علي السنوسي إلى نقل مقرّه الى واحة الجغبوب جنوباً (على الحدود المصرية الليبية). وفي البيضاء وُلِدَ ابناه: الشيخ المهدي، وسيدي محمد الشريف. وصارت زاوية الجغبوب هي القاعدة الرئيسية للطريقة السنوسية، وفيها توفي محمد بن علي السنوسي في سنة ١٨٥٩ م. وأُقيم قبره. وخَلَفَه على رئاسة الطريقة ولداه هذان: سيدي محمد المهدي السنوسي (وُلِد سنة ١٨٤٤ في البيضاء، وتوفي سنة ١٩٠١ في جورو)، وسيدي أحمد الشريف (وُلِدَ سنة ١٨٤٦، وتوفي سنة ١٨٩٦).

وأعقب أولهما ولدين هما: محمد ادريس السنوسي، الذي سيصير ملكاً على ليبيا في سنة ١٩٥١، والثاني اسمه الرضا.

وأعقب الرضا ستة أولاد هم (١) أحمد الشريف (وُلِدَ سنة ١٨٨٠) وسيصبح رئيساً للسنوسية من سنة ١٩٠١ حتى سنة ١٩٢٥؛ (٢) محمد العابد، الذي سيتولى رئاسة الطريقة السنوسية في فزان، وهو الذي قاوم الاستعمار الفرنسي هناك من سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩١٨؛ (٣) علي الخطّابي؛ (٤) سيف الدين، الذي صار رئيساً لبرلمان برقة في سنة ١٩٢١؛ (٥) حلاّل؛ (٦) الرضا.

وقد استمر المركز الرئيسي للطريقة السنوسية في واحة الجغبوب من سنة ١٨٥٥ حتى سنة ١٨٩٥؛ ثم نقل في سنة ١٨٩٥ إلى واحة الكُفْرة (قرب الحدود مع تشاد)؛ ثم نقل في سنة ١٨٩٩ إلى جودو؛ ثم أُعيد إلى الكفرة في سنة ١٩٠٢. وازداد عدد الزوايا السنوسية، فبعد ان كان ٢٢ زاوية في سنة ١٨٥٩، صار مائة زاوية في سنة ١٨٨٤. وجودو تقع في دار جوني في اقليم وادي في السودان.

مؤلفاته: ولسيدي محمد بن علي السنوسي، مؤسّس الطريقة، المؤلفات التالية:

١ ـ مجموعة أوراد، منها ورد «سرّ يا لطيف» ويجب تكرار هذه الكلمة ألف مرة.

٢ ـ التوفيق بين القرآن والحديث، دون اعتبار لتقليد أي مذهب من المذاهب

الأربعة. وهو يدّعي «الاجتهاد»، على الرغم بأنه يقدر ان مذهبه هو مذهب مالك في الفقه.

٣ ـ فهرسة شيوخه، ويشتمل على ١٥٠ اسناداً، منها ٦٤ صوفية ـ وبهم يبرّر سلامة الطريقة الصوفية التي أسّسها.

٤ ـ «السلسبيل المعين في طرائق الأربعين» وفيه يورد أذكار الطرق الصوفية الأربعين السابقة على طريقته هو، زاعماً أنّها لُب هذه الطرق جميعاً.

مذهبه: أما مذهب هذه الطريقة فهو مزيج من المذهب الوهّابي، ومن التصوّف! وهذا أمرٌ غريب، لأنَّ المذهب الوهابي يعادي التصوف بعامة. ومن هنا جاء تصوف السنوسية مخالفاً لمعظم الفرق الصوفية الأخرى. فتحت تأثير المذهب الوهّابي، حرمت السنوسية: السماع (الموسيقى)، والرقص الصوفي، والغناء، والتبغ، والقهوة.

وفي العبادات وضع محمد بن علي السنوسي القواعد التالية:

ـ في الصلاة تكون الذراعان متقاطعتين على الصدر، والرسغ الأيسر مسنوداً بإبهام وسبّابة اليد اليمنى. أمّا عند المالكية فيكون الذراعان في القيام على طول الجانبين.

ـ تحمل المسبحة في اليد، ولا تعلّق في الرقبة.

ـ في الذكر تكرر بعض العبارات أربعين مرة، والبعض الآخر مائة مرة، والبعض الثالث ألف مرة.

وعلى الرغم من إقراره بأنه على مذهب مالك، فقد خالفه في عدة أمور بيّنها الشيخ محمد عليش شيخ المالكية في مصر في رسالة ضد السنوسية أصدرها في القاهرة سنة ١٨٤٣، وترجمها إلى الفرنسية ديبون Depont وكوبّولاني Coppolani (في كتاب Les Confréries réligieuses Musulmanes ص ٥٤٦ وما يليها).

ومن المبادىء التي وضعها محمد بن علي السنوسي انه لا يجوز للمسلم البقاء في بلاد يحكمها غير مُسلم، بل عليه ان يهاجر.

وكانت الطريقة السنوسية طريقة صوفية وعسكرية معاً. ولهذا كوّنوا قوة حربية حاولت الدول الأوروبية الاستعمارية الاستعانة بها ضد خصومها ومنافسيها: ففي سنة ١٨٧٢ حاول الألمان استمالة السنوسية وحثها على الجهاد ضد الفرنسيين، لكن الخطة أخفقت؛ وفي سنة ١٨٧٦ التمس السلطان العثماني من السنوسية إمداده بفرقة لتحارب الروس؛ وفي سنة ١٨٨١ بعث الايطاليون بوفد إلى برقة للتحالف مع

السنوسية من اجل موازنة الاستعمار الفرنسي في تونس؛ وفي سنة ١٨٨٤ رفض المهدي السنوسي مساعدة المهدي السوداني في ثورته في السودان، وأعلن ان مهدي السودان كذّاب ودجّال. وقد حارب الفرنسيون السنوسية لما وقفت ضدهم في غزوهم لتشاد ودول وسط افريقية. وقد حاول مغامر فرنسي يدعى المركيز دي مورس Marquis de Morès القيام بحملة صغيرة لإخضاع السنوسية مدّعياً أنّه جاء ليساعدها، لكنه اغتيل في بير يوسف على يد الطوارق قبل ان يصل إلى مقر السنوسية. واستمر القتال بين السنوسية وبين الفرنسيين الغزاة لتشاد من سنة ١٩٠٢ حتى ١٩١٨، وأبرز المعارك تلك التي وقعت في سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤، وكانت القوات الفرنسية بقيادة لارجو Largeau. ولما قامت الحرب العالمية الأولى. أخذ سيدي أحمد الشريف السنوسي جانب تركيا وألمانيا إبتداء من نوفمبر سنة ١٩١٥، وهاجم الانجليز في الصحراء الغربية المصرية بفرقة قوامها عشرة آلاف رجل عند السلّوم. وفي نفس الوقت قامت الغواصات الألمانية في ميناء السلّوم بإغراق بارجتين بريطانيتين. ولم تنته حرب السنوسية ضد الانجليز إلاّ في فبراير سنة ١٩١٧، حينما انتصرت القوات البريطانية بقيادة الجنرال پيتون Peyton.

لكن الزوايا السنوسية، منذ ان صار محمد ادريس السنوسي ملكاً على ليبيا في سنة ١٩٥١ فقدت طابعها الحربي وأدمج «المجاهدون» في الجيش الليبي الموحّد، وانفصلوا بذلك عن قاعدتهم الدينية. وهذا يفسّر عدم حدوث اية مقاومة ضد الضباط الذين قاموا بالانقلاب العسكري في فجر الأول من سبتمبر سنة ١٩٦٩. وإلاّ لو كانت الصلة قائمة بين محمد ادريس السنوسي وبين الزوايا بوصفها خلايا حربية، ولو كان «المجاهدون» قد استمروا على الولاء لزواياهم ـ لقُضِيَ على هذا الانقلاب فور وقوعه. لكن الملك محمد ادريس السنوسي استنام هو وأعوانه المقربون إلى ولاء الجيش ولم يخطر ببالهم أبداً ان من الممكن لهذا الجيش ان يقوم أفراد منه بانقلاب ضده. وكان جزاء هذه الغفلة ما كان.

وقد بالغ بعض الباحثين في بيان انتشار الطريقة السنوسية. فقال مرجوليوث D.S. Margoliouth في مادة: «السنوسي» في «دائرة معارف الدين والأخلاق» (جـ ١١ ص ١٩٥) إنَّ مؤسّس الطريقة، محمد بن علي السنوسي. استطاع في سنوات قليلة بعد وصوله إلى الجبل الأخضر في سنة ١٨٤٣ ان يغطّي الجبل الأخضر بالزوايا. «وبعد ذلك أخذ في تأسيس زوايا جديدة، اولاً في بقية ولاية طرابلس، وبعد ذلك في جنوبي تونس، وعلى سواحل بحر مرمرة وفي مصر، والجزيرة

العربية، ووسط افريقية، وبين الطوارق وفي السودان. وعند نهاية حياته كان عملياً هو الحاكم على المنطقة التي يحدّها البحر المتوسط من الاسكندرية الى قابس، والتي تمتد عمقاً نحو الجنوب الى الممالك الزنجية. كذلك كان له أتباع كثيرون في الحجاز، حيث أقرّ عدد من القبائل ـ بنو حرب، ولام، والحارث، وثقيف، وغيرهم ـ بالولاء للسنوسي بوصفه سيّدهم الأعلى. ويؤكد البعض ان كل قبائل البدو في غربي الجزيرة العربية، ممن لم يعتنقوا المذهب الوهابي قد اعتنقوا مذهب السنوسية؛ وانتشرت الحركة بسرعة فائقة. بين بدو شبه جزيرة سيناء وفلسطين. وقبل ان يغادر الجزيرة العربية، وعلى الرغم من المعارضة التي حملته بعد ذلك على الجلاء منها، كان قد أنشأ زوايا في أماكن مهمة عديدة بالاضافة إلى الزاوية الأصلية التي أقامها على جبل أبي قبيس، أعني في الطائف، والمدينة، وبدر، وجدة، وينبع. وقد أورد لو شاتليه Le Chatelier في كتابه «الطرق الاسلامية في الحجاز (ص ٢٧٣ وما يليها) أسماء الرؤساء الأوائل لهذه الزوايا. وفي مجلة «المنار» لسنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) ص ٥٣٢ ـ ٥٣٨ سرْد للزوايا السنوسية الموجودة بين الاسكندرية ودرنة (على بُعد ١٤٠ ميلاً شرقي بنغازي)؛ والمسافة بينهما «مرحلة» على ظهر الجمال، ويوجد ضعف هذا العدد [أي ٢٢] من الزوايا. وسكان هذه الزوايا هم في الغالب من وِلْد علي، وهم جميعاً دون استثناء أعضاء في هذه الطريقة. ويرتبط بكل زاوية (وفقاً لهذا الاحصاء) ألفان من الأشخاص، يختمون القرآن مرة في كل شهر في هذه الزوايا، التي هي ايضاً بمثابة دور ضيافة للمسافرين في هذه المنطقة؛ ولا يؤخذ أجر من الضيوف، لأنَّ الزوايا يتفق عليها من نتاج الأرض الموجودة فيها هذه الزوايا. وفائض الانتاج يرسل كفريضة إلى رئيس الطريقة في الجغبوب او الكفرة. وإلى جانب هذه الزوايا يسرد الكاتب أسماء زوايا أخرى في البلاد المجاورة. والثبت الذي يقدّمه يتجاوز كثيراً الثبت الوارد في كتاب ديبون Depont وكوپولاني Koppolani الذي هو بتاريخ سنة ١٨٩٧، سواء من حيث عدد الزوايا وعدد المرتبطين بها».

ويمكن تفسير قوة انتشار السنوسية بالأسباب التالية:

١ ـ ان السنوسية طريقة ديناميكية مناضلة، وليست مجرد طريقة صوفية تأملية كما هي الحال التي آلَتْ إليها معظم الطرق الصوفية الاسلامية. لهذا كانت نشيطة في نشر الإسلام في تشاد والسودان والنيجر، وإليها يرجع الفضل في اعتناق كثير من القبائل في تلك النواحي للاسلام.

٢ ـ ان السنوسية لا تقرّ إلاّ بإجماع السلف الصالح، أي الجيل الأول من المسلمين: الصحابة والتابعين.

٣ ـ ان السنوسية تقرّ بحق الاجتهاد الدائم، وترفض الزعم القائل بأن باب الاجتهاد قد أغلق منذ القرن الخامس الهجري.

٤ ـ السنوسية لا تقيم وزناً كبيراً للقياس العقلي في الأمور الفقهية.

٥ ـ السنوسية طريقة في السلوك المتقشف المستقيم البسيط، وليست مذهباً مغالياً في التصوف، ولا تهتم بالمواجيد ولا بالظواهر الشاذة: مثل الوجد، السكر، الشطح، الفناء، الاتحاد، الخ، لأنها ترى ان الاتحاد بالله أمر لا يتحقق إلاّ للندرة النادرة جداً من السالكين. ولهذا كانت قواعدها الصوفية تتسم بالبساطة والسذاجة وعدم التعمق للمعاني الصوفية.

٦ ـ ولما كانت الزوايا السنوسية قائمة على طرق القوافل القادمة من قلب القارة الافريقية سائقة للعبيد لبيعهم في ميناء بنغازي، وطرابلس، فكثيراً ما قامت هذه الزوايا بتجريد هؤلاء العبيد، وضمّهم إلى الزوايا أحراراً يعملون فيها ان شاءوا، فقد كان لها دور محمود انساني لتحرير العبيد والحد من تجارة الرقيق. فأضفى عليها هنا العمل الانساني النبيل سمعة حميدة في تلك المناطق ومهدت بذلك لدخول العبيد وغيرهم في الاسلام.

ـ ٢ ـ

الشاذلية

ويأتي بعد السنوسية في الأهمية في ليبيا الطريقة الشاذلية بفروعها العديدة. وقد اتخذت الشاذلية في ولاية طرابلس اسم: المدينيَّة، كما اتخذت في مراكش (المغرب الأقصى) اسم الدرقاوية. والسلسلة الشاذلية تتوالى هكذا:

١ ـ أبو مدين التلمساني (وُلِد حوالى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ ـ ١١٢٧ م في اشبيلية، وتوفي سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م).

٢ ـ عبد السلام بن مشيش (اغتيل في سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٨ م).

٣ ـ أبو الحسن الشاذلي (وُلِد في سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م في غمارة، بالقرب من سبتة، وتوفي في ذي القعدة سنة ٦٥٦ هـ / اكتوبر ـ نوفمبر سنة ١٢٥٨).

٤ ـ أبو العباس أحمد المرسي (المتوفى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٨ م).

٥ ـ تاج الدين أبو الفضل ابن عطاء الله السكندري (المتوفى في القاهرة سنة ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م).

٦ ـ أبو العباس الحسن القرافي.

٧ ـ محمد بن يعقوب الحضرمي.

٨ ـ أبو العباس أحمد زرّوق البُرْنُسي (المتوفى سنة ٨٩٩ أو ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤م).

٩ ـ علي السوسي.

١٠ ـ يوسف الصنهاجي الدوار.

١١ ـ أبو زيد عبد الرحمن الفاسي الوكيل المجذوب.

١٢ ـ محمد بن عبدالله.

١٣ ـ قاسم الخصّاص.

١٤ ـ أحمد بن عبدالله.

١٥ ـ أبو حسن مولاي علي بن عبد الرحمن الجمال الفاسي.

١٦ ـ مولاي العربي بن أحمد الدرقاوي.

١٧ ـ ابرهيم المتبولي.

١٨ ـ علي الخوّاص.

١٩ ـ عبد الوهاب الشعراني (وُلِدَ سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ ـ ١٤٩٤م، وتوفي سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ ـ ١٥٦٦م).

وفرع الشاذلية في ولاية طرابلس كما قلنا يُسمَّى الطريقة المَدْيَنيَّة، نسبة إلى سيدي أبي مدين التلمساني، ومن رجاله:

١ ـ سي محمد ظفّار بن حمزة المدني.

٢ ـ سي حمزة بن أحمد المدني.

وكان سي محمد ظفّار بن حمزة المدني يقيم في زاويته بمصراتة (في الزاوية الشمالية الغربية من خليج سرت في ليبيا)، وصار مقدّم الدرقاوية الشاذلية ورئيس الإخوان الشاذلية في المشرق.

والمركز الرئيسي للطريقة المدينية الشاذلية هو في مسراتة. وقد عمل رئيسهم في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر في خدمة الدولة العليَّة (تركيا)، واستعان به السلطان العثماني في مكافحة الطرق الصوفية المناوئة لتركيا، وعلى الأخص: السنوسية، والتجانية، والطبيعية.

وتدعو الطريقة المدينية إلى «توحيد جميع المسلمين من أجل طرد النصارى من القارة الافريقية» ومن آسيا. وطالما عملت على مقاومة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس وولاية طرابلس.

أحمد زرّوق

وفي مسراتة (وتكتب أيضاً: مصراتة) توفي أبو العباس أحمد زرّوق البُرْنُسي، المولود في بُرْنُس، بين فاس وتازة في مراكش (المغرب الأقصى) في سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ ـ ١٤٤٢م). وتتلمذ على كثير من المشايخ والعلماء، يذكر منهم: الشيخ الحضرمي، وأحمد بن عروس مؤسِّس الطريقة العروسية (المتوفى حوالى سنة ٨٥٣ / ٨٥٤ هـ (= ١٤٥٠م)، وأبو العباس أحمد بن محمد الذكري (المتوفى سنة ٩١٠

هـ/ ١٥٠٤ م) امام مسجد سيدي ذِكري في تلمسان. وله عدة مؤلفات وصلنا الكثير منها، منها: «شرح الحكم العطائية، ثم «الجُنّة العاصمة من البِدَع في السُّنَّة». والامام زرّوق يعدّ من الشيوخ والأساتذة عند: البكرية، والرشيدية، والرشيدية الزرّوقية، والغازية ـ السُّهيْلية، والزيّانية، وكلها فروع من الشاذلية.

ونذكر من سائر مؤلفاته:

١ ـ «الكُنّاش»، وهو سيرة ذاتية، منه نسخة في المتحف البريطاني (برقم ٨٨٨ [٣])، والجزائر (برقم ٥٨١ [١]).

٢ ـ «شرح المقدمة القرطبية».

٣ ـ «تمهيد (تأسيس) عقائد التصوّف وأصوله»، وقد اختصره علي بن حسام الدين المتقي الهندي (المتوفى سنة ٩٧٧ هـ / ١٥٦٩م) ـ ومنه نسخ في برلين (رقم ٣٠٣١) والاسكوريال (ط ٢ ٧٤١ [٤]).

٤ ـ «مكاتبة إلى كافة الفقراء»، منه نسخة في برلين (برقم ٣٣٥٤).

٥ ـ «النصيحة الكافية لمَن خصّه الله بالعافية»، منه نسخة في برلين (٤٠٠٨ ـ ٤٠٠٩)، وليدن (٢١٦٩).

٦ ـ «المقصد الأسمى الأسنى في شرح الأسماء الحسنى»، منه نسخة في برلين (٢٢٤٠)، والمتحف البريطاني (٨٧٢ [٣]).

٧ ـ «الوظيفة أو سفينة النّجا لمن إلى الله التجا»، منه نسخة في المتحف البريطاني (برقم ٨٦٧)، ودار الكتب المصرية (الفهرس القديم جـ٧: ٥٨، ٣٢٢، ٣٧٨، ٦٨٦؛ الفهرس الجديد جـ ١: ٣٦٢) ـ وله عدة شروح.

٨ ـ «المدرسة المنتخبة في الأدوية المجرّبة»، منه نسخة في مكتبة جارالله باستانبول (برقم ١١٢٦).

٩ ـ «سراج الحِكَم»، منه نسخة في كمبردج.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ٣ -

عبد السلام الأسمر

لكنّ أكثر الأولياء شعبية في ليبيا، وبه يُقْسِم الناس فيقولون: «وحياة سيدي عبد السلام» - هو عبد السلام بن سالم الطيطوري، المدفون في مدينة زليطن. وقد توفي سنة ٩٨١ هـ / ١٥٧٣م وله من المؤلفات التي وصلت إلينا:

١ - «بحور، أوراد، وظائف، ووصايا»، منه نسخة في جامع الزيتونة، بتونس، (الفهرس جـ ٣ ص ٢٤٧، برقم ١٧١٥).

٢ - «نصيحة المريدين للجماعة المنتسبين»، منه نسخة في جامع الزيتونة بتونس (الفهرس، جـ ٣ ص ٤٦٢ تحت رقم ١٧٤٦).

ومدينة زليطن تقع في شرقي طرابلس، على طريق الساحل، وعلى مسافة ١٦١ كلم من طرابلس وعلى بعد ٣ كم من البحر، وسط واحة جميلة. ويحيط بها سور، وقد اشتهرت بمسجد سيدي عبد السلام الأسمر.

اللغات واللهجات

وفي ليبيا لغتان مستقلتان هما: البربرية، والعربية. ويتكلم البربرية ٥% من السكان، وباقي السكان يتكلمون العربية ولا يعرفون البربرية.

- ١ -
البربرية

واللغة البربرية منتشرة في: جبل نفوسة، ومدينة زوارة، ومدينة سُكْنَى (في منطقة الجُفْرة في وسط ليبيا)، وفي أقصى الجنوب الغربي حيث يوجد الطوارق، ثم في مدينة أوجله بإقليم برقة، في واحة قائمة برأسها في محيط عربي خالص، ولهذا يعجب المرء كيف احتفظت هذه المدينة باللغة البربرية بينما كل ما يحيط بها ولمسافات واسعة جداً يتكلم العربية وحدها! ويضاف إلى ذلك جماعات صغيرة، في جبل عِريان، وفي يفرن، وفي تيمسّا، وفي ورفلّه (في نواحي مدينة طرابلس).

واللغة البربرية لغة شفوية غير مكتوبة. ولم يبدأ تسجيلها كتابة إلاّ في القرن التاسع عشر حين قام بعض الباحثين الأوروبيين بتسجيلها بحروف لاتينية كما سمعوها من أفواه بعض البربر. لكن اكتشف في جنوبي مراكش بعض المخطوطات البربرية اللغة العربية الحروف، لكنها لم تفد في تأريخ اللغة البربرية. كما ان الطوارق يسجلون بعض النقوش بحروف تعرف باسم: تفناق (جمع: تُفنق).

وهناك فروض، كلها لا تزال بمعزل عن التأييد الوثيق، لبيان أصل لغة البربر وعلاقتها باللغات الأخرى. من ذلك فرض قال به Rössler يزعم ان اللغة البربرية لغة سامية قريبة من الآكّديَّة (الأشورية البابلية في العراق). وهناك فرض آخر يربط بين اللغة البربرية واللغة المصرية القديمة.

وللغة البربرية لهجات عديدة. وكان من المتبع في الماضي تقسيمها إلى ثلاث لهجات بحسب القبائل الثلاث الرئيسة وهي: مصمودة، وصنهاجة، وزناتة. لكن تبيّن فساد هذا التقسيم، ذلك لأنَّ اللهجات البربرية، وهي عديدة جداً لا تكاد تدخل تحت أي حصر، تختلف أحياناً بحسب المناطق الجغرافية. ومع ذلك وجد في بعض المناطق عدة لهجات بعضها فوق بعض في الصقع الواحد، كما هي الحال في منطقة القبائل: الكبرى والصغرى (في شمال الجزائر وشرقها)، وفي جبال الأوراس. ونظراً لتباين بعض هذه اللهجات تبياناً شديداً، فإنَّ البربر المختلفي اللهجات يتفاهمون ـ في المدن ـ بواسطة اللغة العربية.

وقد أخبرني أحد طلابي في كلية الآداب، قسم الفلسفة، في بنغازي وهو من جبل نفوسة انه كان من الصعب عليه ان يفهم اللهجة البربرية التي يتكلم بها أهل أوجلة، أثناء رحلة لطلاب القسم في أوجله.

ومعجم اللغة البربرية، بمختلف لهجاتها، مادي عيني، ونادر المفردات الدالّة على معانٍ مجردة. ولهذا امتلأ هذا المعجم بالألفاظ العربية كلما تعلّق الأمر بالنواحي العقلية والدينية.

وللإيضاح نسوق بعض خصائص «الاسم» في اللغة البربرية:

ـ غالبية الأسماء البربرية تبدأ المذكر بحروف: أ، إ، أو، والمؤنث بحروف) تا، تي، تو. ومع ذلك فإن بعض الأسماء ينتهي بحرف «ت» في المونث، مثال ذلك: في لهجة المشاقة: أجيول (= حمار)، تجيولت (حمارة).

ـ الجمع يتميّز إمَّا بحرف «أ» قبل أو بعد الحرف الساكن الأخير من نجذور الاسم ـ ـ مثل: «أجيول» (حمار) تجمع على «إجيال»؛ «أجدير» (حصن) تجمع على: اجودير. كذلك يتميّز الجمع أحياناً باضافة لاحقة هي حرف «ن» ـ مثل: أرجز (انسان) يصبح في الجمع: إرجَزِن.

- ٢ -
العربية

أمّا اللغة العربية في ليبيا فلها لهجتان رئيسيتان: لهجة برقة في الشرق، ولهجة ولاية طرابلس في الغرب. والأولى أقرب إلى اللهجة المصرية، والثانية أقرب إلى اللهجة التونسية. ولهذا قام باحثان ايطاليان بوضع نحو ومعجم لكل واحدة منهما. فكتب ترومبتي Trombetti «العربية كما يتكلم بها في طرابلس» l'Arabo Parleto In Tripoli (١٩١٢)، وكتبت پانتا E. Panetta متن: «العربية كما يتكلم بها في بنغازي» (١٩٤٣) l'Arabo Parlato A Benghazi ـ وقد سبقهما إلى هذا اللون من التأليف كرلو ألفونسو نلّينو بكتابه: l'Arabo Parlato In Egilto (سنة ١٩٠٠) «العربية كما يتكلم بها في مصر». وعن لهجات ليبيا بعامة كتب l'Arabo Parlato Della Libia: E. Griffini (١٩١٣).

لكن إلى جانب هاتين اللهجتين، المفهومتين بوجه عام للعربي غير الليبي، توجد لهجة شعبية بدوية لا يكاد العربي غير الليبي ان يفهم منها عبارة واحدة. وكانت الاذاعة الليبية تخصص ساعة كل يوم لترتيل «أشعار» بهذه اللهجة الشعبية البدوية، ورغم اقامتي ست سنوات هناك فقد بقيت لا أفهم منها شيئاً مطلقاً. وأهل مدينة بنغازي لم يكونوا هم الآخرون يفهمون منها الكثير، وقد كنت أتحدى بعضهم ان يفسّر لي معنى ما نسمعه في الاذاعة، فكانوا لا يحيرون جواباً، وإنّما يجيبون بكلمة واحدة: هذا من شعر «المجاهدين»، أي الليبيين الذين كانوا يقاومون الغزو الايطالي طوال الثلاثين سنة التي بقيت فيها ايطاليا تستعمر ليبيا!

أمّا الخلاف بين لهجة بنغازي (وبرقة بعامة) وبين اللهجة المصرية فيقع في النطق وفي المفردات. وأسوق لهذا الشواهد التالية:

اللهجة المصرية	لهجة بنغازي
كويّس	باهي
كثير	واجد
(لحم مستورد)	مازاجورا
عَلقة (ضرب مبرّح)	طريحة
طربوش مغربي	شنّة
الأمّ	العجوز
الأب	الشايب
مصارين محشية	عُصبان
تحت	لِوّطا
يعوز (يريد)	يبغي
بهارات	حرارات
زحلفة (السلحفاة)	فكرون، فكرونة (من أصل بربري)
سَمَك	حوت
أخرس	بكّوش
يَبْض	داحي
يتفسّح (يتنزه)	يتدهور
يهدم	يَطيح
جاسوس	بصباص
يقدر	ينجّم
الشبكة (في الزواج)	البلاغ
جوز (اسنان)	تروز
عَيّل (طفل)	عويلة
كُرّاسة	سفر

اللهجة المصرية	لهجة بنغازي
دار	حوش
دلوقت (الآن)	توّ، توّا
كثير	ياسر، هلبا
فيه (يوجد)	كاين
ما فيش (لا يوجد)	شيْ
إيه؟	شنو، واش؟
كام؟ (كم)	قِدّاش؟
بقال	عطار
شتا، مطر	نوّ
بَعَت (بعث)	دَزّ
يعمل	يسوِّي، يدير
إيه (شيء)	ايش
قِط	جَطّوس
فتح	حَلّ
بساط، كليم	زِرْبيه
ديك	سردوك
سخن، حار	سخون
جزمه	سِبّاط
بَرَد	تِبروري
فكّر	خمّن
يُستغل	يخدم
حتة (قطعة)	طرف
بَلْطة	شاقور
يسوِّي (ينضج)	يطيّب

اللهجة المصرية	لهجة بنغازي
غِنْوة (أغنية)	غناية
جدي	عتروس
خروف	علّوش
على ايه	علاش
علشان	بهاش
ليه	لاش
لِسّه (ليس بعدُ)	ما زال
قِلّه	برّادة
مَدْنة (مئذنة)	صومعة
مشمش	مشماش
لبن زبادي	لِبَنْ
لبن	حليب

كذلك يختلف نطق بعض الحروف:

ض تنطق ظ

ق تنطق ج

وعند السؤال ينطق آخر اللفظ بضمة طويلة: كتابو، مدرستو، الخ.

والمقطع الأول من اللفظ ينطق بنبرة مشدّدة: مدّ ـ رسه، فَلْـ ـ سفه، هـنْـ ـ ـدسة.

والألفاظ غير العربية الأصل مأخوذة من:

أ ـ البربرية، لكن نسبتها في اللهجة الليبية قليلة جداً، لو قورنت بنسبتها في اللهجات المراكشية والجزائرية؛

ب ـ الايطالية، وهي تكثر في ألفاظ الحرف او خصوصاً الكهرباء والسيارات، والأثاث المنزلي والملابس. ولا تزال الألفاظ الايطالية مستعملة في السجون(ا)، مثل: aria أي الفسحة التي تُعطى للمساجين لشم الهواء خارج زنزانتهم لكن داخل فناء السجن؛ conta أي احصاء عدد المسجونين في السادسة صباحاً والعاشرة مساءً.

جـ ـ التركية، وتظهر في أسماء الاعلام (انديشه، قره، بوق) والملابس والأدوات المنزلية.

د ـ اللغات الافريقية الزنجية، خصوصاً في لهجات اقليم فزّان، والكُفْرة وجنوبي ليبيا بعامة.

تركيب السكان في بنغازي

والسكان في بنغازي طارئون عليها من شتَّى انحاء ليبيا: من أقصى الغرب حتى الحدود المصرية، ومن خليج السرت حتى تشاد والنيجر، ومن اليونان وتركيا ومصر وتونس:

ـ وأسرة لنقي ـ وهي أبرز و(كانت) أغنى أسر بنغازي، أصلها من بني وليد جنوبي طرابلس الغرب، ولهذا فإنَّهم ينتسبون إلى قبيلة ورقلة البربرية.

ـ وأسرة العبيدي هي من قبيلة العبيدات، ومقرها الأصلي في جنوب غربي برقة.

ـ وأُسرة المغربي أصلها من المغاربة، وموطنهم الرئيسي جنوب غربي برقة.

ـ وثم أُسر عديدة ينتسبون إلى العواقير، وموطنهم الرئيسي في جالو ونواحيها.

ـ وأُسرة البدري أصلها من المرج.

ـ وأُسرة ڤواكس أصلها من كريت، فهم كريتلية مسلمون هاجروا من كريت في آخر القرن الماضي لما اشترتها اليونان من تركيا.

وبسبب اختلاف هذه الأصول تباينت ألوان بشرات اهل بنغازي تبايناً شديداً جداً: من الأشقر ذي العيون الزرق، إلى الأسود الفاحم الجعد الشعر؛ من النمط المنتسب إلى جنس البحر المتوسط، إلى النمط الزنجي الخالص؛ من صاحب الرأس المربّع، إلى صاحب الرأس المتكوّر؛ من الطويل القامة جداً إلى القصير القامة جداً. كذلك تباينت الطباع والأمزجة تبايناً شديداً للغاية: فهناك المهذب الرقيق الحاشية السريّ الأخلاق، وهناك الجلف الأحمق القريب من الحيوان الأول. وهناك مَن صقلته الحضارة، وهناك مَن أوغل في البداوة الأولى. ولهذا يصعب، بل يستحيل العثور على صفات وخصال مشتركة بين أهل بنغازي. وكل حكم عام في هذا الباب محكوم عليه بالخطأ الفاحش مقدماً.

ولم أعرف أهل بنغازي قبل استخراج البترول وتوفيره ثراء فاحشاً لهذه البلاد

التي كانت قبل البترول تعدّ من أفقر بلاد افريقية والعالم قاطبة. ولا شك ان هذه الثروة الهائلة المفاجئة قد أحدثت تأثيراً قويًّا وعنيفاً في النفوس. لكنني وصلت ليبيا في سبتمبر سنة ١٩٦٧ ولم يكن قد مرَّ على تصدير أول بترول ليبي غير خمس سنوات، وهي مدة قصيرة لا تكفي لإحداث تغيير جذري واضح المعالم تماماً. وربما كان العامل الأقوى تأثيراً من البترول آنذاك هو طرد الايطاليين من ليبيا منذ سنة ١٩٤٣، وقد كانوا يملكون الكثير من العقارات في بنغازي، واضطروا إلى تركها فاستولى عليها مَن كان ذا ثراء من أهل بنغازي. كذلك كان المستعمرون الايطاليون الذين بعثت بهم ايطاليا ابتداء من بداية الثلاثين قد استصلحوا وزرعوا أراضي شاسعة تمتد من بنغازي غرباً حتى درنة شرقاً. وقد بذلوا في فلح الأرض واستثمارها جهوداً جبّارة وزودوا كل مزرعة ببيت من طراز واحد في كل المزارع يفي بحاجات السكنى لأهلها والحماية لمواشيها. وكل هذا اضطروا إلى تركه دون مقابل، فاستولى عليه إمَّا القبائل وإما زعماؤها والأثرياء البارزون في الفترة ما بين سنة ١٩٤٣ حتى سنة ١٩٦٥. ومن المؤسف المحزن حقاً ان الذين استولوا على هذه المزارع من الليبيين لم يرعوها حق رعايتها، بل أهملوا الزرع فقلّت غلّتها بل وأجدبت أحياناً وصارت قفاراً، وأهملوا البيوت فتحوّلت إلى زرائب للأغنام!! وكانت هناك بساتين واسعة حافلة خصوصاً بالكروم، ومنها كانت تصنع ألوان جيدة من النبيذ (أپولو، والبطالسة، والحسناوات الثلاث)، فجفت الكروم وانحدرت صناعة النبيذ حتى قُضيَ عليها نهائياً ابتداء من اواخر سنة ١٩٦٩.

وكان الايطاليون قد انشأوا عشر قرى جديدة في برقة، و١٦ في اقليم طرابلس. كما أنشأوا ما طوله ٣٥٤٤ كم من الطرق المرصوفة، وأكبرها الطريق من طرابلس إلى السلّوم ويوازي الساحل، وطوله ١٨٢٢ كم، ومنه كانت تتفرع طرق في العمق الداخلي (طرابلس ـ غدامس؛ بويرات الحصون ـ مُرْزُق ـ غات). أمَّا القرى ـ المستعمرات الزراعية فقد اندثرت تدريجياً، وخربت البيوت الملحقة بها، كما بارت معظم الأراضي التي كانت قد استصلحت. وعمل على ذلك الدمار الزراعي ان ظهور البترول قد أدَّى إلى هجرة المزارعين إلى المدن بأعداد وفيرة. وكانت تربية الأغنام البرقاوية الشهيرة مزدهرة في برقة، لكنها اندثرت شيئاً فشيئاً، وبعد ان كانت برقة تصدّر أعداداً كبيرة من الأغنام إلى مصر وغيرها، صارت هي التي تستورد الأغنام من تركيا وبلغاريا. كذلك كانت تربية الحيوان تشمل الماعز والبقر والجمال والخيل والبغال والحمير، فتدهورت تربية هذا الحيوان كله، حتى الجمال. وكان البقر ينتج كمية لا بأس بها من الألبان، فصارت الألبان الطازجة

أندر ما يكون، وحلّت محلّها الألبان المجفّفة المستوردة، وباستثناء عشر بقرات على مشارف بنغازي، كان اللبن كله في بنغازي مستورداً مجففاً (خصوصاً النوع المسمَّى Carnation).

ويستطيع المرء أن يقول بكل اطمئنان ان كل شيء: من غذاء ولباس وسائر ما يحتاجه الناس للمعاش ـ مستورد من الخارج. وكانت كل هذه السلع، في العامين الأولين من اقامتي في ليبيا، أي من سبتمبر سنة ١٩٦٧ حتى سبتمبر سنة ١٩٦٩، متوافرة وبأنواع جيدة وأحياناً ممتازة في أسواق بنغازي وغيرها من المدن الليبية، بل وفي أصغر القرى. ولهذا كانت رفاهية العيش موفورة مؤمّنة لأهل البلاد وللوافدين عليها. ومن ثم كان الوافد من مصر، إذا انتقل إلى بنغازي او ليبيا بعامة، لا يشعر بالارتياح البالغ والنعمة السابغة، لأنَّ مصر آنذاك ـ سنة ١٩٦٧ ـ كانت تفتقر أسواقها إلى الكثير جداً من السلع وأسباب العيش الرغيد: من ملابس صوفية وأدوات منزلية وأدوية وأجهزة كهربائية وحتى من أنواع من الفاكهة (التفاح، الكمثري، الكاكي، الموز، الخ). ولهذا كان تجار سوق الظلام (وهو أهم أسواق بنغازي) إنَّما يعتمدون في المقام الأول على المصريين الوافدين إلى بنغازي، سواء لإقامة قصيرة أو لإقامة طويلة.

عملي في الجامعة الليبية

وكنت استاذاً للفلسفة في كلية الآداب بالجامعة الليبية من سبتمبر سنة ١٩٦٧، حتى سبتمبر سنة ١٩٦٩ ثم رئيساً لقسم الفلسفة من سبتمبر سنة ١٩٦٩ حتى مايو سنة ١٩٧٣.

وكنت أقوم بتدريس المواد التالية: المنطق ـ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ـ مناهج البحث العلمي ـ التصوف ـ علم الكلام وفلاسفة الاسلام.

وكان التخصص في الأقسام المختلفة يبدأ من السنة الثانية، فيشمل الثانية، والثالثة، والرابعة. وكان قسم الفلسفة موحداً يشمل الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع. وكان عدد الطلاب في هذا القسم يزداد عاماً تلو عام، فكان عددهم في عام ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ حوالى خمسين طالباً في السنوات الثلاث، صار عددهم في عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ حوالى المائة. وكان عدد الطالبات بنسبة ثلاثين إلى أربعين في المائة، لكنهن كنَّ أوفر حظاً من الاجتهاد والقدرة على التحصيل من الطلاب.

أمَّا أعضاء هيئة التدريس في كلية الآداب فكانوا ثمانين في المائة من مصر،

والباقون من سائر البلاد العربية، هذا في كل الأقسام ما عدا قسم اللغة الانجليزية الذي كان كل مدرسيه من الانجليز والأمريكيين.

وكانت الجامعة الليبية قد انشئت في سنة ١٩٥٦، وكان مركز ادارتها في بنغازي؛ وكانت في بنغازي ثلاث كليات هي: الآداب والتربية ـ التجارة والعلوم السياسية ـ الحقوق؛ بينما كانت في طرابلس كليتان هما: كلية العلوم، وكلية التربية. ثم توالى بعد ذلك انشاء كليات أخرى: الطب في بنغازي، والهندسة في طرابلس.

ولما وصلت في سبتمبر سنة ١٩٦٧ وجدت مكتبة الجامعة فقيرة جداً في الكتب الجيدة والمراجع. لكن بفضل معاونة مدير الجامعة آنذاك، عبد المولى دغمان استطعت ان أجعل المكتبة تستورد عشرات الآلاف من الكتب الممتازة والمراجع الأساسية ودوائر المعارف، خصوصاً في الفلسفة والأدب اليوناني واللاتيني والآداب الأوروبية الحديثة وكل ما أمكن الحصول عليه من دراسات المستشرقين في الموضوعات العربية والاسلامية. وهكذا يحق لي أن أفخر بأنّني صاحب الفضل الأكبر في جعل مكتبة الجامعة الليبية تنتقل من حوالى خمسة آلاف كتاب في العلوم الانسانية إلى حوالى ثلاثين ألفاً لما ان غادرت ليبيا في يوم الثلاثاء الثامن من مايو سنة ١٩٧٣.

كذلك عهدت إلي ادارة الجامعة بإحياء «مجلة كلية الآداب»، ولم يكن قد صدر منها غير عدد واحد منذ عشر سنوات. ومع العميد د. مختار بورو أشرفنا على اصدار عددين: عدد لعام ١٩٦٨، وعدد آخر لعام ١٩٦٩، ويقع كل واحد منهما في حوالى خمسمائة صفحة. وقد استكتبنا في كلا العددين باحثين أوروبيين مرموقين، أذكر منهم: أرنولد توينبي Arnold Toymbee مؤرخ الحضارات الانجليزية الكبير، وفرنشيسكو جبريبلي المستشرق الايطالي، وكلارك أستاذ الجغرافيا في جامعة درهم Durham بانجلترة. وحرصنا ان تدور جل الأبحاث حول ليبيا. وقد كتبت أنا فيها بحثين: الأول عن الفلسفة القورنيائية، والثاني عن «ليبيا في مؤلفات أرسطو».

وألقيت محاضرتين عامّتين: الأولى في ديسمبر سنة ١٩٦٧ بعنوان: «تأملات في الحضارة العربية»؛ والثانية في مارس سنة ١٩٧١ بمناسبة مرور خمسة عشر عاماً على انشاء الجامعة الليبية، وعنوانها: «فكرة الجامعة ورسالتها». وقد ضاع نص كلتيهما فيما استولت عليه الشرطة من كتبي في ابريل سنة ١٩٧٣.

مؤلفاتي في تاريخ الفلسفة في ليبيا

ولما كانت برقة إبّان الحكم اليوناني من المراكز البارزة للفكر اليوناني، فقد رأيت واجباً عليّ أن أدرّس تاريخ الفلسفة في ليبيا في العصر اليوناني والروماني.

لقد تمت اول هجرة يونانية إلى ليبيا حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد. فقد حدث في جزيرة ثيرا (وتُسمّى اليوم سنتورين Santorin) اضطرابات ناجمة عن سوء المحاصيل. فاستشار ملك ثيرا Thera وهرولف، فأشار عليه بإرسال حملة إلى ليبيا لإنشاء مستعمرة. فجمع الملك سكان الجزيرة للتشاور، فقرروا ان يعهدوا إلى مواطن اسمه: بطوس Battos إمرة هذه الحملة التي تألفت من فرد واحد من كل أسرة. واختير هؤلاء الأفراد وأمروا بالإبحار قاصدين ليبيا، واشترط عليهم ألا يعودوا إلاّ بعد خمس سنوات من الجهد في استثمار الأرض. وأبحر هؤلاء على سفينتين كل واحدة منهما ذات خمسين مجدافاً، أي ان عدد البحارة لن يتجاوز المائتين: وأبحرت السفينتان، فوصلتا أولاً إلى جزيرة كريت، وارستا في ايتانوس Itanos حيث استأجروا مرشداً كريتياً، وأبحروا إلى ليبيا، واقتربوا أولاً من الساحل الشرقي لبرقة، ونزلوا في جزيرة اتخذوا منها قاعدة لاستكشاف الأحوال في برقة. ومن هناك تقدموا في الداخل، واتصلوا بالسكان الأصليين، فأحسن هؤلاء استقبالهم مما جعلوا القادمين من جزيرة ثيرا يقررون الاستقرار على شاطىء برقة، عند حافة الهضبة العليا، في موقع ممتاز يوفر لهم الاستيطان الزراعي. وأسسوا مدينة قورنيا (وتسمّى اليوم: شحّات) في سنة ٦٣١ قبل الميلاد. واستمر اليونانيون في هذه المنطقة حتى جاء الاسلام وفتح ليبيا في سنة ٦٤٢ بعد الميلاد. وسرعان ما ازدهرت مدينة قورنيا والأراضي الزراعية التي مولها بفضل مهاجرين جُدد وفدوا من اقليم البلوپونيز (جنوبي اليونان) ومن جُزر الكوكلادس ورودس. وأنشأت مدائن أخرى أهمها: برقة (المرج حالياً)، ويوهسپريدس Eohesperides (بنغازي حالياً). وسرعان ما صار اقليم برقة (بالمعنى الأوسع) من موارد القمح الرئيسية في العالم القديم.

ويحدثنا هيرودوت («تاريخ هيرودوت» مقالة ٤ البنود ١٦٨ وما يليها) عن الشعوب الأصلية التي كانت تقطن ليبيا، ويسردها ابتداء من حدود مصر الغربية (١) فيذكر أولاً «الأدورماخداي» Adurmakhidai، فيقول عنهم انهم يشاركون المصريين في الكثير من عاداتهم، لكن ملابسهم هي كسائر الليبيين. وهم يقدمون إلى الملك الفتيات اللواتي بسبيل الزواج؛ فإن أعجبت الملك إحداهن، فإنّه هو أول من

يفتض بكارتها. ويسكن هؤلاء من مصر حتى أعماق خليج السلّوم.

(٢) ويأتي بعدهم الجلجاماي Gilgamai، ويسكنون فيما يلي الأولين حتى جزيرة واقعة في شمال غربي درنة، وخلال هذه المسافة تقع جزيرة پلاتيا، وبها تبدأ المنطقة التي ينمو فيها نبات السلفيوم Silphium، وهو نبات طبي نادر ولهذا كان غالي الثمن جداً، ومصدراً للثراء.

(٣) وبعدهم، من ناحية الغرب، الأسبوستاي Asbustai، ولا يقيمون على ساحل البحر لأن القورنيائيين احتلوا الشريط الساحلي. وهم مولعون بتقليد القورنيائيين.

(٤) ويأتي بعدهم غرباً الاوسخساي Auskhisai، ويقيمون فوق مدينة برقة (المرج) ويتصلون بالبحر عند يوهسپريدس (بنغازي).

(٤) وفي منتصف أراضي الاوسخساي يسكن «البكالس» Bacales، وهم قليلو العدد، ويتصلون بالبحر في نواحي طوخيرا (طوكره).

(٥) ويتلو الأوسخساي غرباً، او بالأحرى جنوباً، النَّسمون Nasamones، وهم كبيرو العدد. وفي الصيف يتركون على ساحل البحر قطعانهم ويذهبون إلى واحة أوجله لقطف ثمار نخيل البلح التي تنمو هناك بكثرة. وهم يصطادون الجراد، ويجففونه في الشمس، ويسحقونه على شكل ذرور، ويرشّون هذا الذرور على اللبن ثم يشربونه. ومن غرائب عاداتهم، فيما يحكي هيرودوت، ان النساء عندهم على المشاع. وإذا أرادوا مجامعة امرأة غرزوا عصا عند المكان الذي فيه سيجامعون. واذا تزوّج احدهم للمرة الأولى فمن المعتاد ان تمر العروس في الليلة الأولى بين أيدي كل المدعوّين ويجامعونها؛ ومَن يجامعها يعطها هدية أتى بها معه من منزله.

(٦) ويتاخم النَّسمون: البسولّوي Psulloi. وقد حدث ان جفّفت ريح الجنوب آبارهم، فصارت اراضيهم جافة. فتشاوروا فيما بينهم وقرروا ان ينهضوا بشن الحرب على ريح الجنوب! فلما بلغوا المنطقة الرملية هبت ريح الجنوب هبوباً شديداً وطمرتهم في الرمال. ومنذ هلاكهم هذا احتل النَّسمون بلادهم.

(٧) وفوق النسمون، ناحية الجنوب، في منطقة الوحوش الكاسرة، يسكن الجمفسانت Gamphasantes، وهم يفرّون من كل الناس، ولا يملكون سلاحاً، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

(٨) وعلى طول الساحل غرباً يسكن المكاي Makai، وذلك على الساحل

الغربي لخليج السرت الكبير. وهم يحلقون رؤوسهم تماماً، ويحتفظون بشوشة كعُرْف الديك. وفي القتال يحتمون بجلود النعام. وفي ديارهم يجري نهر كنوبس، المسمَّى بوادي الخان، ويصب على بعد ١٨ كم شرقي فزان، بين أوجله وواحتي واد والكفرة.

(٩) ويتلوهم «الجنْدان» Gindanes. ونساؤهم يلبسن في أقدامهن عدداً من الأساور الجلدية، بقدر عدد الرجال الذين جامعوها، ومَن في قدمها أكبر عدد من هذه الأساور تعدّ أفضلهن، لأنَّه أحبّها أكبر عدد من الرجال!

(١٠) وفي لسان من البحر ممتد من أرض الجندان يسكن «أكلة اللوتس»: Lotophago وهم يقتاتون بثمار اللوتس. وهذا اللوتس نوع من العنّاب. واسمهم الحقيقي: Machroae. ويصنعون من هذا اللوتس نبيذاً أيضاً، وطعمه حلو شبيه بطعم البلح.

(١١) ويليهم، على ساحل البحر، «المخلوس» Machlues، وهم أيضاً يقتاتون باللوتس لكنه بدرجة أقل من السابقين. وتمتد ديارهم حتى نهر التريتون Triton، وهذا النهر يصب في بحيرة التريتون، وفيها جزيرة تدعى «فلا» Phla. ويقال إن Phla هي جزيرة جربة (في تونس حالياً)، ولكن الشك يحوط هذا التأويل، كما يقال ان بحيرة التريتون هي السرت الصغير.

(١٢) والمخلوس يتلوهم الأوسس Auses، وكلاهما يسكن حول بحيرة التريتون (السّرت الصغير، وخليج قابس). والمخلوس يرسلون شعورهم خلف رؤوسهم، أما الأوسس فيرسلونها أمام رؤوسهم ونساؤهم مشاع بينهم. فإن وُلد لإحداهن ولد انتظروا حتى يبلغ أشده، وحينئذ يجتمعون في الشهر الثالث من ميلاده، وينسبون الطفل إلى مَن هو منهم أكثر شبهاً به.

(١٣) أمّا في قلب ليبيا فنجد أولاً «الجرمنت» Garamantes، وديارهم على مسيرة عشرة أيام من أوجله، وفيها مياه وكثير من النخل، وهم شعب كبير العدد جداً. وكانوا يقطنون في منطقة واسعة من اقليم فزّان، ولا يزال اسم مدينة «جرمه» يذكّر بهم. وعندهم الثيران ترعى وهي تتراجع إلى الوراء؛ والسبب في ذلك ان قرونها مائلة إلى الأمام، فيرغمها ذلك على الرعي وهي متراجعة. ولو انها رعت وهي تتقدم إلى الأمام، لانغرست قرونها في الأرض. ولا تختلف هذه الثيران عن سائر الثيران إلاّ بهذه الخصلة، وبصفة جلودها من حيث السّمك والصلابة. والجرمنت يركبون عربات تجرّها أربعة أفراس ويطاردون سكان الكهوف الأحباش، لأنَّ هؤلاء أسرع الناس عدواً. والكهفيون الأحباش يقتاتون بالأفاعي

والعظايا وما شابه ذلك من الزواحف. ولهم لغة تختلف عن سائر اللغات، ويطلقون صرخات حادة مثل أصوات الوطاويط.

(١٤) وعلى مسيرة عشرة أيام أخرى من الجَرَمنت يسكن الأترنت Atarantes وهم يلعنون الشمس اذا اشتد القيظ، لأنَّ حرارتها تستهلك الناس والأرض. وقد اقترح بعض الباحثين ان يكون المقصود بهم سكان واحة غات، وانهم يسكنون إمَّا بين بحيرة تشاد ونهر النيجر، وإمَّا في بلاط الطوارق بين أزجر والهجّار.

وحسبنا هذا القدر من القول الطويل الذي خص هيرودوت به الليبيين («تاريخ» هيرودوت جـ ٤ الفصول من ١٤٥ إلى ٢٠٥ = جـ ٤ ص ١٦٥ ـ ٢٠١، نشرته وترجمته جمعية جيوم بوديه، باريس سنة ١٩٤٥).

ولما توغل المستعمرون اليونانيون في بلاد الجلجماي استغاث هؤلاء بملك مصر، ويدعى أپريس Apries. «فحشد أپريس جيشاً كبيراً من المصريين وبعث به ضد قورنيا، لكن القورنيائيين خرجوا بأسلحتهم إلى ناحية اراسا، بالقرب من نبع ثستا Theste، وقاتلوا المصريين وانتصروا عليهم في المعركة» (هيرودوت جـ ٤، فصل ١٥٩). ونتيجة لذلك اندحرت القبائل الليبية الى الدواخل، وتركوا الساحل وما جاوره لليونانيين.

ويصف ديودورس الصقلي (جـ ٣ فصل ٤٩) الغارات التي كانت تقوم بها القبائل الليبية القاطنة في الدواخل على المستعمرات اليونانية المحتلة للسواحل.

لكن هذه المستعمرات اليونانية ظلت في ازدهار متواصل، حتى صارت عاصمتها، وهي قورنيا، أكبر مدينة يونانية في افريقية قبل انشاء مدينة الاسكندرية. وكان انشاؤها ـ كما قلنا ـ هو في سنة ٦٣١ قبل الميلاد. وازدهرت ازدهاراً كبيراً في عهد حكم أسرة الملوك البطوسين الثمانية، وكان هؤلاء الملوك يلقبون بلقب «بطوس» Battos والتالي بلقب اركسلاس Arkesilas على التبادل. والملوك الثلاثة الأواخر تصرّفوا تصرف الطغاة اليونانيين، وقد حكموا ما بين سنة ٥٢٥ تقريباً حتى سنة ٤٤٠ تقريباً قبل الميلاد. وسيطروا على كل اقليم برقة. وبعد سقوط الملكية حوالى سنة ٤٤٠ ق.م. صار حكام قورنيا هم ممثلو الأسر الكبيرة.

وترتفع مدينة قورنيا فوق سطح البحر بمقدار ٦٠٠ متر، على حافة هضبة. وميناؤها وهو أپولوينا Apollouina (سوسه حالياً) كان يبعد ١٧ كم. وكان يربط المدينة بالسوق طريق فاخر. وفي السوق يوجد قبر دائري لبطوس، مؤسّس المدينة. وثم معبد لأپولون، عنده ينبوع أپولون، وهو معبد من الطراز الدوري ذو

أعمدة خارجية عددها ٦ × ١١، وترجع إلى بداية القرن السادس قبل الميلاد، ثم أعيد بناؤها في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، مع مذبح كبير ومعبد صغير ومذبح مكرسين للإلاهة أرتميس. وناحية الشرق كان على رابية أخرى معبد زيوس؛ ربّ الأرباب، وهو معبد كبير من الطراز الدوري، أعمدته الخارجية ٨ × ١٧ عموداً، وقد بُنِيَ حوالى سنة ٥٢٠ ـ ٤٩٠ ق.م.

وحول المدينة تمتد المقابر، وهي محفورة في الصخور على طول الطريق الممتد حتى ميناء أپولوينا.

وبعد عصر هيرودوت (حوالى ٤٨٤ ـ ٤٢٤ ق.م) لا تحدّثنا المصادر بشيء عن قورنيا، وذلك حتى زمان الاسكندر الأكبر المقدوني. كل ما هناك هو ان قورنيا كانت في صف اسپرطه في الحرب البلوپونيزية، وانها في سنة ٤١٣ ق.م زودت بعض السفن الاسپرطية التي شردتها الرياح بالبحّارة وبعثت بسفينتين ضد الاثينيين في صقلية (راجع ثيوكيدوسي ٧: ٥٠: ٢). وعدّل الدستور لإدخال مزيد من الديمقراطية، وألغيت عبادة الأُسَر.

وفي سنة ٣٣١ ق.م. استسلمت قورنيا للإسكندر الأكبر وبعثت اليه بالهدايا (ديودورس الصقلي ١٧: ٤٩). وبعد وفاة الاسكندر عجّت قورنيا بالمنازعات الداخلية، خصوصاً وقد كان سكانها من أخلاط عديدة: فاستغاث بعض الهاربين من قورنيا ومن برقة (المرج) بثبرون Thibron الاسپرطي، فغزا أپولونيا (ميناء سوسه) وحاصر قورنيا، وعقد الصلح وبموجبه كان على قورنيا ان تدفع ٥٠٠ طالنت. لكن عنف ثبرون أوقعه في نزاع مع بعض جنوده، ومنهم منسياس Mnaseas الذي ذهب إلى قورنيا وحرّض أهلها على إلغاء معاهدة الصلح. فاستؤنف القتال من جديد، ولم يكن في صالح ثبرون وقتاً طويلاً، لكنه ما لبث ان انتصر بعد استنجاده بأهل قرطاجة، وطرد الارستقراطيين من اهل قورنيا. فاستغاث هؤلاء ببطليموس لاجوس، حاكم مصر آنذاك، فأرسل أوفلاّس Ophellas، أحد قوّاده بجيش ضد ثبرون، وانتصر على ثبرون وقتله، ومن ثم صار بطليموس لاجوس هو المسيطر على قورنيا، وذلك في سنة ٣٥٢ ق.م.

لكن ما لبثت قورنيا ان تمرّدت على بطليموس لاجوس في سنة ٣١٣ ق.م، فأرسل القائد أجيس Agis فأخمد التمرد في نفس السنة. بيد ان أوفلاّس استقل بقورنيا بعد وقت قصير. لهذا قام مجاس Magas، أخو بطليموس، فاستعاد السيطرة على قورنيا، وكان أجاثوكلس Agathokles قد قتل أوفلاّس. غير ان مجاس ما لبث ان استقل بقورنيا عن حكم أخيه، واتخذ لقب ملك، وهاجم مصر،

وعقد صلحاً مع بطليموس، وتوفي مجاس في سنة ٢٥٨ ق.م.

وكان مجاس قد عقد خطبة ابنته برنيق Bernice على وارث عرش مصر بطليموس (الثاني) ابتغاء ضمّ المملكتين، بينما ارادت أُمّها أفاميه Afame تزويجها من دمتريوس الجميل، ابن دمتريوس پوليوركيتس Demetrios Poliorketes الذي وصل إلى قورنيا. لكنه عشق أفاميه؛ فحرضت ابنتها برنيق على قتله فقتل. وتزوّجت من خطيبها الأول، بطليموس الثاني الذي تولى عرش مصر في سنة ٢٤٦، وتوفي بعد قليل في سنة ٢٤٨/ ٢٤٧ ق.م.

وفي عهد بطليموس الثالث (٢٤٦ ـ ٢٢١ ق.م) الملقب بالمُحْسِن Euergetes قامت ثورة في قورنيا بقيادة قليومينس Kleomenes حوالى سنة ٢٢٠ لكنها أخفقت.

وبعد وفاة بطليموس الرابع في سنة ٢٠٥/ ٢٠٤ ق.م استولى فيلمون Philemon على السلطة في قورنيا فترة من الزمان، وقتل أرسنوتيه. وأثناء النزاع بين بطليموس فيلوميتر وفوسقون انفصلت قورنيا عن مصر، وبتوسّط الرومان أعطيت قورنيا لفوسقرن Physkrn في سنة ١٦٤ ق.م. ـ وغُيِّر اسم يوسبريدس إلى برنيق، واسم طوخيرا إلى أرسينويه.

وبعد وفاة بطليموس فيلوميتر (محب أمه) في سنة ١٥٥ ق.م. صار فوسقون ملكاً على مصر، وهكذا توحّدت مملكتا قورنيا ومصر. وكان فوسقون حاكماً قاسياً، حكم مملكته بقسوة بالغة. وتدخل الرومان في العلاقة بين فوسقون وأخته المشاركة له في الحكم، كليوبطرة، وأوفدوا بعثة إلى قورنيا لفحص أحوالها. وفي تلك الأثناء طُرِد فوسقون وانفردت كليوبطرة بالحكم، لكن فوسقون ظلَّ مستولياً على السلطة في قورنيا وقبرص، وعاد إلى مصر في سنة ١٢٩ ق.م. وطردت كليوبطرة، لكنهما ما لبثا ان تصالحا في سنة ١٢٥. وفي سنة ١١٦ توفي فوسقون، وصارت قورنيا تحت حكم ابنه غير الحقيقي المسمَّى أپيون Apıon. ومنذ ذلك الوقت انفصلت قورنيا من جديد عن مصر. لكنه أوصى بمملكته للرومان. وتوفي ـ على الأرجح ـ في سنة ٩٦ ق.م. بيد ان الرومان منحوا قورنيا صفة Civitas Foedarata (= مدينة محالفة. وتولّى لوكولوس Lucullus ادارة مدينة قورنيا في سنة ٨٨ ق.م. وصارت ولاية قورنيا إيالة (مقاطعة) رومانية في سنة ٧٤ ق.م. وفي عهد أغسطس صارت هي وكريت تحت حكم والي Propraetor روماني واحد، واستمر هذا الاتحاد حتى ديوكلسيان.

واستمرت على هذه الحال حتى فتحها المسلمون في سنة ٦٤٢ بعد الميلاد.

ومن أبرز الأحداث في قورنيا ابان حكم الرومان الفتنة العنيفة التي قام بها اليهود في سنة ١١٤م، وكانت في قورنيا جالية كبيرة من اليهود، بعث بمعظمهم بطليموس الأول سوت (٣٠٤ ـ ٢٨٢ ق.م). ويصف اسطرابون تركيب السكان في قورنيا في سنة ٨٥ ق.م. فيقول إن سكانها أربعة أصناف: الصنف الأول هم المواطنون، والثاني: الفلاحون، والثالث: الأجانب المقيمون، والرابع: اليهود. وقد ظلّ اليهود في نزاع مع المواطنين اليونانيين باستمرار، ومُنِعوا من ارسال الهبات إلى معبد أورشليم. لكن أوغسطس وماركس أجريا تدخلاً في سنة ١٤ ق.م، وسمحا لليهود بارسال هذه الهبات.

لكن اليهود في قورنيا قاموا بثورة عنيفة في عام ١١٤ بعد الميلاد، وخرّبوا المدينة إلى ان جاءت العرافات (الفيالق) الرومانية فأخمدت هذه الثورة، وبعض النقوش اليونانية والرومانية تصف الخراب الذي أحدثته «الفتنة اليهودية» ـ كما ورد في هذه النقوش ـ في مدينة قورنيا (راجع يوسابيوس: «التاريخ الكَنَسي»: ٢؛ ريون كاسيوس (٦٨: ٣٢).

لكن الرومان أعادوا بناء ما خرّبه اليهود، وذلك في عهد ترايان (٩٨ ـ ١١٧م) وعهد هادريانوس (١١٧ ـ ١٣٨).

أمّا من الناحية الفكرية، فقد أنجبت قورنيا:

١ ـ الرياضي: ثيودورس.

٢، ٣ ـ والفيلسوفين: أرسطينوس، وكريناوس.

٤ ـ والشاعر: كَلّيماخوس.

٥ ـ والجغرافي اراتوستينس.

٦ ـ والأسقف الشاعر المفكر: سونسيوس.

٧ ـ الملحد: ثيودورس.

وهاك نبذة عن هؤلاء:

١ ـ أمّا ثيودورس الرياضي، فقد كان معلما للرياضي الكبير تيتاتوس Theaitetos الذي خصه أفلاطون بمحاورة، كما يزعم ذيوجانس اللاوسي («حياة الفلاسفة» ٣:٦) ان أفلاطون تتلمذ عليه ربما أثناء رحلة في سنة ٢٩٦؛ وهو في محاورة «ثيتاتوس» لأفلاطون يظهر على انه في سن سقراط. ولهذا يفترض انه وُلِدَ حوالى ٤٧٠ إلى ٤٦٠ ق.م. وأهم انجاز لثيودورس في الرياضيات هو وضعه لنظرية الأعداد الصمّاء (أي التي ليست لها جذور صحيحة).

٢ ـ أمَّا كليماخوس Kallımachos فهو شاعر يوناني من فحول الشعراء اليونانيين في العهد الهلينستي (أي التالي للاسكندر الأكبر). ولا نعرف تاريخ ميلاده، ولا تاريخ وفاته لكننا نعلم انه هاجر من مسقط رأسه قورنيا قبيل سنة ٣٠٠ ق.م إلى الاسكندرية، حيث عمل أولاً معلماً أولياً في ضاحية الوسيس، ثم تولّى وظيفة في القصر الملكي، وأخيراً تولّى منصباً في المكتبة العامة. وصار شاعراً في البلاط الملكي. وعلى يديه تعلم جيل من النحويين. ثمَّ تخلَّى عن منصبه في مكتبة الاسكندرية لتلميذه أبولّوتيوس.

وكان لشعره تأثير كبير عند اليونان والرومان. وراح النحويون يشرحون قصائده. وكان يعد أمير الشعر الاليجيادي، ونموذج الشعر الغرامي. وقد نظم «أناشيد» و«أهاجي»، وله ديوان شعر كبير بعنوان: «الأسباب» ويضم قصائد اسطورية ونال اعجاباً شديداً.

ومن أجمل هذه الأناشيد النشيد الرابع الذي نظمه بطلب من بطليموس الثاني فيلادلفوس حوالى سنة ٢٧٥ ق.م. وفيه يصف جزيرة ويلوس وعبادة أپولون، فيقول:

«هذه الجزيرة الراسخة الأركان في مهب الرياح وتصادم الأمواج، المضيافة عند طيران العصافير أكثر منها عند كزمة الخيول، تظلّ وطيدة وسط البحر الهادر الأمواج على طول الساحل، والذي يأتي عندها ليجفف زَبَد الأمواج الايكارية».

ثم يسرد الشاعر بعد ذلك أسطورة ميلاد أپولون، وكيف ان أُمّه ليتو Léto لم تجد إلاّ في ويلوس ملاذاً لها من غيرة هيدا التي غارت منها. ويروي المعجزة التي حدثت عقب مولد أپولو، إذ تحوّلت الأشياء والأماكن حول الوليد كلها إلى ذهب احتفاء بهذا الطفل الإلهي. ثم يذكر المراسم والاحتفالات المقدسة التي كانت تجري في معبد أپولون باستمرار فيقول:

«أيتها الجزيرة ذات الألف مذبح، والألف صلاة، مَن هو الملاح، ومن هو التاجر الذي يجوب بحر ايجه على سفينته تجنّب شاطئك؟ وما كانت الرياح المواتية ولا الضرورة قادرتين على جعله يسرع للرحيل، بل كان الملاحون ينسون ان يحمّلوا مراكبهم بسرعة، ولم يكونوا يحفلون باستئناف الابحار قبل ان يكونوا قد طوّفوا بمذبحك الكبير وجلدوه بضربات كبيرة وان يعضوا، وأيديهم موثقة «وراء ظهورهم»، على الجذع المقدس لشجرة الزيتون: وهي طقوس ابتدعتها حوريَّة ويلوس لتلهية الطفل وإضحاك أپولون».

وكان من المعتاد عند مؤرخي الأدب اليوناني ان ينعتوا «أناشيد» كليماخوس انها شديدة التكلف حافلة بالمعلومات المأخوذة من الكتب، وان هذا الشاعر قصد بها الى خاصة الخاصة من الأدباء. لكن بيَّن الباحثون المعاصرون ان هذه «الأناشيد» كانت وليدة المناسبات، وقصد بها إلى الانشاد في عيد من الأعياد المرتبط بها النشيد الواحد. وكليماخوس نظمها: إمَّا تلبية لطلب الحاكم البطليمي، كما هو الحال في النشيد الرابع الخاص بعيد بطليموس دي ويلوس، او للاشادة بمسقط رأسه، قورنيا عند احتفالها بعيد أپولون (النشيد الثاني)، أو للاحتفال بعيد زيوس في عهد الملك مجاس (النشيد الأول)، أو للاحتفال بعيد زيوس في عهد الملك مجاس (النشيد الأول)، او للاحتفال بالإلاهة ديميتر (النشيد السادس).

أمَّا ديوان «الأسباب» Aitia فيتألف من قصائد قصيرة يذكر فيها عدداً كبيراً من الحكايات الأسطورية التي كان يقصد بها تفسير الطقوس الجارية في عصره. ويعد هذا الديوان قمة الشعر اليوناني في العصر الهيلنتسي (اي التالي لموت الاسكندر الأكبر).

وإلى جانب الشعر، صنف كليماخوس كتباً علمية تحصيلية: منها «الفهارس» Pinakes، ولها أهمية بالغة من الناحية الفهرسية؛ و«تأسيس الدول الجزائرية والمدن، مع تعديلات أسمائها»؛ «أسماء السمك»؛ «أسماء الشهور عند الشعوب والمدن»؛ «في الرياح والطيور والأنهار في العالم المسكون»؛ «الحوريات»؛ «عجائب العالم كله بحسب الترتيب الجغرافي».

وكان من المظنون إلى أوائل هذا القرن ان جل شعره قد فقد. لكن أمكن العثور على معظم شعره عن طريق أوراق البردى. وقد قام R. Pfeiffer بنشر ما تبقى لنا من شعره في مجلدين، ظهرا في اكسفورد في عامي ١٩٤٩ و١٩٥٣.

٣ ـ ايراتوستينس Eratosthenès: عالم لغوي ومحافظ مكتبة ومربي أمراء في الاسكندرية. وُلِدَ قبل سنة ٢٧٦ ـ ٢٧٢ ق.م، وتتلمذ على زينون الرواقي (المتوفى سنة ٢٦٢ ـ ٢٦١ ق.م.)؛ كما تتلمذ على أركسيلاوس Arkseilaos أحد كبار الأكادميين الافلاطونيين (المتوفى سنة ٢٤١/ ٢٤٠ ق.م) ومؤسِّس الأكاديمية الوسطى.

وله من المؤلفات:

(١) «الأفلاطوني»، وقد أفاد منه ثاون الأزميري في كتابه «الرياضيات المفيدة في قراءة أفلاطون». ويبدو أنه كان محاورة.

(٢) «في النَّسب».

(٣) «البروج».

(٤) «في قياس الأرض» ـ وقد انتهى إلى ان طول محيط الأرض عند خط الاستواء هو ٢٥٢,٠٠٠ اسكاديا (الاسكاديون = ١٩٢,٣ متراً).

(٥) «في الجغرافيا» ـ وإليه أشار اسطرابون في المقالتين الأولى والثانية. وقد رفض الاعتماد على هوميروس في الأمور الجغرافية، وإنما اعتمد على أبحاث انكسمندر أول مَن رسم خريطة جغرافية، وعلى هكتاريوس، والعلماء الذين صحبوا الاسكندر الأكبر في حملاته. واستنتج ـ مثلما فعل هيرودوت قبله ـ من وجود أصداف بحرية على الجبال انه حدثت تغيرات في سطح الأرض.

(٦) وله أبحاث في التواريخ كانت الأساس في الكتابة الدقيقة للتاريخ، كما ان له دراسات في تحقيق صحّة النصوص الأدبية. وقد نشر الشذرات الباقية منها برنهردي G. Bernhardy في برلين سنة ١٨٢٢.

ولم يبق لنا من مؤلفات ايراتوستينس إلاَّ شذرات أبقاها لنا مَن اقتبسوها.

أمَّا الثلاثة الباقون فقد خصصنا لكل واحد منهم دراسة تفصيلية، بالعنوانات التالية:

(أ) «الفلسفة القورنيائية، أو مذهب اللذة»، دار ليبيا للنشر، بنغازي سنة ١٩٦٩. وفيه تناولنا مؤسس هذه الفلسفة، وهو أرسطيفوس Aristiffos (حوالى سنة ٤٣٥ ـ ٣٣٦ ق.م)، تلميذ سقراط الذي أقام مذهبه الأخلاقي على اللذة باعتبارها أساس السعادة. وهو يفهم اللذة بمعنى حسِّي جسدي خالص. ويعرّفها بأنَّها حركة ناعمة مستوية ولا لذة إلاَّ بما هو حاضر فعلاً. أمَّا اللذة الناشئة عن التذكر او التوقع فلم يأخذ بها، لكن أقرّ بها بعض أتباع مدرسته في مرحلة متأخرة.

وقد استمرت المدرسة القورنيائية من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٢٧٥ ق.م تقريباً) وأهم رجالها هم: ثيودورس الملحد، وهجسياس، وقد عرّفا السعادة بأنها الخلو من الألم.

وقد جمعنا كل أخبارهم وما بقي من أقوالهم وترجمناها كملحق للكتاب.

(ب) «كرينادس»، منشورات الجامعة الليبية، سنة ١٩٧١.

وهو أشهر رجال الأكاديمية الوسطى، وتوفي في سنة ١٢٨/١٢٩ ق.م وهو في الخامسة والثمانين من عمره، أي أنه وُلِد سنة ٢١٣/٢١٤ ق.م. وتتلمذ على

هجسينوس Hegesinos، وخلفه على رئاسة الأكاديمية من حوالى سنة ١٦٤ حتى سنة ١٣٧. وكان بارعاً في الجدل، واسع الاطلاع، وخطيباً موهوباً. وعاش في أثينا مواطناً أثينياً، كما سافر إلى روما ضمن وفد من الفلاسفة في سنة ١٥٦/ ١٥٥ ق.م، وألقى خطبة لتأييد العدالة، أعقبها في اليوم التالي بخطبة ضد العدالة! ولم يترك مؤلفات، ولكن نقل آراءه تلاميذه كليتوماخوس، وزينون السكندري، وهجنون Hagnon (الطرسوسي) كما نقل بعضها لارسّا Larissa ومطرودورس الاسطراطوني.

ويمثل كرينادس قمة نزعة الشك التي انتحلتها الأكاديمية الوسطى التي أسّسها اركسلاوس فبيّن ان الحواس لا يمكن الاعتماد عليها في تحصيل المعرفة الحقيقية، وعارض نظرية الرواقيين القائلة بالخيال الواضح. ولما كان الديالكتيك هو الآخر غير وثيق، فإنّه أنكر وجود معيار للحقيقة، ودعا إلى التوقف عن الحكم (ابوخيه). لكن من اجل إمكان العمل، قرر بأن من الممكن الاعتماد على الاحتمالات والظواهر، اي على المعرفة النسبية. ولهذا قسّم المعرفة المقبولة إلى ثلاث مراتب: (١) الخيال المُقْنِع؛ (٢) الخيال المقنع غير المتناقض؛ (٣) الخيال المُقْنع غير المتناقض والممتحن من جميع الجوانب.

ومن حججه المشهورة ضد العقائد الدينية:

- براهينه ضد وجود الآلهة؛ وعلى شكل أقيسة مركبة موصولة النتائج.
- براهينه لانكار وجود عناية إلهية.
- براهينه ضد امكان التنبؤ بالغيب، وضد علم التنجيم.

ودافع عن حرية الإرادة، وكان الرواقيون يقولون بالجبر.

(ج) «سوسينوس القورنيائي»، منشورات الجامعة الليبية، سنة ١٩٧١.

كان اسقفاً مسيحياً على قورنيا؛ وُلِد حوالى سنة ٣٧٠ بعد الميلاد. وتعلّم الخطابة والفلسفة في الاسكندرية، حيث تتلمذ على كثيرين منهم الفيلسوف هوپاتيا.

وأرسله أهل قورنيا الى القسطنطينية ليلتمس من الأمبراطور تخفيف الضرائب عنهم. وبعد اقامة في القسطنطينية استمرت ثلاث سنوات (٣٩٩ ـ ٤٠٢ م) حقق الغرض من مهمته. وبعد عودته نظم محميات للدفاع عن مدن الشواطىء ضد غارات القبائل الليبية المحلية القادمة من الصحراء، وتولّى ذلك بنفسه لأن القوّات الامبراطورية والحكّام البيزنطيون لم يحفلوا بهذه الغارات.

وتزوّج في سنة ٤١٠ ولم يكن قد اعتنق المسيحية بعد. وعلى الرغم من اعتراضاته على بعض العقائد المسيحية، فإنّه رسم أسقفاً سنة ٤١٠، ومقرّه في كلميثة. وإلى جانب مهامه الدينية فقد ظلّ مهتماً بالشئون السياسية والاجتماعية لأهل وطنه. وتوفي في سنة ٤١٣ بعد الميلاد. ويؤكد مؤرخو الكنيسة أنه عُيِّن في منصب أسقف قبل اعتناقه للمسيحية! (راجع ايڤاجروس: «التاريخ الكنسي» ١: ١٥؛ نيقوفورس: «التاريخ الكنسي» ١٤: ٥٥؛ فوتيوس: «المكتبة»ـ: ٢٦). ولم يعتنق المسيحية إلاّ بعد توليه منصب الأسقفية.

ورغم اعتناقه للمسيحية فقد ظلّ، وهو اسقف، يعلن رفضه للعقيدة القائلة بأن العالم سينتهي، وينكر عقيدة العبث للأجساد وللأرواح على السواء، واحتفظ لنفسه بالحق في ابداء آرائه بحرية مهما تعارضت مع العقائد المسيحية المقررة، وباستمرار العيش مع زوجته (راجع الرسالة رقم ١٠٥).

وهو في رسائله بعد تولّي الأسقفية يحن إلى العهد السابق ويأسى على انه فقد حياته الثقافية.

والمؤلفات التي خلّفها سونسيوس ترجع كلها تقريباً إلى ما قبل تعيينه اسقفاً. ولم يكتب بعد ذلك غير خطبتين أو ثلاث (إذا أضفنا الرسالة رقم ٥٧)، وموعظتين، ونشيدين (التاسع والعاشر).

أمّا رسائله، وعدتها ١٥٦ رسالة، فتمتد على طول تاريخ حياته. وهي أهم مصدر لنا عن حياته وشخصيته.

أمّا محاولاته في النظم الأولي فقد ضاعت، كما ضاعت رسالته عن «الصّيْد».

وأول مؤلفاته الباقية هو خطبته: «في المُلك»، وهي التي ألقاها، موفداً من قِبَل بلدة قورنيا، أمام الامبراطور أركاديوس. وفيها يشرح رأيه في الحاكم المثالي، ويهاجم المبالغة في المراسم الملوكية.

وبعد عودته إلى وطنه ألّف رسالة بعنوان: «ديون»، وفيها يدافع عن السلوك في الحياة القائم على الاستغلال الحر بالفلسفة والأدب والموسيقى. واتخذ من سيرة ديون الذي من پروسا نموذجاً لهذا اللون من الحياة. وهو ديون Dion الملقب بـ «الذهبي الفم» Chrysostomos من مدينة پروسا Prusa في اقليم بتونيا (آسيا الصغرى)؛ وقد وُلِّيَ حوالى سنة ٤٠ بعد الميلاد وكان أعظم خطباء عصره، ومعظم خطبه تتناول موضوعات أخلاقية.

ويتلوها رسالة «في الرؤيا»، أي ما نراه في الأحلام، وفيها يشيد بجمال حياة الحلم، ويدعو إلى ملاحظة الرؤى.

وألَّف رسالة هزلية «في مدح الصَّلَع»، ضرب فيها على قالب هذا اللون من الكتابة الذي كان مألوفاً ومحبباً عند الكلبيين، والذي نجد له نظيراً عند الجاحظ في أدبنا العربي.

لكن أجمل انتاجه الأدبي هو عشرة أناشيد كتبها باللهجة الدورية، بينما هو في سائر مؤلفاته كان حريصاً على اللهجة الأتيكية المحضة. وفيها نجد مادة مسيحية المضمون في قالب الأوزان اليونانية الكلاسيكية. لكنها في مجموعها مزيج من الخواطر المسيحية والأفلاطونية المحدثة: ففيها يظهر يسوع المسيح على انه قوة كونية تناظر «النوس» (= العقل) عند أفلوطين. ونظرته إلى التثليث المسيحي لا تتفق لا في العبارة ولا في المضمون مع العقيدة المسيحية.

وفي كتابنا هذا عن سونسيوس ترجمنا وشرحنا هذه الأناشيد العشرة، كما ترجمنا صفحات عديدة من سائر مؤلفاته: «ديون»، و«الرسائل». وفصّلنا القول في الصراع بين المسيحية في ذلك العصر وبين الفكر اليوناني، وفي المناظرات والمناقضات والمساجلات بين رجال كلا الطرفين، خصوصاً مطاعن فورفوريوس في المسيحية، لأنَّ سونسيوس كان قبل اعتناقه المسيحية شديد التأثر بفورفوريوس Phorphyrios (وُلِد في صور بلبنان سنة ٢٣٤ بعد الميلاد، وتوفي بين سنة ٣٠١ و٣٠٥ م)، تلميذ أفلوطين وناشر مؤلفاته.

وقد كانت قورنيا وسائر المدن الخمس (بنطابلس) في برقة وهي: برنيق (بنغازي) وطوثيرا (طوكرة)، وبطولمايس (كلميثة) وبركية (المرج) تابعة من الناحية الدينية لبطريرك الاسكندرية. وبهذه الصفة كان بطريرك الاسكندرية هو الذي يصادق على كل الانتخابات الاسقفية، ويرسم كل الأساقفة، ويدعوهم الى عقد سينودس (= مجمع أساقفة) وفقاً لمشيئته، ويزودهم بما شاء من التعليمات (دوشين: التاريخ القديم للكنيسة» جـ ٣ ص ٧٩ ـ ٨٠). وكانت لبطريركية الاسكندرية في القرن الرابع موارد مالية كبيرة باحتكارها للطقوس الجنائزية وتجارتها في مختلف المنتجات: الفطرون، ورق البردى، الملح.

وكانت ليبيا في القرن الرابع تنقسم إلى مطرانيتين: المطرانية الأولى، ومركزها بطولمايس (كلميثة) وتتبعها ١٤ أسقفية؛ المطرانية الثانية، ومركزها درنة، وتتبعها ٧ أسقفيات.

وفي أيام سونسيوس كان البطركان: طيموثاوس، أخو بطرس الثاني، وتولّى البطريركية من سنة ٣٨١ إلى ٣٨٥؛ وثيوفيلس، الذي تولّى البطريركية من سنة ٣٨٥ حتى سنة ٤١٢.

وكان ثيوفيلس هذا رجلاً عنيفاً شديد الوطأة على الوثنية، ظلَّ يطاردها ويدمّر معابدها بكل قسوة، لاجئاً في ذلك إلى أشد أساليب العنف، لا يزعه وازع من دعوة السيد المسيح الى الرحمة والموعظة الحسنة. وقد حارب منافسيه من كبار آباء الكنيسة في عصره دون هوادة؛ بل ودون شرف. ففي سنة ٣٩٨ سعى ـ دون جدوى ـ ان يضع أحد محاسيبه بطريركاً على كرسي (القسطنطينة. وفي سنة ٣٩٩ دبّر المؤامرات للقضاء على يوحنا الذهبي الفم، بطريرك القسطنطينة، وأفلح في ذلك فأدين يوحنا الذهبي الفم وحكم عليه بالنفي في سنة ٤٠٤. وأرغم يوحنا، رغم علوّ سنه وما انتابه من علل، على ان يمشي الى منفاه على قدميه في طرق جبلية وعرة حتى بلغ مقر منفاه في مدينة كومان Comane على ساحل البحر الأسود. ولم يبت فيها إلاّ ليلة واحدة، إذ وافته المنية في الغداة، يوم ١٤ سبتمبر سنة ٤٠٧! وهكذا انتصر ثيوفيلس على خصمه يوحنا الذهبي الفم «في معركة غير متكافئة»، لم يكن من خصم يومها للقداسة والتقوى غير الخبث والعنف.. لكن الذين تغلبوا على قداسته: أكاك الذي كان من بيريه، وأنطيوخس الذي من بطولمايس، وسعيريان الذي من جَبَله، وقبل الآخرين جميعاً: ثيوفيلس بطريرك الاسكندرية لم يتركوا ذكرى لهم من بعدهم غير ذكرى انهم دسّاسون طمّاعون» (باردي G. Bardy في «تاريخ الكنيسة» جـ ٤ ص ١٤٨، باريس سنة ١٩٣٩) بينما يوحنا الذهبي الفم ترك اثراً عاطراً في الكنيسة المسيحية، فاعتبرته سيد خطباء الكنيسة ولقبته بلقب: «الذهبي الفم» لفصاحته وموهبته الكبيرتين في الخطابة.

وهكذا شاركت المدن الخمس (البنطابلس) في ليبيا مصير وعقائد كنيسة الاسكندرية.

لكن كنيسة المدن الخمس تفردت مع ذلك بمذاهب خاصة لم تأخذ بها كنيسة الاسكندرية:

١ ـ من ذلك ما يسمّى «بالمذهب القورنيائي»، الذي ظهر في القرن الثاني الميلادي، والذي قرّر الغاء الدعاء والصلاة؛ بدعوى ان المسيح يعلم جيداً كل ما يطلبه الناس، فلا داعي للتوجه إليه بأي دعاء. لكن معلوماتنا عن هذا المذهب

ضئيلة جداً، حتى ان البعض يشكك في وجوده.

٢ ـ أمّا المذهب الذي لا شك في وجوده وانتشاره في عصره فهو مذهب «الوحدانية» أو «واحدية المبدأ» Monarchianisme وهو المذهب الذي أراد انقاذ وحدة الألوهية فأنكر التثليث، بأن جعل من الابن والروح القدس مجرد أحوال للآب. وقد بدأ هذا المذهب في روما عند نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي. ثم جاء سابليوس Sabellus وهو لاهوتي ليبي من البنطابلس فقعّد قواعده هو وأتباعه من بعده. وخلاصة مذهبهم، كما عرضه القديس إيپيفامس («في الهرطقات»، P.G جـ ٤١ عمود ١٠٥٢ ـ ١٠٦١) هو: «الله، واحد بسيط غير متجزىء، وأقنوم واحد: ويسمّى «الآب ـ الابن». لكنه من حيث يخلق العالم فإنّه يسمّى: «الكلمة». والكلمة هي الله، هي الآب ـ الابن متجلياً في الخلق. وهذا التجلي يستمر بالطبع طالما وجد العالم ويجعل صفة الكلمة دائمة في الله. وللعالم مخلوقاً على هذا النحو ينكشف الواحد، في «العهد القديم» بوصفه المشرِّع: إنّه «الأب»؛ وفي «العهد الجديد» بوصفه المخلص بواسطة التجسّد: إنه «الابن»؛ وبوصفه يقدّر النفوس فإنّه: الروح القدس. إن هذه الأحوال الثلاث للواحد لا تكوّن ثلاثة أقانيم (أشخاص) متميزة: إنّما هي فقط ثلاثة أوجه، ثلاث قُوى، ثلاثة أحوال. إنّها بمثابة ثلاثة أسماء لموجود واحد».

وهذه الأحوال المتجلية في الله هي في جوهرها أحوال عارضة وقتية، لا تبقى إلا من حيث هي تفعل: فالآب يتوقف عن ان يكون اباً منذ ان ظهر الابن؛ والابن لا يعود موجوداً حالما تتجلى الروح القدس. إنَّ في الوحدة الإلاهية حركة مزدوجة: حركة امتداد، وحركة انكماش.

وبفضل هذا المذهب أمكن أصحابه من دفع الاعتراض الخاص بكيف يتألم الله على الصليب، لأن التألم هنا إنما جرى ليسوع المسيح الانسان وحده. وكذلك تمكنوا من حل مشكلة الترتيب بين الأقانيم الثلاثة، لأنّهم جميعاً مجرد أحوال للواحد، فلا محل لتفضيل أحد الأقانيم على الآخر أو للقول بصدوره عنه.

ـ قد أدى هذا المذهب إلى وقوع مجادلات بين بطريرك الاسكندرية، ديونسيوس وبين أنصار مذهب سابليوس هذا في البنطابلس. إذ تولّى الردّ على أتباع سابليوس في رسالة بعنوان: «برهان ودفاع».

وقد انتشرت المسيحية في البنطابلس (اقليم برقة) في القرن الثاني الميلادي. أمّا في غربي ليبيا (اقليم طرابلس واقليم فزان) فلم تنتشر المسيحية إلاّ عند نهاية

القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلادي. ونحن نعلم ان يوسنيان (امبراطور سنة ٥٢٧ ـ ٥٦٥) قد أغلق معبد أمون الذي كان في أوجله وبنى كنيسة كرّسها لاسم السيدة مريم. وفي جنوبي لِبْدة تنصرت قبيلة Gadabitanie. وفي عهد يوستينوس الثاني (٥٦٥ ـ ٥٧٨) طلب الجرمنتيون في فزّان من هذا الامبراطور ان يرسل اليهم بعثة تبشيرية. وحين مجيء (الفتح العربي في سنة ٦٤٢م كان الكثير من القبائل البربرية في غربي ليبيا قد اعتنق المسيحية (راجع هولم Holme: «زوال الكنيسة المسيحية في شمال افريقية»، لندن سنة ١٧٩٨).

لكن الأخبار عن الكنيسة المسيحية في البنطابلس شحيحة للغاية، ومعظم ما لدينا منها أسطوري. من ذلك ان سجل الشهداء البابوي يزعم ان اول أسقف لقورنيا كان هو القديس لوكيوس Luciuc، وقد استشهد؛ وفي أيام ديوكلسيان (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) استشهد ـ فيما زعموا ـ أسقف آخر على قورنيا يدعى ثيودورس (عيده في ٤ يوليو). ـ وفي الرسالة رقم ٦٧ يتحدّث سونسيوس عن أسقفين لقورنيا وكلاهما اسمه فيلون، وأحدهما عم للآخر. وفي عهد البطريرك يولوج Euloge (٥٨٠ ـ ٦٠٧م) كان الأسقف على قورنيا يدعى ليونس Léonce.

ولم يرد في سفر «أعمال الرسل» (من «العهد الجديد») خبر عن الدعوة إلى المسيحية في قورنيا. لكن ورد فيه (أصحاح ١١: ٢٠) ذكر لنصارى من قورنيا. لكن الأغلب على الظن هو انهم قورنيائيون يهود، كانوا في أورشليم وهناك، أي في أورشليم اعتنقوا المسيحية. وقد كان للقورنيائيين «سيناجوج» (كنيس يهودي) في أورشليم، واشترك بعض رجالهم في المناقشة مع القديس اسطفان واشتركوا مع غيرهم في اتهامه امام السنهدران اليهودي فأصدر حكماً برجمه، وكان أول الشهداء المسيحيين. (راجع «أعمال الرسل» ٦:٩). ولما مضى المسيح في طريقه ليصلب طلب اليهود من شخص قورنيائي الأصل ان يحمل الصليب، وكان يدعى شمعون القورنيائي (متى ٢٧: ٣٢؛ مرقص ١٥: ٢١؛ لوقا ٢٣: ٢٦).

الفتح العربي الإسلامي

وبقيت برقة على الدين المسيحي حتى جاء الفتح الاسلامي. فقد قام عمرو بن العاص، والي مصر، بإرسال حملتين إلى برقة في سنة ٢٢ هـ (٦٤٢ ـ ٦٤٣م). ومن ثم صارت برقة معبراً للفتوح الاسلامية في المغرب، وممرًّا للتجارة بين مصر وسائر بلاد المغرب الاسلامي، وذلك بواسطة طرق تجارية تمرّ إمّا من مسالك في

الجبل الأخضر، أي في شمال برقة، أو من مسالك في الجنوب تمرّ بالواحات، مثل واحة أوجله.

وصار مصير برقة مرتبطاً بمَن يحكم في مصر: الأمويون، ثم العباسيون، ثم الفاطميون، ثم الأيوبيون، ثم المماليك، ثم الأتراك العثمانيون لما ان استولوا على مصر في سنة ١٥١٧م. وصارت تحت السلطة الاسمية، لا الفعلية، لولاة طرابلس الأتراك، ومن بعدهم لأسرة القره مانلي من سنة ١٧١١ حتى سنة ١٨٣٥. ومن ذلك العام صارت تحت السيطرة الفعلية للطريقة السنوسية، حتى غزاها الايطاليون في سنة ١٩١١.

وكانت القبائل التي تقيم في برقة تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين هما: المرابطون، والسّعادي. والمرابطون يشملون مجموعتين هما: البراغيث في الغرب، وأهم القبائل التي تندرج فيهم هي: المغاربة عند خليج السرت الشرقي، والعرفاء، والعبيد (في بلدة المرج)، والحرابي ويشملون: المر رسا على الشاطىء، والحاسا (في شحّات ـ قورنيا)، وعيلة فائض والبراعصه في وسط الجبل الأخضر (حول البيضاء)، والعبيدات على الهضبة التي في جنوب درنة وفي خليج بُمْبه. وهذه القبائل كلها ترجع إلى أصل بربري. ـ أمّا السّعادي فيزعمون أنّهم من أصول عربية صميمة، ويشملون قبائل: الفواشر، والعواجير، في الجنوب الغربي، وقبائل صغيرة في اقليم السلّوم وفي اقليم أوجله وجالو في جنوب غربي برقة.

ولا نعلم من المصادر التاريخية متى تحولت برقة من المسيحية والوثنية إلى الاسلام تماماً. لكننا لا نعثر على أي اثر للمسيحية والوثنية في بداية القرن الثامن الميلادي، لا في المصادر الاسلامية ولا في المصادر المسيحية. وليس لدينا أيضاً أي خبر عن ارتداد أهلها عن الإسلام، كما فعل البربر في سائر بلاد المغرب اذ ارتدوا ـ بحسب قول ابن خلدون ـ عن الاسلام تسع عشرة مرة.

أهل العلم في طرابلس وبرقة

لكن على رغم هذا التاريخ الطويل لليبيا في الاسلام، فإنَّ أهل العلم فيها طوال ثلاثة عشر قرناً قلة ضئيلة للغاية، لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة، وهم:

أ ـ أبو العباس أحمد بن أبي عثمان سعيد بن عبد الواحد الشمّاخي اليفرتي العامري، المتوفى في جمادى الأولى سنة ٩٢٨ هـ/ ابريل سنة ١٥٢٢م في جبل نفوسة. وهو إباضي.

وله من المؤلفات: (١) «كتاب السِّيَر»، وهو استخلاص وتكملة لكتاب «السير» لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني (المتوفى سنة ٤٧١ هـ/ ١٠٧٨م) وهو في تاريخ الأئمة الإباضية في مزاب (الجزائر)، ولكتاب «الطبقات» لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني (الذي كان يكتب بعد سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م)، وعنوانه الكامل: «طبقات المشايخ» ويشمل تاريخ الأئمة الرستميين وشيوخ الإباضة حتى القرن السابع الهجري. وطبع حجر في القاهرة.

(٢) «مقدمة التوحيد وشروطها الثلاثين»، وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ.

(٣) «سرد الحُجَّة على أهل الغفلة»، ومنه نسخة في مكتبة الاسكندرية (برقم ١٣٠٩).

ب ـ محمد بن خليل غلبون الأزهري، المتوفى سنة ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٩م).

وله كتاب مشهور في تاريخ طرابلس الغرب بعنوان: «التذكرة فيمن مَلَك طرابلس وما كان بها من الأخبار»، وهو شرح تاريخي على قصيدة في مدح طرابلس نظمها أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، ويشتمل هذا الشرح على تاريخ طرابلس الغرب منذ الفتح الاسلامي حتى منتصف القرن الثاني عشر الهجري. ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الوطنية بباريس (تحت رقم ١٨٨٩[١])، وأخرى في مكتبة بايزيد باستانبول. وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٤٩ بحسب مخطوط باريس، وترجمه إلى الايطالية وعلق عليه التوري روسي Eltori Rossi (بولونيا سنة ١٩٣٦). وله ترجمة إلى اللغة التركية مع إكمال يصل إلى سنة ١٢٧٧ هـ/ ١٨٧٠م قام بها محمد بن مصطفى عاشر أفندي، وطبعت هذه الترجمة التركية في استانبول سنة ١٢٨٤ هـ.

جـ ـ أحمد بن علي الصَّخري الأندلسي الطرابلسي الغرب، وكان يكتب في سنة ٩٧١ هـ/ ١٥٦٣م. وله كتاب بعنوان: «النَّشم المُذَهَّب العزيز في الجمع بين «المِلاك» و«الوجيز»». وهو تفسير للقرآن جمع فيه بين كتاب «ملاك التأويل القاطع لذوي الاكاد (؟) والتعطيل في توجيه المتشابه من آي القرآن» لأبي العباس أحمد بن ابرهيم الزبير الثقفي الغرناطي (وُلِدَ في غرناطة سنة ٦٢٧ هـ/ ١٣٣٠، وتوفي في ٢ ربيع الأول سنة ٧٠٨ هـ/ ٢١ ـ ٨ ـ ١٣٠٨م)، وبين كتاب «الوجيز» لأحمد بن أحمد المقدسي. ومنه نسخة في مكتبة الاسكوريال (الفهرس الثاني برقم ١٣٧٣).

د ـ أبو اسحق ابرهيم بن اسماعيل بن أحمد بن عبدالله الطرابلسي اللغوي المغربي الافريقي، المعروف باسم: ابن الأجدابي، المتوفى قبل سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣م. وقد ذكره ياقوت الحموي في «ارشاد الأديب» (١: ٤٧) والسيوطي في «بغية الوعاة» (ص ١٧٨).

وله كتاب «كفاية المتحفّظ ونهاية المتلفّظ في اللغة العربية»، وهو كتاب في المترادفات، والألفاظ بحسب الأبواب والموضوعات. وقد طبع في القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ، و١٣١٣ هـ. وقد نظمه محمد بن أحمد بن عبدالله الطبري جمال الدين، المتوفى سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٤٤م تحت عنوان: «عُمدة المتلفظ»، ومنه نسخ في ڤيينا (رقم ٨٨)، وبروسا (برقم ١٠١)، وبرلين (بحجم الثمن ٩٧٤ [٧]) وغيرها.

ولقبه: «ابن الأجدابي» يدل على أنَّ أباه (أو من علا من الأجداد) ينتسب إلى مدينة أجدابية التي تقع على الساحل الشرقي لخليج السرت في اقليم برقة الجنوبية الغربية.



أولئك اذن هم كل أهل العلم الذين عرفتهم ليبيا منذ الفتح الاسلامي سنة ٦٤٢م حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي! ويعجب المرء لهذا الفقر المدقع في الفكر والتحصيل العلمي في بلاد تبلغ مساحتها مساحة مصر مرتين، ومساحة اسبانيا الاسلامية ست مرات ومساحة تونس ١٠ مرات، ومساحة العراق ٤ مرات ومساحة سوريا ١٠ مرات، ومساحة المغرب الأقصى (مراكش) ٤ مرات، وكل واحدة من هذه الدول قد أنجبت المئات المتفاوتة العدد، بل الآلاف (مصر) منذ الفتح الاسلامي لها حتى نهاية القرن الماضي. فما السبب في هذا العقم البالغ المنقطع النظير الذي أصاب ليبيا على طول هذه القرون الثلاثة عشر؟

لو قيل: قلة عدد السكان، لكان ذلك تفسيراً غير صحيح، لأنَّ برقة وحدها في العهد اليوناني أنجبت ـ كما رأينا ـ علماء وشعراء وفلاسفة بارزين في مدة مقدارها ثلاثة قرون فقط، أي من القرن الخامس حتى القرن الثاني قبل الميلاد.

ولو قيل: العزلة، فهذا غير صحيح مطلقاً، بل الأمر بالعكس تماماً: كانت برقة وطرابلس كما قلنا ممرًا ضرورياً بين مصر وسائر بلاد المغرب، وكان العلماء القاصدون للحج من مراكش والجزائر (بالمفهوم الحالي) وتونس يمرّون بالضرورة بليبيا. ولو كانوا قد وجدوا في ليبيا مناخاً ملائماً لأهل العلم لاستقر المقام

ببعضهم فيها أثناء عودتهم من الحج كما فعل الكثيرون من الحجاج المغاربة بالاستقرار في مصر أو تونس أو الجزائر.

ثم إنَّ سكان ليبيا طوال هذه القرون الثلاثة عشر لم يكونوا مجرد رعاة منتشرين في البوادي، بل كان الكثير منهم تجاراً نشطين ماكرين في التجارة، كما يروي شواهد على ذلك عديدة أبو عبيد البكري (المتوفى في شوّال سنة ٤٨٧ هـ/ اكتوبر ـ نوفمبر سنة ١٠٩٤م) في كتابه الجغرافي العظيم: «الممالك والمسالك» (القسم الخاص بشمال افريقية، نشره وترجمه ماك جوكين دي سلان Mac Guckin de Slane، النص العربي في الجزائر سنة ١٨٥٧م؛ والترجمة الفرنسية في «المجلة الآسيوية» J.A سنة ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨) ط ٢، الجزائر سنة ١٩١٠). ومن طريق ما يذكره للدلالة على مكر التجار الليبيين انهم كانوا اذا علموا بمقدم سفينة من تونس محملة بجرار زيت الزيتون كانوا يضعون أمام متاجرهم جرار زيتون قديم مملوءة ماءً ومختومة، مدّعين أنهم ليسوا في حاجة إلى شراء المزيد من جرار الزيتون، فيضطر المورّد التونسي بعد أيام من اقامته في الميناء (سرت خصوصاً) ان يبيع جرار الزيتون التي أتى بها بأبخس الأثمان حتى لا يعود بها من حيث جاء. ثم إنَّ طرق القوافل القادمة من المغرب إلى مصر أو من مصر إلى المغرب كانت تحتاج إلى التزوّد بالمؤن في أثناء الطريق الطويلة بين الناحيتين، وكان التجار الليبيون هم الذين يكسبون من هذا التزوّد.

وإن قيل رابعاً إنَّ هذا العقم يرجع إلى التكوين العنصري لسكان ليبيا، فإنَّ من الممكن الرد على ذلك بأنَّ القبائل البربرية في ليبيا، وهم غالبية سكانها، هي من نفس عناصر القبائل البربرية في جنوبي تونس وفي المغرب الأقصى.

لا تفسير إذن لهذا العقم الفكري الذي أصاب ليبيا طوال تاريخها منذ الفتح الاسلامي، وتلك عجيبة من عجائب هذا البلد، وقد صدق أرسطو حين قال: «ليبيا تأتي دائماً بالعجائب»!

الأحوال العلمية في العصر الحاضر

ولما وصلنا إلى ليبيا في سبتمبر سنة ١٩٦٧ وأخذنا في تقرّي أحوالها العلمية في القرن العشرين، وجدنا أنَّ الحال هي الحال التي أتينا على وصفها: عقم تام في العلم والأدب.

أمَّا في الأدب فكان الاسم الذي يتردّد بالزهو والافتخار هو اسم الشاعر أحمد رفيق المهدوي. وكان قد توفي (١٨٩٨ ـ ١٩٦١) منذ وقت قصير، وكان اسمه يطلق على المدرج الكبير في كلية الآداب، وهو القاعة الوحيدة الصالحة لإلقاء المحاضرات العامة في الجامعة الليبية في بنغازي. فأقبلت على قراءة ديوان شعره (طبعة ١٩٥٩) كيما أعرف قيمة شعره. وإذا بي لا أجد فيه إلاَّ قصائد ركيكة النسج، مبتذلة العبارة، تافهة المعاني. إنَّه شاعر في الطبقة الدنيا من الشعر. فواعجبا كيف أشادوا به ومجّدوه حتى كان بعضهم يقول عنه إنَّه «أحمد شوقي ليبيا»! وهذا امتهان لاسم أحمد شوقي لم يعرف مثله في أيّ مكان. قد يقال: إنَّ القوم لا يعرفون شيئاً عن أحمد شوقي غير انه «أمير الشعراء»، وأحمد رفيق هذا أمير شعرائهم، فهو إذن أحمد شوقيهم! لكن هذا القول غير مقبول، لأنَّ قصيدة أحمد شوقي في رثاء المجاهد الشهيد العظيم: عمر المختار ـ منقوشة على جدار ضريح عمر المختار في بنغازي، وهي من أروع قصائد شوقي وأحسنها سبكاً وأحفلها بالعاطفة الجياشة والوجدان المشارك. فكيف يمكن، وغالبية سكان بنغازي زاروا الضريح عدة مرات، ان يقارنوا بين هذا الشعر الرفيع في هذه المرثاة، وبين الاسفاف الشعري في قصائد احمد رفيق؟! ولربما كان لمكانة رفيق السياسية دور في المبالغة في تقدير شعره.

فانصرفت عن شعر أحمد رفيق إلى ديوان شاعر آخر يدعى الشارف، فوجدته يذكّرني بنظم مدرسي الأزهر في المعاهد الدينية.

وكانت جريدة «الحقيقة» وهي جريدة يومية تصدر في بنغازي، تنشر بين الحين والحين قصائد: بعضها لشعراء في سن الكهولة مثل عبد ربه الغناي، وصدقي، والبعض الآخر لشعراء في أواخر سن الشباب مثل علي الفزاني. وشعر الأوّلين تقليدي مبتذل، وشعر الآخرين يحاول التجديد ويخرج عن عمود الشعر في النظم، وربما تحرّر من القوافي وعدد الأوزان في القصيدة الواحدة، وكانوا متأثرين خصوصاً بحركة الشعر الحرّ في لبنان، لكن مستواهم في الشعر كان أدنى بكثير من نظرائهم ونماذجهم في لبنان. لكن كان فيهم مَن التزم بعمود الشعر مثل راشد الزبير السنوسي.

هذا في فن الشعر. أمَّا في فن القصّة فقد كانت هناك محاولات قصصية، كلها أقاصيص قصيرة، وتنسج تقريباً كلها على منوال واحد، وتفتقر إلى الخيال وإلى وضوح الشخصيات، وبالجملة فإنَّ مستواها الفني أدنى كثيراً من مستوى الشعر على ما في الشعر من ابتذال وتفاهة وإسفاف.



أمَّا في العلوم الدينية والانسانية، الاسلامية والمدنية، فقد خلت ليبيا تماماً من كل مشتغل بها. فمَن درسوا في الأزهر عادوا لا يعرفون إلاَّ المتون البسيطة التي استظهروها في النحو والفقه المالكي. وغير رجال الدين، أعني المدنيين الذين تعلموا في الجامعات المصرية او البريطانية او الأمريكية عادوا فصرفوا كل همهم في تحصيل الوظائف الادارية، وانصرفوا عن الانتاج العلمي انصرافاً تاماً.

«الشخصية الليبية»

ولما عيّن المحامي عبد الحميد البكوش ـ وكان شاباً في منتصف الثلاثين من عمره ـ رئيساً للوزراء في ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٦٧ بعد استقالة وزارة عبد القادر البدري، الذي كان قد تولّى رئاسة الوزارة في اول يوليو سنة ١٩٦٧ خلفاً لحسين مازق ـ أخذ يروّج لما سمّاه «الشخصية الليبية»، أي ان لليبيا شخصية خاصة تنفرد بها عن سائر الدول العربية. فراح الدعاة في الصحف والاذاعة يروّجون لهذه الفكرة، ويحاولون ان يستخلصوا من تاريخ ليبيا ما يدعم هذه الدعوة. ولما لم يجدوا شيئاً يؤيدها في تاريخ ليبيا منذ الفتح الاسلامي حتى اليوم، راحوا يفتّشون فيما قبل ذلك: في فترة الحكم البيزنطي والروماني، صاعدين منها إلى العصر اليوناني، ومنه إلى الأسرة الثانية والعشرين في حكم مصر، وهي الأسرة التي

أسَّسها زعيم ليبي الأصل، يدعى شيشونك، كان قد قام بانقلاب في القصر وتولّى عرش مصر في سنة ٩٤٥ ق.م. ذلك انه اثناء حكم الأسرة العشرين في مصر (من سنة ١٢٠٠ إلى سنة ١٠٨٤ ق.م) استقر عدد كبير من الأسرى الليبيين من قبيلة مشوش في مستعمرات حربية في مصر. وكان رئيس المستعمرة الحربية في بوبسطين (تل بسطة في محافظة الشرقية) عند نهاية الأسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ ـ ٩٤٥ ق.م) يدعى شيشونك (ورد اسمه في الكتاب المقدس تحت اسم: شيشك). وقد استطاع ان يحصل على امتيازات خاصة من الملك پسوسنس الثاني واستنطق وحي آمون نفسه والأسرة الليبية وخصوصاً للجيش الذي يتولّى إمرته من قِبَل الملك پسوسنس. فقام شيشونك بانقلاب عسكري ضد وليّ نعمته هذا، واستولى على العرش، وأسَّس ما يُعرف بالأسرة الثانية والعشرين وعاصمتها بوبسطيس، وذلك في سنة ٩٤٥ ق.م، واستمرت هذه الأسرة حتى سنة ٧٣٠ ق.م تقريباً. ولتوطيد عرشه المغتصب هذا أنشأ حاميات تحت قيادات ليبية من بني جنسه كانت مهمتها إخماد كل تمرد أو ثورة. وعن طريق الارتباط بالزيجات السياسية استطاع شيشونك وأخلافه ضمان تأييد أُسَر الكهنة في طيبة (في الصعيد الأعلى). وتزوّج ابن شيشونك، ويدعى أوسوركون، من بنت الملك پسونّس الثاني، وصار ابنهما الكاهن الأكبر في الكرنك. وصار ملوك هذه الأسرة الثانية والعشرين يعيّنون أبناءهم كهنة كباراً في طيبة. فأدّى هذا الوضع إلى قيام حروب أهلية ضد حكم الأسرة الثانية والعشرين، خصوصاً في عهد حكم تكلوت الثاني.

وبعد وفاة الملك سليمان (حوالى سنة ٩٣١ ق.م)، ملك اليهود، بخمس سنوات غزا شيشونك الأول فلسطين ونهب أورشليم، وحمل غنائم استعان بها في توسيع معبد آمون. وكان الليبيون الذين استقروا بمصر قد اعتنقوا عبادة آمون.

ونتيجة لتلك الحرب الأهلية قامت في طيبة أُسرة حاكمة حوالى سنة ٨١٧، واستمرت حتى سنة ٧٣٠ ق.م، أي ان مصر كانت تحكمها أُسرتان: أُسرة شيشونك في الوجه البحري، والأسرة الثالثة والعشرون في الوجه القبلي وعاصمتها طيبة. ومعنى هذا هو ان أُسرة شيشونك الليبية لم تحكم مصر بوجهها البحري والقبلي إلاّ اثنتين وسبعين سنة فقط. وكان حكماً مغتصباً لم يعترف به أحد في مصر لأنه كان يقوم على أساس انقلاب غادر قام به قائد عسكري اجنبي اؤتمن على قيادة الجيش، فخان الأمانة واستولى على السلطة وعيّن قواداً من بني جنسه على حاميات (ميلشيات، بلغة عصرنا الحاضر) كوّنها لحماية عرشه.

ورغم تفاهة هذا الحادث العابر راح دعاة «الشخصية الليبية» في الاذاعة

والصحافة ـ وكلهم ناشئة قليلو البضاعة من العلم بالتاريخ ـ ينفخون فيه كل مساء ما بين الساعة الثامنة والثامنة والنصف مساء في الاذاعة، ويصوّرونه كما لو كان أمراً ذا شأن عظيم وفتحاً من الفتوحات الكبرى في التاريخ!! وقد استمر استغلال هذا الحادث التافه حتى يوم الناس هذا في ليبيا!

ولو كان استيلاء شيشونك الأول على عرش مصر نتيجة غزو عسكري قام به على رأس جيش جاء من ليبيا، لكان للحادث شيء من الشأن. لكنه استولى على العرش بانقلاب داخلي خالص قام به بوصفه قائداً لفرقة عسكرية هي احدى فرق جيش الملك الذي عيّنه في هذا المنصب. أي ان استيلاءه على العرش هو من نوع الانقلابات العسكرية التي نشاهدها في هذا العصر في دول العالم الثالث: في افريقية، وآسيا، وأمريكا اللاتينية: انقلاب عسكري خالص يقوم به ضابط في الجيش ضد النظام القائم. ويستوي في هذا أن لا يكون القائم بالانقلاب من أهل البلاد الأصليين أو من أصل أجنبي طارىء على البلاد: فلا يجوز أبداً ان كان من اصل أجنبي ان يزهي بذلك وطنه الأصلي، لأنّه لم يستول على الحكم بهذه الصفة، بل من حيث انه ضابط في الجيش الوطني. فمثلاً اشترك تشي جيفارا Che Jivara مع فيدل كاسترو في القيام بانقلاب في كوبا، وتشي جيفارا هو من الأرجنتين؛ ومع ذلك لم نسمع ابداً بأنه خطر على بال أي أرجنتيني ان يدَّعي ان الانقلاب الذي جرى في كوبا في اوائل سنة ١٩٥٩ كان فتحاً من فتوحات الأرجنتين او انتصاراً لأهلها بأي معنى من المعاني. لكن الحماقة في بعض البلدان العربية لا تعرف أي حد من الحدود ولو كان في غاية اللامعقول.



ويلوح ان عبد الحميد البكوش ـ وهو من أصل تونسي. إنّما دعا بهذه الدعوى اقتداءً بالحبيب بورقيبة الذي راح يعلن ان تونس الحقيقية هي تونس الفينيقية، وان أسلافه ليسوا الأغالبة او الحفصيين، بل هنيبعل (هانيبال) ويوغرطه (يوجورتا) اللذين أقاما دعائم دولة قرطاجة التي دوّخت الرومان وأقامت المستعمرات في اسپانيا وعلى سواحل القسم الغربي من البحر المتوسط بعد ان أقام أسلافهم الأوائل من الفينيقيين دولة ارواد وصيدا وصور وجبيل.

بيد ان دعوى بورقيبة تحظى بسند من التاريخ، أما دعوى الشخصية الليبية فهاوية متهافتة ليس لها أي سند من التاريخ.

العطلات الشتوية في روما

ولما كانت روما قريبة المسافة من بنغازي، فقد قررت ان أقضي عطلات الشتاء في المدينة الخالدة، روما، وكنت قد انقطعت عن زيارتها منذ صيف ١٩٥٤.

ولا تسل عن مشاعري حين عدت إليها في أوائل يناير سنة ١٩٦٨: عُدْتُ بذكرياتي إلى يونيو ١٩٣٧ حينما زرتها لأول مرة. وبدأت هذه الجولة الجديدة من ميدان ڤينتسيا Piazza Venezzia وتطلعت الى شرفة القصر العتيق التي كان منها موسّوليني يهز مشاعر الايطاليين ويجلجل بعباراته الرّنانة فتدوّي أصداؤها في العالم كله. ورحت أذرع شارع الأسواق الامبراطورية:

هنا كان قلب روما الديني ومركزها التجاري، ومحورها السياسي والاجتماعي، حيث أُقيمت المعابد، والبازليكات، والكورياث Curiac والخيام. وكانت أول سوق قد أُنشئت في القرن السادس قبل الميلاد، ثم وسّعها يوليوس قيصر في القرن الأول قبل الميلاد، واتسعت جداً في عهد الامبراطورية. ولا نزال نجد حتى اليوم بقايا بازليكا اميليا Emilia (بنيت سنة ١٧٩ ق.م.)، وكوريا قيصر، وكوريا ديوكلسيان، وقوس سپتيموس سوبرس Septimos Severus (الذي وُلِدَ في مدينة لبدة باقليم طرابلس في ليبيا سنة ١٤٦، وتوفّي في اپوراكوم Eburacum [يورك York في انجلترة الآن] في سنة ٢١١م)، وبعض أعمدة وقواعد من معبد زحل حيث كانت الخزانة، وبازليكا جوليا، ومعبد فوكاس (سنة ٦٠٨م) ومعبد يوليوس مع قوس النصر. وصوب الجنوب نجد بقايا معبد كاستور وپوكاس (٤٨٤ ق.م)، ومكتبة معبد أوغسطس التي تحولت في القرن السادس الميلادي الى كنيسة السيدة مريم القديمة (في القرن السادس الميلادي). ومعبد الڤستابت، ومعبد انطونينوس وفاوستينا، الذي حُوّل في القرن الحادي عشر إلى كنيسة باسم القديس لورنتيوس في ميراندا. ثم تتجلى بازليكا قنسطنطين الضخمة.

ثم صعدت في تل البلاتينو Palatino، حيث معبد الكبيلس Cabbiles وبيت ليڤيا Livia زوجة الامبراطور اوغسطس وفيه رسوم جدرانية بديعة، وقصر آل فلافيوس، وبيت الامبراطور أوغسطس، واستاد دومطيانوس.

وقد شارك في اقامة الأسواق الرومانية: يوليوس قيصر (١٠١ ـ ٤٤ ق.م) وأوغسطس (اوكتاڤيالوس أوغسطس ٦٣ ق.م ـ ١٤م) وڤسپازيانوس (١٩ ـ ٧٩م) Vespasianus، ودومطيانوس Domitianus (٥١ م ـ ٩٦م) ابن ڤسپازيانوس، وطريانوس (تراجان Trajanus (٥٣م ـ ١١٧م). وفي سوق طريانوس ينهض عموده شامخاً مغطّى بالنقوش التي تروي انتصاره على اهل اقليم رافيا (شرقي جبال الكرپات، ويسمى الآن مولرافيا ـ ڤلاشيا)، وارتفاع هذا العمود اثنان وأربعون متراً. والمعماري الذي بناه يدعى أپولودورس الدمشقي (حوالى سنة ٦٠ ـ ١٢٥م) الذي اخترع اسلوباً جديداً في بناء الأعمدة هو العمود الضخم ذو الافريز الذي يتلوى حلزونياً على طول العمود؛ راوياً كل أخبار الحروب والانتصارات التي ظفر بها طريانوس. إنّه يروي الحربين اللتين وقعتا بين عامي ١٠١ و١٠٦م وبموجبهما تحولت مملكة راقيا القوية الى ولاية خاضعة لامبراطور روما، وراقيا تشمل ما يقارب رومانيا الحالية.

وفي هذه النقوش التي شبّهها ڤيكوف Wukoff بأنها «تحجير» (أي تعبير بالحجر) هائل للفافة من ورق البردى ملفوفة حول عصا ـ نجد تصويراً لغابات الكرپات، ولروعة مجرى نهر الدانوب، ولخنزير برّي يجتاز النهر، كما نشاهد مدن الدانوب، وزحف جيوش روما، وخطاب طوريانوس في الجنود، والقرابين التي كانت تقدّم، والمعارك التي حمي وطيسها، والمطارات، وأعمال النهب، واقامة الحصار حول القلاع والمدن. وكل لوحة من هذه اللوحات حافلة بالذكريات. وكل الرجال المنحوتين أقوياء الأجسام، وعلى النساء ملامح النبالة. وثم مناظر فاجعة أليمة مثل منظر النساء الداقياويات وهن يعذّبن أسيراً رومانياً بإحراقه بالمشاعل.

كانت السوق، أو الفورم Forum في البدء مجرد سوق تجارية تحيط بها المحلات. وفي القرن الثاني قبل الميلاد أضيفت إليها بازليكات، أي معابد كبيرة للآلهة. وكانت هذه المعابد تشكّل مجموعتين على سفوح رابية الكاپيتول وتل البالاتينو:

والمجموعة الأولى كانت تشمل معابد زحل Saturne، وڤولكان، والوفاق Concordia، والآلهة الموافقين Dei Consentes. والمجموعة الثانية كانت تتألف

من معبد دائري للڤستا Vesta ومساكن يقيم فيها الكهنة المختصون بالڤستا، ثم معابد الديوسقور، ويوتورن Juturne، واللارات Lares، ومعبد المشتري Jupiter وفي أماكن عديدة من السوق كانت توجد آبار، ومغارات وأشجار وأعمدة. ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد أقيمت تماثيل في، أو إلى جوار، هذه المعابد: من أقدمها تماثيل فوثاغورس، الفيلسوف الإباضي الشهير والقبيادس Alcibiade الذي تقرر، بناء على وحي دلف في سنة ٣٤٣، تكريمه بوصفه أعظم اليونانيين حكمة وشجاعة.

أمّا البازليكا Basilica ـ ومعناها الحرفي: المَلَكِيَّة ـ فلا يُعْرَف هل اشتق اسمها من «بوابة المَلِك»، القريبة من أجورا (= سوق) أثينا، او انها كانت تدل على جزء من القصور الهلينستية. وأقدم بازليكا في روما هي تلك التي أقامها كاتون Caton القنصر ـ في سنة ١٨٤ ق.م عند أسفل رابية الكاپيتول (في وسط روما). وقد احترقت في سنة ٥٢ ق.م أثناء الاضطرابات التي عقبت موت كلوديوس.

وأقام يوليوس قيصر بازليكا على الجانب الآخر من الفورم، بين معبد زحل ومعبد الديوسقوريين، وسميت باسمه Basilica Iolia. وقد احترقت تماماً ولم يبق منها اليوم إلاَّ الأساس.

وكانت البازليكا في الأصل مخصصة للقضاء، أي كانت مقراً للعدالة، أي محكمة. وكان القاضي يجلس على منصّة وسط مساعديه Assesseurs.

وبعد ذلك أُقيمت إلى جانب هذه البازليكات القضائية بازليكات اقتصادية مهمتها إمّا تحصيل الضرائب، أو توزيع الهبات والمنح والمساعدات.

وكما نجد الآن صور الملوك او رؤساء الجمهوريات في قاعات المحاكم، كذلك كان في كل بازليكا تمثال للامبراطور الحاكم.. وكان يوضع في المحراب الذي يجلس فيه القاضي، منذ ان خصص محراب لجلوس القاضي.

بيد ان أضخم بازليكا لا تزال قائمة وشامخة في الفورم هي بازليكا ماكسنتيوس Maxentuis الذي كان امبراطوراً رومانياً ما بين سنة ٣٠٦ وسنة ٣١٢م وقد انتصر عليه قنسطنطين عند جسر ملڤيوس Milvuis (في ٢٨ اكتوبر سنة ٣١٢) فقُتل في هذه المعركة. ان الممرّ الأوسط في هذه البازليكا طوله ٨٠م وعرضه ٢٥م، وكانت تغطيه ثلاثة أقبية يرتفع كل منها ٣٥م، ويستند إلى ٨ أعمدة. وفي المشروع الذي وضعه ماكسنتيوس كان المدخل الرئيسي في مواجهة معبد ڤينوس.

فجاء قنسطنطين وأتم بناء البازليكا لكن عدّل في اتجاهها إذ جعل الواجهة الرئيسية على الطريق المقدس. ولما كنت في روما لأول مرة في صيف سنة ١٩٣٧ حضرت في هذه البازليكا حفلة موسيقية بقيادة الموسيقار العظيم مسكاني Mascagni (١٨٦٣ ـ ١٩٤٥).

❀ ❀ ❀

هكذا أمضيت من الساعة الثالثة حتى الخامسة في عصر ذلك اليوم الأول من مجيئي إلى روما في يناير سنة ١٩٦٨. وكانت الشمس ترسل أشعتها الناعمة الدافئة على هذه الأطلال فتحيلها إلى أطياف وردية وأرجوانية. واكتفيت بهذا القدر من المشاعر الجياشة بذكريات الماضي العريق. وصعدت في الشارع الوطني Via Nazionale قاصداً مشاهدة الميدان السداسي Piazza esedra وقد تغيّر اسمه إلى «ميدان الجمهورية» كي أتملّى بمشاهدة النافورة العظيمة التي أبدعها برنيني Bernini (١٥٩٨ ـ ١٦٨٠) لكنني وجدتها صامتة لا يندفع منها ماء ولا تعلوها تلك القبة الدافقة الفضّية التي طالما وقفت أمامها مستمتعاً أجمل متعة خصوصاً في ليالي الصيف المقمرة، حيث كانت تبدو في غلالة فضية رقيقة كثياب العروس في جلوتها يوم الزفاف. فلما سألت عن سرّ صمت هذه النافورة الرائعة، أخبروني انه من اجل الاقتصاد في الطاقة ولهذا لم تعد تتدفق الاّ في مساء السبت وفي الأعياد!!

فانكفأت يمنة انظر فيما تعرضه صناديق الكتب القائمة في صفين متوازين في القوس الأيمن القريب من محطة السكك الحديدية. فتعزيت عن مشاهدة النافورة بالتطلع في هذه الكتب العديدة المعروضة في تلك الصناديق. ولما كانت الكتب المعروضة هي في غالبيتها طبعات من الكتب الكلاسيكية في الأدب والتاريخ والفن، فإنّي لم أجد فيها ما يلفت النظر أو يحث على الاقتناء، فانصرفت عنها بعد قليل. وآثرت التعرّف إلى الحي الذي نزلت فيه هذه المرة، وهو الحيّ المجاور لمحطة السكك الحديدية من ناحية ميدان الاستقلال Piazza dell'Independenza، وهو حيّ لم آلفه من قبل، لأنّي كنت قبل سنة ١٩٥٥ أسكن في حيّ الپنتشو Pincio بجوار حديقة البورجيزي: إمّا في شارع ڤنتو Veneto الراقي الشهير حيث كنت أنزل في پنسيون نتشانا Pinciana في سبتمبر واكتوبر من كل عام فيما بين سنة ١٩٤٧ وسنة ١٩٥٤، أمّا في سنة ١٩٣٧ فكنت قد نزلت في شارع اميليا Emilia (رقم ٢٤) الذي يقع خلف شارع ڤنتو.

ذلك أنّني في هذه المرة نزلت في فندق ألپي Hôtel Alpi بشارع كاستلفدردو

رقم ٨٥، وكان يطل على ميدان الاستقلال. ومن ذلك الحين صرت أنزل فيه كلما جئت إلى روما. وقد لاحظت ان شوارع هذا الحيّ مأخوذة من أسماء البلاد التي وقعت فيها المعارك بين القوات الوطنية المناضلة من اجل توحيد ايطاليا ضد قوات البابا الذي كان يسيطر على روما واقليمها» وقد انتهى النضال إلى سيطرة القوات الوطنية على قوات البابا وادماج روما في ايطاليا الموحّدة المستقلة، وذلك في ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠.

١ ـ نفي كاستلفدردو Castelfidardo انتصر ثيالديني Cialdini على القوات البابوية التي كان يقودها القائد الفرنسي لاموريسيير Lamoricière في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٦٠.

٢ ـ والى مدينة (وميناء) جائيتا Jaeta لجأ البابا پيوس التاسع في سنة ١٨٤٨.

٣ ـ وفي قرية مونتبلو Montebllo (في محافظة پاڤيا بشمال ايطاليا) انهزم الجيش النمساوي في ٢٠ مايو سنة ١٨٥٩ أمام الجيش الايطالي المتحالف مع الجيش الفرنسي.

٤ ـ وفي جوئيتو Goito (في محافظة منتوا) انهزم النمساويون أمام الجيش البيمونتي الايطالي في ٣٠ مايو سنة ١٨٤٨.

دولة البابا وانهيارها

وكانت للبابا دولة نواتها مدينة روما منذ ان منحه پيپان القصير، ملك الفرنجة، في سنة ٧٥٤م دوقية في روما اعترافاً بفضل البابا زكريا. ذلك ان زكريا هذا فضّل الاستنجاد بالفرنجة خوفاً من سيطرة اللومبارديين. فلما استولى پيپان Pépin Le bref على كل ايطاليا وَهبَ للبابا حكم روما وكوماكيو Comackio، ورافنا، والمنطقة الواقعة بين جبال «الأپنين والبحر الأدرياتي من تورلي حتى ييزي Jesi، وسينيجليا Sinigallia، وجوبيو Jubbio، وأنكونا Ancona، وفائنتسا Faenza، وإمولا Imola، وبولونيا، وفرّارا.. وجاء من بعده شارلمان فمنح البابا، في ٦ ابريل سنة ٧٧٤، المدن التالية: اسپوليتو Spoleto وبنيڤتو Beneveuto، ولوني Loni، وبرتشيتو Berceto، وپرما Parma، وردجيو اميليا Reggio Emilia، ومنتوڤا Mantova، ومونسلتسه Monselice، وڤنتسيا، واستريا، وتوشا وقورسقة. ثم زادها في سنة ٧٨٧ بمواضع على الضفة اليمنى لليري Liri، مثل سورا، وأرپينو Arpino، وأرتشيه Arce، وأكوينو Aquuno، وتيانو Teano وكپوا Capua.

وانقسمت دولة البابا إلى سبع محافظات هي: (١) محافظة بنڤنتو Benevento ؛

(٢) محافظة كمپانيا الساحلية؛

(٣) محافظة القديس بطرس مضافاً إليها ابروشيات نارني Narni وترني Terni وريِيتي Rieti، وأمليا Amelia وتودي Todi.

(٤) دوقية اسپوليتو Spoleto.

(٥) شواطىء انكونا Marcadi Ancona بما في ذلك نواحي أوربينو Urbuno، ومسّا ترابريا Massa Trabaria وأراضي القديسة أجاتا S. Agata.

(٦) محافظة روما Romagna.

(٧) مدينة بولونيا وكونتنيتها.

وكان يحكم كل محافظة مدير يعيّنه البابا. لكن اختلفت النظم المحلية من محافظة إلى أخرى. كما كثرت الاضطرابات فيها إمّا بتمرد داخلي او بإثارة من الخارج: من جمهورية البندقية، أو من آل ڤسكونتي في ميلانو، او من فيرنتسيه. هذا فضلاً عن ان هذه الدولة البابوية كانت معرضة دائماً لغزوات الأباطرة الألمان والنمساويين والملوك الفرنسيين.

وندع جانباً ها هنا التاريخ الطويل الكثير التقلبات لهذه الدولة البابوية حتى نصل إلى الثورة الفرنسية (١٧٨٩ وما تلاها) وحكومة الادارة، التي راحت تختلق الحوادث من أجل التدخل والاستيلاء على دولة البابا. فبدعوى الانتقام لمصرع هوجو باسڤيل Hugo Bassville دخل نابليون بونابرت مدينة بولونيا، وفرّارا، واستولى على قلعة أنكونا. وعقدت معاهدة تولنتينو Tolentino (في ١٧ فبراير سنة ١٧٩٧) وبموجبها فقد البابا «كل الأراضي المعروفة باسم: مفوضيات بولونيا، وفرّارا، ورومانيا. أي محافظة روما. وواصلت جيوش الجمهورية الفرنسية احتلالها لاقليم الأمبريا وأنكونا حتى يتم دفع جزية ضخمة فرضتها هذه المعاهدة على دولة البابا. وأدّى مصرع اللواء ديفو Duphot في قتال بين الفرنسيين وجيش البابا إلى غزوة فرنسية جديدة، على إثرها أُعلن - في ١٥ فبراير سنة ١٧٩٨ - قيام جمهورية في دولة البابا ونفي هذا الأخير، وكان اسمه پيوس السادس.

فلما تدخلت النمسا وأرغمت الجيش الفرنسي على الانسحاب، احتفظت لنفسها بالمفوضيات السالفة الذكر (بولونيا، وفرّارا، ورومانيا)، بينما احتل ملك

نابلي الأراضي التي تشمل روما وترّانوڤا Terranova (نوفمبر سنة ١٧٩٩).

وبعد ان توّج البابا، پيوس السابع، نابليون امبراطوراً في سنة ١٨٠٥، عاد التوتر بينهما من جديد لرفض البابا الاشتراك في الحصار القارّي. فأصدر الامبراطور نابليون، في ١٧ مايو سنة ١٨٠٩، قراراً بسلب البابا كل أراضي دولة البابا وضمّها إلى الامبراطورية الفرنسية. وأمر بالقبض على البابا في ليلة ٥ إلى ٦ يوليو سنة ١٨٠٩ وارساله إلى ساڤونا ثم إلى فونتنبلو Fontainebleau. وفي ٢٥ مارس سنة ١٨١٤ أطلق نابليون سراح البابا پيوس السابع.

ولما سقط نابليون وعقد المنتصرون عليه مؤتمر ڤيينا في سنة ١٨١٥ تنافسوا في الاستيلاء على أشلاء دولة البابا. وفي النهاية قررت المعاهدة النهائية التي وُضعت في ٩ يونيو سنة ١٨١٥ في المادة رقم ١٠٣ منها اعادة: پونتكورڤو Pontecorvo وبنڤنتو Benevento ومفوضيات راڤيا وبولسونيا وفرّارا، وشواطىء أنكونا ـ إلى البابا. وبعد متاعب أثارتها النمسا ومملكة نابلي استرد البابا هذه البلاد، وأصدر في ٦ يونيو سنة ١٨١٦ نظاماً لحكم هذه البلاد، يقضي بانشاء ١٧ مفوضية موزعة على ثلاث مراتب. وكانت أربع منها تحت ادارة كردينالات، أمّا الباقيات فكان يتولاها رجال دين بمراتب اقل وباسم: مندوبين عن البابا Delegati. ويساعد كل مندوب مجلس استشاري يعيّنه البابا وله سلطة على كل رجال الادارة الداخلين تحت سلطته وكان البابا هو الذي يعينهم ايضاً. اما البلديات فكان يديرها مَن يلقبون بلقب Gonfalomiere يساعدهم شيوخ البلدة.

لكن سرعان ما ثار أبناء هذه المفوضيات ضد مندوبي البابا بسبب تفشي المظالم والمحسوبيات وفساد الادارة المالية، والظلم في توزيع الأراضي، وتحيّز القضاة. وعلى رأس هؤلاء الثائرين كان الكربوناري Carbonari، الذين كانوا يعادون الملكية المطلقة، ويريغون إلى توحيد ايطاليا. ففي ٤ فبراير سنة ١٨٣١ اندلعت اضطرابات ثورية في بولونيا، ما لبثت ان امتدت إلى رومانيا وشواطىء أنكونا والأومبريا. وحشدوا جيشاً بقيادة الجنرال سركونياني Sercognani زحف قاصداً روما. هنالك استعان البابا جريجوريوس السادس عشر بالنمسا. فدخل القائد النمساوي كرابوسكي Krabouvski مدينة بولونيا في ٢١ مارس، فاستسلم الثائرون في يوم ٢٦ مارس. وكانت النمسا تحتل آنذاك لومبارديا وڤنتسيا فصارت لها السيطرة على شمالي ايطاليا. فتحركت الدول الأوروبية، وقدمت إلى البابا «مذكرة» تطالب فيها باصلاحات في ادارة الدولة. وتدخل الفرنسيون فاحتلوا

أنكونا. واستمرت هذه القوّات الأجنبية في دولة البابا لحفظ النظام حتى ٤ ديسمبر سنة ١٨٣٨.

لكن ماتسيني Mazzini كان قد أخذ يبث في الشعب الايطالي كله الدعوة إلى الحرية وإلى الاستقلال، وإلى وحدة ايطاليا، وتجسّدت دعوته في حركة «ايطاليا الفتاة». ومن ناحية أخرى قام مسّيمو دازليو Massimo d'Azeglio في روما بالدعوة إلى الملكية الدستورية، ولملك سردينيا، كرلو ألبرتو، ليكون ملكاً على كل ايطاليا.

وإزاء ذلك حاول البابا پيوس التاسع مواجهة الموقف في البلاد التي يحكمها بالظهور بمظهر المتسامح فأصدر، في ١٦ يوليو سنة ١٨٤٨، عفواً عن الأشخاص الذين كان سلفه قد نفاهم وعن المحكوم عليهم في جرائم سياسية، لكن اجراءاته لم تفلح في ارضاء المحافظين ولا في ارضاء المجدّدين. واندلعت في روما ثورة عقب اغتيال پلجرينو روسّي Pellegrino Rossi في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٤٨، مما حمل البابا على اللجوء إلى مدينة جائيتا Jaeta وهي في منطقة داخلة ضمن مملكة باپلي. فقررت الجمعية التأسيسية في أول مرسوم اصدرته، في ليلة ٨ إلى ٩ فبراير سنة ١٨٤٩ أن «البابوية سقطت واقعياً وقانونياً فيما يتعلق بالحكم الزمني (الدنيوي) للدولة الرومانية» (مادة ١)، وان «نظام الحكم في الدولة الرومانية سيكون بالديمقراطية الخالصة، وستسمّى الدولة باسم: «الجمهورية الرومانية» Répubblica Romana (مادة ٣). فاستنجد البابا بفرنسا والنمسا. فاستولت القوات الفرنسية، بقيادة الجنرال أودينو Oudinot على روما بعد قتال مرير مع الثوّار؛ واحتل النمساويون فرّارا وبولونيا وشواطىء أنكونا. وكان ذلك في صيف سنة ١٨٤٩.

ونتيجة لذلك عاد البابا پيوس التاسع إلى دولته في سبتمبر سنة ١٨٤٩. وأصدر مرسوماً بالعفو وبإجراء اصلاحات ادارية لم تُرْضِ أحداً من رعايا دولته. لكنه نَعِمَ بالهدوء في ظل الحراب الفرنسية والنمساوية حتى سنة ١٨٥٩. لهذا لم تكن الحرب لتندلع بين مملكة پيمونتي والنمسا، حتى هبَّ الوطنيون في بلاد البابا الشمالية والوسطى فأرسلوا مندوبين من بولونيا وشاطىء أنكونا Marche وأورڤييتو وپيروجا إلى تورينو للاتفاق مع ملك سردينيا ووزيره كافور Cavour. فلما اطمأن كافور إلى عدم تدخل الدول الأوروبية، بعث بفرقة من الجيش فدخلت بلاد البابا، وتغلّبت على القوات البابوية في مدينة كاستلفدردو في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٦٠. وعقب ذلك اصدر ملك پيمونتي أمراً ملكياً في ١٧ ديسمبر سنة ١٨٦٠ يقضي بضم

شواطىء أنكونا Marche واقليم الاومبريا (ومركزه بيروجا) إلى مملكة سردينيا. فلم يبق للبابا بعد ذلك إلاّ تشڤتاڤكيا Civitaveckia وڤيتربو Viterbo وڤلتري Velletri وفروزينونه Frosinoné ونواحي روما.

وفي ١٧ مارس سنة ١٨٦١ أُعلن ڤتوريو امانويل ملكاً على ايطاليا، فكان ذلك تهديداً قوياً لما بقي من دولة البابا، وما كان قد بقي منها في الواقع آنذاك إلاّ أشلاء قليلة من الأرض الجدباء. ولم يكن يحمي هذه الدويلة العاجزة غير الحامية الفرنسية التي بقيت في روما. فلما قامت الحرب بين فرنسا والمانيا في سنة ١٨٧٠ انسحبت هذه الحامية عائدة إلى فرنسا لتشارك في القتال، فانتهزت القوات الوطنية والملكية الفرصة فرجعت إلى روما واستولت عليها في يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠ بعد مقاومة ضئيلة لم تستمر أكثر من خمس ساعات. ودخلت القوات الوطنية والملكية روما من بوابة پيا Porta Pia (عند نهاية شارع ٢٠ سبتمبر) ودخلت مدينة روما وحرّرتها من سلطة البابا، واحتلت المدينة كلها «باستثناء الجزء الذي تحدّه من الجنوب استحكامات الروح القدس، ويشمل الڤاتيكان وحصن سانتنجلو Cartel Sain'Angelo، ممَّا يكوّن المدينة الليونبينية»، وهي الحدود الحالية لدولة الڤاتيكان. وفي ١٢ اكتوبر سنة ١٨٧٠ ضمّت روما الى مملكة ايطاليا التي كان يحكمها آنذاك الملك ڤلّوريو امانويل الثاني Villorio Emanuele II، بموجب استفتاء جرى في ذلك اليوم، أجمع فيه أهل روما - باستثناء ٤٦ صوتاً فقط - على الانضمام إلى مملكة ايطاليا. ونتيجة لذلك انتقلت عاصمة المملكة من فيرنتسه إلى روما.

مقابلة في الفاتيكان

وما دمنا في الحديث عن الفاتيكان، فلنذكر ها هنا لقائي في قصر الفاتيكان بالكردينال مارلاً Marella حوالى منتصف يناير سنة ١٩٦٨، إبّان هذه الزيارة لروما.

وقد رتّب لي هذه المقابلة الأب جورج شحاتة قنواتي، الراهب الدومنكاني المصري الجنسية السوري الأصل، والباحث في الفلسفة الاسلامية. وكان يأتي الى روما في يناير من كل عام في أواخر الستينات ويلقي محاضرات في المعهد البابوي القائم على تل جانكلو، وكانت هذه المحاضرات تدور حول كيفية التبشير بالمسيحية بين المسلمين، وقد أطلعني عليها أحد طلابه في ذلك المعهد.

وكانت المناسبة التي دعت الأب قنواتي الى دعوتي لمقابلة الكردينال مارلاّ، ان هذا الكردينال كان يرأسُ آنذاك لجنة العلاقة مع الاسلام المتفرعة عن «اللجنة العامة للعلاقة مع الأديان غير «المسيحية» De ecclesiaa habitudine and religionis non-christianas وهي لجنة تنفيذية قصد بها تنفيذ الاعلان الصادر عن مجمع الفاتيكان الثاني في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٦٥ وهو خاص «بالعلاقة بين الكنيسة وبين الأديان غير المسيحية». فقد نص هذا الاعلان، في الفقرة رقم ٣ منه على ما يلي:

«٣ ـ ان الكنيسة تنظر باحترام إلى المسلمين ايضاً، إذ يعبدون الله الأحد، الحيّ، القيوم، الرحيم القدير، خالق السماء والأرض الذي كَلَّم الناس وهم يسلمون بكل نفوسهم لأحكامه الخاصة، مثلما استسلم ابرهيم لله، ابرهيم الذي يطيب للايمان الاسلامي ان يهيب به ويسوع، وإن كانوا لا يقرون بأنه هو الله، فإنَّهم يوقّرونه بوصفه نبيًّا، كما يوقّرون أُمّه العذراء مريم، ويدعونها أحياناً بورع. يضاف إلى ذلك أنهم ينتظرون يوم الحساب، الذي فيه يبعث الله الناس ويجازيهم. ومن أجل هذا يقدّرون السلوك الأخلاقي في الحياة ويتعبدون الله خصوصاً بالصلاة والزكاة والصوم.

ولئن كانت قد وقعت خلال القرون، خصومات وعداوات بين المسيحيين والمسلمين غير قليلة، فإنَّ المجمع المقدس يدعو الجميع الى اطراح الماضي جانباً، وإلى السعي بإخلاص لإيجاد تفاهم والعمل معاً على حماية وتنمية العدالة الاجتماعية، والخيرات الأخلاقية، وكذلك السلام والحرية للناس كافة».

وفي اثر هذا الإعلان قام بالترويج «للحوار بين المسيحية والاسلام» جماعة من الرهبان من مختلف الطرق المسيحية الرهبانية، كان أبرزهم: Cuocq الذي

أصبح أميناً (سكرتيراً) للجنة «العلاقة بين المسيحية والإسلام» التي كان يرئسها الكردينال مارلاّ السابق الذكر، والأب ر. كسبار (من الآباء البيض في تونس)، والأب جورج شحاتة قنواتي الدومنكاني. فألقى قنواتي محاضرة بعنوان: «الاسلام في ساعة المجمع: مدخل إلى حوار اسلامي ـ مسيحي»، نشرت في مجلة Augalicum رقم ٤١. (١٩٦٤، ص ١٤٥ ـ ١٦٨). ونشر بحثاً آخر بعنوان: «الدين الاسلامي» في كتاب جامع عنوانه: «الأديان غير المسيحية في مجمع الفاتيكان الثاني» (تورينو سنة ١٩٦٦، ص ١٧١ ـ ١٩٩). ونشر كسبار Caspar بحثاً في مجلة Etudes يناير سنة ١٩٦٦ ص ١١٤ ـ ١٢٦) بعنوان: «المجمع (= مجمع الفاتيكان الثاني) والاسلام». كما نشر ثبتاً بالدراسات التي تناولت موضوع الحوار الاسلامي ـ المسيحي، وذلك في مقال نشر في مجلة Parole et Mission (رقم ٣٣، بتاريخ ابريل سنة ١٩٦٦ ص ٣١٢ ـ ٣٢٢؛ ورقم ٣٤، بتاريخ يوليو ١٩٦٦، ص ٤٧٥ ـ ٤٨١). راجع قنواتي ايضاً: «نحو حوار اسلامي ـ مسيحي» (المجلة التوماوية سنة ١٩٦٤).

وفي نفس الفترة نشرت مجلة Images التي تصدر عن دار الهلال في القاهرة باللغة الفرنسية آراء بعض المسلمين وبعض المسيحيين في هذا الحوار بين الاسلام والمسيحية. وكنت أنا أحد الذين سألتهم المجلة فأجبت بكل صراحة بأنّ أي حوار بين الاسلام والمسيحية هو من نوع حوار الصّم لأنه لا يمكن التغلب على الخلافات الجوهرية التي تفرّق بين هذين الدينين:

١ ـ فمن المستحيل على المسلم ان يعتقد ان يسوع المسيح إلّه وابن الله؛

٢ ـ ومن المستحيل على المسلم ان يعتقد بعقيدة التثليث وان الله ثالث ثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس.

٣ ـ ومن المستحيل على المسلم، وإلاّ فَقَدَ تماماً سبب وجود الاسلام، ان يقول بما تقول به الكنيسة الكاثوليكية من انه: «لا حقيقة توجد خارج الكنيسة»، و«لا نجاة خارج الكنيسة».

وما دامت هذه هي العقائد الجوهرية في المسيحية فكيف يمكن اذن التوفيق او التقريب او التفاهم بين المسيحية والاسلام من حيث العقيدة؟! انه سيكون توفيقاً بين نقائض.

وبعد هذا ـ فينبغي ان نتساءل ما هو الهدف من هذا التوفيق او التقريب او التفاهم؟

إنْ كان المقصود هو عدم العدوان بين الواحد على الآخر، فهذا امر تكفله القوانين الوضعية، إذ هي تحمي حق كل طائفة في ممارسة عباداتها، ولا تسمح لطائفة أو فرد بالعدوان على طائفة أخرى تخالفها في الدين.

لهذا قلت إن هذه الدعوة إلى الحوار بين الاسلام والمسيحية دعوة لا محل لها.

❀ ❀ ❀

والتقيت بالكردينال مارلاً Marella في الفاتيكان، دار بيننا الحوار التالي:

ـ قدّموني إليه على أنّني استاذ متخصص في الفلسفة، فقال: الفلسفة خادمة اللاهوت Philosophia ancilla Theologiae.

ـ فقلت: هذه عبارة كان يقولها اللاهوتيون المسيحيون في العصور الوسطى الأوروبية، وهي عبارة باطلة تماماً، فإنَّ الفلسفة بحث عن الحق المطلق، هي في هذا لا تخدم أحداً غير الحقيقة. وحتى هذا ايضاً ينبغي ان يصاغ بعبارة أنسب. ذلك ان الفلسفة علم قائم برأسه، مستقل بنفسه.

وتطرق إلى موضوع اللقاء، فقال: ما رأيك في مسألة الحوار بين الاسلام والمسيحية؟

فقلت: أنا لا أفهم لهذا الحوار سبباً ولا داعياً. لأنَّ للاسلام عقائده الخاصة به، وللمسيحية عقائدها الخاصة بها. ولا محل لتأليف ديانة جديدة مشتركة بين هذين الدينين.

فقال: ليس هذا هو المقصود. هل قرأت الاعلان الصادر عن مجمع الفاتيكان الثاني في هذا الشأن؟

فقلت: نعم، وها هوذا معي. ولا أرى غباراً عليه في الحدود التي رسمها وهي: «الدعوة إلى اطراح الماضي جانباً، وإلى السعي بإخلاص لإيجاد تفاهم والعمل معاً على حماية وتنمية العدالة الاجتماعية والخيرات الأخلاقية، وكذلك السلام والحرية للناس كافة». وهذه كلها أمور لا تمس العقائد الخاصة بكل من الاسلام والمسيحية بل ليست فيها أية اشارة دينية خاصة، بل هي دعوة انسانية عامة يدعو اليها المفكرون بل وتتردد في برامج الأحزاب السياسية الديمقراطية. فلماذا اذن تُساق على انها دعوة بين دينين؟ انها دعوة عامة من كل الناس لكل الناس. وانا أخشى عليها من أن يتوجس منها بعض الناس حينما يرونها تنطلق من مؤسسة

عريقة راسخة القواعد معلومة الاتجاه، مثل (الكنيسة الكاثوليكية التي ظلت تردد دائماً شعارها المعروف: «لا حقيقة توجد خارج الكنيسة، ولا نجاة خارج الكنيسة». ومجمع الفاتيكان نفسه قد كرّر توكيد هذا الادعاء في الاعلان الخاص بالحرية الدينية (مادة ١).

فانتفض وقال: نعم هذا شعار كنيستنا الجامعة الرسولية المقدسة، ولن نتخلى عنه أبداً.

فرددت عليه فوراً: وكيف تريد بعد هذا ان يكون بينها وبين أية ديانة أخرى أي تفاهم؟

فقال: ان الحقيقة مجتمعة ككل في الكاثوليكية، لكن الله شاء برحمته ان يفرّق أضواءً منها في سائر الأديان المؤمنة به. ونحن نسعى الى إكمال هذه الأضواء المتفرقة بالفيض عليها من النور الكامل المتجسد في كنيستنا. فرددت عليه: لا يمكن الاسلام او اليهودية او غيرهما ان تقرّ للكاثوليكية بهذا الزعم. وما دام هذا هو الأساس الذي تريد الكاثوليكية ان تبني عليه «الحوار والتفاهم» مع الأديان الأخرى، فالأمر محكوم عليه بالاخفاق منذ البداية. ولهذا قلت لك في أول حديثنا هذا إنّني لا أرى جدوى من هذا الحوار.

وانقطع الحديث بيننا عند هذا القول. وانصرف كلانا لحاله.



ولقد كان من رأيي ألا يتعرض مجمع الفاتيكان الثاني للموضوع: «العلاقة بين الكنيسة (الكاثوليكية) وبين الديانات غير المسيحية»، فإنَّ هذا الموضوع ليس من اختصاصه في شيء، ويثير الشكوك والمتاعب والمشاكل دون فائدة. وقد اغتبطت بعد ذلك حين قرأت محاضر جلسات هذا المجمع في هذا الموضوع. إذ وجدت ـ فيما كان البحث يتعلق بتحديد العلاقة بين الكنيسة الكاثوليكية واليهود ـ ان ممثلي الكنائس الكاثوليكية في العالم العربي قد تكلموا في نفس المعنى، واعترضوا على البحث في هذا الموضوع اصلاً:

فالكردينال تبوني، بطريرك السريان في انطاكية، اعترض على ادراج المسألة اليهودية في أعمال المؤتمر لأنَّ هذا المؤتمر إنما يبحث في الوحدة بين المسيحيين وحدهم. وقال صراحة ان البلاد التي تضمر العداء لليهود ستعاني المزيد من الأضرار من اثارة هذا الموضوع.

وقال اسطفانوس الأول، بطريرك الأقباط الكاثوليك ان من الخطأ الفاحش تخصيص بحث خاص لموضوع العلاقة مع اليهود. فضلاً عن انه لا حاجة اليه لأنَّ الكنيسة الكاثوليكية سبق لها أثناء اضطهاد اليهود في عهد النازية ان أعلنت رأيها بكل صراحة. إن مشاكل الكنيسة في الشرق الأوسط من الكثرة بحيث لا تحتاج إلى إضافة المزيد عن طريق هذه المسألة.

وكان موقف بطريرك انطاكية للروم (الكاثوليك (الملكية)، مكسيموس الرابع، هو نفس موقف تبوني واسطفانوس. فقد قال: «ان المسكونية هي السعي نحو اعادة الوحدة لمجموع الأسرة المسيحية، أي المصالحة بين كل الذين عمّدوا باسم المسيح. فالأمر اذن يتعلق بشأن عائلي خاص. وما دام الأمر كذلك، فلا شأن لغير المسيحيين؟» (انظر Des zweite vatikanische Koujil جـ ٢ ص ٤٣١ عمود ١، هردر: في فرايبورج وبازل وفيينا، سنة ١٩٦٧).

❀ ❀ ❀

ولقد أدَّى تعرض مجمع الفاتيكان الثاني للعلاقة بين الاسلام والمسيحية إلى عكس ما نصحت به الفقرة الأخيرة في الاعلان الذي قدّمنا ترجمته منذ قليل.

فلأسباب لا أفهمها، راح بعض الرهبان والجماعات الرهبانية والدينية المسيحية ينشرون، او يعيدون نشر، الكتب الجدلية النصرانية ضد الاسلام. وكان أنشط الجماعات الرهبانية في هذا المجال هما: اليسوعية والآباء البيض. أمّا اليسوعية ففي المعهد الشرقي البابوي في روما، وفي المعهد الشرقي في بيروت وسلسلة «نصوص وبحوث» التي تصدرها المطبعة الكاثوليكية. أمّا الآباء البيض فقد أصدر مركزهم الرئيسي في روما بعض النصوص والمقالات في هذا الموضوع. وهم بهذه النصوص والدراسات ينكأون جراحاً قديمة هي هي نفسها التي دعا اعلان الفاتيكان الثاني الى تناسيها!! وقد التقيت في المعهد البابوي الشرقي براهب يسوعي مصري - يدعى سمير خليل - كان يشتغل في هذا الميدان، وأراني ببيلوجرافيا في هذا الموضوع كان بسبيل إعدادها.

على ان نشاط اللجنة التي شكلها البابا للحوار مع الأديان غير المسيحية قد خفَّ تدريجياً حتى صار في خبر كان ولما يمضِ على اعلان الفاتيكان الثاني عشر سنوات. وتحقق بذلك ما تنبأنا به.

والرأي النهائي عندي هو انه ينبغي عدم اجراء أي حوار بين الأديان المختلفة؛ لأنَّ الحوار سيؤدي قطعاً إلى اثارة المنازعات وإلهاب العصابات.

والموقف العاقل السليم هو ترك كل دين يعنى بشئونه هو وحده، دون تدخل أي دين في شئون دين آخر. وليكن مبدأ كل دين تجاه أي دين آخر: «لنا ديننا، ولكم دينكم».

سياسة الفاتيكان

وانتهت مدة إجازتي الشتوية هذه فكان عليّ ان أعود إلى ليبيا، فعدت إليها في يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٦٨.

وكانت فترة اقامتي في روما فترة خصبة من كل النواحي: الفنية، والعقلية، والحيوية. وأفاض عليّ إبانها من كرمه وسماحة أخلاقه وحرارة استقباله سفير مصر لدى الفاتيكان الأستاذ محمد التابعي ما ضاعف من سعادتي. ولقد كان بين والده ووالدي مودة حميمة طويلة وكان والده هو الذي يرسل إلى والدي برقيات النجاح والشهادات العامة (الابتدائية، الكفاءة، البكالوريا) إذ كان يحرص على تسجيل ارقامي في هذه الشهادات، وينتظر اعلان النتائج في الصحف وهو في بلدة المنصورة، ومتى ما اطلع عليها، وكانت الصحف تصل الى المنصورة قبل ان تصل إلى قريتي، شرباص، بيوم أو يومين. فكان هذا الوالد الفاضل الكريم أول مَن يبشر والدي بنجاح أبنائه في الشهادات العامة. وقد تخرّج ابنه، السفير محمد التابعي، في كلية الحقوق سنة ١٩٣٦ ثم التحق بالجيش وترقّى في مراتبه حتى وصل إلى رتبة بكباشي. ولما كان حاملا لليسانس في الحقوق فقد كان غالباً ما ينتدب نائباً للأحكام في المحاكم العسكرية. ومن ثم اختير نائباً للأحكام في بعض المحاكمات العسكرية التي جرت في العامين الأولين من قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢. ثم انتقل بعد ذلك إلى وزارة الخارجية برتبة: مستشار فوزير مفوّض. وعمل في الخارج لأول مرة سفيراً لمصر في پنما. وكانت پنما آنذاك في نزاع مع الولايات المتحدة الأمريكية بخصوص قناة پنما (وطولها ٨٢ كم) التي تربط بين المحيط الهادي والمحيط الأطلسي، وكانت الولايات المتحدة تملك هذه القناة وتديرها، وتقيم قاعدة عسكرية حولها للمحافظة عليها وحمايتها. فلما أمّمت مصر قناة السويس في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ تطلع شعب پنما الى تأميم قناتهم هم أيضاً، والغاء منطقة قناة پنما، وهي المنطقة التي كانت تعسكر فيها القوات الأمريكية. فوقعت مظاهرات في مدينة پنما وغيرها وشاع آنذاك ان السفير المصري، محمد التابعي، كان يحرّض على هذه المظاهرات. وقد انتهى النزاع بعقد معاهدة بين حكومة پنما والحكومة الأمريكية (صدق عليها في عام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨) بمقتضاها

أُنشئت «لجنة قناة پنما» التي ستتولى إدارة القناة حتى ٣١ ديسمبر سنة ١٩٩٩ وبعد هذا التاريخ تتولى حكومة پنما إدارة القناة بمفردها، وصيانتها. كذلك ألغت المعاهدة «منطقة قناة پنما» وأُدمجت داخل دولة پنما.

وعاد محمد التابعي إلى مصر فقضى بضع سنوات في الإدارة العامة لوزارة الخارجية ثم عُيِّن سفيراً لمصر لدى الفاتيكان في عام ١٩٦٦. والسفارة المصرية لدى الفاتيكان تقع في شارع بروكسل بالقرب من ميدان فيومي في شارع سلاريا. وكانت قصراً يملكه الجنرال الايطالي الشهير ايتالو بالبو Italo Balbo، الذي كان أحد الأربعة الذين قاموا بالزحف الفاشستي على روما في اكتوبر سنة ١٩٢٢، والذي على اثره تولّى موسوليني الحكم في ايطاليا. وقد قُتل بالبو عن طريق الخطأ لما ان أصابت المدفعية الايطالية المضادة للطائرات طائرته وهو يحلّق فوق مدينة طبرق في ليبيا، وكان آنذاك حاكماً عاماً على ليبيا.

وكانت للفاتيكان آنذاك أهمية خاصة عند الدول العربية لأن اسرائيل كانت قد قررت ضمّ القدس إليها وجعلها عاصمة لاسرائيل. فكان من المهم إذن الحصول على معارضة البابا لتغيير وضع القدس. وكان البابا پولس السادس قد زار القدس في ٥ يناير سنة ١٩٦٤، كما زار مدينة الناصرة، وتفقّد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين «في زيارة حج، وصلاة وسلام» كما وصفها هو. لهذا كان في مقدمة واجبات السفراء العرب لدى الفاتيكان ان يعملوا في سبيل كسب تأييد البابا لعدم تغيير الوضع في القدس.

وكان البابا قبل ذلك بيوم واحد، أي في ٤ يناير سنة ١٩٦٤ قد وصل إلى عمّان، عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، واستقبله الملك حسين. وفي اليوم التالي، أي ٥ يناير، سافر بالسيارة إلى القدس. فزار أولاً القسم العربي من المدينة، وكان آنذاك تحت حكم المملكة الأردنية منذ سنة ١٩٤٨. وعلى جبل الزيتون التقى ببطريرك القسطنطينية (الفنار) أثيناجورس، رأس الكنيسة الأرثوذكسية الرومية. فكان اول لقاء بين رئيس الكنيسة الكاثوليكية (بابا روما) وبين رئيس الكنيسة الأرثوذكسية (بطريرك الفنار) منذ الانشقاق الذي جرى بين الكنيستين عقب مجمع فيرنتسيه في سنة ١٤٩٣. وكان هذا اللقاء يدخل، في نظر بابا روما، ضمن مقررات مجمع الفاتيكان الثاني بشأن الارادة المسكونية (أي توحيد بين الكنائس المسيحية في كل المسكونة أي الأرض Oecuménisme). وتمّ اللقاء مرتين في يومي ٥ و٦ يناير في القدس. وزار بولس السادس كذلك بعض المواقع المقدّسة عند المسيحية وهي: قانا (في الجليل)، وطبرية، وكفرناحوم (على بحيرة طبرية) وجبل

طابور، ومدينة الناصرة حيث استقبله فيها رئيس اسرائيل سَلْمان شازار. وبعد زيارته هذه الأماكن عاد إلى القدس فزار القسم الاسرائيلي منها.

وفي حديث بيني وبين الأستاذ محمد التابعي قلت له رأيي فيما يتصل بسياسة الفاتيكان. فقلت له: «أرجو ألاّ تتوقع الكثير من سياسة الفاتيكان فيما يتصل بمشكلة القدس، والمشكلة الأوسع بيننا وبين اسرائيل. فسياسة الفاتيكان مرنة؛ ملتوية، تترضى الأطراف المتعارضة حسبما تمليه مصلحتها الخاصة. ولا تُقيم كبير وزن لعدم اعترافها الرسمي بإسرائيل، فإنَّ مصلحة الكاثوليك في البلاد العربية هي التي تملي عليها هذه السياسة. لكنها بطريق غير رسمي تتّصلُ بإسرائيل، وبرئيس المؤتمر اليهودي العالمي ناحون جولدمن. وانظر إلى رحلة البابا في ٤ إلى ٦ يناير في الأردن وفلسطين: إنّه كما زار مخيماً للاجئين الفلسطينيين، فإنّه زار النصب التذكاري لما يسمّى ضحايا الإبادة (شِلوة). وكما التقى بالملك الأردني، الملك حسين، في عمّان، التقى برئيس اسرائيل سلمان شازار ولا تصدّق كل ما ينقله إليك رجال الكنيسة الكاثوليكية في البلاد العربية الوافدون على الفاتيكان، وخصوصاً منهم اللبنانيون فهم يبالغون في تصوير مشاعر الفاتيكان نحو مشكلة القدس والمشكلة الفلسطينية بعامة. فلا تأخذ كلامهم إلاّ باحتياط وبعد تحقق منه دقيق».

هذا ما قلته له في يناير سنة ١٩٦٨. وما لبث ظنّي ان تحقق بكل سطوع: فقد استقبل هذا البابا نفسه، پولس السادس، رئيسة وزراء اسرائيل، جولدمائير في يوم ١٥ يناير سنة ١٩٧٣ في قصر الفاتيكان. وكنت أنا آنذاك في زيارتي الشتوية السنوية المعتادة لروما. وقرأت في الصحف الايطالية كيف أبدت هذه المرأة السليطة الوقحة، عدم اكتراثها لهذه الزيارة، وكان البابا هو الذي توسل إليها لتقوم بزيارته!! إذ ذكرت الصحف ان مائير لما علمت ان من مقتضيات المراسم البابوية ان تكون مائير مغطاة الرأس حين يستقبلها البابا، فإنّها أرسلت إلى تل أبيب كي يبعثوا إليها بقبعة من قبعاتها الموجودة في بيتها، لأنَّ هذه الزيارة للبابا لا تستحق في نظرها ان تشتري من أجلها قبعة جديدة من روما!! وصرحت بهذا القول للصحفيين علناً وبكل وقاحة، متباهية متفاخرة، فنقلوا عنها هذا القول وأبرزوه في صحفهم!! فقلت في نفسي وأنا أقرأ هذه الأخبار: إنَّ البابا يستحق هذه الاهانة وأكثر منها جزاء وفاقاً لصنيعه هذا!

مع المستشرقين الايطاليين

ومن ناحية أخرى أتاحت هذه الزيارة تجديد اللقاء مع المستشرقين الايطاليين والتعرُّف إلى الجديدين منهم.

فالتقيت اولاً بصديقي القديم فرنشسكو جبرييلي (وُلِدَ في ابريل سنة ١٩٠٤) الذي كنت قد تعرّفت إليه في صيف سنة ١٩٣٧ بواسطة والده جوزيي جبرييلي. إذ دعاني إلى تناول العشاء في مطعم فاخر في ميدان نافونا، يسمى مطعم «درجات السّلم الثلاث» Tre Scaline. واستعدنا ذكرى ليڤي دلا ڤيدا الذي كان قد توفي من عهد قريب (٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٧)، وأقيم حفل تأبين له منذ شهر. وكنت أعرفه جيداً منذ عام ١٩٤٧، ولم أشهد عليه تعصباً ضد العرب. لكن الأب قنواتي اخبرني آنذاك انه في حفل التأبين هذا تكلم مَن يدعى L. Salvatorelli ـ وهو مؤرخ لإيطاليا الحديثة ومسيحي متعصب ـ وزعم ان ليڤي دلا ڤيدا كان في العشر سنوات الأخيرة من حياته يهاجم العرب ويحمل لهم موجدة شديدة، وانه تلمس ذلك في احاديثه معه وكان صديقاً له. فسألت جبرييلي عن حقيقة هذا الزعم، لأنّني لم أقرأ لليڤي دلاّ ڤيدا أي مقال أو بحث يكشف عن كراهيته للعرب. فقال لي: مَن أخبرك بما قاله سلڤاتورلي؟ قلت: الأب قنواتي، وكان حاضراً جلسة التأبين. فقال جبرييلي: ان دلاّ ڤيدا كان ضد نزعة القومية العربية Arabismo التي استفحلت في الخمس عشرة سنة الأخيرة، وربما كنت أنا أيضاً أُشاركه بعض المشاركة في هذا الرأي. وهنا سرت بيننا شائعة من الحرج، فانصرفنا عن المزيد من القول في هذا الأمر.

وبعد ذلك بيومين ذهبت إلى «معهد الشرق»، وكانت تديره آنذاك الآنسة ماريّا نلّينو، ابنة المستشرق العظيم كرلو ألفونسو نلّينو (١٨٧٢ ـ ١٩٣٨) Carlo Alfonso Nallino وكنت أعرفها لما ان كانت تأتي مع أبيها إلى القاهرة في شتاء كل عام ما بين شتاء عام ١٩٣٥ حتى شتاء عام ١٩٣٦/ ١٩٣٧، إذ كان والدها يحضر في يناير الى القاهرة لشهود جلسات المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية بوصفه عضواً فيه.

وأثناء هذه الزيارة تعرّفت الى مستشرقين ايطاليين جديدين هما: أومان Omann الذي عاش طويلاً مع أسرته في القاهرة (في مصر الجديدة) ولهذا كان يتقن اللهجة المصرية اتقاناً تاماً، وكان آنذاك مدرساً في المعهد الشرقي بجامعة نابولي؛ ثم منجانتية Mingante الذي كان مدرساً في جامعة تورينو، وقد تولّى بعد

وفاة ماريا نلّينو ادارة «معهد الشرق» في روما، وما لبث ان توفي وهو في مطلع سن الكهولة، وكان يعنى بالشعر العربي المعاصر وترجم منه قصائد إلى اللغة الايطالية.

لكن أين هؤلاء الناشئة من جيل المستشرقين الايطاليين العظام: جويدي الكبير وابنه، وكرّلو ألفونسو نلّينو، والأميرليون كاتياني، وسانتلاّنا، وليفي دلا فيدا!! وقد ازدهروا جميعاً في الثلث الأول من هذا القرن العشرين. وهنا نحيل القارىء إلى المواد التي كتبناها عن كل واحد من هؤلاء في كتابنا: «موسوعة المستشرقين» (بيروت، طـ ١ سنة ١٩٨٣).

عودة أخرى إلى لبنان

قلت إني عدت من روما في ٢١ يناير سنة ١٩٦٨ إلى عملي في الجامعة الليبية في بنغازي.

وبعد عودتي بقليل حدّثني مدير الجامعة بشأن احياء مجلة كلية الآداب، ولم يكن قد صدر منها غير عدد واحد منذ ست سنوات، حتى كانوا يتندرون بها فيقولون إنها «بيضة الديك» إذ تزعم الأسطورة ان الديك يبيض بيضة واحدة طوال حياته. وعُهد إليّ بتولي اصدارها من جديد، بالتعاون مع عميد الكلية د. مختار بورو. فرأيت ان يسهم في التحرير باحثون عرب وأوروبيون. فوافق؛ كما اتفقنا على ان تدور موضوعات البحث حول ليبيا قدر الامكان. على ان يصدر عدد كل عام، ويكون حجمه في حدود خمسمائة صفحة، وان يخصص الفصل الأخير منها لنقد الكتب المتعلقة بليبيا والصادرة حديثاً.

وتمَّ جمع مواد عدد من المجلة. واتفقنا مع «دار العلم للملايين» في بيروت لتولي طبع هذا العدد في خلال شهر. ولهذا الغرض سافرت إلى بيروت في العشرين من شهر مايو سنة ١٩٦٨ للإشراف على الطبع والتصحيح.

ووصلت إلى مطار بيروت قادماً من بنغازي في الساعة الرابعة من عصر ذلك اليوم. وإذا بي أُجابه منذ اللحظة الأولى بحماقة رجال الأمن في المطار. ذلك انه لم يكن المصري بحاجة إلى تأشيرة دخول إلى لبنان. لهذا لم يكن على جواز سفري تأشيرة دخول. لكن رجل الأمن في المطار قال ان اسم «البنان» ليس مدرجاً بين أسماء البلاد المذكورة في بند: «هذا الجواز صالح للسفر إلى...». فقلت له: «إنَّ هذا أمر شكلي خالص بالنسبة إلى الدولة التي يراد دخولها؛ والأمر كله متوقف على هذه الدولة وهو جزء من سيادتها. فحتى لو كان اسم البلد مدرجاً، ففي وسع هذا البلد أن يمنع من دخوله. والدليل على ان هذه مسألة شكلية محضة، ان اسم

«ليبيا» وهو البلد الذي أُقيم فيه منذ ثمانية أشهر ليس مدرجاً بين أسماء هذه البلاد». وبعد أخذ ورد سُمح لي بالدخول بشرط أن أحضر في صباح اليوم التالي لمقابلة قائد المطار، لأنَّه لم يكن موجوداً ساعتئذ.

وفدت في صباح اليوم التالي وقابلت قائد المطار، وهو ضابط برتبة مقدّم (او عقيد، لا أذكر) فراح يهرف بما لا يعرف. وكان غليظاً غبيًّا جباناً معاً، وصوّر له خياله المريض وحقده الدنيء ان السبب في عدم ذكر «لبنان» على جواز السفر ان المصريين يهربون إلى لبنان من حياة البؤس والعسف في مصر. فانبريت إليه وخاطبته بحدّة: أمهلني إذن ساعة واحدة، وأنا آتيك من السفارة المصرية في بيروت بإدراج لاسم لبنان من بين البلاد المصرّح بالدخول فيها. وخرجت مغضباً واستقللت سيارة اجرة أوصلتني إلى السفارة، وفي ظرف خمس دقائق أدرجت القنصلية اسم «لبنان» على جواز السفر. وعُدت لتوّي إلى ذلك الضابط الجهول الأحمق الحاقد، فأسقط في يده على الفور، وأشار بالسماح لي بالاقامة المدة التي أريدها، وختمت التأشيرة على الجواز بالحق في الاقامة ثلاثة أشهر.

وعُدت إلى بيروت المدينة، وصرت أروي هذا الحادث لمن أعرفهم من السفراء في وزارة الخارجية وأتهكم عليهم قائلاً: هذا هو معنى العبارة المعلّقة عند مدخل القادمين في مطار بيروت: «مرحباً بكم في لبنان»، وهذا هو ترجمة الدعاية التي صرعتم بها الناس في الخارج للترويج للسياحة في لبنان. رحم الله جبران خليل جبران حين قال في مقالته الجميلة بعنوان: «لكم لبنانكم، ولي لبناني».

❀ ❀ ❀

وبعد ان سلمت أصول العدد إلى «دار العلم للملايين» في اليوم التالي لمجيئي، أخذت أستعيد ذكرياتي في لبنان، واتصل بأصدقائي القدامى الذين توثقت بينهم وبيني أواصر مودّة صادقة في مدة اقامتي الطويلة في لبنان من نوفمبر سنة ١٩٤٧ حتى يونيو سنة ١٩٤٩، مثل: حسن قبلان، وكيل وزارة العدل، ومختار مخيش السفير المتقاعد، وجورج شحادة الشاعر الذي كان سكرتيراً للمدرسة العليا للآداب وكان آنذاك مستشاراً للفنون في السفارة الفرنسية.

غير انه في يوم ٣١ مايو سنة ١٩٦٨ حدث ان حاول شاب مسلم سُنّي اغتيال كميل شمعون رئيس الجمهورية الأسبق وزعيم حزب الأحرار. وخوفاً من اندلاع اضطرابات وقلاقل، قرّرت الحكومة منع التجول في المساء. وكان رئيس

الجمهورية آنذاك هو شارل حلو، ورئيس الوزراء هو عبدالله اليافي. وكانت الانتخابات التي انتهت في ٨ ابريل سنة ١٩٦٨ قد انجلت عن احراز التحالف الثلاثي بين پيير جميّل، زعيم الكتائب، وكميل شمعون، زعيم حزب الأحرار، وريمون اده زعيم الكتلة الوطنية ـ عن بعض النجاح بحيث صار لهم حوالى ثلاثين نائباً في مجلس النواب المؤلف من ٩٩ نائباً، وكان للكتلة المنافسة لهم نفس العدد من النواب، وهي الكتلة الديمقراطية بزعامة رشيد كرامي. أمَّا الباقون (٣٩) فكانوا امَّا من الدروز او من المستقلين. لكن منع التجول لم يستمر أكثر من ثلاثة أيام، وعادت بيروت الى حالتها الطبيعية، اذ استطاعت الحكومة تطويق الحادث على أساس انه حادث فردي خالص وليس وراءه حزب او طائفة. وبالجملة لم يفسّر الحادث بأنه ذو مغزى سياسي أو ديني. ولا أدري بعد ذلك ماذا كان مصير ذلك الشاب. وساعد على ذلك ان كميل شمعون لم يصب بأذى يذكر. فانصرف اللبنانيون الى الاهتمام بحوادث مايو (سنة ١٩٦٨) في فرنسا، وكانت قد انجلت هي الأخرى بعد المظاهرة الهائلة التي سارت من ميدان الكونكورد صاعدة إلى ميدان النجمة في شارع الشانزليزيه تأييداً لديجول. وعلى اثرها قرر ديجول حلّ الجمعية الوطنية واجراء انتخابات جديدة في ٢٣ يونيو، وفيها انتصر انصار ديجول انتصاراً ساحقاً ماحقاً. ولما هدأت هذه العاصفة، شغل الناس لساعات قليلة بمصرع السناتور روبرت كندي، لأنَّ قاتله، في ٥ يونيو سنة ١٩٦٨، كان فلسطينياً أردنياً اسمه سرحان بشارة سرحان، مولود في القدس، وكان عمره آنذاك ٢٤ سنة، وقد قُبض عليه في الحال في مكان الحادث بمدينة لوس انجلوس.

بيروت صارت غير بيروت

ولقد تبدلت بيروت تبدلاً تاماً عن بيروت التي عرفتها من قبل، وكانت آخر زيارة قمت بها اليها في ابريل سنة ١٩٥٢. واستولت عليَّ دهشة بالغة من تغيرها الشامل في خلال ١٦ عاماً.

فشاطىء بيروت من المنارة حتى الأوزاعي قد اكتظ كله بالعمائر الباذخة، والمطاعم والمقاهي والفنادق الفاخرة، بعد ان كان إبان اقامتي الأولى (نوفمبر ١٩٤٧ ـ يونيو ١٩٤٩) خالياً من كل بناء وكل ما هنالك أكشاك خشبية كانت بمثابة مقاهٍ ومطاعم متناثرة تشكو ـ فيما عدا أيام الآحاد ـ من افتقارها الى الزبائن. وكنت أتريض على هذا الشارع في ظهر أو عصر بعض الأيام فلا أكاد أُقابل أحداً. أمَّا الآن فقد اكتظ بأعداد كثيفة جداً من الناس من كل الألوان: رجال أعمال،

وعمال، وباعة، ومتريضون، ونزلاء فنادق، و«زعران»، الخ.

وهذا شارع الحمراء قد اصطفت على افريزيه مئات العمائر الضخمة، وفيها أفخر الفنادق والمتاجر والمطاعم والمقاهي ـ وقد كان على عهد اقامتي في بيروت من قبل مجرد طريق مملوء بالحجارة والحصى والرمل، ولا شيء غير ذلك.

وكورنيش المزرعة والرملة البيضاء وبداية طريق صيدا وطريق المطار صارت كلها حافلة بالعمائر والسفارات والمتاجر، وكانت على عهدي بها حقولاً تكثر فيها النباتات الشوكية مثل الصبّار وشوكة اليهود وبعض الخضراوات المزروعة.

فماذا الذي قلب الأوضاع من النقيض إلى النقيض هكذا في بيروت؟

قالوا: إنها الانقلابات العسكرية في البلاد العربية: سوريا منذ مارس سنة ١٩٤٩ ودون انقطاع حتى اليوم، ومصر منذ ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، والعراق منذ انقلاب ١٤ تموز سنة ١٩٥٨، الخ ـ فقد ترتّب عليها فقدان الثقة عند الناس، فهرّبوا أموالهم خارج بلادهم، ولم يجدوا لها مرفأ أمان إلاّ في بيروت حيث حرية النقد مكفولة والاستثمارات الدولية ميسورة. وعلى الرغم من الهزة الشديدة التي أحدثها افلاس بنك انترا Intra في ٤ يناير سنة ١٩٦٧، فقد استمرت بيروت آمن ملجأ لرؤوس الأموال العربية التي حاصرتها الانقلابات والاضطرابات المالية في بلادها الأصلية.

ولما كان المجال الوحيد المتاح للاستثمار في بيروت هو العقارات السكنية وأراضي البناء في داخل بيروت وطرابلس وسائر الأماكن ـ فقد أدى ذلك الى تشييد العمائر الضخمة التي ترتفع طوابقها إلى ما فوق العشرين طابقاً. ومن هنا ارتفع ثمن المتر في أرض البناء في بيروت ارتفاعاً خيالياً: لقد كان ثمن المتر المربع في منطقة «الروشة» لا يزيد عن خمس ليرات حينما كنت في بيروت سنة ١٩٤٩، واذا بي أجد ثمن المتر المربع في نفس المنطقة قد تجاوز الأربعة آلاف! واشتعلت نار المضاربات في الأراضي العقارية اشتعالاً رهيباً.

وصار السُّعار لتكديس المزيد من الأموال هو الدافع الرئيسي في تصرفات اللبنانيين. ولما كانت كل الأموال المتدفقة على بيروت عربية، فقد خفت حدة الطائفية: فصار الموارنة يتنافسون في خطب ود السعودية والكويت وسائر دول البترول الغنية في الخليج، ررغم انها دول إسلامية سُنِّيَّة خالصة، لكن المسيحيين في لبنان صاروا على دين الدولار، لا على دين المسيح.

ولهذا السبب عينه ـ أي السُّعار إلى الكسب الوفير ـ غضّ الموارنة

والمسيحيون بعامة النظر عن بعض مظاهر النشاط المسلّح والتجاوزات التي بدأ الفلسطينيون يحدثونها في لبنان، خصوصاً حين أدى نشاط الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان إلى رد اسرائيل بضرب قرى الحدود الجنوبية بالمدفعية في حادثين كبيرين وقعا في شهر مايو وشهر يونيو سنة ١٩٦٨، وهذه القرى شيعية مع قليل من المسيحيين: الموارنة والروم.

ولمّا كان هذا السبب في خفة حدة التوتر الطائفي سطحياً خارجياً عارضاً، فما لبث ما تغلي به النفوس من حقد طائفي ان انفجر انفجاراً عنيفاً بعد ذلك بسبع سنوات، في ابريل سنة ١٩٧٥ ولا يزال مستمراً حتى يوم الناس هذا (٢٠ ديسمبر سنة ١٩٨٧) في حرب أهليَّة دمّرت كل شيء: الانسان، والمال، وكل مقوّمات الحياة الانسانية: من حرية، وأمان، وتكافل.

وجوهر اللبناني انه تاجر بالفطرة. ولا غاية للتاجر سوى الربح، ويستوي لديه ان يتّجر في أية سلعة كانت، مادية او روحية، ما دامت تأتي بالربح. ومن هنا يستوي لديه ان تكون بضاعته هي السياسة، او الدين، او الأخلاق، او العلم، او أي شيء آخر جالب للأرباح. وهذه الخاصية هي التي تفسّر كل الأحداث التي جرت وتجري في لبنان، منذ أقدم الأزمان حتى الآن.

باريس في أعقاب

أحداث مايو سنة ١٩٦٨

ولما فرغت من طبع العدد (الثاني) من «مجلة كلية الآداب» عدت إلى بيروت في منتصف شهر يونيو سنة ١٩٦٨. وفرغت من تصحيح امتحاناتي. وفي ٢٧ يونيو سافرت إلى باريس.

وعلى عكس ما صوّرته الصحف، لم أعثر على آثار تذكر لأحداث مايو، التي بالغت الصحف الفرنسية في وصفها وهوّلت في ذكر تفاصيلها ومدلولاتها. لقد كان أول عمل قمت به غداة وصولي إلى باريس في مساء ٢٧ يونيو ان ذهبت إلى الحي اللاتيني، المسرح الرئيس للأحداث، فلم أرَ شيئاً قد تغيّر في ميدان السوربون، ولا في شارع سان ميشيل، ولا فيما جاوره من شارع سان جرمان، ولا ما تفرع عنه مثل شارع سوفلو، وشارع حي لوساك. وطوّفت في أرجاء جبل سانت جنيڤياڤ وحول الباتيون ـ فلم أجد أي آثار لتخريب او تدمير. وذهبت إلى ناشر كتبي، دار ڤران Vrin، وتقع في قلب ميدان السوربون فسألت أصحابها: «هل وقع لكم أية أضرار وأنتم كنتم في معمعان المعركة؟ إنّي أرى كل شيء في داركم على حاله تماماً كما تركته منذ عشرة أشهر!» وبعد البوادر والهمهمات المألوفة عند الفرنسيين، لم يستطيعوا ان يدلّوني على أي تخريب، وتلخص جوابهم في القول بأنهم كانوا «خائفين» على الدار ان يصيبها أي ضرر. أمّا في الواقع فلم يحدث شيء. كل ما هنالك بضع قطع من أحجار الرصف قد انتزعت من هنا وهناك في الميدان، وتمثال أوجيست كونت ـ القائم في وسط الميدان قد تلقى بعض الاصابات، وفروع شجرة دلب في الشارع قد قطعت!! هذا كل ما في الأمر.

أمّا الكتابات على جدران ليسيه سان لوي المواجهة للسوربون فإن كانت قد

تكاثرت وزادت لهجتها عنفاً وألوانها سواداً ـ فهذا أمرٌ مألوف باستمرار منذ مئات السنين.

وطوّفت بعد ذلك في الأيام التالية في سائر أحياء باريس التي اعتدت ارتيادها: الاوبرا، المادلين، الشانزليزيه، الكونكورد، الخ فلم أعثر على أي أثر كان لما يُسمّى بأحداث مايو سنة ١٩٦٨.

لهذا تيقنت ان ما سُمّي بـ «أحداث مايو سنة ١٩٦٨» هو مجرد اسطورة اخترعها الخيال الفرنسي اختراعاً، كي يزعم ان فرنسا ليست أقل من سائر الدول الكبرى مشاركة في ثورة الشباب التي عمت آنذاك الولايات المتحدة الأمريكية، وايطاليا، والمانيا، والتي وصفناها بالتفصيل في مقال لنا بمجلة «عالم الفكر» (سنة ١٩٧١).

لقد كانت «أحداث مايو سنة ١٩٦٨» في فرنسا زوبعة في فنجان. وعلى العكس تماماً مما قصده منها مثيروها: الشيوعيون والاشتراكيون ـ أفضت إلى تأييد كاسح لديجول. فقد أجريت انتخابات جديدة في ٢٣ يونيو (الجولة الأولى، و٣٠ يونيو الجولة الثانية) أسفرت عن انتصار ساحق ماحق ظفر به ديجول وأنصاره ضد الاشتراكيين والشيوعيين. اذ كانت النتائج كما يلي: وأعضاء المجلس الوطني هم ٤٨٧ نائباً:

الديجوليون	٢٩٢ نائباً (بزيادة ٩٢ عن عددهم في المجلس السابق)
الجمهوريون المستقلون	٦١ (بزيادة ١٨، وهم متحالفون مع الديجوليين)
التقدم والديمقراطية والحرية	٣٣ (بنقص ١٠)
اتحاد اليسار	٥٧ (بنقص ٦١)
الحزب الشيوعي	٣٤ (بنقص ٣٩)
المستقلون	١٠
المجموع	٤٨٧ نائباً

وأمام هذه النتائج الدامغة دخل الشيوعيون والاشتراكيون جحورهم، واستتب النظام والهدوء التام في باريس وسائر أنحاء فرنسا، كما شاهدنا ذلك بأعيننا منذ وصولنا إلى باريس في ٢٧ يونيو سنة ١٩٦٨ وطوال الأشهر الثلاثة التالية. وغادر الناس باريس وسائر المدن لقضاء عطلاتهم التي هم أحرص عليها من كل سياسة.

والأمر الوحيد الذي أثار بعض اللغط هو ان ديجول قد عيّن كوف دي ميرڤيل Couve de Murville رئيساً للوزراء في ١٥ يوليو، على اثر ظهور نتيجة الانتخاب وضرورة تقديم الوزارة - وكانت برئاسة پومبيدو - استقالتها. ذلك انه كان لپومبيدو دور لا ينكر في انتصار الديجوليين وحلفائهم في الانتخابات. صحيح ان الفضل الأكبر هو لشخص ديجول ومكانته. لكن هذا ما كان ينبغي ان يكون سبباً كي يغمط ديجول نصيب پومبيدو في احراز هذا النصر. أترى شعر ديجول بنوع من الغيرة من رئيس وزرائه. فاستبدل به من لم يكن له شأن يذكر في تنظيم الحملة الانتخابية؟ ربما، وفي التاريخ شواهد كبيرة على ذلك. لقد كانت الاوستراسيسم Ostracisme (أي نفي القائد العائد من انتصار عظيم) قاعدة شائعة عند اليونان. وعبثاً حاول ديجول ان يخفف من وقع صنيعه هذا بأن كتب إلى پومبيدو في خطاب قبوله استقالة الوزارة: «أرجو ان تبقى على استعداد لأداء اية مهمة وتشغل أية وظيفة يمكن للأُمَّة ان تدعوك ذات يوم للقيام بها». ومما يستحق الذكر ان پومبيدو كان رئيساً للوزراء منذ ١٥ ابريل سنة ١٩٦٢ وشكّل خمس وزارات متوالية. أمَّا كوف دي ميرڤيل - وكان سفيراً لفرنسا في مصر سنة ١٩٥٠ - ١٩٥٢ - وزيراً للخارجية منذ عاد ديجول إلى الحكم في يونيو سنة ١٩٥٨. وهو رجل عبوس الوجه، بارد الأعصاب، رابط الجأش، لا تنم ملامح وجهه عما يجول في خاطره ولهذا يصعب جداً استشفاف آرائه. وقد وُلِدَ في سنة ١٩٠٧ من أُسرة پروتستنتية. ودَرَسَ القانون والعلوم السياسية. وفي سنة ١٩٣٠ صار مفتشاً مالياً؛ وفي سنة ١٩٤٠ صار مديراً للمالية الخارجية وبهذه الصفة اشترك في الوفد الفرنسي المشارك في مفاوضات الهدنة مع ألمانيا في مدينة ڤيزماون. لكنه سافر في سنة ١٩٤٣ إلى الجزائر وانضم إلى لجنة التحرير الوطني الفرنسي. وبعد الحرب العالمية الثانية تدرّج في السلك السياسي وصار سفيراً لفرنسا في روما، والقاهرة، ولدى منظمة الحلف الأطلسي، وواشنطن، وبون (ألمانيا الغربية). ونجح في انتخابات ٢٣ يونيو سنة ١٩٦٧، ولأول مرة صار نائباً عن الدائرة الثانية في باريس؛ وقد رسب قبل ذلك في الدائرة السابعة، لأنَّ هذه الدائرة تحفل بالمتدينين الكاثوليك، بينما هو پروتستنتي!

الشتاء الثاني في روما

ثم استأنفت عملي في الجامعة الليبية في حواى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٦٨، وقمت بتدريس نفس المواد: المنطق، الفلسفة المعاصرة، الفلسفة الاسلامية والتصوّف.

وتصادف ان كان عيد الفطر في ٢١ ديسمبر، فرؤي الجمع بين اجازة عيد الفطر وعطلة نصف السنة الدراسية، فهيأ لي ذلك ان أقضي في روما من يوم الجمعة ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٦٨ حتى يوم الأحد ١٩ يناير سنة ١٩٦٩، أي ثلاثين يوماً. لهذا قررت هذه المرة ان أتعمّق دراسة آثار روما والاكثار من التردّد على متاحفها.

وإلى جانب هذا الاهتمام بالآثار والفنون، أخذت في التردّد على «مؤسسة كيتاني» في نطاق أكاديمية اللنشاي Accademia Nazionale dei Lincei.

وهذه الأكاديمية الواقعة على الناحية الأخرى من نهر التفرة، في رقم ١٠ شارع اللونجار Via della Lungara هي أقدم أكاديمية في ايطاليا، وربما في أوروبا كلها. واسمها Lincei مأخوذ من «اللنقوس» (= الضبع)، وهو حيوان مفترس لكنه مشهور بحدّة بصره حتى قيل ان بصره ينفذ في أعماق باطن الأرض (!)، والمقصود هو ان الباحثين ينبغي ان يكونوا في حدّة النظر مثل اللنقوس. وتاريخ الأكاديمية يقع في ثلاث مراحل:

الأولى: من سنة ١٦٠٣ إلى سنة ١٦٣٠.

والثانية: من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٧٥٥.

والثالثة: من سنة ١٨٠١ إلى يوم الناس هذا.

ذلك انه في ١٧ أغسطس سنة ١٦٠٣ ألّف أربعة من الشبان في روما جمعية للدراسات العلمية وهم: فدريكو اتشيزي Federico Cesi، ابن الدوق الأول لأسكواسپرتا Acquasparta، وفرنشيسكو استلّوتي Stelluti وهو متخصص في العلوم الطبيعية ومترجم من اللغة الفارسية إلى الايطالية، والكونت انسطازيو دي فليس De Filis وهو من أقرباء اتشيزي، والطبيب الهولندي يوهان إك Yohann Eck. ولم يزد عمر أحد من الثلاثة الأوائل عن ثلاثين عاماً، لكنهم كانوا مولعين بالبحث العلمي، واتخذوا نموذجاً لهم جاليليو، إذ أراغوا إلى الكشف عن أسرار الطبيعة والنفوذ فيها «بعيون كعيون اللنقوس». وسرعان ما حامت الشكوك حول هذه الجمعية، في روما البابوية، فتفرّق الشباب الثلاثة في أنحاء ايطاليا، واضطر الطبيب الهولندي إلى العودة الى وطنه في سنة ١٦٠٤. لكن ما لبثت جماعة جديدة ان حلت محل الأربعة الأوائل: إذ قامت «أكاديمية لنشاي» جديدة انضم اليها N.A. - Luea Valerion - Fabio Colonna - G.B. Della Porta Stelliota ـ وهم ايطاليون، و G. Schreck و Luea Holstein وهما ألمانيان، وDemisiaru وهو

يوناني، و G. Ricchio وهو بلجيكي، وأفراد من فيرنتسيه وروما ثم خصوصاً انضم اليهم في سنة ١٦١١ جاليليو جاليلاي أكبر علماء عصره. حتى صار عدد أعضاء أكاديمية لنشاي في سنة ١٦٢٥ هو ٣٢ عضواً. وكانوا يعقدون اجتماعاتهم القليلة في قصر اتشيزي Cesi بروما، وأصدرت هذه الأكاديمية عدة أبحاث علمية، منها بحث لجالليو عن «البُقع الشمسية» (سنة ١٦١٣). لكن وفاة اتشيزي Cesi في سنة ١٩٠٣ أدَّت إلى توقف نشاط الأكاديمية، خصوصاً والاتهامات دارت حولها بسبب وجود جالليو بين أعضائها، وكان البابا قد أدانه في سنة ١٦١٦.

فتوقفت الأكاديمية من سنة ١٦٣٠ حتى أُعيدت من جديد في سنة ١٧٤٥ - أي بعد ١١٥ سنة - لما ان قام عالم التاريخ الطبيعي جيوڤني بيانكر Giovonni Bianckr باستئناف نشاطها، ومع ذلك لم يستمر هذا النشاط إلاّ عشر سنوات، إذ توقف من جديد في سنة ١٧٥٥.

ثم بُعثت هذه الأكاديمية من جديد في سنة ١٨٠١، وأطلق عليها اسم: اللنقويون الجُدُد Nuovi Lincei، وفي سنة ١٨٠٤ عادت إلى الاسم القديم Accademia dei Lincei. لكن لما كان الأب المستشرق اسكارپلّيني Scarpellini قد جعل منها معهداً خاصاً لشخصه، فقد دفع ذلك البابا جريجوريوس السادس عشر الى الغائها. ثم جاء پيوس التاسع في سنة ١٨٤٧ فأعاد فتحها وقرّر لها لائحة رسمية وسماها باسم: Accademia Pontificia dei Nuvri Lincei. وبعد ضم روما إلى الوحدة الايطالية، سميت Reale Accademia dei Lincei وصدرت لها لائحة جديدة في سنة ١٨٧٥ جعلت منها مؤسسة قومية رسمية. وازدهر نشاطها بفضل مديرها آنذاك Quintino Sella الذي رأسها حتى وفاته سنة ١٨٨٤. وفي سنة ١٨٨٣ اشترت (الحكومة الإيطالية قصر كورسيني Palazzo Corsini في شارع اللونجارا Via della Lungara رقم ١٠، واستقرت فيه أكاديمية اللنشاي منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

وتنقسم اكاديمية اللنشاي الى قسمين: قسم مختص بالعلوم الفيزيائية والرياضية والطبيعية؛ وقسم خاص بالعلوم الأخلاقية والتاريخية والفيلولوجية. والقسم الأول مؤلف من ٦٥ عضواً ايطالياً، و٦٥ عضواً مراسلاً، و١٠٠ عضو أجنبي. والقسم الثاني مؤلّف من ٥٨ عضواً إيطالياً و٥٨ عضواً مراسلاً، و٥٨ عضواً أجنبياً. ويدير الأكاديمية مجلس رئاسة مؤلف من: رئيس، ونائب رئيس، وسكرتيرين اثنين، وسكرتيرين مساعدين، ومدير اداري. ويختار الأعضاء بالانتخاب فيما بينهم. وينفق على الأكاديمية من منحة تقدمها لها الدولة سنوياً.

وهي تصدر مضابط Rendiconti ومباحث Memorie. ونشاطها الرئيسي يقوم في نشر أعمال الباحثين من أعضائها الوطنيين والأجانب. وتمنح كل سنة مجموعة من الجوائز ومن المنح الدراسية الواردة اليها خصوصاً من المؤسسات المختلفة (هيئات علمية، بنوك، الخ).

ولها مكتبة من أغنى المكتبات، تجاوزت ٣٠٠,٠٠٠ كتاب علمي. وتنقسم المكتبة إلى أربعة فروع:

١ ـ الكورسنيانا Corsiniana وتشمل الكتب التي اقتناها Lorenzo Corsini الذي صار بابا باسم كليمانس الثاني عشر، وقد اقتناها قبل وأثناء توليه كرسي البابوية (من سنة ١٧٣٠ حتى سنة ١٧٤٠). وانضافت إليها مقتنية اخرى تالية. وقد أهدت هذه الكتب كلها إلى أكاديمية لنشاي أُسرة كورسيني في سنة ١٨٨٣.

٢ ـ الفرع اللنشائي، وقد تكوّن في سنة ١٨٤٨ من مكتبة اللنشاي القديمة، وقد نقل إلى قصر كورسيني منذ سنة ١٨٨٥. ويشتمل على الكتب المهداة إلى الأكاديمية، ومنشورات المعاهد العلمية المختصة، المحلية والأجنبية، كذلك يحتوي على أعمال أعضاء الأكاديمية ومحاضر جلساتهم.

٣ ـ مؤسسة كيتاني ويشتمل هذا القسم على الكتب والمجلات المختصة بالدراسات الاسلامية وقد أُنشيء هذا القسم في سنة ١٩٢٤، ويشتمل على مكتبة ليوني كيتاني Leone Caetani دوق سرمونيتا، والباحث الشهير في تاريخ صدر الاسلام، وصاحب الكتاب الواسع الذي لا يزال من المراجع الرئيسة في تاريخ السيرة النبوية وصدر الاسلام، وعنوانه «حوليات الاسلام» Annali dell'Islam، ويشتمل هذا القسم ايضاً على مكتبة ميكيله أماري Michèle Amari (راجع كتابنا: «موسوعة المستشرقين») وقد اقتنتها الأكاديمية في سنة ١٩٨٥. وانضاف إلى ذلك العديد من الكتب والمجلات بالعديد من اللغات مما يتعلق بالاسلام، حتى صارت مكتبة «مؤسسة كيتاني» هذه من أغنى الخزائن في أوروبا، بل وفي العالم كله، فيما يتعلق بالدراسات الاسلامية بعامة. وكان القيِّم على هذا الفرع هو الأستاذ ريناتو ترايني Renato Traini الذي صار بعد ذلك أستاذاً للآداب العربية في جامعة روما، ولا يزال في هذا المنصب حتى اليوم، مع استمرار إشرافه على «مؤسسة كيتاني».

٤ ـ الفرع الخاص بالآثار، وقد تكوّن من مجموعة كتب في الآثار خلّفتها السيدة ارسليا لوڤاتلي كيتاني Ersilia Lovatelli Caetani.

كذلك ضمت إلى مكتبات أكاديمية لنشاي مكتبة الأكاديمية الإيطالية، وذلك في سنة ١٩٤٤.

وأول قيِّم على «مؤسسة كيتاني» كان جوزبه جبريلي Jiuseppe Gabrielli الذي كتب بحثين عن تاريخ أكاديمية لنشاي: الأول هو: «مؤرخو أكاديمية اللنشاي الأولى» (روما، سنة ١٩٢٩)، والثاني بعنوان: «اشتراك الأكاديمية الملكية الوطنية للنشاي في المعرض الوطني الأول لتاريخ العلم المقام في فيرنتسيه» (روما، سنة ١٩٢٩). وكان هو الذي استقبلني في الأكاديمية لما زرتها في شهر يونيو سنة ١٩٣٧ وأطلعني على محتوياتها.

وهأنذا أبدأ الاستفادة من كنوزها لأول مرة في يناير سنة ١٩٦٩: إذ تبيّن لي أنها على صغرها تحتوي على كل ما طبع في أوروبا من كتب عربية، وعلى جُلّ الدراسات والمؤلفات التي كتبها أجلاء المستشرقين الأوروبيين، وعلى مجلات المستشرقين الرئيسية في العالم منذ اول صدورها. لهذا صارت مكتبة «مؤسسة كيتاني» منذ ذلك التاريخ هي مرجعي الرئيسي في البحث في كل ما كتبته من دراسات وكتب منذ يناير سنة ١٩٦٩ حتى اليوم. وكنت أعمل فيها صباح كل يوم من أيام اقامتي الشتوية في روما، من العاشرة حتى الواحدة. وكنت أقوم بتصوير المقالات والفصول التي كنت أحتاج إليها في دراساتي حتى أفيد منها حين أعود إلى بنغازي ثم من سنة ١٩٧٥ إلى الكويت. وبذلك كنت أجمع مادة وفيرة هي التي سأستعين بها في الكتابة. ويوجد في «مؤسسة كيتاني» عدد من المخطوطات القليلة، منها مخطوطات تتعلق بالدروز، وقد أفدت منها في كتابي «مذاهب الإسلاميين» الجزء الثاني؛ كما أنَّ فيها مصوّرات لمخطوطات في التاريخ محفوظة في مكتبات في استانبول أو في سائر دول أوروبا. ومنها أفدت في كتابة الفصل الخاص بتاريخ الاسماعيلية في نفس الكتاب («مذاهب الإسلاميين»، الجزء الثاني).

وللاستاذ ريناتو ترايني اليد الطولى في توفير أحدث المؤلفات والمجلات للمؤسسة، وبهذا استطعت الاطلاع على آخر الأبحاث في ميدان الدراسات الاسلامية عاماً بعد عام. وكان يتفضل في كل عام بأن يعرض عليَّ كل ما اقتنوه من مؤلفات وأعداد مجلات في المدة الفاصلة بين زيارتي السابقة وزيارتي الحالية. وكانت تلك منه منّةً سابغة لا أستطيع ابداً ان أفيها حقها من الشكر وعرفان الجميل. وفي مقابل ذلك كنت أهدي إلى «مؤسسة كيتاني» في كل عام ما عسى أن أكون قد أصدرته من نصوص وأبحاث في ميدان الدراسات الإسلامية.

وكنت إذا اقتضى البحث الرجوع إلى مصادر لاهوتية أو متعلقة بالكتاب المقدس، أقضي وقتي من الثالثة إلى السادسة بعد الظهر في مكتبتين:

الأولى: هي مكتبة المعهد الكتابي البابوي Pontifico Institute Biblico وهذا المعهد مركز للدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس. وقد أنشأه البابا پيوس العاشر في ٧ مايو سنة ١٩٠٩ وعَهِدَ بالاشراف عليه إلى الطريقة اليسوعية. وكان الهدف منه انشاء إعداد الدارسين للحصول على شهادات علمية في الكتاب المقدّس. ومنذ ٢٢ مارس سنة ١٩١١ خوّل له الحق في منح شهادة (دپلوما) بموجبها يمكن الحاصل عليها ان يشغل منصب مدرس في مادة الكتاب المقدس. وفي ١٥/٨/١٩١٦ منح البابا بندكتوس الخامس عشر هذا المعهد الحق في منح درجة البكالوريوس والليسانس. وفي ١٣/٩/١٩٢٨ منحه البابا پيوس الحادي عشر الحق في منح الدكتوراه. وتوسع المعهد في ٧ أغسطس سنة ١٩٣٠ بأن صارت له كلية لدراسات الشرق القديم، بها أربعة أقسام: اللغات السامية، الأشوريات، المصريات، السنسكريتية والايرانية.

وللمعهد، ويقوم في شارع Pilotta الآخذ من الشارع المنحدر إلى ميدان ڤنتسيا، مكتبة غنية فيها اليوم خير أداة للدراسات المتعلقة بالكتاب المقدّس: ففيها أكبر مجموعة من دوائر المعارف، والمعاجم، والترجمات إلى معظم لغات العالم، والمجلات المتخصصة، والدراسات والشروح ـ المتعلقة كلها بالكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد.

ومنذ سنة ١٩٣٢ وهذا المعهد يصدر مجلة ممتازة في الدراسات الشرقية بعامة، عنوانها Orientalia (سلسلة جديدة) وتهتم خصوصاً بالشرق القديم.

وابتداء من سنة ١٩٣٤ اصدر مجموعة من الدراسات المفردة تحت عنوان: Analecta Orientalia كما انه اصدر نشرة نقدية يونانية ولاتينية للعهد الجديد من الكتاب المقدّس قام بها P.A. Merk؛ كما أصدر المعجم Lexckon العبري والارامي الذي صنعه P. Zorrell. وأرسل بعثات أثرية إلى فلسطين، قامت إحداها في عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ بالتنقيب في تليلة غسّول على مقربة من ملتقى نهر الأردن بالبحر الميت، توصلت إلى اكتشاف أربع مدن بعضها فوق بعض وترجع إلى ما قبل سنة ألفين قبل الميلاد.

وكنت أتردّد على هذه المكتبة من الثالثة حتى السادسة كل يوم أثناء عملي في «موسوعة الأديان».

والثانية هي مكتبة الجامعة الجريجورية La Gregoriana، وتقع في مواجهة المعهد الكتابي البابوي. وقد تأسست في سنة ١٥٥١ تحت اسم «الكلية الرومانية» Collegrinu Romanum على يد مؤسس الطريقة اليسوعية اغناطيوس لويدك، ثم زودها البابا جريجوريوس الثالث عشر في أعوام ١٥٨٢ إلى ١٥٨٤ بالأبنية الملائمة، وجعل منها جامعة. ومنذ سنة ١٩٢٠ وهي تصدر مجلة فصلية بعنوان Oregorianum. وميزة مكتبة هذه الجامعة انها تحتوي على سلاسل متصلة كاملة من المجلات الدينية، وعلى الطبعات الكبرى للمجاميع اللاهوتية مثل:

- «مجموع الآباء اليونان» Patrologier Gracca (نشرة Migue في ١٦٢ مجلداً، باريس ١٨٥٧ ـ ١٨٦٦).

- «مجموع الآباء اللاتين» Patrologia Latina (نشرة Migue في ٢٢١ مجلداً، باريس ١٨٤٤ ـ ١٨٦٤).

- «مجموع الآباء الشرقيين» Patrologıa Orientalis (نشرة R. Graffin و F. Nau، باريس ١٩٠٧ وما يتلوها).

- «تاريخ الآداب الكنسية القديمة» تأليف O. Bardenhewer (في ٥ مجلدات).

- «تاريخ الأدب البيزنطي من جستنيان حتى نهاية الدولة الرومية الشرقية من سنة ٥٢٧ الى سنة ١٤٥٣» تأليف K. Krumlacher (سنة ١٨٩٧).

- «تاريخ البابوات في العصور الوسطى» تأليف H.K. Mann (في ١٨ مجلداً) سنة ١٩٠٢ ـ ١٩٣٢).

وكلما كنت أتناول واحداً من أجزاء هذه المجموعات كنت أتحسّر حسرة بالغة على أننا لم ننشر مجموعات مثلها خاصة بالمتكلمين على اختلاف فرقهم، والفلاسفة المسلمين، والمترجمين عن اليونانية، والفقهاء في كل مذهب، الخ. لكن فيمَ التحسّر، ولم يصدر حتى الآن نشرة كاملة لانتاج مؤلف واحد!!

أمّا مكتبة الفاتيكان فلم أعُد أتردّد عليها منذ سنة ١٩٥٥، وذلك لأنّي كنت قد تردّدت عليها من سنة ١٩٤٧ حتى سنة ١٩٥٤ بمعدل أسبوعين في أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر من كل عام، وقضيت كل أربي منها بتصوير كل ما كنت أحتاج إليه إذ كانت فيها خدمة ممتازة للتصوير.

احتفال عيد الميلاد
في كنيسة القديس بطرس

ويسوقني هذا إلى التحدُّث عن مشاهدتي لأول مرة للاحتفال بعيد الميلاد في كنيسة القديس بطرس في صباح يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٨.

الاحتفال كان فخماً، والحشود في داخل الكنيسة وخارجها لا يبلغها الحصر، والمراسم تتسم بالأُبَّهة وتعدد الألوان: الكرادلة بثيابهم البورفورية الزاهية اللامعة، والأساقفة وسائر المراتب الكهنوتية بملابسهم المتعددة الألوان والأزياء. وأخيراً دخل البابا بولس السادس محمولاً على محفّة واسعة تحملها ثلّة من شباب روما، ومن فصوص الخواتم التي حلّى بها أصابعه كانت اشعاعات متعددة الألوان تنطلق ذات اليمين وذات اليسار فتبث ما يشبه البروق في صحن الكنيسة وعلى رؤوس الحاضرين. وراح يتطلع يمنة ويسرةً في زهو وخيلاء ولسان حاله كأنّه يقول: أنا ربكم الأعلى.

وتابعت أنا هذا المشهد وأنا أقول في نفسي:

أين مشهد هذا البابا المزيّن بأفخر الجواهر المتدثر بأنفس الثياب، المتربّع على عرش يحمله ثلّة من أجمل وأنضر شباب روما ـ من مشهد الطفل يسوع الراقد في مذود بقر، المقمّط في خرق بالية (انجيل لوقا ٣:٧).

وما هذا الشموخ والكبرياء والتعالي في مظهر وملامح البابا؟ ألم يقرأ قول يسوع: «مَن يتعاطى يُحَطُّ (لوقا ١٤: ١١)؟ ألم يسمع بقول القديس أوغسطين: «الدين المسيحي قوامه كله هو التواضع»؟ Tota Christiana Religio Humilitas est.

وما لهذا الإسراف في الترف والتحلّي بأفخر الجواهر التي يزيد ثمنها عن مائة مليون دولار؟ ألم يتأمل موعظة الجبل (انجيل متى، الفصول ٥ ـ ٧) وما قاله فيها يسوع: «لا تكدّسوا كنوزاً على الأرض... بل كدّسوا كنوزاً في السماء... وحيث يوجد كنزك يوجد قلبك» (٦: ١٦ ـ ٢١). «لماذا تهتمون بالملبس؟ انظروا إلى زنابق الحقول كيف تنمو: إنها لا تتعب نفسها ولا تغزل. وإنّي لأقول لكم إنَّ سليمان نفسه، في كل مجده، لم يلبس مثل واحدة منها» (٦: ٢٨ ـ ٢٩).

ولماذا يمتطي محفة فاخرة يحملها ثلة من أروع وأجمل شباب روما ـ بينما لا يرى يسوع يحمله أحد من الناس، وقصارى أمره ان يركب حمارة يتبعها جحش (متى ٢٠:٧)، أو جحشاً لم يمتطه أحد من قبل (لوقا ١٩ :٣٠).

وكان منظر هذه المحفة أشدّ المناظر إثارة للنفور والازدراء في نفسي. وحدث بعد يومين ان التقيت ببعض الرهبان، وعبّرت لهم عن شدة امتعاضي من هذا المنظر البغيض المنافي لكل ما دعا إليه المسيح ـ فأجابوا وهم مسربلون بالخجل الوقح: «ان المقصود بهذه المحفة هو تمكين الناس من مشاهدة البابا!» ذرة من الحياء أيُّها المنافقون! إن في وسع المشاهدين ان يروه لو كان سائراً على قدميه في الممشى الأوسط للكنيسة، فضلاً عن انه بعد ذلك سيقف على منصة البلدكان الضخم القائم عند بداية المحراب، وترتفع المنصة حوالى متر او أكثر عن مستوى الأرضية، وفي وسع الجميع حينئذ ان يشاهدوه بكل وضوح. فليتخلّ هؤلاء المنافقون من الرهبان ورجال الدين عن هذا التبرير السخيف الواهي لاستعمال تلك المحفّة. والأولى بهم ان يعترفوا بأنها فضيحة ومصدر عار، وليطالبوا «حبرهم الأعظم» هذا بالتخلّي عن هذه العادة الموروثة عن أباطرة الرومان. نعم! إن البابا يحاول دائماً محاكاة أباطرة الرومان، وآية ذلك إن لقبه هو لقب الامبراطور الروماني، أعني Pontifex Maximus إنّه ظنّ نفسه دائماً خليفة قيصر روما، لا النائب الرسولي ليسوع الناصري.

عادات غريبة

وجاءت ليلة القديس سلفسترو، أي ليلة رأس السنة. فقرأت في صحف مساء يوم ٣١ ديسمبر تحذيراً للناس من السير في الشوارع عقب الساعة الثانية عشر ليلاً، أي منتصف الليل، لأنَّ الناس اعتادوا في روما أن يلقوا من شرفات او نوافذ منازلهم بالأثاث القديم والملابس العتيقة والأدوات المنزلية المتهالكة في الشوارع حتى يبدأوا عامهم الجديد بأثاث وأدوات منزلية جديدة.

وعادة أخرى هي انه لما كان السحب على اليانصيب الكبير يتم في أول يوم من العام، فإنَّ العابثين الساخرين يطلقون شائعات تزعم ان فلاناً من الناس قد فاز بالجائزة الكبرى؛ وفلان هذا هو من ذوي العقول الساذجة التي يحلو للناس الاستهزاء بهم. ويظل هذا المسكين طوال الأسبوع الأول ـ وربما الثاني أيضاً ـ من شهر يناير مطارداً من الصبيان والشبان في الحيّ، ويتحلقون حوله طالبين منه نصيباً من هذا «اليانصيب»! وتمتلىء الصفحات الوسطى من الجرائد بالأخبار عن هذا «المسكين» وبشكاته من مطاردة الناس له وسخريتهم به وهو الفقير الذي يقضي أيامه خاوي الجيب.

الاضطرابات الاجتماعية

وازدادت الاضطرابات الاجتماعية عنفاً واتساعاً ولعب الدور الأكبر في اثارتها فئتان: العمال والطلاب.

فلقد كانت سنة ١٩٦٨ حافلة بالاضرابات العمالية والطلابية، التي بلغت أوجها في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٨ حين أضرب ١٢ مليوناً من العمال، تؤيدهم الاتحادات الكاثوليكية والشيوعية واليمينية اضراباً شمل ايطاليا كلها. وانضم إليهم طلاب المدارس العالية والجامعات مطالبين بـ «تحرير» نظام التعليم، واطلاق حرية العلاقات الجنسية بين الطلاب والطالبات.

ومنذ مطلع سنة ١٩٦٩ والاضرابات تندلع في مختلف القطاعات: في ١/١١ أضرب عمال محطات البنزين، وفي ١/٢٩ اجتاحت موجة من الاضرابات كل ايطاليا، وفي ٢/٣ أضرب موظفو الطرق السريعة، وفي ٢/٥ شمل الاضراب العام كل روما، وفي ٢/٨ قامت حرب «الموالح» فسدَّ البستانيون الطريق بين نابلي وروما مطالبين بزيادة سعر البرتقال، وفي ٣/٨ اضراب البياطرة، وفي ٣/١٣ اضراب العمال الزراعيين، وفي ٣/٢١ اضراب المستشفيات، وفي ٤/١١ اضراب عام، وفي ٤/١٨ اضراب الموظفين، وفي ٥/٦ اضراب موظفي البريد والبرق والهاتف، وفي ٥/٢٠ اضراب موزعي البريد، وفي ٥/٢٢ اضراب عمال الجمارك، وفي ٦/٣ اضراب في مصانع فيات Fiat للسيارات، وفي ٦/٤ اضراب في صقلية؛ وفي ٦/٢٥ اضراب الموظفين، وفي ٦/٣٠ اضراب نظّار المحطات، وفي ٧/١ موجة هائلة من الاضرابات، وفي ٧/٢٥ اضرابات جديدة، وفي ٩/٣ اضرابات دائرية في مصانع فيات، وفي ٩/١٧ اضرابات شاملة، وفي ٩/٢٥ اضرابات في تورينو؛ وفي ١٠/١٧ اضرابات جديدة، وفي ١٠/٢٦ اضرابات الجرائد، وفي ١٠/٢٩ معارك في مصانع فيات، وفي ١٠/٣٠ اضراب في الصناعات الكيماوية، وفي ١١/١١ اضراب الخياطات، وفي ١١/١٩ اضراب عام، وفي ١٢/٤ اضراب موظفي البنوك، وفي ١٢/٢٣ اضرابات جديدة. وقد بلغ مجموع ساعات الاضراب أربعمائة مليون ساعة.

فقُلْ لي، بالله عليك، أية أُمّة هذه التي يحدث فيها هذا القدر من الاضرابات في عام واحد؟!

وأثق أنّني لم أكن أخرج صباح أي يوم من اقامتي هذه في روما طوال شهر، حتى كنت أُشاهد في الشوارع مواكب من طلاب المدارس الثانوية خصوصاً،

حاملين أعلاماً تنبىء عن التطرف السياسي الجامح (فوضويون، مادّيون، شيوعيون، ألوية حمراء، الخ الخ).

وفي الوقت نفسه كانت الأعمال الارهابية تريق الدماء في كل مكان في ايطاليا: من صقلية حتى أقصى الشمال. ومن أبشع الحوادث الارهابية حادثة «البنك الوطني للزراعة» في ميلانو في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٦٩. وقد أسفرت عن: ١٥ قتيلاً، وأكثر من مائة جريح. وفي نفس اليوم عثر في البنك التجاري الايطالي، في ميلانو ايضاً، على حقيبة تزن حوالى عشرة كيلوجرام وبها جهاز تفجير قوي جداً. وفي روما انفجرت قنبلة في تمثال الجندي المجهول، وفي قاعة «البنك الوطني للعمل»، ونجم عن ذلك جرح العديدين. ومن بين الذين اتهموا بالارتباط بهذه الأعمال الارهابية ناشر يساري يدعى فلترينلِّي Feltrinelli، كان ـ ولا تزال دار نشره حتى اليوم ـ ينشر الكتب الشيوعية لمختلف الكتّاب الشيوعيين في كل أنحاء العالم مترجمة إلى الايطالية، وفي الوقت نفسه كان من أغنى الأغنياء!

وكان رئيس الجمهورية الايطالية آنذاك هو جوزبه سَرَجات Saragat (كان رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٦٤ حتى سنة ١٩٧١) رئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي كان اشتراكياً ثم انشق على الحزب الاشتراكي في سنة ١٩٥١ وكوّن حزبه الصغير هذا. وسرجات أخسّ رئيس جمهورية عرفته ايطاليا منذ اعلان الجمهورية في سنة ١٩٤٦ حتى اليوم بأنّه وصولي متقلّب، تافه العقلية، مستعبد لإسرائيل، لا يعي في السياسة شيئاً، ومع ذلك كان وزيراً للخارجية عدة مرات!! ـ أمّا رئيس الوزارة فكان مريانو رومور Mariano Rumor (وُلِد في ٦ يونيو سنة ١٩١٥)، وهو ديمقراطي مسيحي، وقد تخرّج في جامعة پادوا من قسم اللغة الايطالية وآدابها، وصار مدرساً للغة الايطالية وآدابها. لكنه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٥ اشتغل بالسياسة فانضم إلى الحزب الديمقراطي المسيحي الذي أنشأه غداة الحرب دي جاسپري De Gasperi (توفي سنة ١٩٥٤) وقام بتنظيم حركة هذا الحزب في مدينة ڤتشنيتا Vicenza. وسرعان ما ترقى في مراتب رجال الحزب الديمقراطي المسيحي حتى صار في ديسمبر سنة ١٩٦٣ السكرتير السياسي للحزب لما أن استقال ألدو مورو Aldo Moro من منصب السكرتير العام للحزب كي يرأس أول حكومة ائتلافية من يسار الوسط. وفي هذه السنة، سنة ١٩٦٩، تولّى مريانو رومر رئاسة وزارتين: ألّف الأولى في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٦٨، والثانية في ٥ أغسطس سنة ١٩٦٩؛ وكانت الأولى ائتلافية: ١٨ ديمقراطي مسيحي، ٩ اشتراكي، ١ جمهوري. أمّا الثانية فكانت من حزب واحد،

هو الديمقراطي المسيحي. وكلتاها كانت هزيلة. على انه يمكن القول بوجه عام انه بعد وزارة دي جاسپري (١٩٤٥ ـ ١٩٥٣) لم يكن في ايطاليا حتى اليوم حكومة مستقرة، او حكومة بالمعنى الصحيح، بل سلسلة من الوزارات الهزيلة المتماوجة التي لا يعرف لها رأس من ذنب.

عود إلى اسبانيا

وقرب نهاية عطلة الصيف وأنا في باريس قرأت في صحيفة «لوموند» في مساء أول سبتمبر نبأ وقوع انقلاب عسكري في ليبيا، وإغلاق مطاريها في طرابلس وبنغازي. فكان عليَّ ان أنتظر ان يفتحا وان ينجلي الموقف هناك.

لكن مضت أربعة أسابيع وكلا المطارين لا يزال مغلقاً، فقررت أن أُسافر إلى اسپانيا في أول اكتوبر سنة ١٩٦٩. وفي مدريد أمضيت اسبوعين.

وكان آخر عهدي بها في سبتمبر سنة ١٩٥٩. فشاهدت مدريد كعهدي بها: جميلة، أنيقة، هادئة، يزخر شارعها الرئيسي، جادة خوسيه أنطونيو José Antonio او «جران بيا» Gran Via (الشارع الكبير) بمواكب الفاتنات من الرابعة بعد الظهر حتى منتصف الليل او يزيد. والمقاهي والمطاعم تزخر بالرّواد. والمسارح الاستعراضية لا تزال تقدم الاستعراضات التي طالما شاهدت أمثالها. لكن الوجوه القديمة إمّا هاجرت إلى المكسيك وغيرها من دول أمريكا اللاتينية كما هي حال لولا فلورس Lola Flores، وإمّا أصابتها الشيخوخة مثل زوجها مانولو كركول Manolo Caracol، وإمّا برم الناس بها مثل پيپه بلانكو Pepe Blanco وخوانيتو ڤلدرّاما Juainto Vaderrama. وبالجملة أصاب المسارح الاستعراضية ذبول، فتحسّرت على عهدها الزاهر فيما بين عامي ١٩٤٩ و١٩٥٥.

ثم إنَّ فواكه البحر قد ارتفعت أثمانها على نحو مذهل: فصار الكيلو من الجمبري يباع في المطاعم بثلاثة آلاف بسيطة، وقد كان في أوائل الخمسينات يباع بثلاثين بسيطة! ثمن الوجبة من اللحوم أو السمك تضاعف عشر بل خمس عشرة مرة، فصارت الوجبة الجيدة التي كانت في سنة ١٩٥٠ تساوي ٤٠ بسيطة ـ تساوي الآن من ٤٠٠ إلى ٦٠٠ بسيطة. ومطعم بوتين Botin الشهير بخرافه المشويّة قد صار سعر الوجبة فيه لا يقل عن خمسمائة بسيطة، وكان من قبل خمسين أو ستين.

أمّا مقهى الأبرا Abra وتشيكوته Chicoté الزاخران في المساء ببائعات الهوى الحسان فقد كانا يزدحمان بالفتيات، لكن مستواهن في الجمال أدنى من قبل بكثير.

واتسعت مدريد ناحية الشمال، في الحي المسمّى بحي «الوزارات الجديدة» Nuevos Ministerus . وتزايد عدد سكانها فصاروا ٣,٢٤١,٠٥٤.

ويرجع الغلاء والتوسع إلى تزايد الاستثمارات الأجنبية وتدفق الملايين من السائحين، فحدث هذا التضخم الغريب.

بداية القلاقل

لكن الأمر الخطير الجديد في اسپانيا هو بدء القلاقل الداخلية، خصوصاً في اقليم الباسك الاسباني. فاضطرت حكومة فرانكو إلى إعادة الرقابة على الصحف وفرض «حالة طوارىء» لمدة ثلاثة أشهر، وصدر القرار بذلك في ٢٤ يناير سنة ١٩٦٩، وكانت «حالة الطوارىء» قد فرضت على اقليم الپاسك في شهر أغسطس من العام السابق (سنة ١٩٦٨). وبذلك أصبح من حق الشرطة تفتيش المنازل بدون إذن النيابة، واعتقال المشتبه فيهم إلى أجل غير محدّد دون محاكمة.

لكن لم يستمر الوضع طويلاً: ففي ٢٥ مارس، أي بعد أقل من شهرين ألغيت حالة الطوارىء كما ألغيت الرقابة على الصحف؛ وأكثر من هذا صدر عفو عام عن كل الأعمال التي ارتكبت أثناء الحرب الأهلية، وذلك بمناسبة الذكرى الثلاثين لانتهاء الحرب الأهلية.

وفي سبيل ترتيب الأوضاع بعد وفاته، قرّر فرنكو تنصيب خوان كارلوس Juan Carlos وليًا للعهد على أن يصبح ملكاً حين يخلو منصب فرنكو بوفاته. ودعى المجلس النيابي Cortes في يوليو سنة ١٩٦٩ للموافقة على قانون بهذا المعنى. وأقسم خوان كارلوس في ٢٢ يوليو اليمين الدستورية بوصفه وليًا للعهد. فأقسم بالولاء لمبادىء الحركة الوطنية، أي الحركة التي يتزعمها فرنكو. وكان أبوه لا يزال حيًا. منفياً في البرتغال؛ ومطالباً منذ سنة ١٩٣٠ بالعرش!! وكان قد صدر تعديل لقانون وراثة العرش في اسپانيا، فبمقتضى المادة ٩ صار من الممكن «اختيار أي شخص من السلالة الملكية يتجاوز عمره الثلاثين عاماً» ـ وكان خوان كارلوس آنذاك يبلغ الحادية والثلاثين.

جائزة الأدب

وفي الأدب حصل على جائزة پلانيتا Planeta في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٦٩، وهي أكبر جائزة أدبية في اسپانيا، وقيمتها مليون ومائة ألف بسيطة ـ الأديب المهاجر رامون خوسيه سندر Ramon Jusé Sender عن قصته: «من حياة اغنسيو موريل» En La Vida de Ignacio Morel.

وقد وُلِد رامون خوسيه سندر في ٥ فبراير سنة ١٩٠١ في قرية تسلميرا بنواحي وشقة Huesea لأسرة أرغونية. ولما بلغ السابعة عشرة وحصل على البكالوريا في سرقسطة هرب من أُسرته إلى مدريد، وعاش في حرمان بالغ إلى ان صار صبيًّا في صيدلية. والتحق بجامعة مدريد، كلية الآداب، لكنه لم يتم دراسته لإنشغاله بالحركات الثورية.

لكنه كان منذ الثالثة عشرة من عمره مهتماً بالأدب. وراح يكتب مقالات في بعض جرائد ذلك الوقت. ولما ضاق به العيش في مدريد عاد إلى أُسرته في مدينة وشقة. فأمضى فيها ثلاث سنوات يصدر ويشرف على جريدة يومية عنوانها: «الأرض» La Tierra كانت تصدر باعتبارها لسان حال «جمعية المزارعين والرعاة» في آرغون الأعلى. ولما دُعي إلى الخدمة العسكرية في سن الحادية والعشرين كانت اسپانيا في حرب ضد الأمير عبد الكريم في منطقة الريف في المغرب. فاشترك في القتال من سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٢٤. وكانت قصته: «الإمان» Iman ثمرة تجربته في هذه الحرب، وقد نشرها في سنة ١٩٣٠.

وفي سنة ١٩٢٤ صار محرراً في جريدة «الشمس» El Sol، وفي سنة ١٩٣٠ ترك «الشمس» للعمل في جريدة «الحرية» وجريدة «التضامن العمّالي».

وكانت ميوله السياسية منذ شبابه ثورية فوضوية. ولهذا شارك في الحركات المتسمة بهذا الطابع. فتآمر ضد الملكيَّة، ودخل السجن في سنة ١٩٢٧ لهذا السبب. ولما قامت الجمهورية في سنة ١٩٣٠ بدا متحمساً لها، ثم ما لبث ان سخط عليها لأنَّ ثوريتها لم تكن كافية في نظره! وانضم إلى الحزب الشيوعي الاسپاني، وسافر إلى روسيا في نهاية سنة ١٩٧٣ وبداية سنة ١٩٣٤ لكنه عاد من هذه السفرة ساخطاً على الشيوعية بسبب أساليبها الدكتاتورية، وراح يحذّر الشعب الأسپاني من عواقب الشيوعية.

وهكذا لم يستطع الارتباط بأي حزب او حركة او اتجاه محدّد. وفي هذا يقول: «إنِّي لا أقدر ان انخرط في طابور من كلاب السيرك التي تنبح على وقع

الايقاع وتحمل في أفواهها عصا السيّد، كذلك لا أود ان ألعب دور رئيس الصالة».

ولما قامت الحرب الأهلية الاسپانية في يوليو سنة ١٩٣٦ انضم إلى الجيش الجمهوري، واشترك في عدة معارك، ووصل إلى رتبة رئيس أركان حرب. وفي سنة ١٩٣٨ كلّفته الحكومة الجمهورية بمهمة الدعاية لقضية الجمهوريين الاسپان في سلسلة محاضرات ألقاها في الولايات المتحدة الأمريكية. وعاد من هذه المحاضرات إلى باريس، فأصدر مجلة دعاية للجمهوريين في باريس. وفي مارس سنة ١٩٣٩ وقد أوشكت الجمهورية على الانهيار أمام الوطنيين بقيادة فرنكو، هاجر مع أولاده إلى المكسيك. وعاش في المكسيك حتى سنة ١٩٤٢، ثمَّ انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتزوّج من جديد ـ وكانت زوجته الأولى قد قتلت في أوائل الحرب الأهلية ـ وقام بتدريس الأدب الاسپاني في عدة جامعات أمريكية.

ثم عاد إلى اسپانيا في سنة ١٩٧٤، واسپانيا لا يزال يحكمها فرنكو.

وتوفي في سان دييجو San Diego بولاية كاليفورنيا (الولايات المتحدة) في ١٦ يناير سنة ١٩٨٢.

وهو أديب غزير الانتاج متعدد المواهب: فهو كتب أقاصيص (مكسيكايوتل Maxicayotl سنة ١٩٤٠؛ «أقاصيص نموذجية لتشيبولا»، سنة ١٩٦١؛ «أقاصيص الخميس الآخر»، سنة ١٩٦٩)، وناقد مؤرخ للأدب («جيل ٩٨»، سنة ١٩٦١؛ «ڤامي انكلان وصعوبة التراجيديا»، سنة ١٩٦٥)؛ ومؤلف مسرحيات («الشيطان» سنة ١٩٥٨)، وشاعر «الخيالات المهاجرة»، سنة ١٩٦٠). لكن انتاجه الرئيسي هو القصص: ونذكر منها: «سبعة آحاد حمراء» (سنة ١٩٣٢)؛ «مستر وت Witt في الاقليم» (سنة ١٩٣٥)؛ «ليلة الرؤوس المائة» (سنة ١٩٣٤). وبعد نفيه من اسپانيا كتب: «مكان اسم» (سنة ١٩٣٩)؛ «رثاء فلاح اسپاني» (سنة ١٩٥٣)؛ «غصون غار انسلمو» (سنة ١٩٥٨)؛ «المخلوقات الزُّحلية» (١٩٦٧).

وأسلوبه يتسم بالبساطة، ولا يحتفل بالألفاظ، ولا بالعواطف والتدفق العاطفي.

وكون سندر قد حصل على أكبر جائزة أدبية في اسپانيا في سنة ١٩٦٩ دليل قاطع على مدى الحرية التي صارت اسپانيا تتمتع بها في السنوات العشر الأخيرة من حكم فرنكو. لقد صار خصوم فرنكو السابقون وأعداء الحركة الوطنية التي

تزعمها فرنكو يعودون إلى اسپانيا بكل حرية، بل ومنذ سنة ١٩٥٥ صارت مؤلفات خصومه من الكتّاب والشعراء تتداول بحرية في اسپانيا. ومن بين الذين عادوا من المنفى نذكر: فرنتسكو أيالا Ayala، ومانويل Andujar وهم قصصيان.

فرنكو يطلق المزيد من الحريات

والواقع هو ان فرنكو أخذ يطلق المزيد من الحريات: الفكرية، والنقابية، والسياسية. وصار الكتّاب في الصحف والمجلات ينتقدون النظام الحاكم بصراحة وعنف أحياناً. وامتد ذلك الى المجلس النيابي Cortes الذي كان دائماً مطواعاً للنظام الحاكم، كما تجلّى ذلك في نقده لمشروع القانون الخاص بالنقابات.

وواكب هذا التحرر ـ وربما نتيجة له ـ اندلاع الاضرابات وأعمال العنف طوال سنة ١٩٧٠. فأضرب عمال الفحم في استوريا. وأضرب طلاب في بلباو (في ١٤ مارس). وأضرب ألفان من عمال المناجم في ١٧ مايو سنة ١٩٧٠. وشكلت الحكومة محاكم خاصة في ١/١٧، وأعلنت حالة الطوارىء في ٢٤/ ١/ ١٩٧٠. وقامت الشرطة باعتقالات عديدة في اقليم الپاسك في ١٩/ ٤/ ١٩٧٠ وفي غرناطة في ٢١ يوليو قام عمال البناء بمظاهرات، فتدخلت الشرطة لفضها بالقوة فقتلت ثلاثة من المتظاهرين. وتلت ذلك بأيام اضرابات في مدن أخرى، فأضرب عمال الأنفاق في مدريد. وأرغم المتظاهرون على العودة إلى العمل تحت تهديد استدعائهم للخدمة العسكرية. والكنيسة الكاثوليكية، على عادتها في مثل هذه المواقف حاولت ان تركب الموجة، فأصدر الأساقفة بياناً يطالبون فيه بالعدالة الاجتماعية!! نعم الأساقفة الذين ظلوا أكثر من ثلاثين عاماً وهم أقوى دعائم النظام الحاكم، فماذا دعاهم الآن إلى التنبه إلى وجود ظلم اجتماعي!! لكنه دائماً نفاق رجال الدين.

وانتشرت القلاقل في اقليم الپاسك. وأكثر الارهابيون الپاسك النهب والتخريب وفي ١ ديسمبر سنة ١٩٧٠ خطفوا قنصل ألمانيا في سان سبستيان، ثم اطلقوا سراحه عشية عيد الميلاد. وحُوكم الارهابيون الپاسك، فقضت المحكمة بالاعدام على ستة منهم، وبالسجن لمدد طويلة على تسعة. لكن فرنكو في ٣٠ ديسمبر أعلن تحويل أحكام الإعدام إلى أحكام بالسجن لثلاثين عاماً.

وستشهد السنوات التالية المزيد من الاضرابات والقلاقل وأعمال الارهاب من جانب جماعات الپاسك الارهابية المطالبة باستقلال الاقليم عن اسپانيا.

وتلك هي المحرجة Dilemne الرهيبة:

إذا أطلقت الحريات اختل النظام

وإذا أردت النظام فضيّق على الحريات

فإمّا حرية بدون أمن ونظام

وإمّا أمن ونظام بدون حريات

فأي الأمرين ينبغي ان تختار، لأنّه لا وسط بين طرفي قياس الاحراج هذا؟

وتلك مأساة الانسان.

❀ ❀ ❀

وإلى جانب هذه المشاكل الداخلية كانت اسپانيا تواجه مشكلة جبل طارق في سنة ١٩٦٩، وفي شهر اكتوبر بخاصة. ذلك ان الانجليز كانوا قد استولوا على جبل طارق من الاسپان في ٢٤ يوليو سنة ١٧٠٤. ومنذ ذلك التاريخ صار في قبضة بريطانيا رغم المحاولات المتكررة التي قام بها الاسپان لاستعادته؛ وبعدها اضطروا إلى الاعتراف الرسمي بالتخلّي عنه لبريطانيا بموجب معاهدة أشبيلية في سنة ١٧٢٩.

وبعد الحرب العالمية الثانية أخذت اسپانيا منذ سنة ١٩٥٦ في المطالبة باستعادة جبل طارق، وفي ١ مايو قبلت بريطانيا الدخول مع اسپانيا في مفاوضات حول هذا الموضوع، لأول مرة منذ ٢٦٤ سنة من الاحتلال البريطاني لجبل طارق. ولم يأت قبول بريطانيا الجلوس إلى مائدة المفاوضات مع اسپانيا حول هذا الموضوع إلاّ نتيجة اصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً في ١٦ ديسمبر سنة ١٩٦٥ يطالب انجلترا بالتفاوض مع اسپانيا حول موضوع جبل طارق. وعرضت اسپانيا حل المشكلة على أساس عودة جبل طارق إلى السيادة الاسپانية، مع السماح لبريطانيا بالابقاء على مؤسساتها في الجبل ومنح سكان الجبل نظاماً خاصاً يحمي حقوقهم المشروعة. وقدمت بريطانيا ـ على طريقتها في المراوغة ـ باقتراحات مضادة أهمها: ازالة الحاجز المقام على الخليج في سنة ١٩٠٩، وقبول وجود مندوب اسپاني في جبل طارق بصفة قنصل، والتعاون في الكفاح ضد التهريب، واستعمال كلا البلدين للمطار والميناء في أثناء السلم. وطبعاً رفضت اسپانيا هذه المقترحات. فطلبت بريطانيا عرض النزاع أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي، كسباً للوقت. فرفضت اسپانيا هذا الاقتراح ايضاً.

وازاء مماطلة بريطانيا هذه قامت اسپانيا باجراءات صارمة منها: منع تحليق الطائرات البريطانية في المجال الجوي الاسپاني.

وازداد ضغط أسپانيا في يونيو سنة ١٩٦٩: فقررت اغلاق الحدود بينها وبين جبل طارق، ووقف معدّية الجزيرة Algeciras.

وفي الوقت نفسه اصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً يقضي «بإنهاء الوضع الاستعماري في جبل طارق ابتداء من أول اكتوبر سنة ١٩٦٩». لكن بريطانيا رفضت هذا القرار. فقامت اسپانيا في اكتوبر سنة ١٩٦٩ بقطع الخطوط التليفونية مع جبال طارق. وشدّدت الحصار على الجبل، ومنعت العمال من الذهاب الى هناك، وهم القوة العاملة الأساسية هناك. وصدرت الصحف في اسپانيا، وأنا هناك، بالعنوانات الضخمة التالية: «انجلترا خارجة على القانون».

لكن بقيت المشكلة على حالها حتى كتابة هذه السطور (٣٠/١٢/١٩٨٧)! وعليك بعد هذا ان تعلم ان عدد سكان جبل طارق في سنة ١٩٦٩ كان ٢٨,٤٠٧ نسمة فقط.

وظلّ فرنكو، كما وصف نفسه: «الحارس الأمين الذي لا يترك ابداً حراسته، والرجل الذي يتلقى كل البرقيات الواردة بالأنباء السيئة ويُملي الردود عليها، والرجل الساهر بينما الآخرون نائمون) (من خطبة لفرنكو ـ متحف الجيش في مدريد، بتاريخ ٩ مارس سنة ١٩٤٦).

لقد ظل يحكم اسپانيا بواسطة رجال «ترضى عنهم الكنيسة»، ومُلاّك الأراضي والعقارات ورجال الأعمال. وحرص على حماية النظام من كل مغامرة، من الاعيب السياسيين وما أخبثهم في اسپانيا قبل حكم فرنكو وبعده حتى اليوم!

وبمبادراته الدؤوبة في الميدان الاقتصادي والاجتماعي أحدث في اسپانيا تحوّلات عميقة دون هزات ولا طفرات. فزاد سكان المدن بمقدار ٣٠ إلى ٥٠٪. ونقصت الأمّية من ١٩ إلى ٩٪ في خلال ثلاثين سنة. وخلال ١٥ سنة صار عدد الطلاب مثلين. وجنوب اسپانيا، أي الأندلس، نُفّذت فيه الصناعات بشكل بارز، بعد ان كان يقتصر على الزراعة والفاكهة بخاصة، حتى تغيّرت معالم الأندلس في ربع قرن (من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٧٥). وفي الخمسينات والستينات احتلت اسپانيا مكانة مرموقة في الاقتصاد الأوروبي.

إنه في المرحلة الأولى اعتمد على أشخاص يدينون بمبدأ القومية الاقتصادية، فأسّسوا مؤسسة INI للنهوض بالصناعة في مختلف الميادين. وأكثروا

من إقامة خزانات المياه لتخزين مياه الأمطار للإفادة منها في الريّ. ووضعوا مشروعات تعمير كبيرة في المناطق القاحلة مثل: بطليوس، وقاين Badajoz, Jaen. لكنها كانت مرحلة تتسم بالحماية الاقتصادية.

ولما لم يجز ذلك في حل المشكلة المستعصية لاسپانيا وهي العجز في الميزان التجاري، لجأ إلى أشخاص آخرين فنّيين يؤمنون بالاقتصاد الحرّ، والاقتراب من مطالب السوق الأوروبية المشتركة. وتمّ هذا التحول في سنة ١٩٥٧. وساعد على نجاحه ازدياد الدخل من السياحة ازدياداً هائلاً. فمكّن ذلك الاسپان من الإثراء، والارتفاع بمستوى الأجور حتى بدأت تقترب من مستواها في سائر الدول الأوروبية. وكان ذلك هو السبب في الغلاء الهائل الذي أتينا على ذكره في مطلع هذا الفصل.

لقد كان فرنكو حاكماً حكيماً، بارد الأعصاب، صبوراً، أبعد ما يكون عن ثرثرة السياسيين وصلف الدكتاتوريين، ورعونة المغامرين العسكريين. جمع بين الحزم والمرونة، بين الوطنية واتساع الأفق العالمي، بين النظام العام واطلاق الحريات الخاصة. ووقف حاجزاً دون طغيان الأصناف المختلفة من أنصاره: رجال الكنيسة، رجال الجيش، رجال المال والعقار، وحزب الفالانج ـ فلم يسمح لأية فئة من هذه الفئات بأن تمارس أي طغيان على سائر أبناء الأمة. وكان الكارليون يطالبون بإعادة الملكية، وكان الفالانج يطالبون بإقامة حكم وطني نقابي دكتاتوري.

واجه المواقف بحكمة وثبات، مع وضع الحلول الملائمة:

١ ـ لما انهزم المحور في الحرب العالمية الثانية ألغى المظاهر الخارجية التي كانت تذكّر بعلاقته بدول المحور (ألمانيا وايطاليا)، واستبعد بعض السياسيين الذين تورطوا في علاقاتهم مع دول المحور.

٢ ـ ولما أصدرت الأمم المتحدة قراراً بإدانة نظام حكم فرنكو، قدَّم للشعب الاسپاني مشروع قانون للاستفتاء عليه يعيد النظام الملكي مع بقائه هو في ادارة الحكم، بوصفه وصيًّا على العرش. وجرى الاستفتاء في ٦ يوليو سنة ١٩٤٧ فحصل على أغلبية ساحقة بلغت ١٤,١٤٥,١٦٣ صوتاً مؤيِّداً ضد ٧٢٢,٦٥٦ صوتاً معارضاً و٣٣٦,٥٩٣ صوتاً باطلاً.

٣ ـ واستغل الحرب الباردة بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية فاقترب من هذه الأخيرة واجرى معها مفاوضات انتهت بعقد اتفاقات كانت بمثابة محالفة

بينهما، وذلك في سنة ١٩٥٣.

٤ ـ وفي نفس السنة، سنة ١٩٥٣، عقد كونكوردات مع الفاتيكان.

٥ ـ وكانت ثمرة ذلك التطوّر قبول اسپانيا في سنة ١٩٥٣ عضواً في هيئة الأمم المتحدة.

٦ ـ وحرص فرنكو دائماً، وإلى آخر عمره، على تقوية علاقاته مع العالم العربي:

أ ـ فلم يعترف ابداً باسرائيل، ولم يسمح بإقامة أية علاقات معها من أيّ نوع كان؛

ب ـ وتخلّى طوعاً عن المنطقة التي كانت تحتلها اسپانيا في شمالي دولة المغرب (اقليم الريف) للحكومة المغربية، كما تخلّى لها ايضاً عن اقليم إفني (في ١٩٦٩/٤/٢٥). وكان موقفه المسالم هذا على النقيض تماماً من موقف فرنسا من مراكش: ذلك الموقف الحافل بالعنف والمقاومة ونفي السلطان محمد الخامس، الخ الخ.

وكافأته البلاد العربية على سياسته هذه تجاهها بأن كانت تؤيد اسپانيا في كل المحافل الدولية (قبولها في هيئة الأمم، معارضة كل مشروع قرار يقصد منه الاساءة إلى اسپانيا، الخ).

ولهذا فإنَّ اسبانيا، منذ انتصار فرنكو النهائي في الحرب الأهلية ضد الجمهوريين وحلفائهم الشيوعيين في أول ابريل سنة ١٩٣٩، لم تنعم بالأمن والنظام والوحدة في كل تاريخها بمثل ما نعمت به طوال حكم فرنكو من أول ابريل سنة ١٩٣٩ حتى وفاته في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥. وعلى الرغم من انه رتَّب كل شيء لمَن يخلفه كي يتم الانتقال إلى ما بعد حكمه بنظام وترتيب وأمان، فإنَّ اسپانيا، كما سنرى، سرعان ما ستعود إلى حال الفوضى والتمزّق واضطراب الأمن الذي كان سائداً قبل حكمه ومنذ أكثر من ثلاثة قرون. وهنا نرجىء الحديث إلى موعده في زيارتنا التالية لمدريد في مارس ـ ابريل سنة ١٩٨٠.

«عملية اسپانيا»

وفي مساء أحد أيام زيارتي هذه شاهدت في شارع «الجران بيا» احتفالاً جميلاً بمقدم بعض الأسر الأسپانية التي تعيش في دول امريكا الجنوبية، اظهاراً للأخوة والتضامن والأصل المشترك، والثقافة الواحدة.

أُخلي هذا الشارع من المرور، وانطلقت الطبول والمزمارات تحيِّي مقدم العشرات من الحافلات القادمة من مطار مدريد (براخس)، واصطف الآلاف لتحية هؤلاء القادمين من دول «أمريكا الأسپانية». وتدفقت فتيات يلبسن الملابس الوطنية الاقليمية في مختلف أقاليم اسپانيا، وفي أيديهن الصنج، ودُرْن في ميدان مونكلوا وهنَّ يقرعن الصَّنْج بأياديهن الرقيقة. فكان منظراً مثيراً للحماسة والمتعة معاً: الحماسة لحرارة استقبال الأهل المعتبرين، والمتعة بحركات الرقص والايقاع الموسيقي.

ذلك ان اسپانيا ـ شبه جزيرة ايبريا ـ هي الأم لكل دول أمريكا الجنوبية والوسطى الناطقة باللغة الاسپانية. وعلى الرغم من ان هذه الدول قد استقلت عن الوطن الأم بعد حروب دامية استمرت طوال القرن التاسع عشر وانتهت باستقلال كوبا في سنة ١٨٩٨، وهي السنة التي بها زالت الامبراطورية الاسپانية الشاسعة، وكانت لذلك هذه السنة ـ ١٨٩٨ ـ بمثابة الزلزال الذي هزَّ نفوس المفكرين والمثقفين الأسپان، فتكوّن ما عُرِف باسم جيل ٩٨.

ولقد كانت حرب الاستقلال التي قامت بها أمريكا الاسپانية (أي المستعمرات الاسپانية في أمريكا الجنوبية والوسطى) نتيجة طبيعية للأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد أمريكا الاسپانية. لقد كان المجتمع الاسپاني الأمريكي مرتباً في طبقات يعلو بعضها فوق بعض. ففي قمة الهرم الاجتماعي كان الاسپان الذين أصلهم من شبه جزيرة ايبريا (اسپانيا الأم)، وكان عددهم عند نهاية القرن الثامن عشر حوالى ثلثمائة ألف شخص. وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الأوروبيين». وكانوا يحتكرون جل المناصب العالية في الادارة وفي المراتب الكَنَسية. وكان منهم أيضاً كبار التجار، وبعض الصّناع وأصحاب الحوانيت:

ويتلوهم «الكريول» Criollos أي البيض الذين ولدوا في أمريكا الاسپانية، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الأمريكان» Americanos. وكان عددهم في نهاية القرن الثامن عشر حوالى ثلاثة ملايين نسمة. وكانوا يعدون أنفسهم هم أصحاب البلاد الأحق من غيرهم بالانتساب اليها، إنَّها أماكنهم هم. وكانوا يملكون المناجم، والأعمال الكبيرة، ويشغلون الوظائف في البلديات. وكان أبناؤهم يملأون الجامعات، والطرق الدينية، وينافسون الاسپان الأصليين في بعض المنافع التي يوزعها المَلِك ونوابه: مثل المنافع الكنسية، ومناصب العُمُدِيّات. والصفوة المثقفة كانت منهم. لهذا تطلعوا إلى مزيد من النفوذ السياسي.

وإلى جانب الطبقتين السابقتين، وأفرادهما من البيض، كان يوجد في المرتبة

الدنيا أصناف هجينة مختلفة الألوان، ولهذا كانوا يسمّون «المهجّنين» Mestizos Mulatos. ولئن كانت المساواة ـ نظرياً على الأقل ـ مكفولة لأبناء الطبقتين الأوليين، فإن هذه الطبقة الثالثة كانوا محرومين من الحقوق، أوضاعهم مهينة، ويؤلفون عالماً من الشذّاذ، والمتشردين، وقطاع الطرق، والغوغاء والدهماء في المدن. ومع ذلك كانوا هم الذين يفلحون المزارع الكبرى، ويرعون الأبقار في حقول تربية الماشية، ويقومون بالتعدين في المناجم.

وخارج هذه الطبقات الثلاث كان العبيد السود الزنوج المستوردون من افريقية. ويختلف عددهم بحسب المناطق: فهم يكثرون في مزارع السّكر في امريكا الوسطى، ويقلّون في المناطق التي تكثر فيها الطبقة الثالثة.

وقد عملت الطبقة الثانية، «الكريول» على توكيد هويتها، وإبراز تميّزها عن الطبقة الأولى. ومن أجل ذلك راحت تفتش عن أصول محلّية سابقة على استكشاف كولمبس. وساعدها على توكيد شخصيتها الانحلال الذي أصاب اسپانيا الأم.

ثم إن «الأفكار الجديدة» التي بثها روسو ومونتسكيه ورجال التنوير في فرنسا وألمانيا قد نفذت إلى أمريكا الاسپانية. وعمل على انتشارها ان تولّى العرش في اسپانيا ابتداء من سنة ١٧٠٠ ملوك من آل البوربون، حاولوا ابتداء من فيليپ الخامس اصلاح (النظم السياسية والادارية في اسپانيا وفي مستعمراتها وراء البحار، فأنشأوا لأمور ما وراء البحار ما يشبه وزارة باسم «سكرتارية شئون الهند» (الهند = امريكا الاسپانية). وأقيم نواب للملك في غرناطة الجديدة (كولومبيا فيما بعد، سنة ١٧٣٩)، وريو دلا پلاتا (سنة ١٧٧٦. وعُيِّن مندوبون بدل العمد الكبار Alcaldes Mayores. لكنَّهم من الناحية السياسية لم يغيروا شيئاً، فظل ملك اسپانيا هو الحاكم المطلق الذي يحتكر كل السياسة.

وقد اعتاد المؤرخون منذ القرن التاسع عشر على تلمّس الأسباب الثلاثة التالية لتفسير قيام الثورات في أمريكا الاسپانية، وهي: مظالم الحكم الاستعماري الاسپاني، تأثير أفكار عصر التنوير الأوروبي، والاحتفاء بالثورتين: الأمريكية الشمالية، والفرنسية.

ففيما يتصل بالسبب الأول كان أهل امريكا الاسپانية يأخذون على نظام الحكم الاستعماري الاسپاني: احتكار التجارة لصالح اسپانيا الأم وحدها؛ احتكار الأسبان الأصليين للمناصب الكبيرة في الادارة وفي الكنيسة؛ المبالغة في فرض الضرائب الملكية؛ الطغيان الإداري الذي مارسه نواب الملك والمندوبون؛ تمركز

كل السلطات التي تصدر القرارات في مدريد.

وفيما يتصل بالسبب الثاني نذكر انتشار الكتب الداعية إلى تحرير الانسان، ومنها كتاب «الادراك السليم» Commun Sense تأليف توماس بين Thomas Paine، وكتابات: جفرسون، وكلاهما كان من واضعي ايديولوجية الثورة الأمريكية. ثم إنَّ أنطونيو نرينو Narino، أهم رواد حركة الاستقلال في كولومبيا، ترجم نص «اعلان حقوق الانسان والمواطن» إلى الاسپانية ونشره سراً في عامي ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤. ولهذا سنجد بيانات زعماء الاستقلال مستمدة من نصوص دستورية أعلنت في أمريكا الشمالية او في فرنسا: فأول مؤتمر عقد في ڤنزويلا لدى الاستقلال في سنة ١٨١١ اتخذ اعلان استقلال فيلادلفيا نموذجاً له؛ ودستور اپتشنجان Apatzingan (سنة ١٨١٤) الذي وضعه الثوار في المكسيك استمد بعض مواده من اعلان حقوق الانسان الذي أصدرته الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩.

كل هذه الأسباب إن هي إلاَّ مقدمات تمهيدية لا تكفي لإحداث الثورة على الحكم الاسپاني. إنَّما الشرارة التي أشعلت هذه الثورة هي ما جرى في اسپانيا الأم: ذلك ان ناپليون غزا اسپانيا في سنة ١٨٠٨، وطرد الملك فردينند السابع، ونصّب مكانه على عرش اسپانيا أخاه يوسف بونابرت: فثار الشعب الاسپاني في ابريل ـ يوليو سنة ١٨٠٨، وتولَّى كبر هذه الانتفاضة «خونتا» Junta. لكن نابليون طاردها حتى انحصرت في مرفأ قادس سنة ١٨١٠.

وإزاء خلوّ عرش اسپانيا من صاحبه الشرعي وما تلا ذلك من بلايا في اسپانيا الأم، قام المجلس البلدي في كركاس (في ڤنزويلا) فطرد الحاكم العام الاسپاني، وأعلن عن نفسه «خونتا» لحماية حقوق فردينند السابع، وتولَّى الحكم في فنزويلا ودعا سائر بلديات امريكا الاسپانية إلى ان يحذوا حذوه. فقام المجلس البلدي في بوينوس أيرس (الأرجنتين) كما قام «خونتا» لحكم البلاد حلت محل نائب الملك في لاپلاتا، وذلك في ٢٥ مايو سنة ١٨١٠. وامتدت الحركة من ڤنزويلا إلى بوجوتا (عاصمة كولومبيا الآن) في ٢٠ يوليو؛ وإلى سنتياجو (عاصمة شيلي الآن) في سبتمبر. وتولَّى كبر هذه الحركات كلها طبقة «الكريول». وقامت الثورة في المكسيك في ١٦ سبتمبر سنة ١٨١٠، لكنها لم تقتصر على الكريول بل شاركت فيها الطبقة الثالثة المؤلفة من المهجّنين والدهماء، وبهذا تميّزت بالعنف الدموي. ومن أسباب هذا العنف ان الكريول في المكسيك لم يكونوا سادة الموقف، كما كانت هذه حالهم في سائر بلاد امريكا الاسپانية. فالزعماء، وعلى رأسهم بردا Verdad وأثكارته Azcarate، والأب تالامنتس Talamentes حاولوا تكوين «خونتا»

تتسلم السلطة مؤقتاً. لكن الأوساط الاسپانية أفسدت هذه الخطة، وصارت القوة الحقيقية في جانب ممثلي الحكومة الاسپانية والأوساط المناصرة لاسپانيا. هنا لجأ الكريول إلى حبك المؤامرات، وتولّى ذلك القسيس هيدلجو Hidalgo، وكثير من الضباط، واندلعت المؤامرة في أول اكتوبر سنة ١٨١٠، وأمل المتآمرون في استمالة ضباط الجيش. لكن المؤامرة انكشفت مبكراً، فاضطر هيدلجو إلى القيام بالانقلاب مبكراً وحرّض أنصاره في قرية دولورس Dolores، وكانت غالبيتهم من الهنود الحمر والمهجّنين. لكن هؤلاء الأنصار لم يستطيعوا مقاومة الهجوم المضاد الذي قامت به القوات النظامية. ومن ناحية أخرى أثار الكنيسة وكبار الملاك، فنظم هؤلاء الأخيرون فرقاً لمقاتلة هيدلجو وأنصاره. وانتهى الأمر بأسره في مارس سنة ١٨١١، وقُتل رمياً بالرصاص في ٣٠ يوليو هو ومعظم كبار أنصاره.

لكن تولّى الحركة بعده قسيس آخر يدعى مورلوس Morelos وهو من عنصر مهجّن، وقد استطاع تعبئة قوات سريعة الحركة، فاستطاع الاستيلاء على جنوب المكسيك وابقاء السلطة في يده حتى نهاية سنة ١٨١٥. وعقد مؤتمر في اتشلپنشنجو Chilpancingo أعلن استقلال المكسيك في ٦ نوفمبر سنة ١٨١٣. لكنه أُسِرَ وقُتِلَ رمياً بالرصاص في سنة ١٨١٥.

أمّا في بلاد أمريكا الجنوبية، فقد اعلن استقلال ڤنزويلا في ٧ يوليو سنة ١٨١١. فكان ذلك ايذاناً باندلاع القتال بين الموالين لاسپانيا، وبين الوطنيين بزعامة ميرندا Miranda الذي كان قد اشترك في الثورة الفرنسية مما كلّله بهالة من المجد الثوري. غير ان قائد الموالين لأسپانيا، وهو مونتڤردة Monteverde أرغم ميرندا على الاستسلام في يوليو سنة ١٨١٢، كذلك قبض على غالبية زعماء التمرد، وفرَّ بعضهم إلى غرناطة الجديدة (= كولومبيا فيما بعد). ومن غرناطة الجديدة (كولومبيا) استأنف سيمون بوليڤار الهجوم في مايو سنة ١٨١٣، واستطاع خلال بضعة أسابيع اعادة فتح الطريق الى كركاس (في ڤنزويلا) ثم دخلها ظافراً في ٦ أغسطس سنة ١٨١٣. لكنه لقي مقاومة من نائبي مونتفردة، وهما بوڤس Boves ومورالبس، فاضطر إلى الجلاء عن كركاس واللجوء من جديد إلى غرناطة الجديدة (كولومبيا). وهكذا انهارت «خونتا» ڤنزويلا.

أمّا «خونتا» بوينوس ايرس Buenos Aires فكانت أحسن حظاً: إذ قضت على مقاومة الموالين لأسپانيا.

لكن في عامي ١٨١٤ ـ ١٨١٥ كان النصر للموالين لأسپانيا إذ استطاعوا القضاء على الثوار في المكسيك، واستعادة فنزويلا، ثم تشيلي. وفي عامي ١٨١٥

- ١٨١٦ استطاعت الحملة التي أرسلتها اسپانيا بقيادة مورليو Morillo الاستيلاء على غرناطة الجديدة (كولومبيا).

وهكذا لاح كما لو كانت اسپانيا قد استعادت سيطرتها على بلاد أمريكا الاسپانية. لكن حماقة ملك اسپانيا، فردينندو السابع، جعلته لا يكافىء الموالين لأسپانيا بأن يمنحهم حقوقاً تتكافأ مع جهودهم في القضاء على الثورات.

فاستغل سان مرتين San Martin سخط هؤلاء الموالين، وقوّى مركزه في مندوثا Mendoza، واستطاع تكوين جيش قويّ. وفي الوقت نفسه استطاع المتمردون الاستعانة بقوى أجنبية، خصوصاً بانجلترة. التي كانت منذ قرنين تتربص باسپانيا في مستعمراتها، وتود أن تحل محلها في التجارة مع بلاد أمريكا الاسپانية. فقامت انجلترة بإمداد المتمردين بالأسلحة والأموال وتسهيلات اخرى. كذلك جاء من أوروبا ومن الولايات المتحدة الأمريكية متطوعون معظمهم من العسكريين الذين صاروا بدون عمل بسبب انهيار امبراطورية نابليون وشيوع السلام في أوروبا. في سنة ١٨١٧ أقرَّ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، مونرو Monroe بصفة المحاربين للمتمردين في ڤنزويلا،

لهذا فإنَّ بوليڤار نزل في ڤنزويلا، في مايو سنة ١٨١٦، ومعه حملة جديدة. لكنه لم يفلح في الاستيلاء على كركاس، فاستقر في انجوستورا في يوليو سنة ١٨١٧ وجعلها عاصمة ونظم الحكم في ڤنزويلا، رغم انه لم يكن يسيطر إلاَّ على جزء منها. وفي يوليو سنة ١٨١٩ اجتاز جبال الأندس Andes، واستولى على بوجوتا (عاصمة كولومبيا فيما بعد) في ١٠ أغسطس، وأعلن جمهورية كولومبيا. التي صارت تشمل غرناطة الجديدة (كولومبيا حالياً) وڤنزويلا ومقاطعة كيتو Quito (في پيرو حالياً)، وكلها برئاسة بوليڤار. وفي سنة ١٨٢١ وصفت معركة كارابوبو Carabobo (في ٢٤ يوليو سنة ١٨٢١)، والاستيلاء على كراكاس نهاية لحكم اسپانيا في أمريكا الاسپانية، ولم يبق إلاَّ أماكن قليلة وبعض العصابات التي ظلّت تقاتل حتى سنة ١٨٢٣. وأعلنت پيرو العليا استقلالها في ١٣ يناير سنة ١٨٢٥.

وهكذا صارت أمريكا الاسپانية مجموعة من الدول المستقلة في سنة ١٨٢٥. لكن هذه المعارك كلّفت ثمناً باهظاً جداً وقد استمرت خمس عشرة سنة. فخربت المدن والأرياف، وأهملت المناجم، ولم تعد المدن الكبرى للتعدين: پوتوس Potosi، وجوانا خواتو Guanajuato غير أطلال. فتكاثرت عصابات السلب والنهب، وصارت الطرق غير مأمونة وبسبب الخراب الاقتصادي اضطرت

الجمهوريات الناشئة إلى الاقتراض من الخارج، وخصوصاً من انجلترة، قروضاً فادحة الفوائد.

كما ان هذه الحروب الأهلية صارت تطبع جمهوريات أمريكا الجنوبية بطابع الحكومات العسكرية، والانقلابات العسكرية، ولا تزال هذه حالها حتى اليوم رغم مرور أكثر من قرن ونصف. وتوالت المنازعات والحروب والمعارك بين هذه الجمهوريات نفسها بعضها وبعض. فجمهورية كولومبيا الكبرى التي تصوّرها وصمّمها بوليڤار سرعان ما انحلّت إلى أربع جمهوريات مستقلة هي: كولومبيا، وپنما، وبوليڤيا (وقد سُمّيت باسم بوليڤار)، والاكوادور، وڤنزويلا. واتحاد جمهوريات أمريكا الوسطى انحلّ في سنة ١٨٣٨ ـ ١٨٣٩، وتكوّنت عن انفراط عقده الجمهوريات التالية على التوالي: نيكارجوا، هوندوراس، كوستا ريكا، جواتيمالا، السلڤادور. ولم تفلح كل المحاولات لإعادة التحالف بين هذه الجمهوريات، إذ عمل ضد ذلك التركيبات الاجتماعية.

أمّا انفصال كوبا وپورتو ريكو عن اسپانيا فقد تمّ نتيجة للحرب التي كانت في سنة ١٨٩٨ بين الولايات المتحدة الأمريكية من جهة، واسپانيا من جهة أخرى، وقد انتهت بمعاهدة صلح باريس التي عقدت في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨. وقد بقيت القوات الأمريكية في كوبا حتى سنة ١٩٠٢، ولهذا يعد هذا التاريخ هو تاريخ استقلال كوبا. أمّا پورتو ريكو فلا تزال حتى اليوم تحت سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية رغم محاولاتها العديدة للتخلّص من نير حكم الولايات المتحدة الأمريكية.



ماذا كان في وسع اسپانيا الأم ان تفعل إزاء هذا كله؟

أما وقد انفصلت أمريكا الاسپانية عن اسپانيا سياسياً واقتصادياً إلى الأبد، فلم يبق إلاّ التعلل بالوحدة اللغوية والثقافية.. وهذا ما حاولته اسپانيا تجاه جمهوريات أمريكا الوسطى والجنوبية منذ مطلع هذا القرن العشرين. ومن أجل ذلك خُلِقت فكرة: «الهسپانية» Hispanidad، وهي فكرة غامضة غير محدّدة المعالم، وقيمتها نظرية وعاطفية فحسب. وهي فكرة للمستقبل، لأنَّ الحاضر لا يسمح ابداً بتحقيقها. بل من الخير ألاّ تتحقق، حتى يظل لكل جمهورية شخصيتها الثقافية والاجتماعية، فضلاً عن السياسية والاقتصادية. خصوصاً وان هذا الاستقلال الفكري يسمح للكتّاب والشعراء والمفكرين والعلماء ان يجدوا لهم ملاجىء للعيش وبذل النشاط حين يتعذر عليهم ذلك في أوطانهم الأصلية. وقد

شهدنا ثمرة ذلك، لما وجدنا بعض الكتّاب والشعراء والمفكرين الاسپان يجدون ملاجىء لهم في بعض دول أمريكا الجنوبية: مثل أمريكو كاسترو Americo Castro (١٨٨٥ ـ ١٩٧٢) الذي لجأ إلى الأرجنتين في سنة ١٩٣٦ لدى قيام الحرب الأهلية. كما أنَّ بعض الشعراء والكتّاب الذين منع نشر مؤلفاتهم في اسپانيا عقب الحرب الأهلية قد نشرت مؤلفاتهم في الأرجنتين عند الناشر المشهور Losado، مثل مؤلفات فردريكو غريسيه لوركا، ورفائيل ألبرتي Alberti.

وقام بالدعوة والدفاع عن «الهسپانية» كتّاب من أبرزهم مائثتو R. De Maezto في كتابه «دفاع عن الهسپانية» (مدريد، سنة ١٩٤١)، وخيل سرّانو R. Sil Serrano في كتابه: «رؤية جديدة للهسپانية» (مدريد سنة ١٩٤٧)، وغرسيه مورنته M. Garsia Morente في كتابه: «فكرة الهسپانية» (مدريد سنة ١٩٦١)، وثرجيتا J. Zaragüeta في كتابه: «الهسپانية والفكر الفلسفي». بيد ان قطب المدافعين عن الهسپانية هو منندث پلايو Menéndez Playo أكبر الفيلولوجيين الأسپان قاطبة (راجع عنه كتاب لومان بيينا G. Lohmen Villana وعنوانه: «منندث پلايو والهسپانية، مدريد سنة ١٩٥٧).

العودة إلى ليبيا

وعدت إلى ليبيا من مدريد في ١٦ اكتوبر سنة ١٩٦٩ فوجدت الجوّ قد تغيّر فيها تماماً:

لقد شملت ريح التغيير كل شيء منذ الأول من سبتمبر:

١ ـ كان آخر رئيس وزراء هو ونيس الوزاني الذي خَلَف عبد الحميد الكبوش، فأقام النظام الثوري الجديد مكانه محمود سليمان المغربي، وهو محام في الخامسة والثلاثين من عمره كان ذا نشاط سياسي سُجن من أجله عقب أحداث يونيو سنة ١٩٦٧. وقد عينه في هذا المنصب مجلس قيادة الثورة الذي تكتم أعضاؤه أسماءهم في الأشهر الثلاثة الأولى من الانقلاب. ودخل الوزارة أفراد لم يسبق لهم تولّي الوزارة، لكنهم عرفوا بالعمل السياسي الوطني. ومعظم الوزراء كانوا من المدنيين.

واعتقل النظام الجديد رئيس الوزراء السابق وكل أعضاء وزارته، ورئيس أركان الجيش (الأطيوش) وكبار رجال الشرطة والجيش ومعظم رؤساء الوزارات السابقين (حسين مازق، عبد القادر البدري، محمود المنتصر، الخ) وعدداً كبيراً من كبار أصحاب النفوذ في العهد الملكي، حتى تجاوز عدد المعتقلين الألف شخص.

٢ ـ وفي ديسمبر سنة ١٩٦٩ قام اثنان من أعضاء مجلس قيادة الثورة (موسى وزير الداخلية وشحاتة آدم) بتدبير مؤامرة للاستيلاء على الحكم، هكذا أُشيع؛ لكن المؤامرة اكتشفت قبل تنفيذها واعتقل مدبّراها وأنصارهما من الضباط.

وفي إثر ذلك شكلت وزارة جديدة في ١٦ يناير سنة ١٩٧٠ تولّى العسكريون فيها غالبية المناصب الوزارية، برئاسة قائد الثورة. وفي سبتمبر سنة ١٩٧٠ شكلت وزارة جديدة لم يكن فيها غير خمسة من المدنيين.

وفي يوليو سنة ١٩٧٠ دبرت محاولة انقلاب أخرى في جنوب البلاد، لكنها أخفقت هي الأخرى.

ولدى قيام الثورة في أول سبتمبر ـ وكان الملك ادريس الأول يقضي العطلة في تركيا، حاول مدير مكتبه الشلحي الاستعانة ببريطانيا للتدخل للإطاحة بالحركة، لكن بريطانيا اعتصمت بالحياد التام أمام هذه الأحداث، ولا بد من انتظار سنة ١٩٩٩ لتكشف لنا الأوراق الرسمية للحكومة البريطانية عن السبب في وقوفها هذا الموقف. وكانت لبريطانيا قاعدة جوية عسكرية في العَدَم، شرقي برقة، وكان من السهل عليها القضاء على الحركة في مهدها لو انها أرادت ذلك.

٣ ـ ولما نجح الانقلاب أخذت مصر في تأييده، وكان محمد حسنين هيكل، رئيس تحرير جريدة «الأهرام» أول مَن بعثته مصر لاستجلاء الوضع والتعبير عن تأييد مصر للثورة. وتوالت الاتصالات بين قادة الثورة وبين مصر، إلى ان صار التأييد رسمياً وقوياً بمجيء جمال عبد الناصر لزيارة بنغازي في ديسمبر سنة ١٩٦٩ وإعلان تأييده للثورة الليبية وزعمائها.

وتلت مصر في اعلان التأييد كل من العراق (بزعامة صدام حسين) والسودان (بقيادة جعفر النميري)، والجزائر (بزعامة هواري بومدين).

٤ ـ ونجحت الثورة في تحقيق مطلب وطني رئيسي هو إخلاء بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية لقواعدهما في ليبيا. وكانت لبريطانيا قاعدة جوية عسكرية في العدم (شرقي برقة، جنوبي مدينة طبرق)، وكانت للولايات المتحدة الأمريكية قاعدة ضخمة هي قاعدة هويلس بالقرب من طرابلس. وكان البرلمان الليبي في سنة ١٩٦٤، والحكومة، في عهد وزارة عبد القادر البدري سنة ١٩٦٧، قد طالبت كلتا الدولتين بإخلاء القاعدتين وتسليم منشآتهما إلى الحكومة الليبية. لكنهما لم تلبيا هذا الطلب. فجاءت الثورة وطالبت تحقيق هذا الجلاء. وبسهولة مدهشة وافقت كلتا الدولتين على الجلاء: وجلت بريطانيا عن قاعدة العَدَم في مارس سنة ١٩٧٠، وجلت الولايات المتحدة الأمريكية عن قاعدة هويلس (الملاّحة) في يونيو سنة ١٩٧٠. وبهذا تخلصت ليبيا من القواعد الأجنبية المقامة على ترابها والتي كانت تنتقص من استقلالها وتحدّ من حرية تصرفاتها ليس فقط السياسية، بل وأيضاً الاقتصادية في تعاملها مع شركات البترول الأجنبية العاملة في استخراج النفط وتصديره. ويعجب المرء لخسّة ونذالة بريطانيا وامريكا مع مَن طالبهما بالجلاء بالحسنى، وخنوعهما من طالبهما بالجلاء تحت التهديد والوعيد!

٥ ـ وفي ١١ ديسمبر سنة ١٩٦٩ صدر أول اعلان دستوري أصدرته الثورة.

وتنص المادة الأولى منه على ان ليبيا جمهورية ديمقراطية السيادة فيها للشعب؛ واسم الدولة الرسمي هو: الجمهورية العربية الليبية، والجيش هو طليعة الشعب. والشعب الليبي جزء من الأُمّة العربية، وهدفه هو الوحدة العربية. وتعلن المادة السادسة ان الدولة الليبية تهدف إلى الاشتراكية «المستوحاة من التراث الاسلامي والعربي».

وفي نفس اليوم ـ أي ١١ ديسمبر سنة ١٩٦٩ ـ صدر «قانون حماية الثورة» وبموجبه يحكم بالإعدام على كل مَن يقاوم الثورة بالسلاح، وبالسجن على كل مَن ينتقد الثورة او يشترك في مظاهرة او اضراب موجهين ضدها.

❁ ❁ ❁

وندع هذه الأحداث السياسية تأخذ مجراها بإيقاعها السريع، ونجتزىء بالإشارة إلى ما حدث في الجامعة الليبية.

لقد هبّت عليها عاصفة التغيير بعنف بالغ:

أ ـ فمدير الجامعة ـ عبد المولى دغمان ـ فُصِل من منصبه، ثم أودع السجن ـ وكان متزوجاً من ابنة رئيس الوزراء السابق حسين مازق، زعيم قبيلة البراعصة، أقوى القبائل في برقة. ثم أُفرج عنه بعد حوالى أربعة أشهر، لكنه ما لبث ان اتهم بتدبير مؤامرة وكتابة منشورات ضد الثورة، فسُجن ثم حُكم عليه بالسجن عشر سنوات، قضاها كلها في سجن طرابلس.

ب ـ وفُصِل عميد كلية التجارة.

جـ ـ ونُقل عميد الآداب إلى منصب محافظ طرابلس ليحل محل محافظها السابق الذي كان من أقوى رجال العهد الملكي. وحلَّ محلّه د. منصور الكيخيا.

د ـ أمّا عميد الحقوق، المهدوي، فقد شفع له مؤقتاً ـ انتسابه إلى الشاعر رفيق المهدوي؛ لكنه لن يلبث ان يُرغم على ترك منصبه بعد ثلاث سنوات.

هـ ـ وبدأت الثورة في تشكيلة تنظيمات طلابية لتأييد الثورة والدفاع عنها. وأخذ بعض قادة الثورة في عقد اجتماعات سياسية في الجامعة، والاستعانة بالطلاب في احتلال السفارات والقنصليات البريطانية والأمريكية لدفع كلتا الدولتين إلى قبول الجلاء عن قواعدهما. وبالجملة بدأت عملية تسييس واسعة النطاق في الجامعة ستكون لها فيما بعد آثار واسعة المدى.

و ـ وراح الطامعون من الليبيين أعضاء هيئة التدريس والمعيدين في التزلّف

إلى رجال الثورة طمعاً في الحصول على مناصب ادارية في الجامعة او خارجها.

ز ـ واذا كان هذا امراً طبيعياً في مثل هذا الجو، فإنَّ الأمر الشائن المخجل حقاً هو ان بعض أعضاء هيئة التدريس غير الليبيين اتخذوا نفس الأسلوب دون أي وازع من ضمير، وكان أشدّهم نكراً في هذا المجال بعض أساتذة كلية الحقوق! وذلك ديدنهم دائماً وفي كل مكان!

ازاء هذا كله قرّرتُ أن أكون بمعزل تام عن كل هذه الأحداث: فلم أحضر أي اجتماع سياسيّ عقد في الجامعة، وتوجست من الطلاب بقدر ما توجست من الزملاء الأساتذة، وتخلّيت عن العمل في اصدار مجلة كلية الآداب. وحسبت أنّني بهذا قد صرت في أمان من دسائس الدسّاسين ومكائد الحاقدين، وتدابير الأشرار التافهين.

لكن هيهات، هيهات! متى نامت أعين الحاسدين والحاقدين والدسّاسين؟!

ولنعد عن هذا الآن.

رحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية

وفي وسط هذا الجوّ المشحون بالأحداث في ليبيا، جاءتني دعوة لحضور مؤتمر للفلسفة الاسلامية يعقد الشطر الأول منه في جامعة هارڤرد Harvard بمدينة كمبردج المواجهة لمدينة بوسطن في ولاية مسّاشوستس Massachusetts؛ والشطر الثاني في جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك وسرعان ما لبّيت الدعوة لأمرين: زيارة الولايات المتحدة الأمريكية لأول مرة في حياتي، والتخلّص مؤقتاً من جو ليبيا.

وانعقد المؤتمر في شهر ابريل سنة ١٩٧١، وأقمت في كمبردج - بوسطن وفي نيويورك خمسة عشر يوماً. وكان عدد المشتركين كبيراً يتجاوز الثلاثين. وبعضهم اقتصر على أحد الشطرين. وألمع الشخصيات كان هاري ولفسون Harry Wolfson صاحب الدراسات العميقة عن «حسداي فرستس» و«اسپينوزا» (١٩٣٤ - ١٩٦٩) ومجموعة الأبحاث التي جمعت في كتاب بعنوان: «الكلام». وقد خُصصت له ساعة لإلقاء محاضرة عامة على هامش المؤتمر، وحين دخل القاعة قام له الحاضرون وقوفاً وصفّقوا له في حركة لم تخلُ من التهريج المسرحي!

وجامعة هارڤرد التي عقد في داخلها الشطر الأول من المؤتمر هي أقدم جامعة في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد تأسست في ٢٨ اكتوبر سنة ١٦٣٦ في مدينة نيوتاون Newtoune المواجهة لمدينة بوسطن، والتي غيّر اسمها إلى كمبردج، لأنَّ البيوريتان المهاجرين من انجلترة إلى ولاية مسّاشوستس كان منهم عدد يتجاوز المائة من المتخرجين في اكسفورد وكمبردج بانجلترة، لهذا اختاروا اسم كمبردج ليكون اسم المدينة التي قرروا ان ينشئوا فيها معهداً علمياً عالياً على غرار كمبردج في انجلترة.

أمّا لماذا سُمّيت هارڤرد، فذلك لأن قسيساً پيوريتانياً يدعى جون هارڤرد

(١٦٠٧ ـ ١٦٣٨) أوصى قبل ان يموت بالسل وهو في الحادية والثلاثين من عمره، بمكتبته المؤلفة من أربعمائة مجلد ونصف ثروته للكلية الناشئة الجديدة. لهذا تقرّر في ١٣ مارس سنة ١٦٣٩ اطلاق اسمه على هذه الكلية الجديدة. وعيّن لها أول رئيس هو هنري دنستر Dunester في سنة ١٦٤٠، وكان هو كل هيئة التدريس! وطوال معظم القرن الأول للكلية كانت هيئة التدريس تتألف من رئيس الكلية وثلاثة أو أربعة مدرسين شبان، وكان كل واحد منهم يتولى وحده التدريس من السنة الأولى حتى التخرّج للفصل الذي عُهد إليه به. وفي سنة ١٧٢١ تبرّع توماس هولس Hollis من لندن بتمويل اول كرسي للأستاذية، هو كرسي اللاهوت. وبعد ذلك بست سنوات تبرع هولس بكرسيين آخرين: للرياضيات، وللفلسفة الطبيعية (الفيزياء). ولما كان المذهب البيوريتاني قد قرر أن «الكتاب المقدس» ليس حجة في أمور العلم، فقد ظلت الدراسة العلمية في كلية هارفرد بمأمن من تدخل رجال الدين.

وفي دستور ولاية مسّاشوستس سنة ١٧٨٠ عقب الثورة الأمريكية التي أدت إلى استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا نصَّ على تسمية كلية هارفرد باسم «جامعة هارفرد». وفي نفس السنة أُنشىء كرسي أستاذ في الطب.

وفي أوائل القرن التاسع عشر أنشئت كليات متخصصة: مدرسة (كلية) اللاهوت في سنة ١٨١٦، مدرسة (كلية) القانون في سنة ١٨١٧، مدرسة (كلية) العلوم في سنة ١٨٤٢.

وفي أثناء رئاسة وليم اليوت الذي أُختير رئيساً في سنة ١٨٦٩ نظّم التعليم اللاحق على البكالوريوس، ووضع الأساس لإنشاء مدرسة (كلية) ادارة الأعمال، ومدرسة (كلية) الصحّة العامة.

وفي وضعها الحالي تنقسم جامعة هارڤرد إلى: «مدارس» لمرحلة البكالوريوس (أو الليسانس) هي: كلية هارڤرد للبنين، وكلية رادكلف Radcliffe للبنات؛ ـ ومدارس لمرحلة ما بعد البكالوريوس للآداب والعلوم، وتشتمل على: مدرسة الهندسة والفيزياء التطبيقية، ومدرسة ادارة الأعمال، ومدرسة طب الأسنان، ومدرسة اللاهوت، ومدرسة التربية، ومدرسة القانون، ومدرسة الطب، ومدرسة العلوم السياسية (الحكم) ـ وكلها مختلطة أي يخلط فيها الرجال والنساء. وقد بُدىء بتعليم البنات في هارڤرد في سنة ١٨٧٩، وسُمِّي هذا القسم النسائي بحسب اسم حنه رادكلف (توفيت حوالى سنة ١٦٦١) لأنَّها أسست في سنة ١٦٤٣ أول منحة دراسية في كلية هارڤرد. لكن القائمين بالتدريس كانوا وظلوا دائماً هم

القائمين بالتدريس في كليات البنين. وعدد الطالبات في قسم البنات كان حوالى ١٧٠٠ طالبة في سنة ١٩٧١ لما زرناها.

وللجامعة مكتبة مركزية تدعى لامونت Lamont Library ولها عدة فروع. وتحتوي على أكثر من ستة ملايين كتاب، لكنها كتب حديثة لا تكاد ترتفع إلى ما فوق القرن التاسع عشر. ومن هنا فإنَّها غير كافية في الدراسات التاريخية والفيلولوجية.

ولها مرصد فلكي (سنة ١٨٢٣) ومتحف للحيوان المقارن (سنة ١٨٥٩)، وحديقة نباتات (١٨٦٤، ١٨٧٢)، ومتحف للآثار وعلم الأجناس (سنة ١٨٦٦)، ومتحف للفنون والثقافة الألمانية (سنة ١٩٠١).

لكن مستوى التدريس الفعلي في جامعة هارڤرد لا يتكافأ أبداً مع الشهرة المقترنة باسمها، لأن غالبية اعضاء هيئة التدريس من مستوى متوسط او دون المتوسط. ومن النادر ان تجد من بينهم عالماً ممتاز الانتاج في أي فرع من فروع العلوم الانسانية او العلوم الطبيعية. وإن عثرت على واحد من هذا الطراز وجدت إلى جانبه عشرات من العقيمين والطفيليين والتافهين الذين لم يحصلوا على مناصبهم إلاّ بطرق ملتوية خسيسة ليس بينها وبين العلم أي نَسَب ولا صلة. ومع ذلك فإنَّ ادارة هذه الجامعة حين تريد اختيار أو ترشيح احد من أعضاء هيئة التدريس فإنَّها تجري تجارب مسرحية بهلوانية هي من التهريج والخداع اللذين لا ينطليان على أحد!

ومن المضحك ان هذه الجامعة تتباهى مثلاً بأنه تخرّج فيها ستة من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية (هم: جون آدمس، وجون كونس آدمس، ورذرفور هايس Hayes، وتيودور روزفلت، وفرانكلين روزڤلت، وجون ڤتزجرلد كندي) - ولكنها لا تسأل نفسها: هل حصل واحد من هؤلاء على رئاسة الولايات المتحدة لعلمه؟! او تتباهى بأنَّه تخرّج فيها من أهل الأدب: ريلف وولدو امرسون Emerson، وهنري جيمس، ورويرت فروست Frost وت. س اليوت T.S. Eliot - وكل هؤلاء في خلال قرن ونصف، لكنها لا تذكر شيئاً عن سائر المتخرجين في نفس المدة وهم يعدون بالآلاف!

وفي أول مساء دعيت لحضور اجتماع في مدرسة (كلية) اللاهوت، وكان عميدها آنذاك هو كانتول اسمث Smith الذي كان قبل ذلك في جامعة ماكجل بكندا، وله دراسات في الاسلام المعاصر، وبخاصة الاسلام في الهند. فوجدت في قاعة الاجتماع من الطلاب بقدر ما هنالك من أديان ومذاهب ونِحَل: شيعة من

مختلف فرق الشيعة، وبهائية، وعشرات من الفرق المسيحية: پروتستنتية، ولوثرية، وانجيلية، ومعمدانية، ومورمون، وتوحيدية Unitarians، وميثودية، الخ الخ. فعجبت من هذا الخليط العجيب، وكيف يمكن التدريس له، بل وفيم يفيد أي تدريس له والحوار بينهم هو قطعاً حوار الصُّم! فليس من الممكن ان توفق بين مذاهبهم، ولا ان تنحاز إلى أي جانب، وسأتذكر هذا الوضع حين زرت وأنا في بناء هيئة الأمم المتحدة في نيويورك مكاناً خصّصوه - فيما زعموا - للعبادة والصلاة، فلم أجد فيه غير نور خافت وما يشبه الصوان الخشبي، لأن القوم لم يستطيعوا التوفيق بين رموز العبادة في الأديان والمذاهب الدينية المختلفة، فجردوا مكان العبادة المشترك هذا من كل رمز وكان مجرد غرفة خاوية يضيؤها نور خافت!! ولا بدَّ أن هذه هي أيضاً حال التدريس في مدرسة (كلية) اللاهوت في جامعة هارڤرد: خواء وتفاهة.

ولما كان البحث الذي أعددته للمؤتمر يندرج في باب الفلسفة الاسلامية، لا باب علم الكلام، وكان الباب الأول قد تقرّر له ان يكون في جامعة كولومبيا لا في جامعة هارڤرد، فقد اكتفيت بالتعليق على بعض ما ألقاه المشاركون من أبحاث تدخل في نطاق علم الكلام. ولما كان معظم ما ألقوه من أبحاث سطحية تقليدية ليس فيها كشف لجديد ولا ابداع لتفسير مبتكر، فقد جرت أعمال هذا القسم من المؤتمر في رتوب وملال.

ولم أجد في مدينة كمبردج نفسها ما يروّح النفس عن هذا الملال. إنها مدينة جامعية صغيرة تقع على نهر اتشارلز في مقابل بوسطن التي تربطها بها ٩ جسور ومترو انفاق. وتكاد مباني الجامعة ان تحتل معظم المدينة. وليس فيها غير الجامعة إلاّ بعض المطابع، وأكبرها مطبعة جامعة هارڤرد. وأول مطبعة أُقيمت في الولايات المتحدة الأمريكية انما أُقيمت في مدينة كمبردج في سنة ١٦٣٩، وفيها طُبع أول كتاب باللغة الانجليزية طبع في أمريكا، وهو كتاب المزامير Bay Psalun Book. وإلى جانب المطابع يوجد بعض الصناعات، مثل الزجاج، والكيمياويات، والغلاّيات، والصمامات والأسلاك والأدوات الكهربائية ومساحة المدينة حوالى ٦,٥ ميل مربع، وقد أُسست في سنة ١٦٣٠ - ١٦٣١ تحت اسم «المدينة الجديدة» Newe Towne، واستمرت تحمل هذا الاسم حتى سنة ١٦٣٦. وفي كمبردج تجمعت الجيوش الأمريكية في حرب الاستقلال تحت قيادة جورج واشنطن قبل معركة بنكر هل Bunker Hill وجرى تسليمه القيادة تحت شجرة دردار في ٣ يوليو سنة ١٧٧٥. وقد بقيت هذه الشجرة قائمة حتى سنة ١٩٢٣ عند الزاوية التي يتقاطع

فيها شارع جاردن مع شارع ميسون. وكانت اقامتي في فندق أوبرن Auburn القائم في شارع أوبرن المسمَّى بهذا الاسم نسبة إلى جبل أوبرن القريب والذي تقع عليه مقبرة جبل أوبرن.

والمدينة كثيرة البساتين والأشجار، مما يضفي عليها طابعاً ريفياً.

والشخص الوحيد الذي تعرفت به لأول مرة في هذا المؤتمر كان هو هاري ولفسون، وإن لم يزد لقائي به عن دقيقتين؛ أمَّا سائر المشاركين في المؤتمر فقد كنت أعرفهم من قبل.

في نيويورك

ثم انتقلنا بعد خمسة أيام قضيناها في كمبردج إلى نيويورك. وكان سفري إلى نيويورك في سيارة أستاذ ايراني كريم الطبع سخي الأخلاق، هو الأستاذ پرويز مُرَوِّج، الأستاذ في جامعة بنهامبتون في ولاية نيويورك. وبفضل السفر بالسيارة استطعت ان أُشاهد الأراضي الأمريكية الشاسعة المغطاة بالعشب الذي ترعاه قطعان هائلة من الأبقار. ووجدت الطرق العامة واسعة جداً تسمح بأقصى سرعة ممكنة. ولم نلق في الطريق من بوسطن إلى نيويورك إلاَّ القليل من القرى الصغيرة.

ووصلنا في الساعة السابعة مساءً إلى نيويورك. ونزلت في فندق مواجه للنصب التذكاري الخاص بلنكولن القائم فيما يسمى «مركز لنكولكن». وقد صار هذا الفندق بعد بضع سنوات مقرًّا لبعثة الصين الشعبية لدى الأمم المتحدة لما ان احتلت مقعدها فيها بعد إبعاد الصين الوطنية. ولما كان هذا الفندق في وسط المدينة، فقد يسّر لي ذلك أن أذهب منه ماشياً إلى الجادات الكبرى: الجادة الخامسة، وجادة الأمريكتين، وميدان ماديسون. وفي هذه المنطقة كانت عمارة الامپير استيت Empire State Building أعلى عمارة في الولايات المتحدة (٦٧ طابقاً)، ودار أوبرا المتروپوليتان، والمكتبة العامة، ومتحف المتروپوليتان، ومتحف جو جنهايم. ومكّنني ذلك من زيارة هذه المعالم الكبرى في مدينة نيويورك، التي هي في الوقت نفسه أهم المعالم الثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية كلها. وقد خصصت لزيارتها الأيام الخمسة الأول من هذه الاقامة في نيويورك وقد أمضيتها في حضور جلسات المؤتمر التي عقدت في قاعة بجامعة كولومبيا.

وجامعة كولومبيا كانت تدعى عند انشائها في ٣١ أكتوبر سنة ١٧٥٤ باسم «كلية المَلِك» King's College. ولم ترتبط لدى انشائها بكنيسة بالذات، وهذا هو ما يفسر كونها لم تحتو على كلية اللاهوت، وكانت هي الوحيدة في هذا الشأن في كل الولايات المتحدة قبل ثورة الاستقلال. ولهذا فإنَّ هيئة ادارة الجامعة في الوقت الحاضر تمثل مختلف الجامعات الدينية دون السيطرة لواحدة منها.

وفي أول مايو سنة ١٧٨٤، بعد المرور بفترة أُغلقت فيها، أُعيد تنظيمها وسُميت باسم «كلية كولومبيا» Columbia College. ونظمت كلية الطب في سنة ١٧٩٢، وأُنشىء كرسي للقانون في ١٧٩٣.

وكان مقرها الأول عند ميدان الكلية وشارع باركلي داتشيرش ومَرَّى. ثم نُقلت في سنة ١٨٥٧ إلى شارعي ٢٩ و٥٠ وجادة مادسون، وظلت هناك حتى سنة ١٨٩٧. ثم اشترت ١٧,٥ فدان من الأرض تقع بين شارع ١١٦ وشارع ١٢٠ وجادة أمستردام، وبنت فيها مباني مناسبة انتقلت إليها الكلية في سنة ١٨٩٧ ونُظِّمت على أساس أنها جامعة ولا يزال هذا هو مقرّها الرئيسي حتى اليوم.

وتشتمل الجامعة على: كلية للقانون، وكلية للطب، وكلية للفلسفة والعلوم السياسية، وكلية للعلوم البحتة، وكلية للهندسة، وكلية للتعدين والمعادن، وكلية للكيمياء، وكلية للعمارة. وفي سنة ١٩١٢ أُنشئت فيها مدرسة للصحافة، وفي سنة ١٩١٦ أُنشئت فيها مدرسة لإدارة الأعمال. واسست كلية للبنات باسم برنرد كولرج Barnard College في سنة ١٨٨٩ وكانت هناك مدرسة للمعلمين أُسِّست سنة ١٨٨٨، وقد أُدمجت في جامعة كولومبيا سنة ١٨٩٨. كذلك أُنشئت كلية للصيدلة، وأخرى لطب الأسنان. وهناك قسم للمكتبات.

ومن بين مَن تولوا رئاسة جامعة كولومبيا نذكر الجنرال دوايت ايزنهاور في الفترة من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٣، وقد صار بعدها رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية.

وكان عدد الطلاب والطالبات على مختلف المستويات: مرحلة الليسانس، وما بعد الليسانس، والدراسات المهنية - في بداية الثمانينات حوالى ١٧,٥٠٠، بينما بلغ عدد أعضاء هيئة التدريس حوالى الأربعة آلاف، أي بمعدّل مدرّس لكل أربعة طلبة!

وقد انضم إلى المشاركين في المؤتمر في نيويورك أعضاء آخرون نذكر منهم جوستاف فون جروبناوم جامعة UCLA في (لوس انجلوس)، وفرانتس روزنتال

(جامعة ييل Yale)، وآدمس Adams (جامعة ماكجل في كندا. لكن لم يشترك أي واحد منهم بإلقاء بحث، ونادراً ما اشتركوا في التعليق والمناقشة!

وقد ألقيت بحثي في ظهر يوم الأحد ٢٥ ابريل (١٩٧١) وكان بعنوان: «نصوص فلسفية جديدة مفقودة في أصلها اليوناني وموجودة في ترجمة عربية»، وهي التي نشرتها في نفس العام ضمن منشورات المطبعة الكاثوليكية في بيروت تحت عنوان: «شروح على أرسطو مفقودة في اليونانية» (بيروت سنة ١٩٧٢). وكان البحث الذي ألقيته باللغة الانجليزية، وضاع النص الانجليزي فيما سلبته الشرطة الليبية في ابريل سنة ١٩٧٣؛ لكن خلاصته هي التي نشرتها بالعربية والفرنسية مقدمتين لكتابي هذا.

وفي صباح ذلك اليوم، الأحد ٢٥ ابريل سنة ١٩٧١، شاهدت وأنا في طريقي إلى جامعة كولومبيا أفواجاً ضخمة من مواكب المتظاهرين اليهود الذين كانوا يحتفلون بذكرى تأسيس دولة اسرائيل، وقد سدّوا الجادات الكبرى وعطلوا السير والمرور. وكانوا صاخبين مهتاجين مستبشرين، رغم مرور ثلاثة وعشرين عاماً على هذا الحادث. ولم يعد عندي شك بعد ان شاهدت ما شاهدت في ان اليهود يسيطرون على نيويورك سيطرة كاسحة تامة، ومن وراء نيويورك يسيطرون على الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية في الولايات المتحدة بأسرها.

وكان يحضر جلسات المؤتمر بعض اليهود، ويستفزون الحاضرين بطاقيّاتهم الصغيرة الموضوعة على رؤوسهم. وقد ضقت ذرعاً بهذا المنظر، فاهتبلت فرصة بحث ألقي عن الترجمات العربية عن اليونانية، فعلّقت عليه وأفضت في المقارنة بين دقة وأمانة الترجمات العربية عن اليونانية وبين عبث وزيف الترجمات العبرية عن العربية، واستشهدت خصوصاً بالترجمات العبرية لمؤلفات ابن رشد وكيف عبث بها المترجمون اليهود في القرون من الثالث عشر حتى الخامس عشر، وذكرت ـ من الذاكرة ـ شواهد لهذا العبث الفاضح والتزييف البشع، ولم يستطع احد من الأساتذة اليهود الحاضرين ان يردّ بكلمة واحدة لقوة أسانيدي وتمكّني من الموضوع. وكان حاضراً منهم حينذاك: رتشرد ڤلتر، وفرانتس روزنتال، وجوستاف جرونيباوم، ولم أحفل بوجودهم ولا بوجود أصحاب الطواقي اليهودية، ولا كوني في قلب عاصمة نفوذهم الأكبر، نيويورك.

مدينة المتناقضات

ونيويورك هي مدينة المتناقضات الصارخة: الثراء الفاحش والفقر المدقع، ناطحات السحاب والأكواخ الحقيرة، الجادات الفخمة والأزقة القصيرة الضيقة، ارفع مظاهر التمدن وأفحش الجرائم. أمَّا اختلاف الديانات والمذاهب والأجناس - فلا مثيل له في العالم كله. لقد كانت نيويورك في البدء هولندية السكان، ثم صارت انجليزية، ثم ايرلندية، ثم ايرلندية - ايطالية - يهودية، ثم يهودية - ايطالية، ثم يهودية - ايطالية - زنجية، ثم يهودية - ايطالية - زنجية - پورتوريكية وخلال السبعينات من هذا القرن غادر المدينة ١,٢٠٠,٠٠٠ من البيض، وازداد عدد الزنوج (السود) من ١,٦٦٥,٠٠٠ إلى ١,٧٨٤,٠٠٠، وازداد عدد السكان المتكلمين بالاسپانية من ١,٢٧٩,٠٠٠ إلى ١,٤٠٦,٠٠٠. وفي سنة ١٩٨٠ صارت نسبة الپورتوريكيين بين السكان الأسپانيي اللغة ٦١% والأحياء المحصورة في عنصر بالذات (صيني، ايطالي، زنوج، پورتوريكيون) ازدادت في الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٨٠ إلى مثلي أو ثلاثة أمثال حجمها السابق.

أمَّا عدد اليهود في مدينة نيويورك بكل اتساعها فقد بولغ فيه كثيراً بسبب الدعاية اليهودية الكاذبة القوية. والواقع ان أصحّ تقدير لعددهم هو انهم يبلغون المليون نسمة فقط (تزيد او تنقص بمقدار مائة ألف فقط). وغالبيتهم في فقر مدقع، لكن بينهم عدداً من كبار الأثرياء جداً.

وقد تناقص عدد المولودين خارج الولايات المتحدة من المقيمين في نيويورك: لقد كان عددهم في سنة ١٩٢٠ ٤٠%، أمَّا بحسب احصاء سنة ١٩٦٠ فقد صار عددهم ١٣,٦%.

ونظراً إلى ان ما يقرب من مليون من البيض قد تركوا نيويورك في السبعينات، فقد حلَّ محلهم عدد متزايد من السود (الزنوج) حتى صار عددهم ربع سكان المدينة، وعدد متزايد آخر من الپورتوريكيين.

ومدينة نيويورك أسَّسها الهولنديون في سنة ١٦٢٣، واشتروا من الهنود الحمر جزيرة مانهتن بمبلغ أربعة وعشرين دولاراً فقط!! وسمُّوا المدينة باسم: «امستردام الجديدة». لكن سيطرة الهولنديين انتهت في ٨ سبتمبر سنة ١٦٦٤، إذ قام الأسطول الانجليزي الذي بعث به دوق يورك، كجزء من الحرب بين انجلترة وهولندة، بالاستيلاء على أمستردام الجديدة دون مقاومة تذكر. وغيَّر الانجليز اسم

المدينة إلى: نيويورك. وصار للمدينة ميثاق منحه إيّاها ملك انجلترة في سنة ١٦٨٦.

ومرّت المدينة بثلاث مراحل في تاريخها: الأول من سنة ١٦٢٣ حتى سنة ١٨١٥؛ والثانية من سنة ١٨١٥ إلى ١٩١٤؛ والثالثة من ١٩١٤ حتى اليوم.

وعقب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية صارت نيويورك عاصمة للاتحاد، في سنة ١٧٨٣، لكن لفترة وجيزة، إذ ما لبثت ان حلّت محلها في سنة ١٧٩٠ مدينة فيلادلفيا عاصمة للولايات المتحدة الأمريكية حتى سنة ١٨٠٠ حين صارت واشنطن هي العاصمة ولا تزال كذلك حتى اليوم.

وتزايد عدد سكانها بشكل مذهل: كان عددهم في سنة ١٧٨٣ ٢٤,٠٠٠، فصاروا في سنة ١٨٥٠ نصف مليون، وفي سنة ١٩٠٠ خمسة ملايين ونصفاً، وفي سنة ١٩٨٠ ٧,٠٧١,٠٠٠ في الأحياء الخمسة: مانهتن Manhattan، وبرونكس Bronx في الشمال الشرقي، وبروكلن Brooklyn وكوينز Quens في الطرف الغربي من الجزيرة الطويلة Long Island، وجزيرة استاتن (رتشموند سابقاً) في الجزيرة الجنوبية.

وحي مانهاتن هو أشهر أحيائها وأغناها، لأنه مركز الأعمال التجارية والمالية، وينقسم إلى: مانهاتن العليا حيث يوجد مركز روكفلر، حيث البنوك والمكاتب، والمخازن الكبرى؛ ومانهاتن الدنيا حيث شارع الجدار Wall Street أكبر مركز في العالم للبنوك والبورصة. وفي مانهاتن ايضاً: قرية جرينتش Greenwith Village، مركز الفن والملاهي. وفيه ايضاً: المدينة الصينية Chinatown التي يسكنها الصينيون وفيها مطاعمهم التي يكثر توافد السائحين عليها. كذلك يقع في مانهاتن حيّ الزنوج، واسمه: هارلم Harlem، وبيوته من القرميد الأحمر، ويخيم عليه البؤس والفقر والعنف وتعاطي المخدرات. ولا يجرؤ مَن ليس زنجياً على الدخول او التجوّل في هذا الحيّ.

يقودنا إلى الحديث عن الأمن والجريمة في نيويورك. ولئن كانت لا تبلغ في الجرائم مبلغ اتشيكاجو، فإنّها مع ذلك من أخطر مدن العالم من حيث الأمن ومن أوفرها حظاً من الجرائم. ومن الخطر البالغ أن يتجول المرء في شوارعها بعد الثامنة مساءً: فلن يعدم مَن يخرج له من باب بيت ويأمره بالدفع، وإلاّ كان مصيره القتل. والحدائق والملاعب صارت أوكاراً ليليّة دائمة لقاطعي الطرق ومدمني المخدرات والمتاجرين فيها. والغالبية الساحقة من هؤلاء المجرمين هم إمّا من السود الزنوج، وإمّا من البورتوريكيين. وفي أثناء النهار صار خطف حقائب

السيدات امراً شائعاً، بل عادياً جداً، لهذا امتنعت السيدات من حمل الحقائب، أو صرن يربطنها في أرساغهن. وفي مترو الأنفاق تعدد اللصوص وقاطعو الطرق وبائعو المخدرات، رغم وجود شرطة خاصة بالمترو. والپارك المركزي (أكبر حديقة في نيويورك) لا تمر فيه ليلة دون جرائم قتل واغتصاب وضرب مبرّح، غير وجود دوريات ليلية تركب الطائرات العمودية وتمر بأنوارها الكاشفة طوال الليل. وأصحاب السيارات يغلقون أبواب سيارتهم اغلاقاً محكماً حين يقفون في علامات المرور الحمراء، خوفاً من ان يبادر أحد هؤلاء المجرمين فيفتح الباب ويهدد الركاب بدفع المال مشهراً مسدسه، ولا مغيث ولا مجيب حتى في رائعة النهار.

❀ ❀ ❀

ولمّا كنتُ ممن يهوون السير في المدن الكبرى إبّان الليل للتعرّف إلى الحياة الليليَّة فيها، فقد استحال عليَّ تحقيق هذه المتعة ولم أجرؤ على الخروج بعد مغيب الشمس حتى للتجوال في الشوارع المجاورة للفندق الذي كنت أنزل فيه. وزاد في ترويعي ان الجادات الكبرى هي الأخرى كانت قليلة الأضواء في المساء وتغلق فيها المحلات أبوابها عند السادسة. فازدادت نفسي انقباضاً.

وزاد نفوري من نيويورك عدم وجود المقاهي على النحو المعروف في فرنسا وألمانيا وايطاليا واسبانيا والنمسا وسويسرة وغيرها. وانا مولع بالجلوس في المقاهي في كل أوقات فراغي. وكل ما هناك في نيويورك كافتريات لتناول وجبات خفيفة او بعض الشروبات، وعليك ان تغادر المكان فور انتهائك من الطعام والشراب، وهو نفس الحال التي شهدتها في لندن وأقسمت بعدها ألاَّ أعود اليها إلاَّ مضطراً.

وقد رددت في نفسي هذا القسم نفسه وأنا في نيويورك وهو ألاَّ أعود إليها ولا إلى أي مدينة أخرى في الولايات المتحدة الأمريكية إلاَّ إذا اضطرتني إلى ذلك عوامل قاهرة. ولهذا ورغم مرور سبعة عشر عاماً فإنِّي لم أفكّر ابداً في زيارة الولايات المتحدة مرة ثانية، بينما انا أزور أوروبا كل عام وبشوق بالغ ولهفة حارة.

وقضيت نهارات الأيام الخمسة الباقية لي في نيويورك بعد انتهاء المؤتمر - في زيارة المتاحف والمكتبة المركزية وقصر الأمم. ومن الأمور الغريبة التي تبيّنتُها في نيويورك ان مكتبات بيع الكتب فيها، سواء تلك التي بجوار جامعة كولومبيا، وتلك الموجودة في شوارع المدينة، لا تحتوي إلاَّ على قدر ضئيل جداً من

الكتب، وهذا القدر هو من الكتب ذات التداول العام، لا الكتب العلمية او الدراسات التاريخية والانسانية بعامة. فلما سألت أصحاب هذه المكتبات كيف أحصل على بعض الكتب العلمية المطبوعة في الولايات المتحدة أخبروني ان ذلك يتم بطريقتين اثنتين: إمّا بأن أطلب من هذه المكتبات فتبعث إلى الناشرين في طلبها، على ان أودع الثمن عندها مقدماً، وأمّا ان أتصل أنا بالناشرين مباشرة! هبوا ان الكتاب جديد لم أطلع عليه من قبل، فكيف أعرف قيمته، وهل أجد فيه ما أحتاج إليه ـ فكيف أطلبه منكم وأدفع الثمن مقدماً؟!

فأين هذا إذن من المكتبات في أوروبا، العامرة بكل جديد وقديم لا يزال للبيع، والذي يمسكه المرء بيده ويتصفح فهارسه وربما قرأ معظم المقدمة وهو واقف في المكتبة، بحيث اذا اشترى الكتاب اشتراه عن بيّنة، ولم يضع ماله في شرائه هدراً وهو لا يعلم من أمره شيئاً! إنَّ هذا الوضع الشاذ العجيب لم أجده حتى في انجلترة نفسها، إذ المكتبات في انجلترة تحتوي على رصيد ضخم من الكتب المعروضة أمامك، تستطيع ان تطّلع على ما تشاء منه؛ فإن رأيته مفيداً لك اقتنيته بالشراء وأنت مطمئن إلى أنَّ الثمن الذي دفعته لم يضع سدى.

ومن هذه الناحية ايضاً، وهي عندي في غاية الأهمية، ازددت نفوراً من ذلك البلد الشاذ العجيب، أعني الولايات المتحدة الأمريكية.

فوداعاً إذن وإلى غير عودة أيُّها البلد الذي لم يُخلَق لي ولم أُخلَق له!

وانزاح الكابوس

وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ انزاح عن صدر مصر الكابوس الرهيب الذي أبهظ صدر مصر طوال ثمانية عشر عاماً، سيم فيها الشعب المصري أسوأ صنوف العذاب، وابْتُلِي بأبشع الاهانات، وحاق به شرُّ أنواع الهزائم، إذ توفي جمال عبد الناصر في الساعة الخامسة والنصف من ذلك اليوم.

كنت وأنا في منزلي ببنغازي أدير مفاتيح المذياع عند الساعة السابعة مساء. وتوقفت عند محطة اذاعة القاهرة. وإذا بي أسمع تلاوة القرآن. فعجبت، لأنَّ اذاعة القرآن هي من الثامنة حتى الثامنة والنصف. فقلت في نفسي: لا بدَّ أنَّ أمراً خطيراً وقع في مصر استدعى وقف بث البرامج المعتادة والاقتصار على تلاوة القرآن: فقررت ابقاء الاذاعة على هذه المحطة لاستجلاء الأمر. ولم يمض وقت طويل وأنا أستمع إلى تلاوة القرآن، حتى قال المذيع «إنَّ السيد أنور السادات

سيذيع بياناً هاماً». فحزرت في الحال ماذا سيحتويه هذا البيان، وانه سيكون اعلاناً لوفاة جمال عبد الناصر، لأني كنت أعلم كم تحالفت الأمراض عليه منذ بضع سنوات، وسافر إلى موسكو لتلقي العلاج، وعلمت آنذاك بعد عودته من موسكو انه لا أمل في شفائه، وان السنوات الباقية له لن تزيد على أصابع اليد الواحدة، وكانت آخر رحلة له للعلاج في موسكو في المدة من ٢٩ يونيو إلى ١٧ يوليو سنة ١٩٧٠.

وصدق حزري. فقد أعلن السيد أنور السادات، وكان آنذاك النائب الوحيد لرئيس الجمهورية عن وفاة من قال عنه إنه «من أعز الرجال». وكان السادات قد عُيِّن في هذا المنصب في ديسمبر سنة ١٩٦٩.

وما انتهى من بيانه حتى عادت قراءة القرآن. فتحوّلت إلى محطة لندن، فلم أسمع شيئاً في هذا الصدد، ثم إلى غيرها، وهكذا حتى أعلنت لندن النبأ في الساعة العاشرة ثم ما تلا ذلك من نشرات. بيد اني لم أسمع في بنغازي أي.حركة او ضجة حول هذا الموضوع، في تلك الليلة، وقد بقيت ساهراً حتى الثانية صباحاً متتبعاً مختلف الإذاعات.

ثم توالت الأحداث بعد ذلك في مصر:

١ ـ فشيعت جنازة جمال عبد الناصر في أول اكتوبر. وقد بالغت الصحف الأوروبية في وصف الجنازة خصوصاً الصحف الفرنسية بما عرف عن محرريها من تهويل أهوج، فوصفت احتشاد مئات الآلاف في الجنازة بأنه عودة إلى تشييع «فرعون» مصر في العهود المصرية القديمة بوصفه إلهاً!!

ومن يعرف الشعب المصري لا يدهش لاحتشاد الجماهير الغفيرة في الجنازة: فقد تجمع حشد مشابه في تشييع جنازة سعد زغلول في أغسطس سنة ١٩٢٧، وتجمع قرابة مليون شخص في تشييع جنازة مصطفى النحاس في أغسطس سنة ١٩٦٥ رغم تحذير الشرطة من التجمع وتهديد المشيعين. إنه شعب مولع بالسير في الجنازات منذ فجر التاريخ، ولا يزال حتى اليوم يحتفل كثيراً للاشتراك في الجنازات على نحو لا أعرف له مثيلاً في أي بلد عربي او إسلامي آخر، ناهيك بأي بلد أوروبي او أمريكي. ولا أعرف شعباً تفنَّن في طقوس الحداد على الموتى مثل الشعب المصري: جنازة سوداء للرجال ومثلها للنساء، وزيارة النساء للقبر في كل خميس يتلو يوم الوفاة حتى اكتمال أربعين يوماً، وربما أكثر، ومأتم يستمر ثلاثة أيام، ومأتم آخر في يوم الأربعين يوماً التي مضت على وفاته، ومأتم سنوي

يستمر أعواماً متوالية حسب مكانة المتوفى والمقدرة المالية لورثته، وقد يتجاوز ذلك العشر سنوات، وهكذا.

وإذن فلا جديد مستغرباً في احتشاد مئات الآلاف لتشييع جنازة مَن ظلَّ مسيطراً على الحكم المطلق في مصر ثمانية عشر عاماً أو يزيد.

ولا يتوهّمن أحد ان الاشتراك في تشييع جنازة في مصر يدلّ على أيّ شعور بالحزن عند مَن يشارك. بل يتخذ أكثر الناس هذه المناسبة فرصة للاجتماع بعضهم ببعض، خصوصاً إذا كانوا من كبار السياسيين المتخاصمين: إذ هم لا يجدون فرصة او تكأة للاجتماع وتبادل الرأي او عبارات المجاملات الكاذبة إلاَّ في هذه المناسبة. ولو خطر ببال أحد ان يبث في مواضع مختلفة من هذه الجنازات الكبيرة أجهزة تسجيل، واستعرض حصيلتها فيما بعد لوجد ان ٩٩% من كلام المشيعين لا علاقة له بـ «الفقيد»، إنَّما هي أحاديث متبادلة لاستقصاء معلومات او تبادل منافع او عقد صفقات، او التوصية لدى أصحاب النفوذ، الخ الخ.

وإذا كان الفقيد في منصب كبير تشرئب إلى توليه من بعده نفوس جديدة متنافسة، دار الحديث كله بين كبار المشيعين حول مَن سيخلفه، وربما برز منهم مَن يدعو إلى ترشيح نفسه خلفاً له. أذكر أنَّني حضرت تشييع جنازة أستاذي العظيم مصطفى عبد الرازق (باشا) وكان عند وفاته شيخاً للأزهر، فتصدّر موكب الجنازة صفوف متراصة متوالية من شيوخ الأزهر. ومضت الجنازة من جامع الأزهر وسارت في الدرب الأحمر ثم اصاعدت في شارع صلاح الدين (القلعة) ثم مضت يميناً إلى مقابر الإمام الشافعي حيث ووري التراب. وقدر لي ان أتسمّع إلى أحاديث كبار شيوخ الأزهر السائرين في المقدمة، فوجدتها جميعاً تدور حول موضوع واحد هو: مَن سيخلفه شيخاً للجامع الأزهر!! وانطلقت الترشيحات والترشيحات المضادة في غير استحياء ولا احترام لمهابة الجنازة!! وأعرف من بين هؤلاء الشيوخ مَن كانوا بالأمس فقط في جلسة المجلس الأعلى للأزهر يتطاولون على الشيخ مصطفى بعنف وسفالة منقطعي النظير!

لهذا لا ينبغي لأحد ان يقيم لهذه الجنازات في مصر أي وزن فيما يتعلق بتقدير «الفقيد». إنَّها مجرد تجمهر شعبي كسائر أنواع التجمهرات الشعبية التي يراد بها للتنفيس والتنويع من رتوب الحياة، وفرصة لمشاهدة الكبراء وذوي النفوذ من باب حب الاستطلاع الزائف.

ومن الخطأ الفاحش إذن اتخاذ معيار لمدى التقدير في نفوس الناس من عدد

المشيعين او نوعهم في هذه الجنازات الرسمية الكبيرة.

٢ ـ ومن لحظة وفاة جمال عبد الناصر أصبح أنور السادات رئيساً للجمهورية بالنيابة. واتخذت الاجراءات الدستورية لانتخاب رئيس جديد للجمهورية. ولما كان مجلس الأمة هو وحده صاحب الحق في الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية، فقد أصدر مجلس الأمة قراراً اجماعياً بترشيح محمد أنور السادات لمنصب رئيس الجمهورية. وفي يوم ١٥ أكتوبر أُجريَ الاستفتاء العام على هذا الترشيح. فأيد ترشيحه ٩٠,٠٤% من أصوات الذين ادلوا بأصواتهم. وأقسم الرئيس الجديد اليمين الدستورية بعد ذلك بيومين أمام مجلس الشعب. وهكذا أصبح محمد أنور السادات رئيساً رسمياً للجمهورية العربية المتحدة (الاسم الرسمي لمصر منذ أواخر فبراير سنة ١٩٥٨) والذي استمر رغم زوال الوحدة مع سوريا في سبتمبر سنة ١٩٦١! ـ وهو إصرار أحمق ما لبث ان وقفه السادات وغيّر الاسم إلى: جمهورية مصر العربية في ٢/ ٩/ ١٩٧١.

وكان أول عمل قام به السادات هو تشكيل وزارة، فكلّف بهذا التشكيل وزير الخارجية المعمّر في هذا المنصب طويلاً منذ ديسمبر ١٩٥٢: محمود فوزي. وكان اختياره ليكون رئيساً للوزراء غلطة فاحشة ارتكبها أنور السادات، فإنَّ محمود فوزي ـ كما قلنا عنه في الجزء الأول من هذا الكتاب ـ انسان محدود الذكاء، تافه التفكير، لم يكن له أي ماض في الوطنية او العمل الوطني. ولم يبق عليه جمال عبد الناصر وزيراً للخارجية مدة طويلة إلاَّ لأنه خاضع مطيع، لا يبدي أي رأي، وإنما ينتظر دائماً أن يبدي جمال عبد الناصر رأيه أولاً ثم يعقب عليه فوراً بأن: رأي الرئيس هو عين الصواب، وهو الحكمة كل الحكمة وهو الدهاء السياسي متجسّداً، إلى آخر عبارات التملّق والنفاق التي كانت هي كل بضاعة محمود فوزي.

وربما اختاره أنور السادات لهذا السبب عينه، حتى يكون أداة سلبية مطواعة في يده دائماً وهو الذي يعلم انه مقبل على صراع عنيف مع أقرانه المتطلعين إلى مشاركته في السلطة، وزحزحته عنها للحلول محله، مثل: علي صبري، حسين الشافعي، زكريا محي الدين، بل والتالون لهم في المرتبة مثل: الفريق محمد فوزي، وسامي شرف، وشعراوي جمعة، إلى آخر هذه الفئة الباغية، التي بدأت تتحرك منذ اللحظة الأولى لتولي السادات رئاسة الجمهورية. وقد اضطر السادات لملاينتها منذ البداية، فاضطر ـ كارهاً قطعاً ـ الى تعيين حسين الشافعي وعلي صبري نائبين لرئيس الجمهورية، وذلك في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧٠، أي بعد تعيينه رئيساً للجمهورية بأسبوعين اثنين فقط!!

وكان علي صبري عميل روسيا الأول في مصر، ولهذا فإنَّ كوسيجين حين حضر جنازة عبد الناصر واجتمع بعدها برئيس الجمهورية بالنيابة، أنور السادات، شدّد على ان يكون لعلي صبري المركز الأول في السلطة في مصر، وهذا ما اضطر السادات الى تعيينه نائباً له بعد توليه رئاسة الجمهورية بأسبوعين. ولما كان علي صبري هو المسيطر على ما كان يُسمَّى «اللجنة العليا» للاتحاد الاشتراكي، وعلى الاتحاد الاشتراكي فقد ظنَّ انه يستطيع بواسطة كليهما أن يكون الحاكم الفعلي، وألا يكون إلاَّ السادات مجرد رمز فقط لن يلبث ان يطيح به وينفرد هو بالسلطة. وكان يعاونه في هذا التدبير والتقدير سامي شرف، العميل الثاني للاتحاد السوفييتي.

ورفض محمد حسنين هيكل الاشتراك في وزارة محمود فوزي، لأنَّه كان يشعر بأنه فوق هذه المنصب الكبير، خصوصاً وأنَّه هو الذي رشح محمود فوزي لتولي رئاسة الوزارة وكان يعده بمثابة ألعوبة في يده، فكيف يقبل بعد هذا ان يعمل مرؤوساً له؟! وكان هيكل وزيراً للإرشاد القومي والاعلام منذ ٢٦ ابريل سنة ١٩٧٠ واستمر في هذا المنصب حتى وفاة عبد الناصر.

٣ ـ وفيما يتصل بالموقف من اسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، كان عبد الناصر قد أعلن في ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٠ عن موافقته على الاقتراحات الأمريكية التي أعلنتها في ٢٥ يونيو سنة ١٩٧٠ وكانت تقضي بوقف إطلاق النار لمدة تسعين يوماً في منطقة قناة السويس؛ وتمَّ تنفيذ هذه الخطة في منتصف ليلة ١٧ أغسطس. وتجدّدت فترة وقف اطلاق النار هذه تلقائياً ـ أي دون اعتراض أحد من الطرفين: مصر واسرائيل ـ في ٧ نوفمبر. فلما جاء موعد انتهائها الثاني لم يوافق السادات على مدّ وقف اطلاق النار إلاَّ لثلاثين يوماً فقط، وأعلن ذلك في ٤ فبراير ١٩٧١، وأعلن استعداده لاعادة فتح قناة السويس اذا انسحب الاسرائيليون من الضفة الشرقية لقناة السويس. فلما انتهت مدة الشهر في ٧ مارس، رفض السادات مدّ فترة وقف اطلاق النار؛ لكنه أعلن في الوقت نفسه «ان هذا لا يعني ان العمل السياسي سيتوقف وان المدافع ستبدأ في اطلاق قذائفها».

وفي الوقت نفسه عمل السادات على تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة. واستقبل وزير الخارجية الأمريكية، وليم روجرز، الذي زار مصر في المدة من ٤ إلى ٦ مايو سنة ١٩٧١. لكن لم يكن لهذه الزيارة أثر يذكر في حل الموقف المتأزم، لأنَّ الولايات المتحدة استمرت على تأييدها المطلق لإسرائيل، ولم تقبل أن يكون فتح قناة السويس مرحلة أولى نحو الانسحاب الاسرائيلي التام

من شبه جزيرة سيناء. لهذا يئس السادات من حل الموقف سلمياً، وأعلن في نوفمبر سنة ١٩٧١ في خطاب ألقاه أمام القوات المرابطة على الضفة الغربية للقناة انه لا مفر من الحرب مع اسرائيل لإجلائها عن سينا.

٤ ـ وكان عبد الناصر الذي أجرى في يومي ١٢ ـ ١٣ فبارير سنة ١٩٧٠ محادثات في القاهرة مع جعفر النميري، رئيس جمهورية السودان، ومع قائد الثورة الليبية، وجرى الحديث بين الثلاثة حول تشكيل اتحاد من الدول الثلاث. وتلا ذلك انعقاد مؤتمر في الخرطوم من ٢٤ إلى ٢٩ مايو سنة ١٩٧٠ للبحث في نفس المشروع. لكن لم ينجم عن هذا كله أيّ شيء محدد.

فلما تولى السادات رئاسة الجمهورية تواصل الحديث في نفس موضوع الاتحاد بين الجمهوريات الثلاث وذلك في مستهل نوفمبر سنة ١٩٧٠، وتوصلوا هذه المرة إلى وضع الخطوات الفعلية لتحقيق هذا المشروع.

وفي الوقت نفسه سعت سوريا، وكان حافظ الأسد قد تولّى السلطة فيها في نوفمبر سنة ١٩٧٠، للانضمام الى هذا الاتحاد. فأعلنت في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٧٠ انضمامها إلى الاتحاد بين مصر والسودان وليبيا كما تقرر في اعلان طرابلس.

وفي ١٧ ابريل سنة ١٩٧١ وقّع زعماء الدول الأربع على تكوين هذا الاتحاد، وتم التوقيع في مدينة بنغازي، لكنني كنت آنذاك غائباً عن بنغازي لأنّي كنت في رحلتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

٥ ـ ولما عاد السادات إلى مصر بعد هذا التوقيع، وجد ان علي صبري حرّض الاتحاد الاشتراكي على معارضة هذا الاتفاق. ومن ثم بدأت المعارضة ضد السادات داخل الفئة الباغية تستفحل طمعاً في الاطاحة بالسادات وتولّي السلطة مكانه. وتولّى قيادة هذه الحركة: علي صبري (نائب رئيس الجمهورية)، وسامي شرف (وزير شئون رئاسة الجمهورية)، وشعراوي جمعة (وزير الداخلية)، ومحمد فائق (وزير الاعلام)، ومحمد فوزي (وزير الحربية). وتصوروا ـ بحماقتهم وسوء تدبيرهم وبلاهة عقولهم ـ أنّهم سيسقطون السادات بمجرد أن يعلنوا استقالتهم من مناصبهم! وأعلنوا هذه الاستقالة في مساء ١٢ مايو سنة ١٩٧١.

وبسرعة وحزم ومهارة بادر السادات وواجه هؤلاء المغفلين الذين لم يتحرك أحد لمساندتهم لا في الاتحاد الاشتراكي، ولا في الجيش، ولا في الشارع المصري: فأصدر في ١٣ مايو قراراً بقبول استقالة هؤلاء، وقراراً آخر بتشكيل وزارة جديدة ـ على رأسها محمود فوزي أيضاً! ـ وعين وزيراً للداخلية ممدوح

سالم الذي بادر بالقبض على كل هؤلاء في نفس اليوم فاستسلموا كالخراف! وعين اللواء محمد صادق وزيراً للحربية، واستطاع صادق الحصول على ولاء القوات المسلحة لرئيس الجمهورية. كذلك تمَّ القبض على الضالعين من أعضاء اللجنة العليا والاتحاد الاشتراكي مع أولئك المتآمرين، وكذلك بعض المرتزقة من الصحفيين وموظفي الاذاعة والتلفزيون.

وأنشأ السادات وظيفة «المدّعي الاشتراكي». وتولّى المدّعي الاشتراكي ورجاله التحقيق مع هؤلاء المتآمرين، وانتهى التحقيق إلى تقديم ٩١ شخصاً للمحاكمة بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم.

ولقد انزعج الاتحاد السوفييتي كل الانزعاج لما أصاب عميليه الكبيرين في مصر: علي صبري، وسامي شرف. فهرع إلى ارسال وفد بقيادة نيقولاي بودجورني، رئيس الاتحاد السوفييتي في ٢٥ مايو سنة ١٩٧١. لكن السادات، بمكره ومهارته، استطاع تطمين الوفد السوفييتي على استمرار التحالف الوثيق بين مصر وبين روسيا. وتسجيلاً لذلك عقدت بين البلدين، في ٢٧ مايو سنة ١٩٧١، معاهدة «صداقة وتعاون»، مدتها خمسة عشر عاماً. وتوكيداً لاستمرار حسن العلاقات بين البلدين، قام السادات بزيارة موسكو في الفترة من ١١ إلى ١٤ اكتوبر سنة ١٩٧١.

ردود الفعل

ماذا كانت آثار هذا «الاتحاد المزعوم بين مصر وليبيا والسودان وسوريا؟

١ ـ أمّا في السودان فقد قامت في ١٩ يوليو سنة ١٩٧١ مجموعة من ضباط الجيش بالتحالف مع الحزب الشيوعي السوداني بالاستيلاء على السلطة واعتقال اللواء جعفر النميري. وقام الثوار الماركسيون هؤلاء فقتلوا رمياً بالرصاص ـ ٢٨ ضابطاً ومدنياً. وهنا قامت القوات السودانية الموالية للنميري، وبمساعدة القوات المصرية الموجودة في السودان، فقضت على هذا الانقلاب بعد ثلاثة أيام فقط من قيامه. وعقدت محاكم عسكرية أصدرت حكمها بإعدام ١٢ ضابطاً رمياً بالرصاص، وتمَّ تنفيذ الحكم، واعدام ثلاثة من زعماء الشيوعيين تمَّ اعدامهم أيضاً.

٢ ـ أمّا في مصر فقد هرع الوصوليون للظفر بمغانم: إذ أُنشئت وزارة شبحية تدعى الوزارة الاتحادية تألفت من أشباح من مصر ومثلها من ليبيا، وشكلت لجان

تنظيمية وتشريعية وادارية الخ هذه المسميات العابثة التي تنافس في الانخراط فيها أساتذة كليات الحقوق بخاصة، إذ رأوا في ذلك ما يوفر لهم بدلات سفر وشراء اللوازم المنزلية التي توصيهم بها زوجاتهم! ولم يتورع البعض منهم من التطوع - النفعي طبعاً - للتعاون مع المخابرات الليبية ضد «أعداء الوحدة» من المصريين العاملين في ليبيا. قاتلهم الله، ما أحقرهم!

٣ - أمّا في ليبيا فباستثناء «هيئة المنتفعين»، بدأت الظاهرة التي شاهدتها من قبل في سوريا في سبتمبر سنة ١٩٥٨ أعني: «كراهية المصريين المحتلّين الجدُد». فازداد أفراد الشعب الليبي كراهية لنا نحن المصريين المقيمين منذ سنوات للعمل في ليبيا. ولم يكتفوا بالتطاول والتحرّش بل أخذوا في ترتيب هجمات ليلية على المصريين. كانت تخرج منهم مجموعات من أربعة أشخاص او أكثر، فإن صادفوا سائراً اشتبهوا في أنه مصري سألوه عن الساعة مثلاً أو غير ذلك، وسرعان ما يتبينون من لهجته انه مصري، فينقضون عليه بالضرب المبرّح ثم يهربون. وكان من بين مَن تولوا هذه الحملة بعض التجار والمثقفين!!

وتزايد حقد الليبيين وعنفهم على المصريين حتى انفجر انفجاراً عنيفاً في فبراير سنة ١٩٧٣ على اثر اسقاط اسرائيل لطائرة مدنية ليبية في ٢١ فبراير كانت قد ضلت طريقها فوق سيناء، وقتل جميع مَن فيها (١٠٨) من المصريين والليبيين، ومن بينهم صالح بويصير الذي كان وزيراً في احدى وزارات ما بعد انقلاب الأول من سبتمبر. وكأن مصر هي المسؤولة عن سقوط الطائرة، وكأنه لم يكن في الطائرة من المصريين أكثر مما كان فيها من الليبيين، وكأنَّ سيناء لم تكن احتلتها آنذاك اسرائيل!!

ففي صباح يوم الجمعة بعد حادث هذه الطائرة انطلقت الجماهير في شوارع بنغازي وهي تصيح في حالة جنونية هستيرية: «وحدة لا» «وحدة لا» - أي لا وحدة أبداً مع مصر. واذا صادفوا مصرياً في الطريق انهالوا عليه بالضرب، فجرحوا العشرات من المصريين الذين تصادف سيرهم آنذاك وهو في الطريق إلى أداء صلاة الجمعة أو لقضاء حاجاتهم المعتادة.

ولما كنت ساعتئذ في البيت، وهو على بعد أمتار قليلة من شارع الاستقلال الذي كان يموج به تلك الجماعات الثائرة الهائجة، فقد استطعت ان أسمع كل هتافاتهم ضد مصر والمصريين ومطالبتهم بالغاء أية صورة من صور الاتحاد مع مصر. ولم أشاهد شرطياً واحداً ليبياً يعترض طريقهم أو يدعو إلى التفرق أو الكف عن الهتاف الهستيري ضد مصر.

الاتحاد او الوحدة وهم خطير

وأنا أعجب لحكام مصر كيف لم يتعظوا بتجارب الماضي القريب:

ـ أقاموا وحدة مع سوريا في فبراير سنة ١٩٥٨ فانهارت انهياراً مروّعاً شائناً في سبتمبر سنة ١٩٦١ وهام أكثر من ثلاثين الفاً من المصريين على وجوههم في سوريا، ولجأوا إلى لبنان فاستضافهم أولاً مطرودين، وأُطيح بكتائب المظلّيين الذين أرسلتهم مصر بقيادة ضابط يدعى الهريدني واستسلموا في خزي وعار.

ـ وأقاموا وحدة مع اليمن في أواخر سنة ١٩٦٢ واضطروا إلى خوض حرب مريرة ضد الجيش اليمني الموالي للإمام البدر والقوات السعودية المؤيدة لها، وفقدنا في ذلك المئات من خيرة الضباط (ومنهم ابن أخي، العقيد ماهر بدوي) والجنود، واضطررنا إلى ابقاء ما يقرب من خمسين ألف جندي في اليمن في الوقت الذي كنا فيه في حرب مع اسرائيل في ٥ يونيو والأيام الأربعة التالية، واضطررنا بعد ذلك إلى مغادرة اليمن وعقد صلح مع السعودية، وعاد الجيش المصري من اليمن محطّماً لم يحقق أيّ هدف.

ـ وها هم أولاء يعيدون محاولة الاتحاد: مع ليبيا والسودان وسوريا، وستنتهي هذه المحاولة هي الأخرى بالاخفاق الذريع رغم ان صيغة الاتحاد كانت مفككة مهلهلة تمثل أقل قدر من الاتحاد، بل انقلب الأمر إلى مأساة: فقد اقترحت ليبيا ومصر قيام وحدة اندماجية بينهما حدّد لتنفيذها شهر سبتمبر سنة ١٩٧٣. وفي هذا السبيل زار السادات ليبيا في يونيو سنة ١٩٧٣ وهنالك تبيّن له خطورة هذه العملية، خصوصاً وهو مقدم على الحرب مع اسرائيل (في ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣). وبطريقة مفاجئة جاء قائد الانقلاب الليبي إلى القاهرة وأمضى فيها فترة طويلة من ٢٢ يونيو إلى ٩ يوليو لحمل السادات على تنفيذ مشروع الوحدة الاندماجية ولما لم يوافق السادات على خطته، بعث بمسيرة «شعبية» من الليبيين في سيارات اتجهت إلى الحدود المصرية لإرغام مصر على اعلان الوحدة مع ليبيا، فما كان من السادات إلاً أن أرسل قوات للتصدي لها وأوقفها بُعيد مدينة مرسى مطروح بأن قطع الطريق ومنع من السير فيه فارتدت «المسيرة» عائدة إلى ليبيا. ومع ذلك حاول السادات تهدئة الموقف، فأرسل بعض الوزراء إلى طرابلس ومعهم الوصوليون المتطلعون خصوصاً من أساتذة الحقوق، ووضعوا خطة للوحدة على مراحل مع تشكيل جمعية تأسيسية مؤلفة من خمسين عضواً عن كل دولة، مهمتها وضع مشروع دستور واختيار رئيس يُصَادق عليه بعد ذلك عن طريق الاستفتاء. وكان من بين بنود

هذه الخطة تبادل وزراء مقيمين وتشكيل مجلس أعلى للتخطيط.

ولما شنت مصر الحرب على اسرائيل في ٦ أكتوبر أعلن قائد الانقلاب الليبي عدم موافقته على خطة مصر في حربها ضد اسرائيل. وجاء إلى باريس بترتيب مع جريدة «لوموند» وعقد مؤتمراً صحفياً تولّى تنظيمه ـ مع الأسف الشديد صديقنا جاك بيرك!! ـ هاجم فيه مصر وحربها مع اسرائيل. ولما عاد من باريس راح يطالب مصر بإعادة الطائرات الحربية ـ ولا تزيد عن العشرين ـ التي كان قد أعارها لمصر!

ومن هنا بدأت فترة توتر حاد متزايد الشدة في العلاقات بين مصر وليبيا:

ـ فمصر اتهمت ليبيا بالتورط في الهجوم المسلح الذي قامت به جماعة دينية بقيادة فلسطيني يدعى سِريّة على الكلية الفنية العسكرية في ابريل سنة ١٩٧٤، وفيه قتل ١١ طالباً من طلاب هذه الكلية والجنود.

ـ وفي أغسطس سنة ١٩٧٤ اكتشف وجود طائرات ليبية عسكرية من نوع ميراج Mirage في الصحراء الغربية المصرية.

ـ وأُعيد إلى مصر مائتا ألف من المصريين العاملين في ليبيا، وأسيئت معاملتهم إلى أقصى حد من جانب الشرطة الليبية.

ـ ومصر اتهمت ليبيا بأنها تطمح في الاستيلاء على جزء من الأراضي المصرية المتاخمة لليبيا، ومن العجب الذي يستنفد كل عجب ان ليبيا التي لا يسكنها إلا ١,٧٥ مليون نسمة، بينما مساحة ارضها ١,٧٤٩,٠٠٠ أي ضعف مساحة مصر تطمع في الاستيلاء على المزيد من «أرض مصر التي يبلغ سكانها آنذاك ٣٧ مليون نسمة ومساحتها مليون كم^2 (بالضبط ١,٠٠٢,٠٠٠ كم^2)!! ولهذا قال السادات عن الزعيم الليبي «إنّه مريض مائة في المائة، وقد استولى على عقله شيطان يجعله نهباً للأوهام». وسينعته السادات منذ ذلك دائماً بنعت «مجنون ليبيا».

ـ وقامت ليبيا في أغسطس سنة ١٩٧٦ بالتحرش بالقوات المصرية على الحدود عند السلوم، وقام بعض الجنود الليبيين بالهجوم على مخفر السلّوم، فاضطرت مصر إلى ارسال قوات دخلت ليبيا وتوغلت فيها حتى طبرق واستولت على معدات حربية كبيرة تركتها القوات الليبية الهاربة. وهنا قام هواري بومدين وقد استغاثت ـ ليبيا ـ فتوسط لوقف تدخل القوات المصرية، فانسحبت من الأراضي الليبية حاملة معها غنائمها الوفيرة.

وحسبنا هذا القدر الآن لبيان ما انتهت اليه محاولة الوحدة مع ليبيا.

❀ ❀ ❀

وتكفي هذه الشواهد لتقديم الدليل القاطع على فساد فكرة الاتحاد او الوحدة بين مصر وبين أية دولة عربية أخرى؛ وبوجه أعم بين أية دولة عربية وأية دولة عربية أخرى. والشواهد أمامنا ماثلة للعيان لا تحتاج إلى مزيد بيان: مثل مشروعات الوحدة بين العراق وسوريا، وبينهما وبين الأردن؛ ثم بين المغرب وليبيا؛ ثم بين ليبيا وتونس، الخ ـ وكلها ما لبثت عما قليل ان انهارت وتجلّت أنّها مجرد أوهام ودجل وتهريج سياسي.

بل إن أبسط مظاهر التقارب معدومة بين الدول العربية: مثل الغاء تأشيرات الدخول، وحرية تنقل العاملين للعمل في بلد آخر، وحرية تملك الأراضي الزراعية والمنازل، وتخفيض التعريفة الجمركية إن لم يكن إلغاؤها كلية ـ وما شاكل ذلك من ألوان التيسير في التعامل بين الدول، مما هو موجود مثلاً بين دول المجموعة الأوروبية. نعم قد يتقرّر إلغاء التأشيرات بين بعض الدول العربية وبعضها الآخر، لكن هذا الإلغاء ما يلبث بعد فترة قصيرة ان يلغى وتعود الأمور إلى سابق عهدها: من التضييق الشديد واقامة العقبات العديدة والمهينة في سبيل الحصول على تأشيرات دخول. ناهيك بدول الخليج الست. فإنَّ الدخول فيها لغير أبنائها قد يصل به العسر أحياناً إلى حد ان يكون دخول الجنة أيسر منه!!

وأمام هذه الحقائق الدامغة فإننا نجزم بأن «دعاة الوحدة» انما هم دجّالون مضلِّلون (بتشديد اللام الأولى وكسرها) متاجرون بالشعارات الباطلة تحقيقاً لأطماعهم الخسيسة وهم مجرد طبّالين وزمّارين للمتطلعين إلى زعامات وهمية على سائر الشعوب العربية. وهيهات، هيهات ان يظفروا بأمانيهم الكاذبة.

ثورة ثقافية!

وفي وسط هذا الجو المشحون بالتوتر في ليبيا أعلن قائد الثورة الليبية في خطبة ألقاها في مدينة زوارة (قرب الحدود مع تونس) في مساء ١٥ ابريل سنة ١٩٧٣ عمّا أسماه «بالثورة الثقافية» الممهدة «للثورة الشعبية الشاملة». ورسم خطة هذه «الثورة الثقافية» في خمس نقط هي:

أ ـ إلغاء جميع القوانين المعمول بها في ليبيا؛

ب ـ استبعاد كل العناصر «المريضة» (كما وصفها) التي تعترض مسيرة الثورة؛

جـ ـ اطلاق الحرية الكاملة للجماهير وللشعب وتسليحه؛

د ـ الثورة في الادارة وفصل جميع الموظفين «السلبيين»؛

هـ ـ الثورة الثقافية، وذلك باستبعاد كل النظريات «المستوردة» والمتعارضة مع الاسلام ومع أهداف ثورة الفاتح من سبتمبر.

وتنفيذاً لهذه الثورة «الشعبية» شكلت «لجان شعبية» «للزحف» على الادارات الحكومية والمؤسسات القومية وتولِّي ادارتها بواسطة هذه اللجان الشعبية، التي يختار أعضاؤها خلال اجتماعات شعبية او مظاهرات، وذلك برفع الأيدي.

واستيقظ الناس في ليبيا صباح يوم الاثنين ١٦ ابريل ليجدوا بلدهم بغير قوانين تحكمها، ولا موظفين مطمئنين في وظائفهم، ولا محاكم تتولى الفصل في منازعاتهم، بل فوضى شاملة وعماء في عماء. وأخرج صغار التلاميذ من مدارسهم الابتدائية والاعدادية ليجوبوا الشوارع تأييداً لهذا القرار الذي لا مثيل له في التاريخ البشري.

وفي الساعة الثالثة والنصف من مساء يوم الأربعاء ١٨ ابريل طرق باب شقتي ضابط شرطة بملابس مدنية وأطلعني على بطاقة هويته وفيها انه ملازم أول في المباحث العامة وطلب تفتيش الشقة فتركته يفتش في الكتب. واستغربت حين رأيته يأخذ كتاب «منطق ارسطو» وسائر ما وجده من كتب أرسطو. واحترت في تفسير ذلك وقلت في نفسي: وما ذنب أرسطو وما شأنه بما يجري في ليبيا من أحداث! واستولى على بعض الأوراق، ومنها محضر مجلس الكلية ـ وكنت أنا أمين المجلس ـ إذ وجد فيها أسماء طلبة.

ثم طلب إليّ السير معه إلى مبنى المباحث وهو قريب من منزلي. وبعد ان صعد إلى رؤسائه وبقي معهم بعض الوقت اقتادني إلى مركز شرطة قسم النزهة. وهناك وقع على سجل بأنّه سلّمني إلى قسم الشرطة لاحتجازي ابتداء من الساعة الخامسة والدقيقة ١١ من عصر ذلك اليوم، ١٨ ابريل سنة ١٩٧٣.

وهناك في قسم الشرطة وجدت بعض من أعرفهم وكانوا قد اعتقلوا هناك قبل ذلك بيوم أو يومين. ومنهم المحامون والأطباء والقضاة، الخ. فاحتججت بشدة أمام ذلك الملازم على احتجازي، وتدخل سائر المعتقلين لهذه المشادة بيني وبين ذلك الملازم. وبعد ذلك بساعتين جاء عميد كلية التربية في طرابلس، وقد اعتقلوه

وهو يحضر اجتماع مجلس الجامعة في مساء ذلك اليوم. وانضم الينا.

وكانت هناك اعتقالات أخرى حجز أصحابها في مخافر أخرى. وفي مساء يوم الجمعة ٢٠ ابريل نقلنا كما نقل سائر المعتقلين إلى سجن الكويفية الواقع على بعد خمسة كيلومترات شمالي مدينة بنغازي.

وهناك في سجن الكويفية اعتقلت حتى مساء يوم السبت ٥ مايو سنة ١٩٧٣، اي انني بقيت معتقلاً سبعة عشر يوماً وساعتين و٢٤ دقيقة، لأنني خرجت من السجن في الساعة السابعة و٣٥ دقيقة مساء ذلك اليوم.

ويرجع الفضل الأكبر بل الوحيد لاطلاق سراحي إلى الرئيس أنور السادات. وكان وزير الخارجية الدكتور محمد حسن الزيات، وهو صديقي وزميلي في الدراسة، قد علم بنبأ اعتقالي بعد يومين او ثلاثة من اعتقالي، فأبلغ الرئيس السادات وكان ممَّن التقيت بهم عند الفريق عزيز علي المصري باشا؛ وكان شديد الاعجاب بكتابي «نيتشه»، وكما صرح فيما بعد في خطبة أقامها للأدباء في الاسكندرية فإنَّه كان متأثراً تمام التأثر بكتابي هذا وبنيتشه في الفترة التي قام فيها بأعمال وطنية عنيفة ضد الجنود الانجليز في المعادي وغيرها، وظل مؤمناً بفلسفة القوة التي دعا اليها نيتشه وعرفها هو من كتابي هذا إلى ان انتصر في حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ فبدأ بعدها يجنح للسلم، ومن ثم كانت عملية السلام مع اسرائيل.

وكاجراء شكلي لتبرير خروجي من السجن، جاء رئيس المباحث ومعه ضابط، وكلّف هذا الضابط في حوالى الساعة الثانية عشرة بإجراء تحقيق معي، وهو التحقيق الوحيد الذي أجري معي طوال تلك المدة. فسألني هذا الضابط ـ وكان مهذباً مؤدباً ـ سؤالين اثنين:

س ١: ما رأيك في سارتر؟

جـ ـ سارتر اديباً اكثر منه فيلسوفاً. وأنا قد عبّرت عن رأيي فيه في كتابي: «دراسات في الفلسفة الوجودية» وقلت عنه إنَّه ضئيل القيمة من الناحية الفلسفية، وأمَّا من الناحية السياسية فأنا لا أقيم له أي وزن، لأنه متقلب يركب الموجة الرائجة ولا مبدأ عنده يستقر عليه.

س ٢: لماذا لم تتزوج (وأشفع ذلك بقوله: إنَّ في وسعي ان أمتنع عن الجواب، لأنَّه أمر شخصي).

جـ : لأني آثرت التفرغ للعلم وحده، ولم أرد ان يشغلني عن العلم والبحث العلمي شيء، وأنت تعلم مشاغل الأسرة والأولاد.

واكتفى الضابط بهذين السؤالين. . وسألني: هل أريد اثبات شيء؟ فأجبت: أريد أن أُعبّر عن رغبتي في ترك العمل في ليبيا، ويكفي أنّني عملت فيها ست سنوات.

ومن ثمَّ ذهبت إلى رئيس المباحث في الغرفة المجاورة فأفهمني انه سيفرج عني في هذا اليوم.

ولما عدت إلى زملائي المعتقلين وتحلّقوا حولي لمعرفة ماذا جرى في التحقيق، فاكتفيت بعبارات قليلة وأرسطو!! جداً ولم أفصح عن شيء. وكان سؤال الضابط عن سارتر هو الذي فسّر لي أخذ ذلك الملازم لكتب أرسطو، فقد اختلط عليه اسم سارتر!

وعند الساعة السابعة مساء طلبني القائم على السجن، وسلّمت عهدتي واستلمت نقودي التي أودعتها حين ادخالي السجن، وخرجت من ثم في الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة؛ ومعي الضابط الذي كان قد حقق معي عند الظهر. وذهبنا أولاً للقاء رئيس المباحث، الذي أبدى بعض الأسف على ما حدث وجاملني بجملة أو جملتين. ثم طُلِب إليّ الحضور إلى هناك في صباح اليوم التالي.

وذهبت في صباح اليوم التالي، الأحد ٦ مايو، وبعد انتظار ساعة او ساعتين أخبرني أحد الضباط، برتبة نقيب شرطة، بأنه مطلوب مني مغادرة ليبيا. فشكرت له ذلك بهدوء. وطلبت منه اعادة الكتب التي أخذوها، وكان نفس الملازم الذي اعتقلني قد جاء إلى السجن قبل ذلك باسبوع وطلب مني مفتاح الشقة لإعادة التفتيش، فأعطيته مفتاحاً (وكان معي ثلاثة مفاتيح) واستولى على عدد كبير من كتبي. فأجابني ذلك النقيب بأنها كثيرة بحيث لا أستطيع أخذها الآن، على ان أُطالب بها فيما بعد: فأخبرته بأن يردوا علي الأقل إلى مكتبة الجامعة ما استعرته منها. وقد علمت بعد ذلك بعام ان كتبي قد أُعطيت لمكتبة الجامعة في بنغازي.

ومن هناك ذهبت إلى ادارة الجامعة، وكان موقفها منذ اعتقالي موقفاً كريماً جداً رغم جو الارهاب الشديد آنذاك. فسوّيت أمور مستحقاتي المالية لدى الجامعة.

وفي الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء ذهبت إلى المطار بصحبة مندوب من الشرطة ومندوب من الجامعة. واستقليت الطائرة في حوالى الساعة الثانية عشرة والنصف، وعدت إلى القاهرة في الساعة الثالثة تقريباً.

وما كانت أشدّ فرحتي لما غادرت ليبيا ووصلت إلى أرض الوطن.

ردود الفعل على اعتقالي

ولما عدت إلى مصر أخذت ردود الفعل على عملية اعتقالي هذه تتوالى:

١ ـ فكتب أنيس منصور مقالاً عنيفاً ضد هذا العمل الشائن الذي لا مبرر له والذي يكشف عن جحود بشع ونكران للجميل فاضح، لكنه أخذ عليَّ أنني قبلت العمل عند هؤلاء الذين لا يستحقون ان يعمل عندهم أي رجل نابه فاضل له مثل مكانتي.

٢ ـ وحين جاء قائد الانقلاب الليبي إلى القاهرة وأمضى فيها من ٦/٢٢ حتى ٧/٩ سنة ١٩٧٣ عقد مؤتمراً للصحافيين، فوجه إليه الكاتب أحمد رشدي صالح سؤالاً: لماذا اعتقل د. عبد الرحمن بدوي وهو من أكبر مفكرينا في العالم العربي وله تلاميذ منتشرون في كل مكان؟ فلم يجب قائد الانقلاب الليبي إلاّ بعبارات متلعثمة متشنجة له وقال: لماذا كل هذه الضجة حول هذه المسألة ونحن إنّما أوقفناه بضعة أيام، ثم راح يهرف بعبارات غير مفهومة لا علاقة لها بهذا الموضوع وتعذر تسجيلها على مَن سجل الحديث ونشره في جريدة «الأهرام».

٣ ـ وبعد ذلك عقد له هيكل ندوة مع كتّاب جريدة «الأهرام» فسأله د. لويس عوض: لماذا اعتقلت د. عبد الرحمن بدوي وهو من أجلّ المفكرين في مصر والعالم العربي؟ ـ وبحسب ما روى د. لويس عوض التزم قائد الانقلاب الليبي بالصمت التام، رغم تكرار لويس للسؤال. وهنا انبرى لإنقاذه أحد المأجورين المتزلفين، وهو فلسطيني، وأنكر أن أكون انا قد جرى اعتقالي!! فيا لحقارة المرتزقة الوصوليين، وهذا الشخص يدعى أحمد صدقي الدجاني.

٤ ـ ولما وصلت إلى باريس في النصف الأول من يوليو سنة ١٩٧٣ والتقيت بجاك بيرك، المستشرق الفرنسي المعروف وصديقي الحميم، أخبرني انه لما علم باعتقالي راح في جمع التوقيعات من كبار المفكرين والمستشرقين والأدباء في

فرنسا لنشر احتجاج في جريدة «لوموند». لكنه توقف بعد قليل لما علم بالافراج عني.

٥ ـ ولما جاء قائد الانقلاب الليبي إلى باريس في أواخر عام ١٩٧٣ لعقد مؤتمر صحفي رتّبته له جريدة «لوموند»، كان من بين الأسئلة التي وجهت إليه سؤال عن اعتقاله لمفكرين كبار منهم مفكر مصري مشهور ـ وكان يقصدني ـ وكان الذي وجه إليه هذا السؤال هو الصحفي الشهير بتخصصه في الشئون العربية، اريك رولو Aric Roleau رئيس قسم الشرق العربي في جريدة «لوموند». وهنا أيضاً تهرّب من الجواب.

وأي جواب كان يمكنه أن يرد به، وهو نفسه لا يدري لماذا اعتقلني!

وحين زارنا في المعتقل الرائد مصطفى الخروبي، سألته ما السبب في اعتقالي فقال: «أنا لست مسئولاً عن هذا أبداً؛ الأخ بشير (يقصد بشير هوادي وزير التربية والتعليم) هو الذي فعل ذلك. ولم أكن في حياتي قد رأيت هذا البشير هوادي، الذي كان أحد أعضاء مجلس الثورة الليبيّة!!

اقامة قصيرة في مصر

ثم أمضيت في مصر من ٨ مايو حتى ٧ يوليو سنة ١٩٧٣.

وغداة وصولي ذهبت إلى قصر عابدين لأسجل في سجل التشريفات شكري الكبير للرئيس السادات لموقفه الكريم العظيم من مسألة اعتقالي ومساعيه الحميدة للافراج عني، وقد أرسل إلى ليبيا من اجل ذلك مستشاره لشئون ليبيا أشرف مروان فعبّر للمسئولين الليبيين عن اهتمام الرئيس السادات البالغ بأمر اطلاق سراحي فوراً.

واتصل بي زملائي وزميلاتي في قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة عين شمس، ودعوتهم للالتقاء بي في مقهى جروبي، لأنّي لم أشأ الذهاب إلى كلية الآداب؛ فالتقيت بهم في مقهى جروبي، وألحّوا عليّ في العودة لاستئناف التدريس في القسم وتولّي شئونه. فقلت لهم: «إنّني لم أقدّم استقالتي من الجامعة، بل الجامعة هي التي أصدرت قراراً بفصلي بسبب عدم عودتي بعد انتهاء مدة إعادتي. فعلى الجامعة إذن ان تبادر من تلقاء نفسها بإلغاء قرارها السابق. أمّا أنا فلن أتقدّم أبداً بطلب لإعادتي». وأدركوا وجاهة اعتراضي وتركت لهم ان يبلغوا المسؤولين رأيي هذا وعلى هؤلاء إذن ان يتصرفوا، فهم وحدهم المسؤولون عن قرار فصلي من الجامعة. ومهما يكن الأمر من جانبي شكلياً. فلن أقوم به حتى يفهم مَن أصدروا القرار أية حماقة ارتكبوا فجلبوا الخزي والعار على أنفسهم وعلى مناصبهم.

وكان الذي أصدر القرار هو مدير الجامعة آنذاك د. اسماعيل غانم، وكان منذ سنة ١٩٦٢ تقريباً يعمل عميلاً لجهاز المخابرات، ورئيساً للجهاز السرّي الخاص بجامعة عين شمس، وتبعاً لذلك كان يتولّى كتابة التقريرات السياسية ضد أعضاء هيئة التدريس ورجال الادارة في الجامعة. ومكافأة له على هذه الأعمال

الخسيسة الدنيئة القذرة عُيّن وزيراً للثقافة ثم مديراً لجامعة عين شمس!!

وعلى الرغم من ان الرئيس السادات، بعد انتصاره على ما سُمّي باسم «مراكز القوى» في عهد عبد الناصر فيما عُرِف بـ «الثورة التصحيحية» في مايو سنة ١٩٧١، وعلى الرغم من قيامه هو بنفسه بتحطيم أدوات التنصّت على المواطنين واعلانه عن تقليص دور المخابرات وأجهزة البطش بالناس - فقد ظلَّ جهاز المخابرات العامة يعمل برؤساء جديدين وبأساليب أقل تعسفاً، مع ابقائه على عملائه السابقين غير المتورطين في قضايا التعذيب والاتهامات العامة المفضوحة. والدليل على ذلك ان هذا الرجل، اسماعيل غانم (وكان من قبل استاذاً في كلية الحقوق!) ظلَّ يلقى رعاية من جهاز المخابرات حتى في عام سنة ١٩٧٣ اي بعد «الثورة التصحيحية» بعامين! وإلاَّ لما كان قد عُيّن مديراً لجامعة عين شمس!

وعلى كل حال لم ألحظ في مصر، عند عودتي هذه المرة تغييراً كبيراً من النوع الذي أوهمت بحدوثه تلك «الثورة التصحيحية». فلئن كان قد تمَّ إلغاء الحراسة على الأشخاص والأموال، فإنَّ هذا الإلغاء كان نظرياً أكثر منه عملياً:

- فما قيمة إلغاء الحراسة على الأراضي الزراعية مع بقاء عقود الإيجار التي فرضت عليها نتيجة الحراسة، ومن شأن هذه العقود الإيجارية ان تنزل بريع الأرض بالنسبة إلى المالك بمقدار اربعة أخماس أو يزيد؟!

- والعمارات التي فرضت عليها الحراسة وضُمّت إلى شركات التأمين او استولى عليها أصحاب السلطان في عهد عبد الناصر بقيت عملياً على حالها ولم يستلمها أصحابها.

وأمر آخر اشد هولاً ونكراً وهو قانون «الاصلاح» الزراعي الثالث الصادر في أغسطس سنة ١٩٦٩ الذي نصَّ على الحد الأقصى للملكية الزراعية خمسين فداناً للفرد كما نصَّ على التعويض للملاك عن الزيادة على هذا الحد - لم يطبّق لا في عهد عبد الناصر، ولا في عهد السادات، ولا حتى الآن في عهد حسني مبارك رغم مرور ١٩ عاماً على صدور هذا القانون! ولقد طبّق عليَّ هذا القانون، واستولى «الاصلاح» الزراعي على ٢٥ فداناً من أملاكي، وحتى كتابة هذه السطور (في ١٩ يناير سنة ١٩٨٨) لم أحصل على مليم واحد تعويضاً عما استولوا عليه من أملاكي الزراعية!!

ثم إنَّ أحوال نشر الكتب في مصر قد ساءت إلى أقصى حد: فالورق نادر، ومرتفع السعر جداً، والطبع كذلك، والناشرون قد انصرفوا عن طبع ما ليس كتباً

مقررة على الطلاب في الجامعات. ومصر التي كانت حتى عشر سنوات خلت المصدر الرئيسي - بل شبه الوحيد - لنشر الكتب قد تجلّت فيها آثار التخريب الشيوعي الذي انكبّ على النشر في مصر في الفترة من سنة ١٩٦٤ حتى سنة ١٩٧١. فحقق لهؤلاء الشيوعيين ما هدفوا إليه آنذاك من القضاء على كل ثقافة وفكر حرّ في مصر، على غرار ما عليه الحال في مهبط وحيهم: روسيا السوفييتية.

إلى باريس لحضور مؤتمر المستشرقين

لهذا سرعان ما ضقت ذرعاً باستمرار الاقامة في مصر.

وفي هذا الضيق جاءتني دعوة من المشرفين على مؤتمر المستشرقين الذي سيعقد في باريس في النصف الثاني من شهر يوليو - لحضور هذا المؤتمر على ان يتحمل المركز نفقات السفر والإقامة. وكان الفضل في هذه الدعوة يرجع خصوصاً إلى الأستاذ شارل پلا، أحد كبار المشرفين على تنظيم المؤتمر، والأستاذ بالسوربون ومعهد الدراسات الاسلامية في الفرع الثالث من جامعة باريس.

وسرعان ما لبيت الدعوة مبتهجاً، وسافرت إلى باريس في يوم ٧ يوليو قبل انعقاد المؤتمر بأسبوع.

وكان عدد المشتركين في المؤتمر ضخماً جداً، تجاوز الأربعة آلاف! ولا شك في ان ضخامة العدد ترجع إلى كون محل انعقاده هو في باريس، وما أكثر مَن يودون المجيء في الصيف إلى باريس!

وكان هناك من يتآمرون على إلغاء «مؤتمر المستشرقين» بعامة. وكان على رأس هؤلاء المتآمرين برنارد لويس Bernard Lewis الأستاذ آنذاك في مدرسة اللغات الشرقية في لندن، والأستاذ فيما بعد في جامعة پرنستون بالولايات المتحدة الأمريكية. وهو صهيوني ضالع بنشاط كبير في المؤسسات الصهيونية، ومستشار هذه المؤسسات في انجلترة، وبعد ذلك في قلعة الصهيونية أعني الولايات المتحدة الأمريكية. ولا شك في انه كان مكلفاً من قِبَل هذه المؤسسات الصهيونية لنسف مؤتمر المستشرقين، لأنَّ مؤتمر المستشرقين - وان كان يشتمل على أقسام عديدة: المصريات، بابل وآشور - الهند، والصين - ايران - تركيا - أرمينية - آسيا الوسطى - فإنَّ أبرز أقسامه هو قسم الدراسات الاسلامية والعربية. ولهذا كان مؤتمر المستشرقين مجالاً دولياً ممتازاً لإبراز معالم الحضارة العربية ودراسة أوجه الحضارة الاسلامية بعامة في سائر البلاد الاسلامية: ايران، تركيا، الهند. ومن

هنا كان القضاء على «مؤتمر المستشرقين» هدفاً كبيراً من أهداف الصهيونية العالمية.

وتولّى تدبير هذه المؤامرة برنارد لويس بحماقته واندفاعه وتهريجه، يعاونه يهودي آخر يدعى بَشَم Basham وهو انجليزي الجنسية ومتخصص في الدراسات الهندية. واستطاعا التأثير في رئيس المؤتمر وهو الأستاذ فليوزا Filliozat المتخصّص في الدراسات الهندية، وهو عالم مهذب الأخلاق لكنه ضعيف الشخصية، فاستطاع ذانك الخبيثان: لويس وبشم استدراجه إلى مؤامرتهما الدنيئة. وهكذا قرر الثلاثة ومعهم باقي أعضاء «الاتحاد الأكاديمي الدولي» وهو المشرف على عقد مؤتمرات المستشرقين - حل مؤتمر المستشرقين، وتجزئته إلى عدة مؤتمرات خاصة، أطلق على المتعلق منها بالدراسات الاسلامية والعربية اسم «مؤتمر العلوم الانسانية للشرق الأدنى وشمالي افريقية» - وهو عنوان سخيف طويل ثقيل يدعو إلى الخلط والغموض في هدفه وموضوعاته. ولهذا ولعدم فهم المؤسسات التي دعيت فيما بعد لإيفاد مندوبين عنها - بعثت هذه المؤسسات بمَن لا شأن لهم ابداً بالدراسات العربية والاسلامية بالمعنى الذي كان مفهوماً في مؤتمرات المستشرقين، فكانت مهزلة ما بعدها مهزلة لما ان عقد المؤتمر في المكسيك ثم في اليابان. وبهذا لم يبق أيّ اثر لمؤتمر المستشرقين المعروف منذ أكثر من مائة سنة. وعلى هذا النحو تحقّق الهدف الأصلي الذي كان يستهدفه أولئك الصهاينة الخبثاء: برنارد لويس، وبشم ومن وراءهما من المؤسسات الصهيونية العالمية!!

ومنذ بداية المؤتمر وقد روج هذان لهذه الفكرة، فكرة الغاء مؤتمر المستشرقين، وثب بعض الأساتذة اليهود للترويج لهذه الفكرة في مختلف أقسام المؤتمر. وتولّى الترويج لها في قسم الدراسات الاسلامية والعربية الأستاذ كلود كاهان. فانبريت في الحال للهجوم عليها، وكذلك فعل د. ابرهيم مدكور. ورغم ذلك قام استاذ تونسي يدعى د. محمد الطالبي وراح يؤيد هذه الفكرة الخبيثة تملقاً للأستاذ كلود كاهان وحماقة منه وجهلاً بالقصد من ورائها.

ولما اختارني رئيس المؤتمر، الأستاذ فليوزا، لألقي كلمة أعضاء المؤتمر في الجلسة الختامية عاودت الهجوم على هذا المشروع، وكان أعضاء اللجنة العليا للمؤتمر قد أعلنوا قراراً بذلك قبل إلقاء كلمتي. لكن دون جدوى! ولهذا أخذت في «تأبين» مؤتمر المستشرقين، وابداء الحزن والأسف البالغ على هذا «الفقيد» العظيم الذي ظلّ يؤدّي خدمات جليلة للبحث العلمي في الحضارات الانسانية

طوال مائة عام. وذكّرتهم بمحاولة سابقة من هذا النوع جرت في مؤتمر باريس الذي انعقد في صيف سنة ١٩٤٨، وكيف تصدى لها بكل قوة رئيس المؤتمر باكو Bacot المتخصص في علوم اقليم التبت وآسيا الوسطى وانه قال: «لن أقبل أبداً ان أكون حفّاراً «القبر مؤتمرات المستشرقين».

وعلى الرغم مما قوبلت به خطبتي المؤثرة هذه من تصفيق حاد طويل، فقد انهى المؤتمر جلسته الختامية دون الرجوع علناً عن ذلك القرار. وخرج المؤتمرون حائرين لا يتبينون من الأمر شيئاً.

ومنذ ذلك المؤتمر المنعقد في باريس في يوليو سنة ١٩٧٣ لم يعقد للمستشرقين مؤتمر حتى اليوم. اما ما صار يعقد بعد ذلك من اجتماعات لبعض المستعربين في فرنسا او اسپانيا او المانيا فهي ألاعيب ناشئة جهلة عابثين او بدوات بعض الشيوخ العاجزين الذين يؤمّون هذه الاجتماعات للتذكير بأنهم لا يزالون في قيد الحياة!

وإبّان انعقاد المؤتمر توليت رئاسة جلسة صباحية في قسم الدراسات الاسلامية.

أمّا البحث الذي ألقيته في مساء أحد أيام المؤتمر فكان عن مخطوطات لأرسطو عثرت عليها في مكتبة بوهار في كلكتة بالهند، وكنت قد اطلعت عليها في زيارتي لكلكتة في أواخر يناير سنة ١٩٦٤ لما ان قمت بجولة محاضرات في جامعات شمالي الهند شملت: عليكرة، وڤرانسي (بنارس)، وپتنا، وكلكتة. ولم يتح لي نشر هذا البحث، كما لم يتح لي بعد نشر لو بعض النصوص التي يحتويها ذلك المخطوط.

في طهران

وكانت قد وصلتني وأنا في ليبيا دعوة للاشتراك في مؤتمر أبي الريحان البيروني الذي سيعقد في طهران في النصف الثاني من شهر سبتمبر سنة ١٩٧٣.

وكان يحضر مؤتمر المستشرقين مَن كان مكلفاً بالإعداد لهذا المؤتمر وهو د. ذبيح الله صفا، وكيل وزارة الثقافة وأستاذ الأدب الفارسي بجامعة طهران ومؤلّف أوسع كتاب عن تاريخ الأدب في ايران، ويتلو في المكانة كتاب «التاريخ الأدبي الفارسي» تأليف المستشرق الانجليزي العظيم ادورد براون Eduard G. Browne. فرتبت معه اجراءات السفر إلى طهران: إذ أرسل إليّ صورة من الدعوة السابقة ـ

والتي فقدت في بنغازي من بين ما فقد هناك او استولي عليه من أوراقي، كما أرسل بطاقة السفر والعودة على طائرة من طائرات شركة الطيران الايرانية (هواپيما ملّي ايران).

ومن باريس سافرت إلى طهران في يوم ١٤ سبتمبر فوصلتها بُعَيد منتصف الليل. ووجدت هناك مندوبين لإستقبال المشتركين في المؤتمر. واستقللت سيارة من المطار إلى فندق شيراتون الذي كان مخصصاً لنزول المشاركين في المؤتمر. وهو فندق حديث جداً، وعلى مستوى رفيع جداً من الفخامة والترف. وقد نزلنا فيه ضيوفاً على وزارة الثقافة الايرانية: اقامة وطعاماً. وهكذا تجلّى الكرم الايراني في أفخم مظاهره، وسيكون ذلك حظّنا طوال أيام المؤتمر، ثم في الزيارة التي سنقوم بها لمدينة شيراز ومدينة پرسپولس التي دمرها الاسكندر «الأكبر» ولم يبق من عمائرها الفخمة إلاَّ أطلالاً وحفائر كان القوم بسبيل إعادة بنائها على نحو ما كانت قبل خرابها على يد هذا الجبّار الطاغية المخرّب المذل للعروش والدول.

مؤتمر أبي الريحان البيروني

وألقيت بحثي في المؤتمر في عصر اليوم الأول لافتتاحه، وكان موضوعه: «البيروني والفلسفة اليونانية»، وقد كتبته وألقيته باللغة الفرنسية. ونشر هذا البحث أولاً في أعمال المؤتمر، وقد صدرت سنة ١٩٧٥. وأعدت نشره في كتابي Quelques Figures et Thèmes de la Philosophie Islamique (باريس سنة ١٩٧٩، عند الناشر Maisonneuve et Larone). فنكتفي بالإحالة اليه. وخلاصته أنَّه وان كان البيروني واسع الاطلاع على الفلسفة اليونانية وأورد نصوصاً عديدة مما ترجم إلى العربية في القرنين الثالث والرابع، فإنَّ «الخوض في المعقولات لم يكن من شأنه» كما قيل عنه، لأنَّه كان رجل علم وضعي وليس فيلسوفاً نظرياً. ولمَّا كان فرانتس روزنتال ولوي جارديه قد أعدا بحثيهما على زعم ان البيروني «فيلسوف»، فقد أفسدت عليهما خطّتهما، واضطر الثاني إلى تعديل بحثه، كما جاءني الأول ساخطاً غاضباً وهو يقول: «لقد أفسدت عليَّ كل بحثي». فقلت له: «أنا أدليت بالحجج الدامغة من نصوص البيروني نفسه، فإن كان لديك ما ينقضها فأورده». ولم يستطع أن يجد جواباً، وألقى بعد ذلك بحثاً قصيراً تافهاً مبتذلاً.

ولقد لاحظت بوجه عام ان الغالبية العظمى ممَّن يحضرون هذه المؤتمرات العلمية لا يستعدون لها أيّ استعداد. ولهذا يكتفون بتحضير خطب منبرية تافهة لا تكشف عن أي جهد لا في التحصيل ولا في التفكير، ويحسبون ان الحضور هو

مجرد «سد خانات» حتى لا يتهموا بالتطفل واستغلال المرحلة للترفيه والوجاهة. وهناك طائفة من الطفيليين المدمنين لحضور المؤتمرات أيًا كان موضوعها حتى لو كانوا يسمعون باسم المحتفل به لأول مرة في عمرهم، ومع ذلك يتوسلون ويتضرّعون بكل الوسائل ـ وبأخسها غالباً ـ لاستجداء الدعوة لحضور المؤتمر من القائمين على تنظيمه. ولا يتورعون عن القاء «كلمة» هزيلة سخيفة عامة يمكن القاؤها في أي اجتماع مهما كان موضوعه. وكان من هذا الصنف في مؤتمر البيروني هذا اثنان او ثلاثة سيعرفون أنفسهم فوراً حين يقرأون هذا الكلام، مهما غشّى عدم الحياء على عيونهم ونفوسهم!!

وثمَّ صنف آخر ممن يحضرون المؤتمرات يتوهمون، إذا كان المؤتمر يتعلق بذكرى شخص، ان مهمة أعضاء المؤتمر ان يكيلوا المديح الزائف والمبالغات الرخيصة في تمجيده والإشادة بانتاجه بالحق وبالباطل. حتى إذا سمعوا مَن يقوّم أعمال المحتفل بذكراه بالعدل وبالمعيار الصحيح مما يترتب عليه كثيراً أن ينالوه بالنقد والتقليل من منزلته ـ غضبوا وتأفّفوا وكأن الاحتفال بالذكرى هو تأبين لأقاربهم الموتى في المأتم التالي لدفنه!

ومنهم صنف يظل يغطّ في نومه طوال إلقاء البحث، ثم يفيق على ما يتلوه من تصفيق تقليدي، ولا يتورّع عن إبداء ملاحظة أو أكثر على بحث لم يسمع منه كلمة واحدة! وهو طبعاً يقول كلاماً لا معنى له ولا صلة له بالبحث!

وقد يستظرف بعضهم نفسه ـ مع ان ظِلّه أثقل من جبل الهملايا ـ فيتخذ من الوقت المخصص للتعليقات فرصة لقول نكتة باردة ممجوجة لا يضحك منها أحد غير نفسه. ويكون هذا هو كل ما يسهم به في هذا المؤتمر الذي أنفق عليه من أجله المنظمون له نفقات باهظة!

وهذه الأصناف الأربعة قد تمثلت بكل جلاء في مؤتمر البيروني هذا، كما تمثلت في مؤتمر الفلسفة الاسلامية الذي انعقد في جامعة هارڤرد (كمبردج ـ مسّاشوستس) وجامعة كولومبيا (نيويورك)، وفي مؤتمر ابن رشد في سبتمبر سنة ١٩٧٦ (في الكوليج دي فرانس ـ باريس)، وفي مؤتمر تاريخ العلوم في باريس في أغسطس سنة ١٩٦٨ ـ وفي كل مؤتمرات المستشرقين التي حضرتها وما أكثرها! لكن بدرجة أقل ظهوراً، لكثرة عدد المشتركين.

وكان بين المشاركين في مؤتمر البيروني هذا اثنان من رجال الدين المجوس: كانا يلبسان جلبابين أبيضين، وعلى رأس كليهما عمامة بيضاء وكانا لا

يكلمان أحداً، بل يجلسان معاً ويتكلمان معاً. ولم يكن أي واحد منهما يعرف غير اللغة الفارسية. ولم ينطقا طوال المؤتمر بكلمة واحدة: لا في الأبحاث ولا في التعليقات. أمَّا حين تناول الطعام فقد كانا شديدي التلهف على الأكل ينقضان على أطيب ما يقدم على الموائد دون أي احتجاز او استحياء! ولهذا كان الأعضاء يتجنبون الجلوس معهما إلى نفس المائدة، لأنهما لن يبقيا من الطعام لغيرهما شيئاً يذكر!

ولم يبق من أتباع المجوس (أو الزردشتية، أو الپارسية كما تسمى خصوصاً في الهند) في ايران غير بضعة آلاف يتمركزون في كرمان وبالقرب من مدينة يَزْد، ثم أفراد قلائل استقروا في طهران عند قيام حكم الأسرة الپهلوية في سنة ١٩٢٥. لكن أكبر مجموعة من المجوس - وتُسمَّى هناك: الپارسي - هم الذين يقيمون في بومباي (الهند) وما حولها. وثم بضعة آلاف في پاكستان وانجلترة والولايات المتحدة الأمريكية. والمجوس في الهند بينهم عدد من كبار الأثرياء، إذ يشتغلون في التجارة وفي الصناعة وفي السينما، وأكثرهم ثراء الأخوة تترا Tatra أصحاب مصانع الحديد والصلب وعمل هياكل الحافلات في بومباي».

ولهم في جبل عالٍ بإقليم يزد مكان عرض الموتى لتأكلهم الرَّخَم، وهذا المكان يسمَّى «دخما» Dakhma (ومعناه الاشتقاقي: مقبرة) - وقد وصفنا هذه الطريقة في عرض الموتى في كتابنا «موسوعة الأديان» فراجع الفصل الخاص بدفن الموتى فيها، وراجع الفصول الخاصة بالمجوس وزرادشت ومزدك.



وكان من ضمن برنامج المؤتمر زيارة لمدينة پرسپولس (واسمها الفارسي القديم: پرسا) التي كانت عاصمة الدولة الأكمينية في ايران، ويسمَّى موقعها اليوم باسم: تخت جمشيد (وجمشيد بطل فارسي اسطوري قديم). وتقع على مسافة ٣٢ ميلاً شمال شرقي مدينة شيراز (في محافظة فارس، جنوب غربي ايران) بالقرب من التقاء نهر رودخانة سيبوان بنهر رودخور.

وقد بدأ بناء مدينة پرسپولس في عهد دارا الأول الكبير (حكم من سنة ٥٢٢ الى سنة ٤٨٦ قبل الميلاد) الذي اتخذها عاصمة له بدلاً من پسرجدا، التي فيها دفن كورش الكبير. لكن نظراً لوقوعها في منطقة جبلية نائية فإنَّ الملك لم يكن يقيم فيها إلاَّ في الربيع. أمَّا ادارة الدولة الأكمينية فكانت تمارس من سوسة أو بابل، أو اكباتانا (التي سميت: همدان، فيما بعد).

وفي غزوة لفارس في سنة ٣٣٠ ق.م. نهب الاسكندر المقدوني مدينة پرسپوليس وأحرق قصر اكسركسس، رمزاً لقضائه على دولة الفرس التي طالما غزت بلاد آسيا الصغرى وبلاد اليونان نفسها، وامتدت الحروب بين الفرس واليونان أكثر من ثلاثة قرون، وستستمر بعد ذلك حتى الفتح الاسلامي. ومن ثم انهارت المدينة في عصر السلوقيين.

وفي عهد الدولة الساسانية، في القرن الثالث بعد الميلاد، صارت مدينة اصطخر - وهي قريبة من موقع پرسپولس - مركز الحكم.

وموقع أنقاض المدينة يتألف من مسطح (مساحته ١٣ هكتاراً) يستند جانبه الشرقي إلى كوة رحمت (جبل الرحمة) أما الجوانب الثلاثة الأخرى فتتكون من جدار متفاوت الارتفاع بين أربعة أمتار و١٢ متراً. وعلى الجانب الغربي سلم مزدوج يتألف من ١١١ درجة تقود إلى القمة.

وعلى هذا المسطح أطلال عدد من المباني الهائلة، وكلها مبنية بالحجر الرمادي الغامق، والأحجار ضخمة ولا تلتصق بملاط. وهناك أعمدة شاهقة، منها ١٣ عموداً لا تزال قائمة في قاعة الحكم التي كانت لدارا الكبير التي كانت تُسمَّى باسم: أَپَدَنا. وثم قاعة كبيرة أخرى تُسمَّى باسم «ميرستون» (= المائة عمود)، وكانت قاعة لاجتماع قادة الجيش.

وقد اكتشفت في سنة ١٩٣٣ مجموعتان من اللوحات من الذهب والفضة، وعليها سجّلت بكتابة مسمارية بالفارسية التترية، والعيلامية، والبابلية - حدود دولة الفرس، وقد تمَّ اكتشافها في أساسات قاعة دارا تلك.

ولا تزال نقوش الأحجار تدل على مَن إليه تنتسب الأبنية: دارا الأول، واكسركسس الأول وأرتكسركسس الثالث. كما ان هناك نقوشاً بارزة جدرانية.

وخلف تخت جمشيد ثلاث مقابر محفورة في سفح الجبل، وعلى مدخل بعضها تزيينات وفيرة وكتابات جدرانية بارزة.

وعلى الشاطىء المقابل من نهر رودخانة سيوان يرتفع جدار عمودي من الصخر قطعت فيه مقابر على ارتفاع كبير من قاع الوادي. وهذا الموضع يُسمَّى: «نقش رُسْتم» - نسبة إلى البطل الأسطوري رُسْتم. وفي نقش على أحد المقابر ما يدل على انه قبر دارا الأول، ابن هوستاسب. وعند مداخل القبر نقش يصف أخلاق دارا الأول ومناقبه، ويقول ان الله منحه صفتين بارزتين هما: الحكمة والجدّ. وإلى جانب قبر دارا الأول في موقع نقش رستم ربما كانت القبور الثلاثة

الباقية هي لاكسركسس الأول، وأرتكسركسس الأول، ودارا الثاني.

وتتميز الأعمدة في العهد الأكميني بوفرة التوريقات عليها: وبوفرة التزيينات. بين قضيب العمود وتاجه. وتاج العمود كان يزيّن في العادة بحيوانات مزدوجة. ولا يظهر فيها أي تأثر بطراز الأعمدة اليونانية.

ومن اجمل النقوش البارزة في قصر دارا رسم بارز لمحارب فارسي يمسك رُمحاً بيديه، وعلى كتفه قوس وجعبة سهام.

وفي عيد النوروز كان يقام في پرسپولس احتفال عظيم، يفد إليه ممثلون من كل الشعوب التي تتألف منها دولة الفرس، تعبيراً عن ولائها. وقد رسمت بعض هذه الاحتفالات فيما تبقّى الآن من آثار هذه المدينة.

ولما كانت ايران قبل ذلك بعامين قد احتفلت احتفالاً فخماً جداً، باهظ التكاليف جداً، بمرور ٢٥٠٠ سنة على تأسيس پرسپولس، وأقامت للضيوف الوافدين من شتى أنحاء العالم - والكثيرون منهم رؤساء جمهوريات او وزارات - خياماً جميلة تتوافر فيها كل أسباب الراحة والأبهة والترف، فقد شاهدنا هذه الخيام لا تزال قائمة تغطي مساحات واسعة أمام اطلال مدينة پرسپولس. فتجولنا في بعضها، وتناولنا الطعام في ظل واحدة منها.

ثم عدنا في المساء الى فندقنا الفخم في مدينة شيراز. وفي الغداة عدنا بالطائرة إلى طهران.

مواصلة الاقامة في طهران للاطلاع على المخطوطات

ولما كانت طهران زاخرة بنفائس المخطوطات العربية التي تهمني، وكانت هذه فرصة فريدة للاطلاع عليها، لهذا قررت مواصلة الاقامة في طهران حتى أفيد من هذه المخطوطات. وتركت سائر أعضاء المؤتمر يعودون من حيث أتوا.

وشجعني على مواصلة الاقامة الرعاية الكبيرة التي حظيت بها من جانب العلماء والأساتذة في طهران، وكانت شهرتي العلمية هناك لا تقل عنها في مختلف البلاد العربية ان لم تزد. ووجدت ان بعض دراساتي قد ترجمت إلى اللغة الفارسية، مثل: «الامام علي ورهان پسكال»، ومقدمة كتابي: «شخصيات قلقة في الاسلام» وكان اهتمامهم أكثر بما نشرته من كتب ونصوص لابن سينا. فأحاطني بعض أساتذة جامعة طهران وبعض العلماء المشتغلين بالدراسات الاسلامية بعناية

فائقة وحرارة في الاحتفاء أنستني ذكرى تجربة سنوات ليبيا البغيضة.

فانتقلت من فندق شيراتون إلى «پارك أوتيل» في شارع حافظ الواقع في قلب مدينة طهران: ففي قلبها تتوازى ثلاثة شوارع واسعة باسم الشعراء الكبار الثلاثة: سعدي، وفردوسي، وحافظ، ويتقاطع معها بالعرض شارع شاه رضا ويواصله شارع نادري، ثم يمتد حتى ميدان بهارستان (= الربيع) حيث يوجد مبنى المجلس النيابي (مجلس شوراي ملِّي) وبجواره مكتبته الغنية جداً بالمخطوطات العربية.

ويقع «بارك أوتيل» على مسافة عشرين متراً من تقاطع شارع حافظ وشارع نادري بذلك كان على مسافة متساوية تقريباً من المكتبات الرئيسية التي سأشتغل فيها: المكتبة المركزية لجامعة طهران، ومكتبة مجلس شوراي ملِّي. فكنت أقطع المسافة الى أيِّهما سائراً على قدميّ كل صباح من التاسعة حتى الواحدة بعد الظهر.

وكان يدير المكتبة المركزية بجامعة طهران عالم ممتاز جمع بين غزارة العلم وبين سراوة الأخلاق والحرص على مساعدة أهل العلم، وهو الأستاذ: ايرج افشار، الذي استطاع بنشاطه وحرصه على العلم واتساع علاقاته مع سائر مكتبات العالم التي تحتوي على مخطوطات عربية وفارسية ـ ان يزوّد هذه المكتبة بمقدار هائل من فيكرونات التي تحتوي على أنفس المخطوطات: في تركيا، وبريطانيا، والولايات المتحدة الأمريكية، والپاكستان، والهند، وأفغانستان. وفي الوقت نفسه استطاع ان يضم إلى تلك المكتبة مجموعات عديدة من المخطوطات المشتّتة في أنحاء طهران، وقم، ومشهد وشيزار، إلى آخره: إما بالاقتناء ممن يملكونها من الأشخاص أو الأسر، وإمَّا بالتصوير على ميكروفلمات. فصارت بذلك أغنى مكتبة مخطوطات في العالم، فضلاً عن ايران نفسها. وقد قام بتسجيل عنوانات هذه الميكروفلمات الأستاذ دانش پروة، في ثبت موجز جداً، وفيه العديد من المناقص والأخطاء، لكنه وحيد على كل حال في الاهتداء إلى قدر وفير مما في المكتبة من ميكروفلمات. وفي الطابق السفلي من المكتبة معمل كبير لتكبير الميكروفلمات على أوراق كبيرة زهيدة التكاليف وسريعة الإنجاز.

لهذا كنت سعيداً كل السعادة بالعمل صباح كل يوم ـ طوال إقامتي في طهران من اول اكتوبر سنة ١٩٧٣ حتى تركي لها في ٢٠ يونيو سنة ١٩٧٤ ـ في مكتبة جامعة طهران المركزية، ولم أنقطع عنها إلاّ ما يقرب من ثلاثين صباحاً قضيتها في مكتبة مجلس شوراي ملِّي. أمَّا في المساء فكنت أحياناً قليلة أذهب إلى مكتبة ملِّي أي المكتبة الوطنية، وهي أفقر بكثير من مكتبة مجلس شوراي ملِّي، ومن باب

أولى بكثير جداً: من المكتبة المركزية لجامعة طهران.

ولا يقطع استغراقي في العمل في المخطوطات إلاّ صوت رائع جميل يدوِّي من ميكروفون مسجد جامعة طهران، وهو صوت المقرىء عبد الباسط عبد الصمد وهو يتلو آيات من القرآن الكريم. آه! كم كان لتلاوته العذبة من وقع عميق في أرجاء نفسي، وعلى نحوٍ لم أعرفه من قبل في أيّ بلاد أخرى هاجرت إليها! إسلامية كانت أو غير إسلامية!

اما مكتبة مجلس شوراي ملّي فكانت من نوع آخر. كانت تديرها سيدة فاضلة تدعى خانم مُقَدّم، لا شأن لها بالدراسات العربية والاسلامية. لكن كان يشرف على قسم المخطوطات العربية والفارسية أستاذ جادّ واسع الاطلاع على المخطوطات العربية والفارسية، ويتقن اللغة العربية، وهو الأستاذ حائري. وقد وضع فهرساً من عدة أجزاء لمخطوطات المكتبة. ومن أجل المجموعات بين هذه المخطوطات مجموعة خلفها العالم الفاضل حسين طباطبائي، وفيها وجدت المخطوطة الكاملة ـ وإن كانت بخط حديث يرجع إلى مائة سنة تقريباً ـ لترجمة كتاب «الحيوان» لأرسطوطاليس، بمقالاته التسع عشرة. وقد نشرت انا المقالات الأربع عشرة الأولى منها في كتابين: «طباع الحيوان» و«أجزاء الحيوان» (الكويت سنة ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧). وإلى جانب المخطوطات توجد مجموعات أكبر جداً من الكتب الأوروبية، خصوصاً مما طبع في القرن التاسع عشر، وكثير منها يتعلق بإيران. ولهذا تفيد مَن يريد الرجوع إلى مصادر عن تاريخ إيران، خصوصاً في القرون الثلاثة الأخيرة. وجل هذه الكتب الأوروبية تم حصول المكتبة عليه من مكتبات خاصة لسياسيين وعلماء وجماعي كتب ايرانيين من رجالات القرن التاسع عشر والقرن العشرين: إمَّا بالهبة أو الشراء. ووجود هذه المكتبة تابعة لمجلس شوراي ملّي (مجلس النواب، البرلمان) يدل دلالة قاطعة على اهتمام الساسة الايرانيين بالعلم والكتب، على نحو لا نعرف له مثيلاً في أي برلمان أوروبي او إسلامي، ومن أجلها يستحق مجلس شوراي ملّي ايران أعظم التقدير وأطيب الثناء.

❀ ❀ ❀

واقتناء العلماء وكبار رجال السياسة والأُسر العريقة للمخطوطات والكتب ظاهرة واسعة الانتشار في كل ايران منذ قرون عديدة. ومن هنا نجد أُسراً عديدة وأغنياء كباراً يتفاخرون بما يقتنون من مخطوطات ـ نذكر من الشواهد على ذلك:

١ ـ مكتبة ملك لتجار، وتسمّى مكتبة مَلِك (وإن كانت عادة تنطق بفتح اللام)، ومكانها في داخل البازار، أي السوق الكبيرة القديمة في طهران.

٢ ـ مكتبة آل مهدوي، وتقع على مقربة من مسجد سيهالار الملاصق لمكتبة مجلس شوراي ملّي وتحتوي على مخطوطات تتميز بالتزويقات. ويقوم على أمرها في بيت مهدوي الضخم العريق الدكتوران أصغر مهدوي الأستاذ في كلية الحقوق، ويحيي مهدوي استاذ الفلسفة في جامعة طهران، وكان جدُّهما مديراً للضرب خانه (= دار سك النقود)، وعنده لجأ جمال الدين الأفغاني، وترك لديه أوراق، وهي في غاية الأهمية بالنسبة إلى تاريخ ونشاط جمال الدين الأفغاني إذ تكشف عن كثير من أسرار حياة هذا الرجل المغامر السياسي المتآمر المتورط في قتل شاه ناصر الدين شاه ايران. وكانت له ـ مع انه اتخذ من «الاصلاح الديني» وسيلته الظاهرة لتبرير نشاطه السياسي في جوهره ـ نقول كانت له مغامرات غرامية مع فتاة ألمانية، اطلعتُ على صورتها ومراسلاته معها ضمن هذه الأوراق. وقد طلب مني د. أصغر مهدوي فحص هذه الأوراق واعداد ما يمكن اعداده للنشر منها، لكن وقتي في طهران لم يسمح لي بالقيام بهذه المهمة، إذ رأيت ان مخطوطات الفلسفة الاسلامية الثمينة في مكتبات طهران أولى بالاهتمام من تلك الأوراق السياسية الشخصية!

ونظراً لهذا الاهتمام عند العلماء والأغنياء باقتناء المخطوطات، فإنَّ لها سوقاً رائجة في طهران. ولندرة المخطوطات الأصلية لجأ تجار المخطوطات الى وسيلة أخرى هي استكتاب نسّاخين محترفين لمخطوطات قديمة موجودة في إحدى المكتبات العامة، او لمصورات عن مخطوطات في مكتبات تركيا أو سائر بلاد أوروبا. حتى صارت توجد في طهران وُرَش Ateliers تتولى انتاج هذا اللون من المخطوطات وتسويقها عن طريق التجار. وتفننت هذه الورش في التزييف للايهام بأنَّ المخطوط قديم، وذلك بأن يُكتب المخطوط على ورق نباتي او كتاني يحمّص في أفران او يعرّض للشمس حتى يسمارّ لونه وتظهر فيه بُقع حمراء داكنة او مسوادّة. ويسعى الناسخ الى اتخاذ قاعدة قديمة للخط والاملاء حتى يزداد الإيهام والتخييل.

وقد يخيل على المختصين احياناً هذا التزييف. ومن ذلك انني وجدت في مكتبة الجامعة المركزية بطاقة فهرسة تحمل وصف: «انه بخط المؤلف حنين بن اسحق» وذلك لكتابه آداب الفلاسفة. فطلبته لاطلع عليه: فوجدت ورقاً نباتياً أسمر، وعلى صفحة العنوان ورد انه بخط حنين بن اسحق. ولما تصفّحته تبيّن لي في الحال هذا التزييف الفاضح: ففي المخطوط أخطاء إملائية، وأخطاء عديدة في

كتابة أسماء الفلاسفة ـ وهذا امر لا يمكن ان يرتكبه حنين بن اسحق. وكانت توجد في المكتبة، مصورتان عن مخطوط الاسكوريلي، ومخطوط المتحف البريطاني، فراجعت عليهما مخطوط المكتبة المركزية هذا فوجدته ينقصه الكثير من العبارات، كما انه ترك بياضاً لكلمات لم يستطع الناسخ قراءتها. وهذا ايضاً قطع بأن المخطوط ليس بخط حنين بن اسحق (المتوفى سنة ٩٧٣ م). وبعد السؤال والتحقيق تبيّن ان هذا المخطوط لم يمضِ على نسخه أكثر من ثلاثين سنة، وانه من تزييف احدى ورش تزييف المخطوطات في طهران!

وبصحبة الأستاذ ايرج أفشار، مدير المكتبة المركزية لجامعة طهران، زرتُ أحد تجار المخطوطات وهو يقيم في احدى ضواحي طهران. فوجدت لديه ما لا يقل عن ألف مخطوط، فاطلعت على بعض ما فيها من مخطوطات في الفلسفة الاسلامية. لكني لم أجد واحداً منها ليس له نظير في مكتبات المخطوطات المختلفة، كما تبيّن لي ان معظم ما عنده من مخطوطات قد صدر عن ورش طهران لتزييف المخطوطات.

وفي دور بيع الكتب القريبة من ميدان بهارستان توجد أحياناً مخطوطات، كلها جميعاً مخطوطات حديثة، وكتب واسعة الانتشار بالطبع: في الفقه والحديث ومتون العقائد.

التدريس في كلية «إلهيات وعلوم اسلامي» بجامعة طهران

ولما علِمَت كلية «إلهيات وعلوم اسلامي» (الإلهيات والعلوم الإسلامية)، احدى كليات جامعة طهران، بأنني واصلت الاقامة في طهران، عرض عليّ عميدها الدكتور محمد محمّدي إن أكون أستاذاً في تلك الكلية لمدة عام، ابتداء من أول ديسمبر سنة ١٩٧٣، فوافقت على هذا العَرْض، حتى تتاح لي الاقامة الكافية في طهران لدراسة ما أود دراسته من مخطوطات، وحتى تكون لي تجربة حيّة مع الجوّ الجامعي في ايران.

وكان مدير جامعة ملّي ـ وهي جامعة غير حكومية ـ الدكتور رعدي قد عرض عليَّ أيضاً أثناء مؤتمر أبي الريحان البيروني في طهران ـ أن أعمل في قسم الفلسفة بتلك الجامعة، لكني لم أتحمس لهذا العرض لبُعد الجامعة وندرة الطلاب المنتسبين إلى قسم الفلسفة فيها.

وكان عملي في كلية «إلهيات وعلوم اسلامي» وتقع في شارع أمير كبير الذي يشق البازار ويمكن المرء دخولها من الباب الخلفي من ناحية ميدان بهارستان (ميدان مجلس شوراي ملّي) - ينقسم إلى قسمين: سمينار مع طلاب ما فوق الليسانس (الدراسات العليا) لمدة ساعتين في يومي السبت والاثنين صباحاً، وكان التدريس فيه يجري بالفارسية والعربية وأحياناً بالانجليزية؛ - ثم محاضرة عامة باللغة العربية من الخامسة حتى السادسة مساء كل يوم أحد.

وقد خصصت هذه المحاضرة العامة الأسبوعية لإلقاء سلسلة من المحاضرات في تاريخ التصوف الإسلامي بدأتها بمقدمات حول مفهوم التصوف وموقف المذاهب الاسلامية المختلفة منه، ثم قمت بعرض تاريخ التصوف من حياة النبي (ﷺ) وخلال القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. وهذه المحاضرات هي التي طبعتها فيما بعد في الكويت تحت عنوان: «تاريخ التصوف الاسلامي» في القرنين الأول والثاني للهجرة (الكويت سنة ١٩٧٥). وكان عدد الحاضرين في كل محاضرة بين السبعين والثمانين.

وكان يحضر هذه المحاضرة العامة جل أساتذة الكلية، وعلى رأسهم العالم الكبير المرحوم د. مرتضى مطهّري، والأستاذ شيخ الاسلام وابنه، ود. آذرنوش آذرتاش، وكيل الكلية، ود. محمد مفتح الذي صار في عام ١٩٧٩ عميداً للكلية، ود. شيرازي، الخ. وأحياناً كان يحضر بعض الأساتذة والعلماء من خارج الكلية، مثل الأستاذ نوراني. هذا إلى جانب بعض طلاب وطالبات الدراسات العليا.

وكان الدكتور مرتضى مطهّري متخصصاً في الفلسفة الاسلامية، وحقق كتاب «التحصيل» لبهنميار بن المرزبان، تلميذ ابن سينا المباشر والمقرّب إليه وعليه أملى كتاب «المباحثات» الذي نشرناه ضمن كتابنا «أرسطو عند العرب» (القاهرة، سنة ١٩٤٧). وكان خطيباً دينياً فصيحاً مؤثراً، ولهذا كان كثيراً ما ينتدبه بعض كبار التجار والأغنياء لإحياء «حسينيّات» أي العشرة ليالٍ الأولى من شهر المحرم حتى يوم عاشوراء. فكان بارعاً في تمثيل ما جرى للإمام الحسين في كربلاء، يستطيع استدرار الدمع الهتون من مآقي السامعين، والنسوة بخاصة ولهذا كانت «حسينياته» هذه مقصداً للمئات بل الآلاف لسماع صوته، بل وتمثيله في الإلقاء، وهو يسرد سيرة الامام الحسين، سيد الشهداء في الأيام العشرة الأخيرة من نضاله ضد الأمويين.

وكان كذلك من أقرب المقرّبين إلى آية الله العظمى روح الله الخوميني

(وتكتب أيضاً: الخميني، نسبة إلى خومين أو خمين، وهي قرية في ضواحي طهران). واشترك معه في الحركة التي قام بها ضد الشاه محمد رضا بهلوي في سنة ١٩٦٤ واضطر بعدها إلى الالتجاء إلى مدينة النجف في العراق. ونتيجة لذلك قُبض على مرتضى مطهّري وأُودع السجن، لكن لمدة قصيرة، عاد بعدها وحصل على الدكتوراه برسالة عن كتاب «التحصيل» لبهنميار بن المرزبان، وعُيِّن في اثر ذلك استاذاً في كلية «إلهيات وعلوم اسلامي». ولما عاد الخوميني في أول فبراير سنة ١٩٧٩ إلى طهران ظافراً بعد مغادرة الشاه لطهران في ١٦ يناير سنة ١٩٧٩، كان د. مرتضى مطهّري في صحبته من باريس إلى طهران، لأنّه بعد سفر الشاه لحق بالخوميني في فرنسا. ولما تمَّ للخوميني الاستيلاء على الحكم في ايران بعد انتصاره الكاسح في الاستفتاء الذي أُجري في أول ابريل (سنة ١٩٧٩) شكل محكمة عليا لمحاكمة كبار المسئولين عن عهد الشاه. وأصدر أحكاماً سريعة متعجلة في غاية القسوة بالإعدام وما يقرّب من الإعدام. فتربّص به أعضاء من جماعة «فرقان» وهي جماعة دينية متطرفة منافسة لجماعة الخوميني، وقتلوه رمياً بالرصاص وهو خارج من تلك المحكمة في منتصف الليل تقريباً في شهر مايو سنة ١٩٧٩ ولما يزد عمله في تلك المحكمة المشؤومة عن شهرين!

وكان الأستاذ د. محمد محمّدي، على الرغم من انه لم يكن مرضياً عنه في عهد الشاه، قد استقال من منصبه عميداً لكلية «إلهيات وعلوم اسلامي» في الأسابيع الأولى من مجيء الخوميني. فعيّن د. محمد مُفَتّح مكانه، ولا بدَّ ان ذلك بترشيح من د. مرتضى مطهّري، لأنّه كان مقرباً إليه. كما كنت أنا هناك. وقد لقي د. محمد مفتح نفس مصرع أستاذه مطهّري، إذ أطلق عليه وابل من الرصاص وهو في سيارته أثناء دخوله كلية «إلهيات وعلوم إسلامي»، وذلك في واضحة النهار.

وكان كلاهما ـ يرحمهما الله ـ أشدّ الأساتذة تمسكاً بحضور محاضرتي العامة تلك: ولا أزال أتذكّر الآن د. مرتضى مطهّري وقد اتخذ مكانه في وسط الصف الأول، ود. محمد مفتح وقد اتخذ زاوية في آخر صف، وكلاهما يرعى سمعه بانتباه بالغ. وربما كان لفصاحة عبارتي العربية دور بارز في هذا الاهتمام الشديد.

وكانت كلية «إلهيات وعلوم إسلامي» بؤرة نشاط قويّ ضد الشاه، ولم يعرف عن أعضاء هيئة التدريس فيها أيّ ارتباط بأداة الحكم او إبداء أي مظهر من مظاهر الولاء للشاه. وأحياناً كانت تلقى في مدرجها الكبير ندوات أو محاضرات سياسية عامة يتولاها المعارضون لحكم الشاه ويفد إليها أحياناً طلاب معارضون للحكم

من الكليات الأخرى، وحتى من الحوزة العلمية في قم.

لكني لم أشهد، طوال العام الدراسي الذي قمت إبانه بالتدريس فيها، أي تدخل من جانب «الساواك» أي البوليس السياسي.

وفي كلية «إلهيات وعلوم إسلامي» يدرس الطلاب: علم التوحيد والعقيدة، وعلم الفقه على المذهب الجعفري والفلسفة الاسلامية، واللغة العربية وآدابها. والتعليم على مرحلتين: مرحلة الليسانس، ومرحلة ما فوق الليسانس. وفي هذه المرحلة الثانية يحصل الطالب على الدكتوراه. والدكتوراه تتم بامتحان في مواد، يتلوها تحضير رسالة تناقش علناً أمام لجنة تتألف من خمسة أعضاء.

وعدد الطلاب في المرحلتين ليس كبيراً، بل هو في حدود مائة وخمسين طالباً، بينما كان عدد الطلاب في قسم الأدب الفارسي بكلية الآداب بجامعة طهران حوالى ستمائة، وفي قسم الاجتماع ـ وقد صار كلية فيما بعد ـ كان عددهم حوالى ألف وخمسمائة، أمَّا قسم الفلسفة فيها فكان لا يحتوي إلاَّ على حوالى ستين طالباً في السنوات الأربع!

لمحة عن التاريخ السياسي لايران الحديثة

ولفهم الأحوال السياسية الراهنة آنذاك في ايران لا بد من لمحة قصيرة عن تاريخها الحديث.

إن ايران الحديثة تبدأ مع الأُسرة الصفوية التي أسَّسها في ايران اسماعيل الأول (وُلِد في ٢٥ رجب سنة ٨٩٢ هـ، وتوفي في ١٩ رجب سنة ٩٣٠ هـ. ١٧/ ٧/ ١٤٨٧ ـ ٢٣/ ٥/ ١٥٢٤ م) الذي صار ملكاً (شاه) على ايران من سنة ٩٠٧ هـ حتى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٠١ ـ ١٥٢٤ م). ولأول مرة منذ الفتح الاسلامي صارت ايران دولة قائمة برأسها. وكان يدَّعي أنَّه من سلالة أئمة الشيعة الاثني عشر، وهو ادعاء لم يقم عليه أي دليل. وفرض المذهب الشيعي الاثني عشري على الدولة، رغم ان الغالبية الساحقة من سكان ايران كانوا في ذلك الوقت على مذهب أهل السُّنَّة. لكنه وجد في الانتماء إلى التشيع ما يميّزه تمييزاً حادًّا عن الأتراك العثمانيين وهم سُنَّة، وكانوا يطمعون في ابتلاع ايران وادراجها ضمن الدولة العثمانية.

وقد اعتمد اسماعيل على الطريقة الصفوية، وهي طريقة صوفية، فحشد

٧٠٠٠ صوفي في ازركان واستطاع الانتصار على جيش أقا قريونلو الذي كان بقيادة ألموند في معركة شرور. وبهذا النصر استطاع الاستيلاء على اقليم آذربيجان؛ ونُصِّب ملكاً في تبريز في سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١م. والطريقة الصوفية الصفوية كانت تتألف من «القزلباش».

وقام بعد ذلك بتوسيع رقعة مملكته الصفوية: ففتح اقليم فارس وعراق العجم سنة ٩٠٨ هـ/١٥٠٣، واقليم مازندران وجرجان ويزد في سنة ٩٠٩ هـ/ ١٥٠٤م وديار بكر في سنة ٩١١ ـ ٩١٣ هـ ـ/ ١٥٠٥ ـ ١٥٠٧م. واستولى على بغداد والعراق العربي في سنة ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨م، وعلى شيروان في سنة ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩م. وفتح هرات في رمضان سنة ٩١٦ هـ/ ١٥١١م. وهكذا توطد ملكه في اقليم خراسان (شرق ايران وجزء من افغانستان). وهكذا أصبحت ايران كلها، حوالى سنة ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ تحت سلطان اسماعيل.

وازاء قيام هذه الدولة الشيعية القوية على حدود الدولة العثمانية، قام السلطان سليم الأول في سنة ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م بغزو ايران، وهزم جيش اسماعيل هزيمة ساحقة في معركة جالدران. فلم تقم بعد ذلك لاسماعيل قائمة، ولم يتوسع في الفتوحات، بل انكفأ على نفسه، وترك الأمر يدبّره وزراؤه خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته، إلى أن توفي في ١٩ رجب سنة ٩٣٠ هـ (= ٢٣ مايو سنة ١٥٢٤م).

وخلفه على العرش ابنه: شاه طهماسپ (تولى الملك من ١٥٢٤ ـ ١٥٧٦) وهو في سن العاشرة والنصف من عمره. فاندلعت حروب أهلية طوال العشر سنوات الأولى من حكمه بين الفئات المتنافسة من القزلباش. فاغتصب سلطة الشاه رؤساء القزلباش وصاروا هم الحكام الحقيقيين في ايران. لكن طهماسپ، في سنة ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣م استرد لنفسه السلطان الفعلي وفرض سلطانه على زعماء القزلباش. واستطاع طهماسپ في الوقت نفسه ان يقف ضد مطامع العثمانيين وكان سلطانهم آنذاك هو سليمان القانوني، وضد مطامع الأوزبك في وسط آسيا وقد هاجموا خراسان خمس مرات بين سنة ٩٣٠ و٩٤٤ هـ/ بيد ان العثمانيين استولوا على بغداد في سنة ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤م وعلى سائر العراق العربي، واحتلوا تبريز عدة مرات مما أرغم طهماسپ على نقل عاصمته من تبريز إلى قزوين. ثم عقدت هدنة بين طهماسپ وبين العثمانيين في أَمَسيا كفلت لإيران عدم تعرض العثمانيين لها طول ثلاثين سنة.

شاه عباس الأول

وبعد وفاة طهماسب في سنة ١٥٧٦ تولّى الملك اسماعيل الثاني (من ٩٨٤ إلى ٩٨٥ هـ/ ١٥٧٦ ـ ١٥٧٧)، وخلفه بعد ذلك بعام السلطان محمد شاه (من ٩٨٥ ـ ٩٩٦ هـ/ ١٥٧٨ ـ ١٥٨٨م). وتلاه شاه عباس الأول (حكم من ٩٩٦ ـ ١٠٣٨ هـ/ ١٥٨٨ ـ ١٦٢٩م) ويعدّ عهده أزهى عهود ايران الحديثة.

لقد وجد نفسه بين خصمين خطيرين هما: العثمانيون من الغرب، والآوزبك من الشرق. فبدأ بأن تَرَضَّى الأقوى، وهم العثمانيون، فعقد معهم معاهدة مهينة لإيران إذ تخلت بموجبها للدولة العثمانية عن مساحات واسعة من ايران. وبعد ذلك عمل على تكوين جيش قويّ من عناصر أخرى غير القزلباش: عناصر من الجيورجيين والچركس، وسمّى هذا الجيش باسم: «غلامان خاصة شريفه»: وقد تألف هذا الجيش من عشرة آلاف من الفرسان، ومن حرس خاص مؤلف من ثلاثة آلاف رجل؛ وفرقة من حملة البنادق مؤلفة من ١٢,٠٠٠ جندي من الفلاحين الايرانيين؛ وفرقة مدفعية من ١٢,٠٠٠ جندي أيضاً. لكنه لم يجرؤ على استخدام هذا الجيش ضد الأوزبك إلاّ في سنة ١٢٠٧ هـ/ ١٥٩٨م، وقد انتصر عليهم انتصاراً كبيراً في تلك السنة قرب مدينة هرات التي كان الأوزبك قد استولوا عليها قبل ذلك بعشر سنوات. فلما أمَّن جبهته الشرقية، انصرف إلى الجبهة الغربية فهاجم العثمانيين واستطاع في سنة ١٠١٦ هـ/ ١٦٠٧م طرد آخر جندي عثماني في ايران بحسب حدودها التي صدرت في معاهدة أمسيا سنة ١٥٥٥م بين ايران والدولة العثمانية.

وقد نقل شاه عباس عاصمة مملكته من قزوين إلى أصفهان في سنة ١٠٠٧ هـ/ ١٥٩٨م، وما لبث ان جعل منها عاصمة من أجمل عواصم الدنيا كلها، ومن هنا جاءت العبارة: «اصفهان فيم جهان» (أصفهان نصف الدنيا). فأمر ببناء مدارس ومساجد وخانات وحمامات. وأروع هذه المباني: مسجد شاه، الذي بدىء به في سنة ١٠٢٠ هـ/ ١٦١١م، ومسجد شيخ لطف الله، الذي بدىء به في سنة ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م، ويقومان على ميدان هو من أجمل إن لم يكن في نظري أجمل ميدان في العالم، وهو الميدان المسمّى: «نقش جهان» (= صورة الدنيا). وبلغت سائر الفنون أوجها في عهد شاه عباس: تزيين المخطوطات، الفخار، الملابس المزركشة، صناعة السجاد، الخ.

وبعد وفاة شاه عباس سنة ١٦٢٩ توالى ملوك ضعاف، مما أطمع جيران

ايران فيها: ففي سنة ١٧٠٩م قام جماعة من الأفغان الغلزيين فاستولوا على قندهار، وكان الصفويون يحتلونها منذ سنة ١٦٤٨؛ وقام أفغان من العبادلة فنهبوا أجزاء واسعة من خراسان، وصارت الحدود الشرقية لإيران كلها مهدّدة. واستولى محمود زعيم الغلزيين الأفغان، على كرمان في سنة ١٧١٩، وبعد ذلك بعامين هزم جيشاً صفوياً في معركة جلنأبه، (على مسافة ٣٠ كلم شرقي اصفهان) في ٢٠ جمادى الأولى سنة ١١٣٤/ ٨ مارس سنة ١٧٢٢، وحاصر اصفهان واستولى عليها الأفغان في اكتوبر سنة ١٧٢٢، ويقال ان ثمانين ألفاً قد هلكوا أثناء هذا الحصار من الجوع والأمراض.

حكم الأفغان اصفهان طوال سبع سنوات من سنة ١٧٢٢ حتى سنة ١٧٢٩. ومن ناحية أخرى قام العثمانيون في سنة ١٧٢٦ فانتهكوا الهدنة بينهم وبين ايران والقائمة منذ سنة ١٦٣٩ وأرغموا الحاكم الأفغاني، واسمه أشرف، على الاقرار بالاحتلال العثماني الواقعي لأجزاء من غرب وشمال غرب ايران.

وهنا قام زعيم قبيلة افشار، ويدعى نادرخان، وطرد الأفغان من أصفهان في سنة ١٧٢٩، وأعاد حكم الصفويين في شخص طهماسپ الثاني. لكن نادرخان ما لبث ان استغل النصر لنفسه، فعزل طهماسپ الثاني في سنة ١٧٣٢ لصالح عباس الثالث ـ وكان قاصراً فتولى هو الوصاية عليه، وبعد ذلك بأربع سنوات تولى هو الملك باسم: نادر شاه. وهكذا زالت الدولة الصفوية في سنة ١٧٣٦م.

وتولّى نادر شاه حكم ايران من سنة ١٧٣٦ إلى سنة ١٧٤٧، فكان جندياً شجاعاً قديراً استطاع ان يسترد لإيران الأراضي الإيرانية التي استولى عليها العثمانيون والروس والأفغان. وأعادت روسيا: باكو، ودربند واستولى على قندهار في مارس سنة ١٧٣٨، واحتل غزنة في يونيو، ودخل ثمسار. ووجه حملة إلى المُغَل في الهند، دخل دلهي في ٢٠ مارس سنة ١٧٣٩؛ وعاد إلى ايران بعد ان فرض على امبراطور المغل جزية ضخمة مقدارها عشرون مليون روبية، وغنم عرش الطاووس والماسة الشهيرة: كوة نور. وتنازل له امبراطور المغل ـ ويدعى آنذاك محمد شاه ـ عن كل الأراضي الواقعة غربي نهر السند. وفي طريق عودته غزا جيش نادر شاه التركستان وبلاد ما وراء النهر وخوارزم. ومن أجل هذه الفتوحات في الشرق نقل نادر شاه عاصمته من أصفهان إلى مشهد.

لكنه كان شديد البخل: إذ احتفظ بالغنائم التي حصل عليها من حملته في الهند ـ احتفظ بها في خزانة خاصة بقلعة نادري في خراسان، ولم ينفق منها لا على الجند ولا على الرعية، وإنّما فرض الضرائب الباهظة على الرعية لينفق من

حصيلتها على مغامراته الحربية. ولهذا كرهه الجند كما كرهته الرعية. فقامت جماعة من ضباطه باغتياله في أول جمادى الثانية سنة ١١٦٠ هـ/ ١٠ يونيو سنة ١٧٤٧.

فلما قُتِلَ انتشرت الفوضى العارمة. وقامت أُسرة زَند بتولّي الحكم في جنوبي ايران، وكان من أكبر رجالها: كريم خان زَند. لكن بعد وفاته في سنة ١٧٧٩ قامت الخلافات الداخلية بين أُسرة زند، مما أغرى أُسرة قاجار، التي كانت قد استبدت بالحكم في شمالي ايران وكانت عاصمتها هي أستر آباذ - بالزحف على بلاد أُسرة زند. وكان أقا محمد خان قاجار قد هرب من شيراز حيث كان الزند قد أسروه، وقام أولاً بالتمكين لنفسه بين أُسرة قاجار، ثم سار إلى الزند فانتصر عليهم في سنة ١٧٩٥م.

وكان القاجار من أصل تركماني، شأنهم شأن آل افشار، وكانوا من القبائل التركمانية التي مكّنت الصفويين من الاستيلاء على السلطة، فصاروا هم الصفوة الحربية في دولة الصفويين.

وأول سلاطين القاجار هو أقا محمد شاه. وقد جعل عاصمة ملكه هي طهران، ومن ثم صارت طهران لأول مرة في تاريخ ايران عاصمة لإيران. واستطاع ان يركز الإدارة فيها، وبذلك صارت في ايران إدارة مركزية قوية. وكان قاسياً مع خصومه، فقضى عليهم دون رحمة، وكان غدّاراً حقوداً. لهذا اغتيل في ٢١ ذي الحجة سنة ١٢١١/ ١٧ يونيو سنة ١٧٩٧ ولما يمضِ على تتويجه غير عامين اثنين: إذ قتله اثنان من جنوده. وتولّى الملك بعده ابن أخيه: فتح علي شاه.

ولقد كانت الدول الأوروبية الاستعمارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر تحاول التدخل في شؤون ايران، خصوصاً روسيا وانجلترة. وكان التنافس بين هاتين الدولتين في التدخل في ايران مستمراً. لكنه بلغ اوجه ابتداء من سنة ١٨٠٠، في عهد فتح علي شاه. فقد ضمت روسيا لنفسها مقاطعة جيورجيا في سنة ١٨٠٠ وكانت تابعة لإيران. فدعا ذلك فتح علي شاه للاستنجاد بناپليون بونابرت وعقد معه معاهدة فنكنشتين Finkenstein في مايو سنة ١٨٠٧. وتقضي المادة الرابعة منها بأن تلتزم فرنسا بإعادة جورجيا إلى ايران، وفي مقابل ذلك تعهّد فتح علي شاه باعلان الحرب على انجلترة (المادة ٨)؛ وبالسماح للجيوش الفرنسية بالمرور عبر ايران لغزو الهند، وكان ذلك من خطط ناپليون الكبرى. لكن هذه المعاهدة صارت غير ذات موضوع لما ان وقعت فرنسا مع روسيا معاهدة تِلْسِت Tilsitt في ٢ يوليو سنة ١٨٠٧، وبمقتضاها توقف العدوان بين فرنسا وروسيا، وبذلك صارت روسيا

حرة في الاعتداء على ايران. واعتدت روسيا على ايران وأرغمتها بموجب معاهدة جُلستان (١٢ اكتوبر سنة ١٨١٣) على التخلّي لها عن كل مقاطعات القوقاز، وأصبح للأسطول الروسي وحده الحق في العمل في بحر الخزر، ثم وقع حادث على الحدود بين ايران وروسيا اتخذته روسيا ذريعة لإعلان الحرب ضد ايران في سنة ١٨٢٦، وانتهت هذه الحرب بمعاهدة تركمانجاي (٢٢ فبراير سنة ١٨٢٨) وبموجبها فرضت على ايران شروط في غاية القسوة: إذ تنازلت لروسيا عن أريڤان ونخشوان، وصارت الحدود بين الدولتين على الأراكس، وكان على ايران دفع تعويض فادح. وأهم من ذلك منح الروس «امتيازات» بموجبها يتمتع الروس المقيمون في ايران بامتياز عدم المحاكمة أمام المحاكم الايرانية. فكانت هذه «الامتيازات» ـ وقد عرفنا شرورها في مصر ـ من أكبر البلايا على السيادة الايرانية في ايران نفسها. إذ سرعان ما طالبت انجلترة بالحصول لرعاياها على «امتيازات» مماثلة ومن هذا التاريخ ـ أي سنة ١٨٢٨ ـ صار تدخل الدول الأوروبية الاستعمارية في ايران تدخلاً سافراً كاسحاً مدمّراً لكل مقوّمات ايران القومية، حتى صارت نهباً لتنافس الدول الاستعمارية خصوصاً روسيا وانجلترة.

وتوفي فتح علي شاه في سنة ١٨٣٤ وخلفه حفيده محمد شاه. فحاول أن يسترد الأراضي الشرقية التي استولى عليها الأفغان، لكن انجلترة هبّت لمساعدة الأفغان، فاضطر محمد شاه إلى فك الحصار عن هرات. ذلك ان انجلترة من أجل حماية الهند جعلت من سياستها الابقاء على أفغانستان دولة حاجزة بين امبراطوريتها في الهند وبين ايران وروسيا من ناحية أخرى. وأرسلت انجلترة في سنة ١٨٣٧ وسنة ١٨٥٢ وسنة ١٨٥٦ جيشاً من قواتها في الهند للدفاع عن هرات. وانتهى الأمر بأن اضطرت ايران في سنة ١٨٥٦ إلى الاعتراف باستقلال أفغانستان والتخلّي نهائياً عن مدينة هرات لأفغانستان.

الفتنة البابية

وفي عهد محمد شاه وقعت فتنة البابية: إذ ادعى سيد علي محمد (وُلِدَ في شيراز في اول المحرم سنة ١٢٣٥ هـ/ ٢٠ اكتوبر سنة ١٨١٩، او في ٩ أكتوبر سنة ١٨٢٠ بحسب رواية أخرى) انه «الباب»، وانه «المهدي» وأنه «صاحب الزمان» الذي ينتظره الشيعة ليملأ الأرض عدلاً بعد ان مُلئت جوراً، وذلك في صيف ١٨٤٤. وأخذ هذا «الباب» في الهجوم العنيف على «المجتهدين» و«الملاّوات»، واستطاع ان يجتذب إليه الأتباع، وسمّى ١٨ منهم باسم «حروفات الحيّ» وسافر

إلى مكة للحج، ويقال إنه أعلن هناك انه «المهدي». وفي ربيع سنة ١٨٤٥ عاد إلى شيراز، وكان قد كتب وهو في مكة كتاباً عنوانه «صحيفة بين الحرمين» فيه بيَّن أركان دعوته. وبهذا الكتاب وبالخطب التي راح يلقيها في مساجد شيراز أثار الفتن والاضطرابات في مدينة شيراز، خصوصاً وقد كلَّف دُعاته بأن يضيفوا في الآذان عبارة: «. . . وأنَّ عليًّا قبل بنيلي [= الباب] هو مرآة نَفَس الرحمن». فقُبِض على هؤلاء الدعاة وأُحضروا أمام والي شيراز، واسمه ميرزا حسين خان أجودان باش. فعاقبهم عقاباً شديداً وأمر بطردهم من شيراز. وأرسل السلطان محمد شاه مبعوثاً للتحقيق في الأمر، ويدعى هذا المبعوث: سيّد يحيى دارابي، فاجتذبه الباب، وصار من أتباع هذه الدعوة.

وفي تلك الأثناء، كان قد اعتنق هذه الدعوة الجديدة في طهران أخوان هما: ميرزا حسين علي نوري (الذي سيصبح في المستقبل باسم: بهاء الله) وأخوه ميرزا يحيى نوري (وسيصبح في المستقبل باسم: صُبْح الأزل)، بعد ان التقيا بملاً حسين. وهذان الاخوان هما اللذان سيؤسِّسان ديانة البهائية.

وبعد ان كان أتباع الباب يعتمدون التقية والكتمان، أخذوا منذ سنة ١٨٤٨ بالإعلان عن أنفسهم وبانفصالهم عن شرع الاسلام. وعقدوا اجتماعاً في سنة ١٨٢٨ في بَدَشت. واشتركت في هذا الاجتماع سيدة جميلة شاعرة اسمها زَرِّين تاج، ولقد لُقبت بلقب ستشتهر به فيما بعد وهو: «قُرّة العين»، كما لقبوها بلقب «جناب طاهرة»، وكانت قد وُلِدَت في قزوين وأبوها كان هو الملاَّ صالح، أحد رجال الدين. واشترك في هذا الاجتماع كذلك: بهاء الله، وملاَّ حسين البُشْروئي.

وفي سنة ١٨٤٨ تولَّى العرش ناصر الدين شاه، واستمرَّ في الحكم حتى اغتيل في سنة ١٨٩٦. وقد أرسل قوة لمهاجمة هؤلاء المجتمعين، الذين تحصّنوا في ضريح الشيخ الطبرسي بالقرب من بارفروس، وقاوموا بقوة. فقُتِل ملاَّ حسين، واستسلم الباقون فذبحوا عن بكرة أبيهم في رمضان سنة ١٢٦٥ هـ/ يوليو - أغسطس سنة ١٨٤٩.

وبعد ذلك بقليل قام البابيون، في مدينة تبريز باقليم فارس، بفتنة تولَّى أمرها سيد دارابي، السابق الذكر، وكان يُلقّب بـ «وحيد». وتحصن البابية في القلعة القديمة بمدينة تبريز، لكنهم ذبحوا جميعاً بعد عدة أيام، في يناير سنة ١٨٥٠. كذلك قامت في مدينة زنجان (في شمال غربي ايران) فتنة أخرى أكبر، تزعَّم البابية فيها مُلاَّ محمد علي الزنجاني، الملقب بـ «الحُجَّة»، وتحصّنوا في قلعة علي مَرْدان

خان، وكان عددهم حوالى ثلاثة آلاف. فتمكن جيش السلطان من ذبحهم جميعاً في فبراير سنة ١٨٥٠.

وفي طهران، قبل اعدام الباب بأربعة أشهر، قُتِل في طهران سبعة من أتباعه، أحدهم هو عمّ الباب.

وحاول اثنان من البابية الاعتداء على شاه ناصر الدين في ٢٨ شوّال سنة ١٢٦٨ هـ/ ١٥ أغسطس سنة ١٨٥٢)، ولكن المحاولة أُخفقت. وأدَّى ذلك إلى قتل العديد من البابية، وبينهم الشاعرة السابقة الذكر الملقّبة بـ «قرّة العين»، إذ سُجِنت ثم خنقت ودلّيت في بئر لا يزال يسير إلى مكانه الناس حتى اليوم.

أمَّا الأخوان غير الشقيقين: ميرزا حسين علي نوري (بهاء الله) وميرزا يحيى نوري (صُبْح الأزل) فنفيا إلى العراق.

أمَّا الباب نفسه، سيد علي محمد، فقد لجأ إلى اصفهان في حماية حاكمها منوچهر خان معتمد الدولة، وهو من جورجيا. فلما مات منوچهر استدعى الوزير حاجي ميرزا أغاسي ـ «الباب» إلى طهران. لكنه قبل وصوله إلى طهران قُبض عليه وأُرسل سجيناً إلى حصن ماخو في جبال آذربيجان، في صيف سنة ١٨٤٧. وبعد اندلاع اضطرابات البابية التي أتينا على ذكرها نُقل إلى سجن أشدورص چهريق. ثم نُقل في يوليو سنة ١٨٤٧ إلى تبريز ليحاكم أمام لجنة من المجتهدين. ورأى الوزير ميرزا تقي خان، الذي عيّنه ناصر الدين شاه، ان في قتل «الباب» قضاء على الفتن. وأصدرت لجنة المجتهدين المذكورة قراراً بإعدام الباب. فتمَّ إعدامه رمياً بالرصاص في نهاية شهر شعبان سنة ١٢٦٦ هـ/ يوليو سنة ١٨٥٠ في تبريز، وأُعدم معه أحد أتباعه هو: ملاً محمد علي اليزدي: إذ ربطا معاً بحبل في عمود بثكنة تبريز، ورميا بالرصاص.

والكتاب الرئيسي الذي سجل فيه «الباب» عقيدته عنوانه: «البيان»، وله نسختان: عربية موجزة جداً، وفارسية مطوّلة. والأول، العربي، مقسم إلى أحد عشر «واحداً» (مفصلاً)، كل «واحد» مؤلّف من ١٧ باباً. أمَّا النسخة الفارسية فتنقسم إلى ٩ من «الواحدات» وكل «واحد» مؤلف من ١٩ باباً.

والعقيدة البابية كما تبيّن من كتاب «البيان» تقوم على أربع قواعد:

١ ـ نسخ الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بالصلاة، والصوم، والزواج، والطلاق، والميراث ـ مع الإقرار بنبوة محمد (ﷺ)، وقد ختم دور نبوته في سنة ١٢٦٠ هـ/ ١٨٤٤ م وهي سنة اعلان «الباب» لدعوته.

٢ ـ تأويل الألفاظ المتعلقة بالآخرة تأويلاً روحانياً خالصاً، مثل: الجنة، النار، الموت، البعث، النشور، الميزان، الصراط، الساعة، الخ ـ على أساس انها لا تتعلق بنهاية هذا العالم المادي، بل بنهاية دور النبوّة. ذلك ان الله يفني العالم المادي عند نهاية كل دور نبوّة، ثم يخلقه من جديد بكلمة النبيّ التالي.

٣ ـ وضع نظم وشعائر جديدة: فالقبلة ليست نحو مكة، بل نحو مقام «الباب»؛ تشريع جديد للمواريث، الخ.

٤ ـ انتظار «مَنْ يُظْهِره الله».

وللعدد ١٩ قداسة خاصة عند البابية: فالسنة تنقسم إلى ١٩ شهراً، وكل شهر يتكوّن من ١٩ يوماً. وكل ١٩ يوماً يجب على البابي ان يستضيف ١٩ شخصاً حتى لو لم يستطع أن يقدّم اليهم أكواباً من الماء. والقاتل يعاقب بالامتناع عن الجماع ١٩ سنة. ولا يجوز للبابي ان يحوز من الكتب أكثر من ١٩ كتاباً.

وللاطلاع على مزيد من التفصيل عن البابية، راجع كتابنا «موسوعة الأديان».

ناصر الدين شاه والاحتكارات الأجنبية

ونعود إلى ناصر الدين شاه، الذي تولّى حكم ايران في سنة ١٨٤٨ واستمر في الحكم حتى اغتيل في سنة ١٨٩٦. فنقول إنّه حاول الحدّ من تدخل الروس في شؤون ايران والعدوان على أراضيها، لكن دون جدوى. إذ ازداد الروس عدواناً على ايران: فاستولوا على طشقند في سنة ١٨٦٥، وقضوا على خانت خوقند؛ وفي سنة ١٨٦٨ استولوا على بُخارى. وابتداء من قاعدتهم الجديدة في كرسنوڤو دسك على الشاطىء الشرقي لبحر الخزر تقدموا تدريجياً نحو آسيا الوسطى. وفي سنة ١٨٧٣ قضوا على خانت خيوة؛ وفي سنة ١٨٨١ أخضعوا قبائل التركمان وهزموهم هزيمة ساحقة في معركة جوك تپه Gok Tepe. وفي سنة ١٨٨٤ فرغوا من غزو ما وراء بحر الخزر باستيلائهم على مره. وصارت الحدود الجديدة بين روسيا وايران عند أترك.

ولكي يصلح الأحوال الاقتصادية في ايران اعتمد ناصر الدين شاه سياسة خطرة حمقاء جلبت على بلاده بلايا مادية فادحة، إذ أخذ في منح الدول الأوروبية امتيازات للاحتكار الاقتصادي. ونتيجة ذلك كانت غالبية الموارد الاقتصادية لإيران، عند نهاية القرن التاسع عشر، احتكارات للدول الأوروبية تستغلها

لصالحها، وكل ذلك في مقابل مبالغ ضئيلة فورية تدفع لإيران لتلبية حاجات الشاه المباشرة. فمثلاً في سنة ١٨٧٢ مُنح أحد البريطانيين، ويدعى البارون جوليوس دي رويتر Julius de Reuter الحق الوحيد في استغلال كل المعادن في ايران (باستثناء الذهب والأحجار الكريمة)، وبناء المصانع وتشييد السكك الحديدية، وحفر الترع والقنوات وسائر وسائل الريّ، واستغلال الغابات، وانشاء بنك وطني، وانشاء شبكة للتلغراف، ومراقبة الجمارك. فتدخل الروس وضغطوا على الشاه ضغطاً شديداً حمله على إلغاء الامتياز الذي حصل عليه جوليوس دي رويتر، لكنه اضطر إلى تعويضه عن هذا الالغاء بالإذن له بانشاء البنك الامبراطوري لإيران في سنة ١٨٨٩. بيد ان الروس حصلوا على امتياز شامل، هو انشاء بنك للإقراض.

وفي سنة ١٨٩٠ منح احتكار التبغ لشركة بريطانية. وهنا، وبتحريض من جمال الدين الأفغاني، أصدر المجتهد الأكبر في سامرّا فتوى بتحريم تدخين التبغ إلى أن يرجع الشاه عن قراره هذا. وقام المجتهدون والملاوات فنظموا مظاهرات في شيراز، واصفهان، وتبريز ضد منح احتكار التبغ لشركة بريطانية. وازاء هذه الحركة العظيمة اضطر ناصر الدين شاه إلى إلغاء الامتياز المذكور، في ديسمبر سنة ١٨٩١.. وكان لذلك أثر بالغ في الأحوال السياسية في ايران: فلأول مرة في تاريخ ايران الحديثة يخضع الشاه للرأي العام، والذي تولّى تحريك الرأي العام هم رجال الدين. ومن هنا بدأ النفوذ السياسي لطبقة رجال الدين في ايران، هذا النفوذ الذي سيتعاظم منذ ذلك الحين شيئاً فشيئاً حتى يستولوا هم بأنفسهم ويتولوا الحكم في فبراير سنة ١٩٧٩. وصار رجال الدين قوة سياسية شديدة الأثر، على حكام ايران في المستقبل أن يحسبوا لهم ألف حساب.

الحركة الدستورية

وخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر تألّفت جمعيات (أنْجُمن) سياسية متأثرة بالأفكار السياسية في الحرية والمساواة في أوروبا، وأشاعت جوًّا من التمرد على الفساد في الحكام وعلى استفحال النفوذ الأجنبي، وراح أعضاؤها يطالبون بعزل الموظفين المرتشين والاداريين المستبدين، وطرد الأجانب أصحاب الامتيازات. وأفضت هذه الحركة إلى التركيز على المطالبة، بوضع دستور (مشروطيت) لحكم البلاد.

فاضطر مظفر الدين علي شاه، الذي تولّى الحكم بعد مصرع ناصر الدين شاه في سنة ١٨٩٦؛ إلى إصدار الدستور في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٦، واجتمع أول

برلمان (مجلس شوراي ملّي) قبل ذلك بثلاثة أشهر، أعني في ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٦. لكن خلفه، محمد علي شاه، حاول بكل الطرق تعويق تطبيق الدستور، ومنع تنفيذ القوانين التي أقرّها مجلس شوراي ملّي.

وكان مجلس شوراي ملّي (البرلمان) مؤلفاً من ١٥٦ عضواً، منهم ٦٠ عن طهران، و٩٦ عن سائر المحافظات. وكان الانتخاب عن دوائر طهران بالاقتراع المباشر. أمّا في سائر المحافظات فقد كان يتم على درجتين بواسطة هيئات ناخبين.

والدستور الذي صدر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٠٦ كان يحتوي على ٥١ مادة تتعلق كلها بتكوين مجلس النواب (مجلس شوراي ملّي) ومجلس الشيوخ وواجباتهما. وهذا ليس دستوراً بمعنى الكلمة، لهذا كان لا بد من إكماله بدستور متمم صوّت عليه مجلس شوراي ملّي وأصدره محمد علي شاه في ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٥/ ٧ اكتوبر سنة ١٩٠٧. وهذا الدستور المتمم كان يحتوي على ١٠٧ مواد تتناول حقوق الشعب الفارسي، وسلطات الشاه، وحقوق أعضاء البرلمان، وحقوق العرش، وسلطات الوزراء، واختصاصات المحاكم، وتنظيم مالية الدولة، والجيش.

وتوفي مظفر الدين علي شاه في يناير سنة ١٩٠٧، وبوفاته انتهت المرحلة الأولى من الثورة الدستورية في ايران. (مشروطيت). وهي مرحلة تمت دون إراقة دماء تقريباً.

ثم بدأت المرحلة الثانية من الثورة الدستورية مع تولّي محمد علي شاه الحكم في ٨ يناير سنة ١٩٠٧، إذ كان يعارض هو ووزراؤه تطبيق الدستور. وكان «المجلس» يعارض اقتراض أية مبالغ جديدة من الدول الأجنبية، وكذلك قرر طرد البلجيكيين من ادارة الجمارك. وتمَّ للمجلس ما أراد. كذلك قرَّر المجلس عدة قرارات تتعلق بالاصلاحات المالية، وأصدر قانوناً يقضي بأن تسترد الدولة كل الأراضي التي كانت في حيازة أصحابها على أساس نظام «تيول». وفي الوقت نفسه تشكلت عدة جمعيات (أنجمن) في طهران وسائر المحافظات للدفاع عن الدستور. ولما عين الشاه في ٢ مايو سنة ١٩٠٧ ميرزا علي أصغر خان أمين السلطان رئيساً للوزراء اشتدَّ الصراع بين الشاه والوطنيين. وعلى اثر ذلك شبت اضطرابات في البلاد، كان بعضها بتحريض من الشاه وأنصاره هم أنفسهم لخلق الفرصة للبطش بالدستور والمدافعين عنه. وهنا غزت تركيا شمال غربي ايران؛

واتهمت روسيا بالتواطؤ مع الشاه ضد الدستور والشعب الإيراني. واستقر في أذهان الناس وجود مؤامرة تواطأ فيها الشاه ورئيس وزرائه أمين السلطان مع روسيا ضد مجلس شوراي ملّي. وفي ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧ اغتيل أمين السلطان بواسطة عضو في احدى الجمعيات الشعبية. وضعفت سلطة الدولة في الأقاليم، وقامت مجالس اقليمية (أنجمنهان أيالتي وولايتي) في اقاليم عديدة تولّت هي ادارة الاقليم.

وفي ٧ اكتوبر سنة ١٩٠٧ اضطر الشاه إلى اصدار الدستور المتمّمم، وفي ١٢ نوفمبر مَثَل أمام البرلمان وأقسم يمين الولاء للدستور، وذلك للمرة الرابعة!! لكنه في ١٥ ديسمبر حاول القيام بانقلاب، وقبض على رئيس الوزراء: ناصر المُلْك ووزراء آخرين. فاتحدت الجمعيات الشعبية في طهران والأقاليم للدفاع عن الدستور ومجلس شوراي ملّي.

وازدادت العلاقات سوءاً بين الشاه وبين الشعب الفارسي ممثلاً في المجلس النيابي وفي الجمعيات المحلية، حتى قامت الحرب في ٢٣ يونيو سنة ١٩٠٨ بين القوات العسكرية الموالية للشاه وبين الوطنيين. وقبضت قوات الشاه على ثلاثين من كبار الزعماء الوطنيين، وخنق اثنان منهم دون محاكمة في ٢٤ يونيو سنة ١٩٠٨ وفي ٢٧ يونيو أصدر الشاه قراراً بحل البرلمان وإلغاء الدستور بزعم انه مخالف للشريعة الاسلامية(!!). وبهذا انتهت المرحلة الثانية من الثورة الدستورية في ايران.

فاندلعت الثورة في طهران، ثم في تبريز، وطردت قوات شاه منهما. واستمرت المقاومة حتى ابريل سنة ١٩٠٩، لما ان تدخلت الجيوش الروسية بدعوى حماية أرواح وأموال الأجانب!! (نفس القصة التي جرت في مصر بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢)!

لكن الوطنيين لم يسكتوا، بل نظموا قواتهم تحت قيادة سردار أسد، وكانوا من قبيلة بختيار، وتكوّن جيش آخر في رشت بقيادة سيه دار أعظم محمد ولي خان، وزحفوا على طهران ودخلوها في يوليو سنة ١٩٠٩. فهرب الشاه محمد علي شاه واحتمى بالسفارة الروسية في طهران. وعقد اجتماع قرر عزل محمد علي شاه وتولية ابنه: سلطان أحمد، وكان لا يزال قاصراً، فوضع له مجلس وصاية على العرش. وفي ٩ سبتمبر وصل الشاه المخلوع ـ محمد علي شاه ـ إلى كييف في روسيا.

وأجريت انتخابات تشريعية في ٥ ديسمبر سنة ١٩٠٩، تمّ بموجبها انتخاب

مجلس تشريعي هو الثاني. ولما كانت الخزانة خاوية فقد اقترح عمل قرض انجلتري - روسي، لكن البرلمان رفضه في سنة ١٩١٠ لأن شروطه تتناقض مع استقلال البلاد. لكن المجلس اتخذ قراراً بالاستعانة بمستشارين أجانب لتنظيم مالية البلاد، وفي سنة ١٩١١ استعين بخبراء أمريكيين للمالية، وخبراء سويديين للشرطة. ووصل الخبير الأمريكي مورجن شوستر Morgan Shuster إلى طهران في مايو سنة ١٩١١ ومعه مساعدون قلائل. وفي ١٣ يونيو سنة ١٩١١ أصدر البرلمان قانوناً يمنح الخبير الأمريكي سلطات واسعة جداً.

وفي ١٧ يونيو سنة ١٩١١ وصل الشاه المخلوع فجأة إلى ايران، محاولاً استرداد عرشه وفي نفس الوقت قام أخوه: سالار الدولة فأعلن العصيان في اقليم كردستان.

وكانت روسيا خائفة لاستدعاء الخبير الأمريكي الذي لم يحفل بمطالبها في ايران. فانتهزت روسيا فرصة حادث نشأ عن مصادرة أملاك شجاع السلطنة - الأخ الأصغر للشاه المخلوع - بسبب تورطه في فتنة سالار أخيه، فتدخلت روسيا وطالبت باعتذار الحكومة الفارسية، وتلت ذلك بتقديم انذار، في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩١١، مدته ٤٨ ساعة، يطلب من الحكومة الفارسية بطرد الخبير الأمريكي، وبعدم الاستعانة بأجانب إلاً بموافقة روسيا وبريطانيا، وبدفع تعويض عن نفقات الحملة العسكرية التي زحفت بها روسيا من مدينة رشت. واحتجت انجلترة لدى القيصر في بطرسبرج على هذا الانذار الذي لم تُستشر فيه.

ورفض البرلمان هذا الانذار الروسي. فتقدمت القوات الروسية صوب قزوين، وجرت مناوشات بين القوات الروسية والقوات الفارسية في رشت، وأنزلي، وتبريز. ولما رأى الوصي على العرش، ناصر الملك، انه لا قِبل لإيران بمواجهة الجيش الروسي، اضطر إلى حل البرلمان في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١١. وفي الغداة عزل الخبير الأمريكي شوستر. وبذلك انتهت المرحلة الثالثة والأخيرة من الثورة الدستورية في ايران. وعُلّق الدستور، وظل معلقاً حتى ٧ يوليو سنة ١٩١٤، حين افتتح الفصل التشريعي الثالث للبرلمان. لكنه ما لبث ان حُلَّ في ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٥ لما زحفت الجيوش الروسية على قزوين، وترك معظم أعضائه طهران ولجأوا إلى مدينة قم. وعلّق الدستور مرة أخرى.

ولم يُعَد البرلمان إلاً في سنة ١٩٢١ وابتداء من ذلك التاريخ صار البرلمان جزءاً أساسياً من نظام الحكم في ايران، ولم يحلّ إلاّ لفترة قصيرة في سنة ١٩٥٣ لما ان قام د. محمد مُصَدق بحل المجلس، وفي إثره قام مجلس شوراي ملّي

جديد، استمر في الوجود حتى سنة ١٩٦١ لما ان اصدر الشاه محمد رضا بهلوي مرسوماً امبراطورياً بحل المجلس وانتخاب مجلس جديد استمر حتى سنة ١٩٧٩.

ملامح الدستور الإيراني

وتجدر الإشارة إلى بعض البنود الرئيسية في دستور سنة ١٩٠٦ والدستور المتمّم في سنة ١٩٠٧:

١ - تقضي المادة الأولى من الدستور المتمّم بأنَّ الدين الرسمي في ايران هو الإسلام على مذهب الشيعة الاثنا عشرية، وبأن يكون الشاه مسلم الديانة على المذهب الشيعي الاثنا عشري.

٢ - وتقضي المادة الثانية بأنه «لا يجوز بأي حال من الأحوال وفي أي ظرف من الظروف أن يصدر البرلمان قانوناً يتعارض مع المبادىء المقدسة للإسلام أو مع القوانين التي وضعها خير البشر (عليه وعلى آله السلام)». وتقضي نفس المادة بتشكيل لجنة من خمسة مجتهدين على الأقل «مهمتها النظر الدقيق في كل الأمور المقترحة على البرلمان، ومن حقها ان ترفض أو تنبذ، كلياً او جزئياً، كل اقتراح يتعارض مع الشريعة الاسلامية المطهرة، بحيث لا تتخذ صفة التشريع. وفي هذه الأمور تتبع وتنفذ قرار لجنة العلماء هذه. وهذه المادة يظل معمولاً بها دون أي تعديل إلى حين ظهور حجة الزمان (عجّل الله فَرَجه)».

وهذه المادة الخطرة هي التعبير الدستوري عمَّا يسمَّى بـ «ولاية الفقيه»، أي ولاية أهل الدين على القوانين التي تصدرها الدولة. وهكذا نرى ان ما قرره الانقلاب الاسلامي الجمهوري في ايران سنة ١٩٧٩ ولا يزال معمولاً به إلى اليوم - قد تقرر من قبل في الدستور المتمّم الصادر في ٧ اكتوبر سنة ١٩٠٧.

لكن إبان حكم رضا شاه وابنه محمد رضا شاه لم يعمل بهذه المادة.

٣ - وتقضي المادة ٢٧ من الدستور المتمّم بأنَّ «السلطة القضائية هي من اختصاص المحاكم الشرعية في الشرعيات، ومن اختصاص المحاكم العدلية في العُرْفيات».

٤ - وتقضي المادة ٢٦ من الدستور المتمّم بأنَّ «سلطات الشاه كلها تصدر عن الشعب، وان الدستور ينظم استعمال هذه الحقوق» التي للشاه.

٥ - وتقول المادة ٣٥ إنَّ «السيادة أمانة» هي بمثابة هبة إلهية أودعها الشعب في يد الشاه».

٦ ـ وتقضي المادة ٢٤ بأنَّ «عقد المعاهدات والاتفاقات، ومنح الامتيازات التجارية، والصناعية والزراعية وغيرها ـ سواء كان ذلك لمواطنين فارسيين او لأجانب ـ لا يتم إلاَّ بموافقة مجلس شوراي ملِّي، فيما عدا المعاهدات التي يجب ان تبقى سرّية لأسباب تتعلق بأمن الدولة وللصالح العام».

٧ ـ وتقضي المادة ٢٢ بأنَّ «كل اقتراح بنقل او بيع جزء من الموارد الوطنية او ادارة الحكومة او الحاكم يخضع لموافقة مجلس شوراي ملِّي».

٨ ـ والمادة ٢٧ من الدستور المتمَّم تقرر ان السلطة التشريعية هي من إختصاص الشاه ومجلس شوراي ملِّي ومجلس الشيوخ (السيناه)، ولكل واحد منهم حق اقتراح القوانين، ولا يصبح قانوناً إلاَّ إذا كان مطابقاً لقواعد الشريعة الإسلامية، وحظي بموافقة كلا المجلسين (شوراي ملِّي، والسيناه)، ونال تصديق الشاه. أمَّا اصدار القوانين الخاصة بالضرائب وبمصروفات المملكة فمن اختصاص مجلس شوراي ملِّي وحده.

٩ ـ أمَّا السلطة التنفيذية فمن اختصاص الشاه و«يمارسها الوزراء وموظفو الدولة باسم صاحب الجلالة الشاهانية وفقاً للشروط المنصوص عليها في القانون».

١٠ ـ الشاه هو الذي يعيّن الوزراء ويعفيهم من مناصبهم؛ أمَّا سائر الموظفين في الدولة فيتم تعيينهم وعزلهم بحسب اللوائح التي تحدد ذلك.

١١ ـ الشاه هو الذي يصدر المراسيم والأوامر المنفذة للقوانين، لكن لا يجوز له ان يعلّق تنفيذها او ان يؤخرها بأي حال من الأحوال؛ كما لا يجوز له نقضها (الڤيتو).

١٢ ـ الشاه هو القائد الأعلى لكل القوات العسكرية. وهو الذي يعلن الحرب، ويعقد الصلح (مادة ٥١).

١٣ ـ القضاة والنائب العام يعيَّنون بمرسوم شاهاني (مادة ٨٠ و٨٣ من الدستور المتمّم). لكن المادة ٨١ تقضي بأنه لا يجوز عزل القضاة إلاَّ بموافقتهم.

١٤ ـ ومن أهم اختصاصات المجلس النيابي تحديد ميزانية الدولة والموافقة عليها، وذلك في المادة ١٨ من الدستور الأصلي، والمادة ٩٦ من الدستور المتمّم. وعلى وزير المالية عرض الميزانية على المجلس حوالى أول شهر دي (٢٣ ـ ٢٤ ديسمبر)، وعلى المجلس التصويت عليها حوالى ١٥ اسفند (= ٦ ـ ٧ مارس).

ايران أثناء الحرب العالمية الأولى

وتقاسمت روسيا وانجلترة النفوذ في ايران بمقتضى اتفاق أُعلن في ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧. فبموجب هذا الاتفاق قسمت ايران إلى منطقة نفوذ بريطانية، ومنطقة نفوذ روسية، وتفصل بينهما منطقة محايدة.

فلما قامت الحرب العالمية الأولى في يوليو سنة ١٩١٤ صارت ايران، على الرغم من حيادها، ساحة قتال بالنسبة إلى الجيوش التركية المتحالفة مع ألمانيا، والروسية، والبريطانية، فعمت فيها الفوضى والقلاقل طوال مدة الحرب. وغداة انتهائها أرادت بريطانيا ان تحكم قبضتها وحدها على ايران، فاقترح لورد كيرزون Lord Curzon عقد معاهدة بين بريطانيا وايران، وعقدت المعاهدة في ٩ أغسطس سنة ١٩١٩ بين حكومة ايران والحكومة البريطانية، وكانت المعاهدة ترمي إلى بسط الحماية البريطانية على ايران كلها، منتهزة فرصة انسحاب القوات الروسية بسبب أحداث الثورة الروسية. لكن الوطنيين الإيرانيين وكذلك الأمريكيون والفرنسيون عارضوا هذه المعاهدة. وثار الوطنيون في مقاطعتي آذربيجان وجيلان، وأعلنت جيلان، في مايو سنة ١٩٢٠ قيام جمهورية سوفييتية فيها. لهذا لم يتم التصديق على المعاهدة المذكورة.

بيد ان الانجليز استطاعوا الحصول على الموافقة على احلال ضباط فرس محل الضباط الروس في فرقة «القوزاق»، وهي فرقة كان ناصر الدين شاه قد أنشأها في الجيش الفارسي في سنة ١٨٧٩ على غرار فرق القوزاق في الجيش الروسي، واستخدمها ناصر الدين شاه كحرس خاص له. وكانت انجلترة تهدف من وراء ذلك إلى وضع حكومة في ايران تستند إلى الجيش، وتشرف انجلترة عليها بطريق مباشر أو غير مباشر.

وخلال خريف سنة ١٩١٩ وشتاء ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ اندلعت اضطرابات في منطقة طهران، وقامت مؤامرات عديدة دون نتيجة إلى ان قام سيد ضياء الدين بمساندة من العقيد رضا خان، وهو ضابط كبير في فرقة القوزاق، بمؤامرة نجحت في طهران في ٢٠ فبراير سنة ١٩٢١، وتمَّ لهما الاستيلاء على الحكم. فاضطر الشاه أحمد إلى تعيين سيد ضياء الدين طباطبائي رئيساً للوزراء، وصار رضا خان وزيراً للحربية.

واستطاع سيد ضياء الدين طباطبائي عقد معاهدة مع روسيا، في ٢٦ فبراير سنة ١٩٢١، بموجبها تخلّت روسيا عن كل الامتيازات في ايران التي كانت روسيا

قد حصلت عليها من قبل في عهد القياصرة؛ وفي مقابل ذلك أُعطي لروسيا الحق في التدخل المسلح في ايران في الحالة التي تكون فيها سلامة روسيا مهدّدة بتدخل أجنبي في ايران، كذلك قرّرت المعاهدة ألا تمنح ايران امتيازات للتنقيب عن البترول في محافظات الشمال الخمس إلاَّ لروسيا دون غيرها من الدول.

لكن سياسة سيد ضياء الدين ما لبثت ان اصطدمت بمصالح بعض الطبقات في داخل ايران وبعداوة بريطانيا. لهذا اضطر إلى الاستقالة ومغادرة ايران، ولما يمضِ عليه في الحكم إلاَّ ثلاثة أشهر. هنالك كلَّف الشاه قوامَ السلطنة بتولِّي الوزارة، وهو محافظ قديم لاقليم خراسان. فاعتمد قوام السلطنة على القوى التقليدية في ايران، ووقف حركة الاصلاح التي كان قد بدأها زين الدين طباطبائي. لكن بقي العقيد رضا خان وزيراً للحربية في الوزارة الجديدة. فقام رضا خان بإقرار النظام في البلاد، وبعث بقوات عسكرية لإخماد حركات العصيان والاضطرابات في آذربيجان، وجيلان، وخراسان، وأخمد انتفاضات الملوريين والقشقبيين، والعرب في الجنوب.

وإزاء نجاح العقيد رضا خان في إقرار النظام في البلاد وإخماد كل الفتن والتمردات، صار أكبر شخصية في ايران. وفي ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٣ تولّى رضا خان رئاسة الوزارة، وغادر الشاه أحمد ايران للسفر في أوروبا.

وقد وُلِد رضا خان في سنة ١٨٧٨ في قرية جبلية صغيرة بالقرب من بحر الخزر (البحر الكاسپي، بحر قزوين)، لأسرة رقيقة الحال. وانخرط في فرقة القوزاق، التي أشرنا إليها من قبل، حوالى سنة ١٩٠٠، وخدمَ في هذه الفرقة في طهران، وهمذان، وكرمنشاه، واشترك في المعارك التي وقعت في طهران في عامي ١٩٠٨ و١٩١١. وفي سنة ١٩٢١ لما صار وزيراً للحربية كان برتبة كولونيل (عقيد).

وبعد ان صار رئيساً للوزراء في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٣ فكر في اعلان الجمهورية؛ لكنه اصطدم حينئذ بمعارضة الطبقات التقليدية المحافظة، خصوصاً رجال الدين ـ وإزاء هذه المعارضة قام بمناورة بأن أعلن تخلّيه عن الحكم في أوائل سنة ١٩٢٥. هنالك قامت المظاهرات الشعبية العديدة، وقامت مسيرات من رجال الجيش، ومن بعض النواب. وإزاء هذا التأييد الشعبي والعسكري العارم، عاد إلى طهران في فبراير سنة ١٩٢٥، وحصل من مجلس شوراي ملّي (البرلمان) على سلطات مطلقة تقريباً، وذلك بأغلبية ٩٣ صوتاً ضد ٧. وفي ذلك الوقت أعلن الشاه أحمد عن عودته إلى ايران وتظاهر من أجله أنصاره. فقرّر رضا خان أن

يفوّت الفرصة عليهم، واستصدر من البرلمان قراراً بعزل الشاه أحمد ونفيه عن ايران هو وأفراد أُسرة القاجار. وعُيِّن رضا خان رئيساً لحكومة مؤقتة في ٣١ اكتوبر سنة ١٩٢٥. وفي ٢١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ صار ملكاً على البلاد، وبهذا بدأت أُسرة بهلوي تولّي العرش في ايران.

حكم رضا شاه

وهكذا صار «العقيد» رضا خان الشاه الجديد في ايران ابتداء من ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٥ وسيستمر على العرش حتى يخلعه الحلفاء في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٤١ ويضعوا مكانه ابنه محمد.

وفي إبان حكمه كان يستلهم جاره، مصطفى كمال أتاتورك مؤسس تركيا المعاصرة والعصرية. فأراد أن يجعل من ايران دولة عصرية حديثة تساير النهضة العالمية، وتأخذ بأسباب التقدم المتأصل في الدول الأوروبية:

أ ـ فقام أولاً بتنظيم القوات المسلحة، وكوّن أول جيش وطني دائم.

ب ـ ووحَّد البلاد، وقضى على سلطة زعماء القبائل المحليين، ووضع لإدارة المحافظات ضباطاً من الجيش اتّسموا بالضبط والربط، مع الحزم والقسوة؛ وبين سنة ١٩٢١ وسنة ١٩٤١ صارت ميزانية الجيش ثلث ميزانية الدولة.

جـ ـ ونظم الوظائف وفقاً للنظم الادارية المتبعة في الدول الأوروبية.

د ـ وأصلح النظام القضائي، ولذلك أصدر قانوناً جنائياً في سنة ١٩٢٦، وقانوناً مدنياً في سنة ١٩٢٨؛ وفي سنة ١٩٢٨ ايضاً ألغى الامتيازات القضائية التي كان يتمتع بها الأجانب في ايران؛ وكان طبيعياً، بسبب اصدار هذه القوانين الحديثة، أن يصطدم برجال الدين.

هـ ـ وفي ميدان التعليم ألغى نظام «المكاتب»، حيث كان التلميذ يتعلم في قاعة صغيرة (مكتب) على يد أخوندة (رجل دين في أدنى مراتب رجال الدين). وجعل التعليم إلزامياً للأبناء والبنات على السواء. والمناهج صارت عصرية تشمل العلوم الرياضية والطبيعية، إلى جانب العلوم اللغوية والدينية.

و ـ وأنشأ جامعة طهران في سنة ١٩٣٥.

ز ـ وفي سنة ١٩٤٠ استولت الحكومة على كل مدارس الإرساليات الأجنبية، وضمّها إلى وزارة المعارف، وصارت جزءاً من مدارس الدولة.

ح ـ وأصدر في سنة ١٩٣٥ قراراً يمنع المرأة من ارتداء الحجاب.

ط ـ وفي ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ أصدر مرسوماً بمقتضاه أصبح اسم الدولة هو «ايران»، بدلاً من «فارس»، لأنَّ هذا الاسم الأخير قد صار رمزاً لمهانة البلاد طوال القرنين السالفين.

ي ـ وفي سنة ١٩٣٢ أعلن سحب كل الامتيازات الممنوحة لشركة البترول الانجليزية ـ الفارسية؛ وازاء تهديدات بريطانيا، رفع الأمر إلى عصبة الأُمم، وأخيراً تمَّ الاتفاق في سنة ١٩٣٣ وبموجب هذا الاتفاق زادت عائدات الحكومة الايرانية من البترول الذي تستخرجه تلك الشركة، ونقصت مساحة الأراضي الممنوحة لاستغلال الشركة. وفي مقابل ذلك حصلت الشركة على تجديد امتيازها لمدة ستين سنة أخرى.

يا ـ وعمل على التقارب مع ألمانيا، وخصوصاً بعد تولِّي هتلر الحكم في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣، وصارت المانيا ذات المكانة الأولى بين الدول الأجنبية في التعامل مع ايران. واستعان بمستشارين عسكريين من الألمان، كما استعان بالشركات الصناعية الألمانية لإيجاد صناعات في ايران. وقد بلغ عدد الخبراء الألمان في ايران في أغسطس سنة ١٩٤١ أكثر من ألفين. وبلغت تجارة ايران مع ألمانيا ٤٥% من مجموع تجارة ايران مع الخارج.

يب ـ أمَّا في علاقاته مع دول الشرق الأدنى والأوسط، فقد اعتمد سياسة الصداقة وحسن الجوار مع الجميع. ففي يوليو سنة ١٩٣٧ عقد مع العراق وأفغانستان وتركيا: ميثاق سعد أباد، وبموجبه تتعهد الدول الأربع بضمان حدودها فيما بين بعضها وبعض وبالتضامن في الدفاع عن كل دولة منها إذا هوجمت من دولة أخرى؛ ومع مصر تجسدت العلاقات الحميمة بزواج ابنه ولي العهد محمد رضا من الأميرة فوزية أخت الملك فاروق، في سنة ١٩٣٩.

حكم محمد رضا شاه

ولما قامت ألمانيا في ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ بالهجوم على روسيا، وصارت بذلك روسيا مع انجلترة في حربها ضد المانيا، صارت ايران أقرب موقع للتلاقي بين انجلترة وروسيا. لهذا عمل البريطانيون والروس ابتداء من يوليو سنة ١٩٤٠ على اجتياح ايران واقتسام النفوذ فيها. وانتحلوا لتدخلهم الظالم هذا عذراً فاضحاً هو وجود مستشارين ألمان في ايران، مع ان ايران كانت على الحياد، ولم يكن لهؤلاء المستشارين أي دور في الجيش الايراني. وبدأوا عمليتهم الدنيئة هذه بأن أرسلوا إلى شاه رضا في يوليو سنة ١٩٤١

مذكرة دبلوماسية تطالب بطرد المواطنين الألمان الموجودين في ايران. لكن شاه رضا رفض مطلبهم الجائر هذا. وإزاء رفضه قرّرت انجلترة وروسيا تؤيدهما الولايات المتحدة الأمريكية التدخل عسكرياً بقواتها في ايران. وفي ٢٥ اغسطس سنة ١٩٤٢ دخلت القوات البريطانية في جنوب وغرب ايران قادمة من العراق، واستقرت في خوزستان وكردستان؛ بينما احتلت الجيوش الروسية شمالي ايران، وخصوصاً مقاطعة أذربيجان في الشمال الغربي، ومقاطعة خراسان في الشمال الشرقي. ولم تتوقف انجلترة وروسيا عند هذا الحد، بل طالبا ايضاً بتخلي رضا شاه عن العرش لابنه محمد رضا. ثم نفوا الشاه رضا إلى جزيرة دريس، ثم إلى جنوبي افريقيا حيث توفي في مدينة يوهانسبورج في ١١ يوليو سنة ١٩٤٤.

فتولى محمد رضا العرش في ١٦ يوليو سنة ١٩٤٤، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، إذ هو وُلِد في ٢٧ اكتوبر سنة ١٩١٩، وتعلم الفنون العسكرية في سويسرة، ثم عاد من سويسرة ودخل المدرسة الحربية في طهران.

وفي ٢٩ يناير سنة ١٩٤٢ فرضت انجلترة وروسيا على ايران معاهدة تحالف، بالرغم من اعتراض كثير من نواب البرلمان. وتقضي هذه المعاهدة بأن تتعهد كلتا الدولتين بالدفاع عن ايران ضد كل اعتداء، وبصيانة واحترام سلامة اراضي ايران واستقلالها السياسي (ا)، وبإنسحاب جيوشهما من ايران في مدة أقصاها ستة أشهر من انتهاء الحرب.

وأوفت بريطانيا بتعهدها فسحبت جيوشها قبل ٢ مارس سنة ١٩٤٦. أمّا روسيا فقد ماطلت وتلكأت، وكانت قد أنشأت في منطقتي احتلالها: في أذربيجان، وكردستان أحزاباً موالية لها: هي حزب «تودة» (= الجمهور)، وحزب الحركة الجمهورية في أذربيجان، وحركة الاستقلال الذاتي للأكراد في كردستان، وأقام أولهما جمهورية مستقلة هي جمهورية أذربيجان، وأقام الثاني جمهورية شعبية كردية، وذلك في نوفمبر سنة ١٩٤٥. وإزاء تلكؤ الروس في الانسحاب، رفعت ايران الأمر إلى مجلس الأمن في يناير سنة ١٩٤٦، وتحت تهديد الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا اضطرت روسيا إلى الاذعان، وسحبت قواتها من ايران في مايو سنة ١٩٤٦. ومع ذلك ظلوا يساندون «الجمهوريتين» الوهميتين في أذربيجان لكنَّ هاتين لم تستطيعا الوقوف أمام قوات الشاه، فدخلت أذربيجان وكردستان في ديسمبر سنة ١٩٤٦.

وهكذا تحررت ايران من الاحتلال الروسي ومن قبله بقليل من الاحتلال البريطاني.

لكن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت توطد نفوذها في ايران، وكان قد بدأ في سنة ١٩٤٢ مع انشاء قيادة الخليج الفارسي التي تولت تحسين المنشآت الخاصة بموانىء خُرَّمشهر، وبندر عباس، وبندر شاهپور، وذلك لتوصيل الأسلحة والمعدات الى روسيا عبر الموانىء والأراضي الايرانية. وتلت ذلك بإرسال مستشارين عسكريين وماليين. وفي سنة ١٩٤٧ مدوا تطبيق «مبدأ ترومان» ليشمل ايران، كما شمل اليونان وتركيا، ومعنى ذلك ان الولايات المتحدة الأمريكية صارت ضامنة لاستقلال ايران وسلامة أراضيه.

ومن ثمَّ ستصبح للولايات المتحدة الأمريكية الكلمة العليا في ايران حتى قيام الانقلاب الاسلامي في فبراير سنة ١٩٧٩.

وكانت سنة ١٩٤٩ سنة حافلة بالأحداث في ايران:

أ ـ ففي ٤ فبراير أطلق احد أعضاء حزب تودة النار على الشاه محمد رضا، فأصابه في حلقه إصابة سيظل الشاه متأثراً بها طوال حياته. وعلى إثر ذلك صدر قرار باعتبار حزب تودة خارجاً عن القانون، وأعلنت الأحكام العرفية.

ب ـ وبدأ تطبيق الخطة السباعية للإنماء الاقتصادي.

جـ ـ وأنشأ د. محمد مصدق الجبهة الوطنية، وكانت تتألف من اتجاهات سياسية مختلفة المنازع والوسائل: فكانت تضم حزباً ارهابياً أُنشىء في سنة ١٩٤٣ وسانده زعيم ديني كبير التأثير هو آية الله كاشاني، وحزباً من الوطنيين المنتسبين إلى الطبقة الوسطى والمثقفين، ويدعى حزب ايران، وحزباً ثالثاً يتزعمه خليل مالكي يتألف من المثقفين اليساريين.

وفي سنة ١٩٥٠ أنشأ الشاه «بنياد بهلوي» («مؤسسة بهلوي») وجعلها تشرف على أراضي التاج الشاهنشاهي التي أعلن رضا عن تخليه عنها لصالح الفلاحين والفقراء، فتتولى هذه المؤسسة توزيع الأراضي التي يملكها التاج الامبراطوري على صغار الفلاحين. وفي الوقت نفسه عيّن رئيساً للوزراء الجنرال علي رزماراه لمحاربة الفساد المستشري في جهاز الحكومة. ولما كانت محاربة الفساد قد نالت مصالح العديد من كبار الموظفين والأثرياء والمقاولين، فقد تآمر هؤلاء على قتله، فقتله في ٧ مارس سنة ١٩٥١ عضو من جماعة «فدائيان اسلام».

وتقدم د. محمد مصدق في ابريل سنة ١٩٥١ باقتراح في البرلمان يقضي

بتأميم صناعة البترول في ايران. فوافق البرلمان بالاجماع على الاقتراح. ونتيجة لذلك، صار د. محمد مصدّق رئيساً للوزراء في ٢٩ ابريل سنة ١٩٥١. فأعلن برنامج حكومته ويتلخص في: تنفيذ قانون تأميم صناعة البترول، وفي تعديل قانون الانتخابات البرلمانية والمحلية.

فواجهت «شركة البترول الانجلو ـ ايرانية» A.I.O.C الموقف بأن بدأت بوقف استخراج البترول من الآبار؛ فردت حكومة مصدّق بالتدخل في مصافي البترول في عبادان فرفعت الشركة والحكومة البريطانية شكوى أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي، وذلك في يونيو سنة ١٩٥١. فأعلنت الحكومة الايرانية عدم اعترافها باختصاص محكمة العدل الدولية في تناول هذه الشكوى، وقد أصدرت المحكمة في يوليو سنة ١٩٥٢ حكماً بعدم اختصاصها بنظر هذه الشكوى.

وتنفيذاً لقانون التأميم أنشأت الحكومة الايرانية، في اكتوبر ـ نوفمبر سنة ١٩٥١، «الشركة الوطنية للبترول». فرد البريطانيون على ذلك بوضع حصار على تصدير البترول الايراني إلى الخارج.

لكن بسبب انقطاع عائدات البترول، بدأ الاقتصاد الايراني في التدهور. ونتيجة لذلك أحسَّ الايرانيون بالضيق، فسخطوا على د. محمد مصدّق وسياسته، وبدأ السخط في البرلمان، وصاحبه اندلاع المظاهرات ضد حكومة مصدّق. وتكتل خصوم د. مصدّق من العسكريين، وكبار الملاك، والمنتفعين بالشركة الانجلو ـ ايرانية للبترول. وحاول الحرس الشاهنشاهي القبض على د. مصدق في ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٣، لكن المحاولة أخفقت. وإزاء ذلك اتفق الشاه مع الجنرال زاهدي وبتأييد من الولايات المتحدة الأمريكية على القيام بانقلاب عسكري يتولاه الجنرال زاهدي. وللتمويه سافر الشاه إلى روما. فقام الجنرال زاهدي بانقلاب عسكري وتولّى رئاسة الوزراء بقرار من الشاه. وفي ١٩ أغسطس قبض على مصدّق وعدد كبير من وزرائه. وحوكم هؤلاء أمام محكمة عسكرية، قضت على د. مصدّق بالسجن ثلاث سنوات لأنَّه عارض الفرمان الشاهنشاهي الذي يقضي بتعيين جنرال زاهدي رئيساً للوزراء فخالف بذلك نص الدستور. وحُكِمَ على وزير خارجيته، د. فاطمي بالإعدام فأُعدِمَ رمياً بالرصاص.

وأقام جنرال زاهدي، حكومة دكتاتورية. وعقد اتفاق مع مجموعة شركات دولية لإستغلال البترول الايراني لمدة ٢٥ سنة، وتمَّ عقد هذا الاتفاق Consortium في سبتمبر سنة ١٩٥٤ ومنحته الولايات المتحدة منحة استثنائية مقدارها ٤٥ مليوناً من الدولارات. واستمرت مجموعة الشركات هذه في استغلال البترول الايراني

بنسبة ٩٥% من الانتاج الاجمالي للبترول في ايران، بينما «الشركة الوطنية للبترول» لم تكن تنتج إلا الخمسة في المائة الباقية. وابتداء من سنة ١٩٥٨ منحت الحكومة الايرانية امتيازات للكشف عن البترول لشركات أخرى، معظمها أمريكية بالتعاون مع الشركة الوطنية للبترول. وفي ديسمبر سنة ١٩٦٦ عقدت الحكومة الايرانية مع مجموعة الشركات المذكورة اتفاقاً جديداً يقضي بأن تسترد الشركة الوطنية ربع الأراضي السابق منح امتيازها لشركات أجنبية. وصارت الشركة الوطنية هي التي تقوم بنفسها بتسويق انتاجها. ثم عقدت اتفاقات اخرى في عامي ١٩٦٧ و١٩٦٩ زادت من عائدات الحكومة الإيرانية التي تحصل عليها من رسوم انتاج البترول وتصديره.

لكن نظراً لأساليب القمع الفظيعة التي لجأت إليها حكومة جنرال زاهدي، وانتشار الاستياء بين سائر طبقات الشعب بسبب قسوة الحكام المحليين ـ وكانوا من رجال الجيش الذين عيّنهم زاهدي لحفظ النظام في الاقاليم، اندلعت الاضطرابات في أماكن مختلفة من البلاد. وإزاء هذا السخط الشامل اضطر الشاه إلى عزل زاهدي وتكليف حسين علاء بتشكيل حكومة مدنية في ابريل سنة ١٩٥٥.

وبعد ذلك بوقت قصير، أعني في اكتوبر سنة ١٩٥٥، انضمت ايران إلى حلف بغداد، الذي كان يتألف آنذاك من العراق، وتركيا، وباكستان، وبريطانيا. وهو الحلف الذي تحوَّل ـ بعد انسحاب العراق منه إثر الاطاحة بالملكية في ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ ـ الى اسم: «منظمة المعاهدة المركزية» CENTO في سنة ١٩٥٩. وكانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية تشترك في اللجنتين: العسكرية والاقتصادية للحلف، دون ان تشترك اشتراكاً كاملاً في الحلف كعضو فيه.

لكن حكومة حسين علاء لم تستطع تحسين الوضع المتدهور في ايران، رغم المعونات الكبيرة الأمريكية. واستمرت الاضطرابات والمؤامرات، وجرت محاولة اعتداء على شخص حسين علاء في نوفمبر سنة ١٩٥٥، لكنه نجا منها. وأخيراً، في ابريل سنة ١٩٥٧، استقال حسين علاء، وحلَّ محله في رئاسة الوزارة منوچهر إقبال الذي اتخذ سياسة اكثر اعتدالاً فألغى الأحكام العرفية، وسهَّل قيام أحزاب سياسية. فقامت أحزاب سياسية أهمها حزبان: حزب «مردم» (= الشعب») الذي تأسَّس في سنة ١٩٥٧، وحزب «مِلّيون» (الحزب الوطني) الذي تأسَّس في فبراير سنة ١٩٥٨؛ وبعد ذلك بخمس سنوات، أي في سنة ١٩٦٣، تأسَّس حزب جديد يدعى حزب «ايران نووين» (ايران الجديدة). لكن هذه الأحزاب الثلاثة لم تكن ذات قواعد شعبية، إنَّما كانت تستند إلى التجار والموظفين.

وشُكّل مجلس للشيوخ (سينا) لأول مرة في سنة ١٩٥٠، وكان يتألف من ستين عضواً، نصفهم يعيّنهم الشاه، والنصف الآخر ينتخبون (١٥ عن محافظة طهران، و١٥ عن سائر المحافظات).

أمّا مجلس الأُمّة، أي مجلس شوراي ملّي، فكان يتألف من مائتي نائب، يُنتخبون لمدة أربع سنوات بالتصويت الكلي العام. وحصلت المرأة على حق الانتخاب والترشح للنيابة في سنة ١٩٦٣.

وأُجريت انتخابات في يوليو ـ أغسطس سنة ١٩٦٠ لانتخاب برلمان انتقالي مدته عامان. لكن حدثت مخالفات وتزويرات عديدة في الاقتراع، حملت الشاه على إلغاء هذا الانتخاب. واضطر منوچهر اقبال رئيس الوزراء، إلى الاستقالة، وحلّ محله جعفر شريف إمامي، رئيس حزب «مِلّيون»، فأجرى انتخابات في يناير سنة ١٩٦١، وفاز حزبه بالأغلبية الكبيرة فقامت الاعتراضات على صحّة اجراء هذه الانتخابات، فأُلغيت. وأُجريت انتخابات جديدة في مايو سنة ١٩٦١، اسفرت عن تولّي علي أميني، وكان زعيم المعارضة في البرلمان، لرئاسة الوزارة. وكان سياسياً نزيهاً ووطنياً صادقاً، فقام بمحاربة الفساد، ألقى القبض على الموظفين المتورطين في أعمال القهر والبطش بالناس، وأمر بفتح تحقيق للفحص عن موارد الصحف، واستغل ذلك لإلغاء صحف المعارضة، وأعلن عن برنامج للاصلاح الزراعي. لكنه أخذ يبطش بخصومه، فأمَرَ بنفي أعضاء جبهة د. محمد مصدّق إلى جنوب البلاد، وبدلاً من الافراج عن د. مصدّق بعد ان أمضى المدة المحكوم عليه بها في السجن، وضعه تحت الاقامة الجبرية في منزله!!

«الثورة البيضاء»

وحاول الشاه محمد رضا بهلوي من ناحية أخرى القيام بما سماه بـ «الثورة البيضاء» (انقلاب سفيد)، أي الثورة الاجتماعية لإصلاح أحوال الفلاحين خصوصاً، لأنهم يمثلون ٨٠% من شعب ايران. فأصدر قانوناً للإصلاح الزراعي في ١٥ يناير سنة ١٩٦٢ يقضي بأنه لا يجوز لمالك زراعي ان يملك أكثر من قرية واحدة، وما زاد على ذلك تشتريه الدولة وتبيعه بعد ذلك للفلاحين. وكان قانون الاصلاح الزراعي ضمن برنامج من ست مواد أجري عليه استفتاء في يناير سنة ١٩٦٣.

ولما كانت الأراضي الزراعية الكبيرة المساحات إنما يمتلكها إمّا: كبار ملاكي الأراضي الزراعية (زميندار)، وإمّا الأوقاف الدينية التي يشرف عليها

ويتصرف في ريعها كبار رجال الدين ـ فقد امتلأت هاتان الطائفتان بالسخط على هذه «الثورة البيضاء»، وراحتا تعملان على إثارة الكراهية ضد الشاه وموظفي الحكومة، مستغلة في ذلك فساد الموظفين الذين وُكّل إليهم تنفيذ قوانين ولوائح هذه «الثورة البيضاء». . وعارضت الجبهة الوطنية البرنامج المؤلف من ست مواد، وقام رجال الدين بالتحريض على اخراج المظاهرات في طهران وفي الأقاليم، بلغت أوجها في يونيو سنة ١٩٦٣. وكان آية الله الخوميني على رأس رجال الدين الذين حرّضوا على القيام بهذه المظاهرات.

وفي سبتمبر سنة ١٩٦٣ أجريت انتخابات جديدة ـ وكان الشاه في العامين السابقين يحكم بمراسيم ـ تمخضت عن أغلبية ساحقة للمؤيدين للبرنامج الإصلاحي الذي حددته المواد الست وصارت في المجلس الجديد ست سيدات نائبات.

وتولّى رئاسة الوزارة حسين علي منصور، من حزب «ايران الجديدة» (ايران نووين). لكن أحد «المجتهدين» من رجال الدين أطلق عليه الرصاص في مجلس شوراي ملّي فتوفي متأثراً بجراحه في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٦٥، وذلك لأنه استصدر قانوناً في سنة ١٩٦٤ بتحديد الملكية الزراعية. وكذلك جرت محاولة أخرى لإغتيال الشاه في ابريل سنة ١٩٦٥، على اثرها تمت اعتقالات عديدة في أوساط اليساريين ورجال الدين، وعلى رأسهم آية الله الخوميني. واتخذ البوليس السياسي (ساواك) اجراءات قمع شديدة في هذه الأوساط. وبسبب هذه الاعتقالات وما عقبها من إصدار أحكام قاسية من المحاكم العرفية اغتيل رئيس القضاء العسكري في ابريل سنة ١٩٧١.

لكن المعارضة كانت محصورة في هذه الأوساط اليسارية والدينية، دون ان تمتد إلى سائر أفراد الشعب الايراني. ولهذا لمّا أجريت الانتخابات في ٢ يوليو سنة ١٩٧١ حصل الحزب الحاكم، وهو حزب «ايران الجديدة» (ايران نووين) على ٢٣٩ مقعداً من مجموع المقاعد وهو ٢٨٠.

ولما احتفل الشاه احتفالاً بالغ الفخامة بذكرى مرور ٢٥٠٠ سنة على الملكية الفارسية في پرسپولس، وذلك في اكتوبر سنة ١٩٧١، أرسل آية الله الخميني نداء من منفاه في النجف (بالعراق) للعصيان المدني. لكن نداءه ذهب أدراج الرياح، ولم يستجب له أحد. كذلك لم يكن لقدامى السياسيين من كبار رجال الأحزاب البائدة: مثل كريم سنجابي، وشهپور بختيار، ومهدي بازركان، وأحمد صدر وداريوش فروهر، تأثير يذكر في الناس ولا في توجيه البرلمان.

أمّا المعارضة النشطة الارهابية فقد كانت تتولاها جماعتان: جماعة «مجاهدين خلق» (مجاهدي الشعب) واتجاههم اسلامي تقدمي، وجماعة «فدائيين خلق» (فدائيي الشعب) واتجاههم ماركسي. وكان نشاطهم يتمثل في الاعتداءات على كبار رجال الدولة وعلى البنوك والمؤسسات الحكومية. وكان نشاطهم بارزاً في اقليم مازندران، حيث توجد الغابات، على الساحل الجنوبي لبحر قزوين.

الأحوال الدينية في ايران

ولفهم أحوال ايران بعامة ينبغي ان نفصل القول في أحوالها الدينية في سنة ١٩٧٣ لما ان زرناها:

٩٩٪ من الايرانيين مسلمون. والواحد في المائة الباقي يتوزع بين:

١ ـ نصارى وعددهم	١٨٠,٠٠٠
٢ ـ يهود وعددهم	٥٠,٠٠٠
٣ ـ بهائية وعددهم	٥٠,٠٠٠
٤ ـ پارسي وعددهم	٤٠,٠٠٠
المجموع	٣٢٠,٠٠٠

١ ـ أمّا النصارى فالأرمن يكوّنون الغالبية العظمى (١٢٠,٠٠٠). وكان المذهب الغالب على نصارى ايران في أيام الساسانيين هو النسطورية، لأنَّ الامبراطورية البيزنطية قد اضطهدت المذهب النسطوري في القرنين الخامس والسادس، ففرَّ النصارى من دولة الروم إلى دولة الفرس المعادية لها. وفي مجمع سلوقية طيشفون ٤٨٦ اتخذت الكنيسة السريانية في فارس النسطورية مذهباً رسمياً لها. ولما طرد امبراطور بيزنطية، زينون Zénon، النساطرة من الرها (أذاما) في سنة ٤٨٩ هاجروا إلى فارس. وهكذا انفصلت الكنيسة النسطورية عن كنيسة القسطنطينية وعن الامبراطورية البيزنطية. وتقوّت النسطورية في الكنيسة الفارسية بدرجة كبيرة في مجمع سنة ٦١٢، لما أن اعتنقت مبادىء الجاثليق: بابا، الكبير، وخلاصتها: الايمان بوجود طبيعتين، واقنومين ومشيئة واحدة في يسوع المسيح؛ ورفض وصف السيدة مريم بأنها «أم الله» Theotokos. واستمرت هذه الكنيسة في الازدهار سواء في عهد الساسانيين وبعد الفتح الاسلامي. ويدل على ازدهارها المدارس اللاهوتية التي قامت في سلوقية طيشفون (= المدائن، جنوبي بغداد بأربعين كيلومتراً). ونصيبين. وصارت لها أديرة، وأوفدت مبشرين إلى ملبار (في

الهند) وتركستان والتيبت. لكن غزو تيمورلنك لإيران ادى إلى اضطهاد الكنيسة النسطورية في سنة ١٣٨٠، فقلَّ عدد أعضائها كثيراً. ولم يبق منها اليوم إلاَّ أتباع قلائل يتكلم بعضهم اللغة السريانية حول بحيرة «درمية» في شمال غربي ايران. وتمثل لغتهم السريانية الفرع الشرقي للغة السريانية. وبعد انضمام نساطرة قبرص الى كنيسة روما الكاثوليكية في سنة ١٤٤٥، أعلن البطريرك النسطوري يوحنا سلاقا انضمامه إلى كنيسة روما في سنة ١٥٥٣، واعترف به بطريركاً على الموصل (شمالي العراق).

٢ ـ وأمّا اليهود فتاريخهم في دولة فارس قديم يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد لما أن طُرِد اليهود من السامرة إلى «مدن ميديا وفارس» في عهد تجلت فليسر الثالث (توفي سنة ٧٢٧ ق. م.)، وتوالت هجراتهم من فلسطين إلى دولة الفرس في الغالب قسراً: وذلك في عهد سرجون الثاني ملك أشور (توفي سنة ٧٠٥ ق. م) وابنه سنحاريب (توفي سنة ٦٨١ ق. م)، ثم عند تخريب نبوخذنصر (المتوفى سنة ٥٨٦ ق. م) لمعبد أورشليم. لكن قورش حينما هزم الأشوريين أصدر تصريحاً يعرف بـ: «تصريح قورش» في سنة ٥٣٨ ق. م بموجبه يسمح لليهود المنفيين في بابل بالعودة إلى فلسطين. بيد ان اليهود الذين تمكنوا من تكوين ثروة لهم في بابل فضّلوا البقاء هناك، وكانوا بذلك نواة الجالية اليهودية المتزايدة النمو في العراق (وكان العراق آنذاك تحت حكم فارس). وصارت لبعضهم مكانة بارزة في الدولة، مثل: زروما يل، وعزرا، ونحميا، ودنيال، ومورد خاي، والسيدة أستير. وفي عهد دولة البارثيين (٢٤٩ ق. م ـ ٢٢٦م) تزايد عدد اليهود في العراق. وفي ميديا (شمالي ايران) وسائر المقاطعات في دولة الفرس.

وازداد عددهم أكثر فأكثر في عهد الدولة الساسانية (٢٢٦ م ـ ٦٤٢ م)، وازدهرت كتاباتهم الدينية، وأبرزها التلمود البابلي. وانتشروا في سائر بلاد الامبراطورية الفارسية إذ نجدهم في المدن التالية: حلوان (في ايران)، نهاوند، همدان (اكباتان)، وجند يسابور، والأهواز (في خرمشهر)، وسوسه، وتَسْتر.

وبعد الفتح الاسلامي لدولة الفرس، الذي انتهى بمعركة نهاوند في سنة ٦٤٢م) بدأت تظهر بين اليهود فرق مختلفة. وأولها حركة قام بها ضابط يهودي يدعى أبو عيسى، وكان يعيش في عهد عبدالله بن مروان (المتوفى سنة ٧٠٥): فقد أعلن أنَّه المسيح، واعترف بموسى وعيسى ومحمد بوصفهم أنبياء صادقين. واقترح اجراء تعديلات في التقويم اليهودي وفي الصلوات والطقوس اليهودية معارضاً بذلك اليهودية الرّبنية. وصار له أتباع عديدون في أصفهان وأماكن أخرى. وبعد

وفاته (أو مصرعه في معركة مع جند الخليفة) تولّى زعامة الحركة يودغان الهمذاني، ويسمّى أتباعه باسم «الأصفهانية». وقد استمروا حتى القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ينتظرون عودة مسيحهم: أبي عيسى.

وقام يهودي آخر من قم يدعى موشكا القمّي، وأعلن أن محمداً نبيّ حق. وفي خراسان، في القرن التاسع الميلادي، قام يهودي من بلخ، يدعى جيوي البلخي، ووضع مذهباً، نعرف تفاصيله من المائتي جواب التي ردَّ بها سعديا جاؤون (الفيومي) على مذهب جيوي البلخي.

لكن أكبر هذه المذاهب كان مذهب «القرّائين» الذي وصفه عِنان بن داوود (ولهذا يسمّون في كتب الملل والنحل الاسلامية باسم: العنانية)، وذلك في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري). وانضم إليه شخصيات يهودية كبيرة، يذكر منها: بنيامين بن موسى النهاوندي، ودنيال بن موسى القومسي. وانتشر هذا المذهب بين اليهود في اصفهان، وتستر، وخراسان، وفارس، والجبال.

«ومكّن وضع اليهود القانوني بوصفهم ذِمّيين» من التمتع بالحرية الكاملة في التحرك والاستقرار داخل العالم الاسلامي. فخلال القرون الستة الأولى من الحكم الاسلامي في فارس حظيت الجاليات اليهودية بتوسع لم يسبق له مثيل وبانتشار جغرافي في كل أقاليم فارس والبلاد الشرقية من الخلافة الاسلامية كلها والجغرافيون والمؤرخون المسلمون، والمصادر الرّبنية والجيونية (اليهودية) وما ذكره بنيامين التطيلي وغيره من الرحالة في القرن الثاني عشر الميلادي ـ كل هذا يمكننا من معرفة المناطق الرئيسية للجاليات اليهودية. لقد استقرت جاليات يهودية في كل الأقاليم الداخلية لفارس. ويلوح في ان هذه الجاليات قد استخدمت نقط انطلاق للمزيد من التوسع إلى أقصى المناطق الشرقية في خراسان وما وراء النهر، وحتى الصين. وقد ورد ذكر الجماعات اليهودية في نيشابور، وبلخ، وغزنة، وكابول، وسيستان، ومرو، وسمرقند، وخيوة، وبخاري ومناطق أخرى» (دائرة المعارف اليهودية جـ ١٣ عمود ٣١١).

ويرد ذكر «الحيّ اليهودي» في هذه المدن. «والحي اليهودي» يشمل مساكن اليهود، ومعابدهم، ومدارسهم، و«المكوة»، وسائر نُظُمهم. وفي عهد الصفويين كان في أصفهان وحدها ثلاثة معابد لليهود، ويُقال إنَّه كان في كاشان عشرة معابد لليهود! وعلى كل حال فمن المرجّح انه كان ثمّ معبد لليهود في كل بلد من البلاد التي كانت تقيم فيه جالية يهودية.

وكانت لهذه الجاليات اليهودية في فارس اتصالات مستمرة مع مراكز اليهود

في فلسطين، وكانت هذه المراكز توفد مبعوثين إلى ايران لجمع الهبات، ويذكر منهم رُبّي موسى الشكه (المتوفى حوالى سنة ١٥٩٣) وهو من صفد، وباروخ جاد من القدس، وأبرزهم كان رُبّي يهودا أمرام ديوان (توفي سنة ١٧٥٢) فقد طالما تردّد على الجاليات اليهودية، في فارس.

وننتقل إلى أحوال اليهود في ايران في العصر الحالي:

كان عدد اليهود في ايران في سنة ١٩٤٨ حوالى ٩٥,٠٠٠. فهاجر منهم إلى اسرائيل في الفترة ما بين ١٩٤٨ إلى ١٩٥٧) حوالى ٢٨,٠٠٠، عاد منهم ٣٠٠٠، فبقي في ايران في سنة ١٩٥٦ حوالى ٧٥,٠٠٠ يهودي. ثم تناقص عددهم بعد ذلك تدريجياً: فصاروا في سنة ١٩٦٨ حوالى ٦٠,٠٠٠. وكان هذا هو عددهم حينما وصلنا ايران في سنة ١٩٧٣. وكان معظمهم يسكنون في طهران، واصفهان، وشيراز.

أمّا عدد اليهود الايرانيين الذين هاجروا إلى اسرائيل فقد بلغ في المدة من ١٥/٥/١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٨: ٥٥,٢٧٦ (بحسب احصاء الوكالة اليهودية)؛ منهم ٢٣,٠٠٠ في عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ وحدهما؛ وكان في عام ١٩٥٨: ٥٦٨٥؛ وفي كل سنة من سنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٥ على التوالي: ٢١٩٩، ٢٨٤٢، ٢٧٩٨، ٢٧٨١؛ وفي سنة ١٩٦٨: ١٣٢٦.

وكانت الحركة الصهيونية نشطة في ايران منذ سنة ١٩٤٤، وتمثلت في ثلاث حركات: ها حلوص، وها حلوص ها داتي، وبناي عقيبه.

وتقول «دائرة المعارف اليهودية» (ج٨ عمود ١٤٤٢) انه في المدة من سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٨ لم يحدث أي اعتداء على اليهود في ايران، باستثناء هجوم واحد في مارس سنة ١٩٥٠ على اليهود في كردستان.

وكان لليهود كل الحق في ان ينتخبوا نائباً عنهم في المجلس النيابي (مجلس شوراي ملّي) لكنهم لا يحق لهم الإشتراك في انتخاب سائر نواب المجلس. وكان نواب اليهود في المجلس على التوالي: أريه مراد (من سنة ١٩٥٠ حتى سنة ١٩٥٣)، واسحق بارلي (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦ وفي سنة ١٩٦٠)، وجمشيد كاشفي (منذ ١٩٦٤).

وكان في كردستان الايرانية في سنة ١٩٤٨ حوالى ١٢٠,٠٠٠ يهودي منتشرين في العديد من بلدان كردستان، لكن أكبر جالية يهودية في كردستان كانت في بلدة سنندج (حوالى ٤٠٠٠ يهودي)، ويتلوها في ساقيز (١٣٠٠ يهودي). فلما هوجم

اليهود في مارس سنة ١٩٥٠ وقتل منهم ١٢، بدأوا في الهجرة الشاملة من كردستان: إمّا إلى طهران، وإمّا من كردستان إلى اسرائيل عن طريق طهران ـ فصار عدد اليهود في كردستان الإيرانية حوالى ١,٤١٧ يهودياً بحسب احصاء سنة ١٩٥٦.

أمّا عن علاقة حكومة ايران مع اسرائيل، فنذكر اولاً ان ايران صوّتت ضد مشروع تقسيم فلسطين الذي قرّرته الأمم المتحدة في نوفمبر سنة ١٩٤٧، تضامناً مع سائر الدول الإسلامية. لكن في مارس سنة ١٩٤٩ بعثت الحكومة الايرانية إلى اسرائيل بمبعوث غير رسمي يحمل لقب: «موظف يكلّف بمطالب المواطنين الايرانيين المقيمين في فلسطين فيما يتعلق بالممتلكات»، أي فيما يتعلق بأملاك المواطنين الايرانيين الذين كانوا يقيمون في فلسطين قبل قيام دولة اسرائيل ثم غادروا فلسطين بعد قيام دولة اسرائيل.

لكن في مارس سنة ١٩٥٠ اعترفت ايران باسرائيل من حيث الواقع De Facto وليس رسمياً، وأرسلت ممثلاً لها عند حكومة تل أبيب بدرجة وزير مفوض؛ لكنها لم توافق على ان تقيم اسرائيل سفارة لها في طهران.

فلما جاءت حكومة د. محمد مصدق استدعت في يوليو سنة ١٩٥١، ممثليها في تل أبيب. ومن ذلك التاريخ لم يعد لإيران ممثل في اسرائيل، ووكّلت إلى سويسرة تمثيل ايران في اسرائيل.

لكن في يوليو سنة ١٩٦٠ أعلن الشاه محمد رضا بهلوي اعترافه باسرائيل، فأدّى ذلك إلى ان تقطع مصر علاقاتها الدبلوماسية مع ايران، وظلت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وايران مقطوعة طوال عشر سنوات. لكن ايران لم تقم علاقات دبلوماسية مع اسرائيل.

وغداة حرب يونيو سنة ١٩٦٧ أعلنت ايران مطالبتها بانسحاب اسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها، وعارضت أي تغيير في وضع مدينة القدس.

والوضع كما شاهدته في سنة ١٩٧٣ هو انه كانت توجد علاقات تجارية واقتصادية بين ايران واسرائيل، وكانت توجد في طهران بعثة اقتصادية تشرف على العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين. وكانت شركة الطيران الاسرائيلية: «ال عال» تسيّر خطاً منتظماً (مرتين في الاسبوع) بين طهران وتل ابيب. وكان في بعض المشروعات، خصوصاً في الزراعة، خبراء اسرائيليون.

أمّا عن اليهود في ايران في سنة ١٩٧٣، فكان أغلبهم يشتغلون في: تجارة السجّاد العجمي، خصوصاً في شارع فردوسي بطهران، وفي مصانع الغزل والنسيج

في شيراز، وكل الصيارفة تقريباً في شارع فردوسي بطهران كانوا من اليهود. وكان عدد من الموظفين في البنوك الايرانية، من اليهود، كما كان منهم عدد كبير يعمل في توكيلات الشركات الأجنبية، خصوصاً في تجارة الصادر والوارد. وكان في وزارة الاقتصاد موظف يهودي كبير هو المشرف على تراخيص الاستيراد والتصدير، ومن هنا كان له نفوذ قوي، رغم انه مستتر.

المذهب الشيعي في ايران

كانت ايران منذ الفتح الإسلامي حتى سنة ١٥٠١م تعتنق غالبيتها الساحقة المذهب السُّنِّي. ومن هنا كان من الخطأ الفاحش الربط بين المذهب الشيعي والمذهب الفارسي. بل إن الدولة الصفوية التي فرضت المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في ايران كانت في الأصل فرقة صوفية سُنِّية المذهب، وإنَّما تحولت تدريجياً الى المذهب الشيعي تحت تأثير الخصومة العنيفة بينها وبين الدولة العثمانية التي كانت تحمل لواء المذهب السُّنِّي في الشرق الأوسط.

كانت الشيعة إذن في ايران ـ منذ الفتح الاسلامي حتى استيلاء الصفويين على الحكم في ايران سنة ١٥٠١ بزعامة شاه اسماعيل ـ أقلية ضئيلة ربما لا تتجاوز العشرة في المائة. ولم يكوّنوا جماعة متجانسة، بل كانوا فرقاً شتى قد تزيد على الثلاثين، كما يتبين من كتاب «فِرق الشيعة» للنوبختي وإن كان أكثرها عدداً هي فرقة الاثنا عشرية.

وقد جلب المذهب الشيعي إلى ايران في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) بعض العرب الوافدين من جنوبي العراق العربي، الذين استقروا في «الجبال» أي فيما سمِّي باسم «العراق العجمي» في شمال ايران جنوبي بحر قزوين. وكانت مدينة قم هي أكبر مركز روحي لهؤلاء الشيعة؛ وحولها كانت أكبر تجمعاتهم البشرية. لكن كان هناك بعض الجماعات القليلة من الشيعة في خراسان، ونيسابور، وهراة، وطوس. وكانوا في هذه المدن يسكنون في أحياء خاصة بهم. كذلك وجدت جماعات شيعية في بيهق، وسبزوار، وأماكن متفرقة من اقليمي خوزستان وفارس في جنوب غربي ايران.

ومن بين فرق الشيعة بعامة كانت فرقة الزيدية تتولى الامارة في مازندران (المحاذية للشاطىء الجنوبي من بحر قزوين)، واستمرت هذه الإمارة عدة قرون برغم ما أصابها من كوارث وتقلبات. والزيدية هي أقرب فرق الشيعة إلى المذهب السُّنِّي: فإنَّها تقر بخلافة أبي بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب، بعكس سائر

فرق الشيعة فإنَّها ترفضهما، ومن هنا يسمّون أيضاً باسم «الرافضة». ولا توجد الزيدية في العصر الحاضر إلاً في المناطق الجبلية في اليمن الشمالي، حيث توجد عاصمتهم الروحيَّة: صعْدة. وقد كان لزيدية مازندران الفضل في نشر الاسلام في جرجان وجيلان وبلاد الديلم. وفي بلاد الديلم كانت تقيم قبيلة قوية هي آل بويه (البويهيون). وقد استطاع البويهيون الاستيلاء على السلطة في ايران ثم في العراق، لكنهم وهم على المذهب الزيدي لم يمسسوا الخلافة السُّنِّية في بغداد لما استولوا عليها في سنة ٣٢٠ هـ/ ٩٤٥م وصاروا هم المتحكمين في الخلافة العباسية في شطرها الشرقي. لكنهم في الوقت نفسه شجعوا المذهب الشيعي، وخصوصاً في صورة مذهب الاثنا عشرية، أو الامامية، كما يسمون أيضاً. فأسَّسوا الاحتفالات الشيعية الرئيسية: عيد غدير خُم، وعاشوراء في ١٠ محرم ذكرى معركة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي وصفوة من آل البيت. إذ لا نجد ذكراً للاحتفال بهذين العيدين إلاً في عهد البويهيين.

وبدأت فرقة الاسماعيلية (وهم الذين يقولون بانتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل الذي توفي في حياة أبيه، بينما الاثنا عشرية ينقلونها إلى ابنه الآخر موسى الكاظم الذي عاش بعد وفاة أبيه جعفر الصادق) - بدأت تنشر دعوتها قبل نهاية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي). وتولى هذه الدعوة في أول الأمر القرامطة الذين جاءوا من الساحل الغربي للخليج الفارسي وارتحلوا إلى خوزستان. ومن خوزستان انتقل الداعي الإسماعيلي، المسمَّى بـ «خَلَف» إلى الجبال، وجعلوا لهم قاعدة في مدينة الريّ (طهران الآن)، ولهذا ظلَّ اسماعيليةُ ايران مدة من الزمان يلقبون بلقب «الخَلَفية». نسبة إلى خلف هذا. وقد توسعوا في دعوتهم في خراسان، وبلاد ما وراء النهر (بخارى وما حولها) وفي المناطق المحيطة ببحر الخزر (بحر قزوين). لكنهم لم يفلحوا في نشر مذهب الاسماعيلية، ولا بالتالي، في نشر المذهب الشيعي في تلك المناطق من شمال شرقي ايران. وربما كان أبرز نجاح لهم هو ان الداعي الإسماعيلي محمد بن أحمد النسفي قد استطاع ان يحول الأمير نصر الثاني بن أحمد بن سامان إلى المذهب الشيعي، مما كلَّف هذا الأمير ارغامه على التنازل عن المُلك في سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ - ٩٤٣م). كذلك أفلح الاسماعيليَّة في الاستيلاء على بعض القلاع المعزولة في ايران، مثل قوهستان وبَدَخشان.

لكن السلاجقة انتصروا على البويهيين، وصاروا هم حكام المناطق الشرقية من الخلافة الاسلامية من بغداد شرقاً حتى الهند. وكان السلاجقة على مذهب

السُّنَّة، فطاردوا المذهب الشيعي في العراق وفي ايران. وكان السلاطين السلاجقة على مذهب أبي حنيفة في الفقه، لكن وجد في زمانهم نخبة من أئمة الشافعية مثل امام الحرمين وأبي حامد الغزالي، وكان يؤيدهم الوزير نظام الملك، الذي كان على مذهب الشافعي. بيد ان الشيعة لم يُبْعدوا عن كل المناصب الكبيرة في الدولة في أيام السلاجقة، بل منهم مَن وصل إلى مرتبة: وزير. وجرت بين علماء السُّنَّة وعلماء الشيعة مناظرات عديدة، يرويها لنا كتاب «بعض مثالب النواصب في نقد فضائح الروافض» تأليف نصر الدين ابو الرشيد عبد الجليل القزويني الرازي، وفيه يدافع عن الشيعة ضد هجمات علماء السُّنَّة. (النواصب = السُّنة، الروافض = الشيعة).

ومنذ سقوط الدولة البويهية على يد السلاجقة في سنة ٤٤٧ هـ (سنة ١٠٥٥م) كان للمذهب السُّنِّي السيطرة الشاملة في كل ايران، ولم يكن عدد الشيعة يتجاوز العشرة في المائة. لكن بتولِّي شاه اسماعيل الصفوي في سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١م) الحكم في ايران، بدأت الآية تنقلب، وبدأ التحول الكبير في الأحوال المذهبية في ايران، فقد أعلن شاه اسماعيل ان المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي للدولة، وأمر المؤذّنين باستخدام صيغة الأذان المألوفة عند الشيعة (وهي اضافة عبارة: حيّ على خير العمل) في الأذان، وأمر الخطباء على المنابر في أيام الجمعة بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل - أبي بكر، وعمر، وعثمان - من فوق المنابر في خطبهم! وادعى شاه اسماعيل أنَّه من نسل الإمام الشيعي الثامن، وهو ادعاء كاذب لم يقم عليه أيّ دليل. وتولَّى فرض المذهب الشيعي بالقوة جنود القِزلباش، وهم من قبائل التركمان وبيدهم صارت القوة الفعلية في ايران في عهد الصفويين.

واستعان الصفويون في تقرير المذهب الشيعي الاثنا عشري في ايران بعلماء من الشيعة استقدموهم من جبل عامل (في جنوب لبنان) ومن البحرين (أيّ الشاطىء الشمالي الغربي للخليج الفارسي، ويشمل الآن منطقة الاحساء في السعودية وشاطىء الخليج الممتد من هناك حتى بداية دولة الإمارات؛ ولا علاقة لدولة «البحرين» الحالية بـ «البحرين» المذكورة في كتب التاريخ الاسلامي من القرن السابع الميلادي حتى القرن التاسع عشر الميلادي). وقد قام هؤلاء العلماء الشيعة الواردون من خارج ايران بتقوية السلطة الفعلية لرجال الدين في ايران، وهي ظاهرة ستتعاظم شيئاً فشيئاً طوال القرون التالية حتى يوم الناس هذا.

وقد اعتمد هؤلاء العلماء من رجال الدين في تطلعهم هذا إلى السلطة الزمنية

والولاية على الحكام الزمنيين ـ على نظرية تقول إنَّه منذ غيبة الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) الذي غاب الغيبة الكبرى وهو في سن السادسة في مدينة سامرّاء (بمنطقة الحِلّة في جنوب العراق)، فإنَّه مع ذلك يحكم العالم، ولا يملك أن يشاركه في حكم العالم أي حاكم زمني. لكنه طالما كان مستوراً فإنَّ الذين يتولى تفسير مشيئته هم رجال الدين.

وفي عهد الدولة الصفوية كانت أعلى المراتب الدينية هي مرتبة «الصَّدْر»: ومهمته هو تصريف الشؤون الدينية بوجه عام والاشراف على المؤسسات الدينية. وكان ينوب عنه في معظم المدن الكبرى: «شيخ الإسلام»، ومهمته الرئيسية هي الاشراف على المحاكم الشرعية في اقليمه أو مدينته.

لكن حوالى نهاية القرن السابع عشر الميلادي (الحادي عشر الهجري) تدهور منصب «الصدر» وحلَّ محله منصب: مُلاّ باشي (أي: رئيس رجال الدين) وكان رجال الدين يتعيشون من ريع الأوقاف؛ لكن منهم مَن جمع ثروة طائلة فصار ذا مكانة قوية عند عامة الناس.

وكان رجال الدين الشيعة ينقسمون إلى مرتبتين: المرتبة العليا هي مرتبة «العلماء»، والمرتبة الدنيا هي مرتبة «المُلاَّ». وكانت مهمة أبناء هذه المرتبة الدنيا هي التعليم والاشراف على العبادات.

امَّا «العلماء» فقد انقسموا إلى فريقين متعارضين: «الاخباريون»، وهم التقليديون المتمسكون بالمنقول دون المعقول، أي بأحاديث النبي (ﷺ) وأئمة الشيعة؛ ثم «الأصوليون» وهم الذين يدّعون لمن تتوافر فيهم صفات معينة، الحق في الاجتهاد في أمور الفقه والعقيدة، وعلى سائر الناس ان «يقلّدوا» هؤلاء «المجتهدين». ومن ثم نشأ نظام ما يسمَّى بـ «مَرجع التقليد»، أي المجتهد المقرّ له بالاجتهاد والذي يجب على سائر الناس تقليد ما ينتهي إليه في اجتهاده.

مراجع التقليد

ولأهمية هذا المنصب، مرجع التقليد، نفصل القول في شأنه.

من الثابت الآن ان هذا المنصب، مرجع التقليد، انما يرجع إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري)، كما يبيّن ذلك طالقاني؛ وجزائري، ويرى د. مرتضى مطهّري انه بدأ مع المجدد شيرازي (ميرزا حَسَن، المتوفى سنة ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤م، وهو مدفون في (النجف). ويرى البعض الآخر

انه يبدأ بوحيد بهبهاني (المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣م ودفن في كربلاء)، ويرى بعض رابع انه يبدأ مع الشيخ مرتضى أنصاري (ملاً مرتضى بن محمد أمير، المتوفى سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤م، ودفن في النجف).

لكن كما هو المألوف في مثل هذه الأحوال، راح البعض ـ وما أكثرهم في مثل هذه المواقف ـ يصاعّد بتاريخ هذا المنصب إلى الإمام الثاني عشر، فزعموا ان هذا الإمام الغائب قد عيّن قبل غيبته، أربعة «نائبها خاص» (نواب خصوصيين) أو «الثوابت الأربعة» الذين يتولون تفسير مشيئة الإمام الغائب بعد غيبته! وقد غاب الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) في سنة ٣٢٩ هـ/ (٩٣٩م). وهؤلاء النوّاب الخصوصيون هم: عثمان بن سعيد، وابنه محمد، وابن القاسم الحسين بن رَوْح النوبختي، وعلي بن محمد الشمرِّي (المتوفى سنة ٣٢٩ هـ/ ٩٣٩م).

أمّا بعد هؤلاء النواب الخصوصيين فقد وجد نواب عموميون (نائب عام)، وهم الذين يلقبون بلقب «مراجع التقليد». ويسردون أسماءهم كما يلي على الترقيب التاريخي:

١ ـ الكُلَيْني (أبو جعفر محمد) بن يعقوب بن اسحق الرازي، (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ/ ٩٣٩م) مؤلف كتاب «الكافي» وهو أكبر مجموع أحاديث عند الشيعة.

٢ ـ الشيخ الصَّروت محمد بن علي بن بابويه (المتوفى سنة ٣٨١ هـ/ ٩٩١م، ودفن في الري).

٣ ـ الشيخ المفيد (أبو عبدالله) محمد بن نعمان (توفي سنة ٤١٣ هـ/ ١٠٢٢م، ودفن في الكاظمين).

٤ ـ السيد المرتضى بن أبي القاسم بن علي بن الحسين بن موسى، (توفي سنة ٤٣٦ هـ/ ١٠٤٤ م، ودفن في الكاظمين المواجهة لبغداد؛ وهو مؤلف «أمالي المرتضى»؛ وهو أخو الشاعر الشريف الرضي الذي جمع «نهج البلاغة» ونسب ما ورد فيه إلى الإمام علي بن أبي طالب.

٥ ـ ابو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكرشفي (المتوفى سنة ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧م)، وهو مؤلف «كنز الفوائد».

٦ ـ شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧م)، ومؤسّس «حَوْض علمي» نجف: (المعهد العلمي في النجف بالعراق). ودُفن في النجف.

٧ ـ ابنه الشيخ محمد ابن شيخ الطائفة الطوسي (توفي سنة ٤٩٤ هـ/ ١١٠٠م).

٨ ـ الشيخ ابو جعفر محمد بن أبي القاسم علي بن محمد العاملي الطبري (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٢٠ م)، وهو مؤلف «بشدة المصطفى».

٩ ـ الشيخ الطَبَرْسي (أبو علي الفضل) بن حسن بن الفضل توفي سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م) ودُفن في مشهد.

١٠ ـ ابن زروة الحلبي (أبو المكارم حمزة) بن علي (المتوفى سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩م) ودفن في حلب.

١١ ـ ابن شهرشوب (الشيخ رشيد الدين أبو جعفر محمد بن علي) توفي سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ ـ، ودُفن في حلب. وهو مؤلف «معالم العلماء».

١٢ ـ ابن ادريس الحِلّي (الشيخ محمد بن أحمد)، المتوفى سنة ٥٩٨ هـ/ ١٢٠١ م.

١٣ ـ ابو الفضل شاذان بن جبرائيل القمّي، المتوفى سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م.

١٤ ـ نجيب الدين أبو ابراهيم محمد بن جعفر بن أبي الباقر هبة الله بن نعمة الحلّي المتوفى سنة ٦٤٥ هـ/ ١٢٤٧ ودُفن في النجف.

١٥ ـ نجم الدين جعفر، المسمّى «ابن نعمه»، ابن محمد بن جعفر.

١٦ ـ ابن طاووس الحَسَني الحُسَيني (رَضِي الدين أبو القاسم علي بن موسى ابن جعفر) المتوفى سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٥م، وقد جمع أقوال الإمام الرابع علي زين العابدين في كتاب عنوانه: «الصحيفة السجّادية» (السجّاد: لقب الامام علي زين العابدين).

١٧ ـ خواجه نصير الدين الطوسي، العالم الرياضي والفلكي والفيلسوف الشهير، الذي استوزر لهولاكو خان، قائد التتار.

١٨ ـ المُحَقّق الحِلّي (الشيخ جعفر بن الحسن بن يحيى بن سعيد)، توفي سنة ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧م ودُفن في الحِلّة.

١٩ ـ العلاّمة الحِلّي (الشيخ جمال الدين أبو منصور حسن بن يوسف بن مُطَهْر) المتوفى سنة ٧٢٦ هـ/ ١٢٣٥ ، والمدفون في النجف.

٢٠ ـ نصير الدين كاشاني (علي بن محمد البغدادي الحِلّي)، المتوفى سنة ٧٥٥ هـ/ ١٣٥٤م) والمدفون في النجف.

٢١ ـ ابو طالب محمد بن الحسن بن يوسف بن مُطَهَّر.

٢٢ ـ ابن معاوية (تاج الدين ابو عبدالله محمد بن قاسم بن الحسين)، المتوفى سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٤م، ودُفن في النجف.

٢٣ ـ الشاهد الأول (أبو عبدالله محمد بن جمال الدين العاملي)، المتوفى سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٧٤م، مؤلِّف كتاب «اللمعة».

٢٤ ـ أبو الحسن زين الدين علي بن كاظم الحائري (توفي سنة ٨٢٠ هـ/ ١٤١٧م).

٢٥ ـ الشيخ أبو عبدالله المقداد بن عبدالله بن محمد بن الحسين، المتوفى سنة ٨٢٦ هـ/ ١٤٢٢م، والمدفون في بغداد، مؤلف كتاب «كنز العرفان».

٢٦ ـ ابو العياش أحمد بن محمد بن فهد (توفي سنة ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م)، ودفن في كربلاء.

٢٧ ـ الشيخ شمس الدين محمد، ابن مكي العاملي الشامي (توفي سنة ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٥م).

٢٨ ـ الشيخ نور الدين علي بن عبد العلي العاملي، المتوفى سنة ٩٣٧ هـ/ ١٥٢٩م).

٢٩ ـ الشهيد الثاني (الشيخ زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد)، مؤلف كتاب «شرح اللمعة»، قُتِل في سنة ٩٦٦ هـ/ ١٥٥٨م).

٣٠ ـ أحمد بن محمد أردبيلي، المتوفى سنة ٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦م، ودُفن في النجف.

٣١ ـ محمد علي بن محمد البلقي، المتوفى سنة ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩١م، ودُفن في كربلاء.

٣٢ ـ جمال الدين أبو منصور الحسن بن الشهيد الثاني (توفي سنة ١٠١١ هـ/ ١٦٠٢م)، ودُفن في جُبّع.

٣٣ ـ الشيخ بهائي (محمد بن الحسين بن عبد الصمد الجُبَّعي العاملي، المتوفى سنة ١٠٣١ هـ/ ١٦٢١م)، ودُفن في مشهد.

٣٤ ـ المجلسي الأول (محمد تقي بن مقصود علي)، المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/ ١٦٥٩م.

٣٥ ـ مُلاً محمد صالح المازندراني، المتوفى سنة ١٠٨٠ هـ/ ١٦٦٩م.

٣٦ ـ مُلاً حسين بن جمال الدين محمد بن الحسين الخَونساري، المتوفى سنة ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٦م، والمدفون في أصفهان.

٣٧ ـ المجلسي الثاني (محمد بن باقر بن محمد تقي بن مقصود علي، المتوفى سنة ١١١١ هـ/ ١٦٩٩م، ودُفن في أصفهان.

٣٨ ـ محمد بن حسن (محمد أصفهاني فاضل هندي)، المتوفى سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٤م، ودُفن في أصفهان، وهو مؤلِّف كتاب «كشف اللسان».

٣٩ ـ الشيخ أحمد الجزائري النجفي، المتوفى سنة ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧م، ودُفن في النجف.

٤٠ ـ أقا جمال الدين بن محمد حسين بن محمد رضا مازندراني الخجوي، المتوفى سنة ١١٥٥ هـ/ ١٧٤٢م، ودُفن في خونسار.

٤١ ـ مُلاً اسماعيل بن محمد حسين بن محمد رضا مازندراني الخجوي، المتوفى سنة ١١٧٣ هـ/ ١٧٥٩م، ودُفن في أصفهان.

٤٢ ـ وحيد بهبهاني (محمد باقر)، المتوفى سنة ١٢٠٨ هـ/ ١٧٩٣م، ودُفن في كربلاء.

٤٣ ـ بحر العلوم (سيد محمد مهدي)، المتوفى سنة ١٢١٢ هـ/ ١٧٩٧م، ودُفن في النجف.

٤٤ ـ الشيخ جعفر بن الشيخ خضر الجنجي النجفي كاشف الغطاء، المتوفى سنة ١٢٢٣ هـ/ ١٨١٣م، ودُفن في النجف.

٤٥ ـ ميرزا قُميّ (مُلاً أبو القاسم بن محمد حسن الجيلاني القمي)، المتوفى سنة ١٢٣١ هـ/ ١٨١٥م، ودُفن في قم وهو مؤلف كتاب «القوانين».

٤٦ ـ مُلاً أحمد بن مُلاً مهدي نرقي، توفي سنة ١٢٤٤ هـ/ ١٨٢٨م.

٤٧ ـ الشيخ محمد حسن النجفي، توفي سنة ١٢٦٦ هـ/ ١٨٤٩م، ودُفن في النجف، وهو مؤلف كتاب «جواهر الكلام».

٤٨ ـ الشيخ مرتضى أنصاري (مُلاً مرتضى بن محمد أمير)، المتوفى سنة ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤ م، والمدفون في النجف، وهو مؤلف كتاب «رسائل» وكتاب «مكاسب».

٤٩ ـ السيد محمد مهدي القزويني، المتوفى سنة ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٢م، ودفن في النجف.

٥٠ ـ مُلاً محمد بن محمد باقر الإرواني، المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ/ ١٨٨٨م، ودُفن في النجف.

٥١ ـ المجدود الشيرازي (ميرزا حسن)، المتوفى سنة ١٣١٢ هـ/ ١٨٩١م، ودُفن في النجف، وقد اشتهر في الثورة التي قامت احتجاجاً على اتفاق التبغ.

٥٢ ـ الشيخ محمد حسن بن مُلاً عبدالله المامقاني، المتوفى سنة ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥، ودُفن في النجف.

٥٣ ـ الشيخ ميرزا حسين بن ميرزا خليل الطهراني، المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨م، ودُفن في النجف.

٥٤ ـ أخوند خراساني (الشيخ محمد كاظم)، المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ/ ١٩١١م، ودُفن في النجف، وهو مؤلف كتاب «كفاية الأصول».

٥٥ ـ سيد محمد كاظم يزدي، المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨م، ودُفن في النجف، وهو مؤلف كتاب «العروة الوثقى».

٥٦ ـ ميرزا محمد تقي شيرازي، المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠م، ودُفن في كربلاء.

٥٧ ـ الشيخ فتح الله، الملقب بـ «شيخ الشريعة»، الاصفهاني، المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ/ ١٩٢٠م، ودُفن في النجف.

٥٨ ـ الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد حسن المامقاني، المتوفى سنة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢م، ودُفن في النجف.

٥٩ ـ الشيخ ميرزا حسين النائيني، المتوفى سنة ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦، ودُفن في النجف.

٦٠ ـ الشيخ أقا ضياء الدين العراقي، المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٥م، ودُفن في النجف.

٦١ ـ السيد أبو الحسن الأصفهاني، المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٥م، ودُفن في النجف.

٦٢ ـ حاج حسين القمي، المتوفى سنة ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٥م.

٦٣ ـ آية الله حسين البروجردي، المتوفى سنة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م.

٦٤ ـ السيد مُحْسِن حكيم، المتوفى سنة ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م.

ويلاحظ على هذا الثبت المأخوذ عن كتاب: «الإمام الحاكم» تأليف أحمد

الحسيني اشكواري، النجف سنة ١٩٦٤ :

أ ـ انه يضم أكبر علماء الشيعة الاثنا عشرية من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حتى العصر الحاضر؛

ب ـ أنه لا يستند إلى أي سند تاريخي، بل هو مختار بمحض الرأي الخاص لبعض المؤلفين.

جـ ـ انه لم يكن لأي واحد، ممن ورد ذكرهم حتى نهاية القرن التاسع عشر، منصب رسمي يوصف بوصف: «مرجع تقليد».

❀ ❀ ❀

ولما كنا في ايران من ١٥ سبتمبر سنة ١٩٧٣ حتى يونيو سنة ١٩٧٤ كان المعدودون بمثابة «مراجع تقليد» سبعة، هم:

ـ الخوئي والخميني، في النجف؛

ـ وگلپيگاني، وشريعة مداري، ومرعشي نجفي، في قم؛

ـ والخونساري، في طهران.

ـ وميلاني، في مشهد.

لكن أكثرهم شهرة آنذاك كان آية الله سيد محمد كاظم شريعة مداري: فقد كان يؤمّ حوزته العلمية في قم العديد من الزائرين من شتى أصقاع البلاد الاسلامية. وكان يقتني مكتبة ثمينة وكبيرة من المخطوطات. وكان يصدر صحيفة اسمها «الهادي». ومدرسة تسمّى: دار التبليغ.

وكان يتلوه في الشهرة والمكانة الدينية: مرعشي نجفي. وآل المرعشي يدعون الانتساب إلى الامام الحسين بن علي. وقد كانوا يعيشون ويحكمون أولاً في شمالي العراق، ثم انتقلوا إلى مدينة الريّ، واقليم مازندران، حيث كان منهم «النقباء» (أي رؤساء «الاشراف» وهم الذين يدعون انهم من نسل النبي محمد ﷺ) وعن طريق المصاهرة وخوض الحروب والقيام بالدعوة الدينية صاروا أمراء في إقليم طبرستان، من سنة ٧٦٠م الى ١٠٠٧م، وبلغ عدد الأمراء منهم خمسة عشر أميراً، أولهم يدعى قوام الدين، ويلقّب بلقب «مير بزرج» (= الأمير الكبير)، وقد بدأ حياته «درويشاً»، أي صوفياً، واستطاع ان يجرّ إليه الأتباع العديدين من عامة الشعب. وصار آل المرعشي «متولّين» على ضريح الإمام الرضا في مشهد. وفي عهد الصفويين عمل بعض آل مرعشي وزراء للملوك الصفويين وتزوجوا منهم:

بنات شاه عباس الثاني، وشاه طهماسپ الثاني، وشاه سليمان، وشاه سلطان حسين. واستمروا في وظيفة «متولّين» على ضريح الإمام الرضا في مشهد.

لكن لم يكن لمرعشي نجفي أي نشاط سياسي؛ إنما ارتبطت المعارضة الدينية ـ السياسية، ضد حكم الشاه محمد رضا بهلوي بآية الله العظمى شريعة مداري. ومن هنا كانت مدينة قم هي مركز المعارضة الدينية ـ السياسية (أو السياسية ـ الدينية). ولهذا السبب تحاشيت الذهاب إلى قم، رغم الدعوات العديدة التي جاءتني من الحوزة العلمية في قم لإلقاء محاضرات عامة هناك. فقد خشيت من اساءة تأويل ذلك سياسياً، وأنا كنت قد آليت على نفسي منذ مجيئي إلى ايران الابتعاد التام عن كل نشاط سياسي في ايران. ورغم اني كنت مشتاقاً كل الاشتياق إلى زيارة مدينة قم لسببين، هما: زيارة ضريح السيدة معصومة، أخت الامام الرضا وهو من أكبر مزارات الشيعة في العالم، ثم الاطلاع على ما يهمني من المخطوطات في مكتبة آية الله العظمى شريعة مداري ـ فإنّني ضحّيت بهذين الغرضين من أجل ألاّ أكون موضوع مراقبة من الشرطة السياسية (ساواك) في ايران.

أمّا لقب «آية الله» فيلقب به رجال الدين بعامة في ايران. وأمّا مراجع التقليد فيلقّبون بلقب «آية الله العظمى».

وقد تعجبت من هذه التسمية، فسألت بعض رجال الدين ممن صارت تربطني بهم صداقة عن السبب في اتخاذهم هذا اللقب، فقالوا: إنّ كل مخلوق آية من آيات الله.

فسألتهم: ولماذا تختصّون أنفسكم بهذا اللقب دون سائر الناس إذن؟

فلم يحيروا جواباً واعتصموا بالابتسام الماكر.

وسألتهم: ومن الذي يحدّد من هو منكم «آية الله العظمى»؟ هل يتم منح هذا اللقب عن طريقة جهة دينية عليا محددة الاختصاص؟

فأجابوا: كلا، وإنّما الذي يحدث هو ان يشيع بين رجال الدين ان فلاناً من رجال الدين متبحر في العلم او في النشاط الاجتماعي الديني، أو رفيع المنزلة بين عامة الناس، فيعتبر من «آيات الله العظمى»، أي من مراجع التقليد.

فسألتهم: وهل يصادق على هذا اللقب مرجع أعلى رسمي؟

فقالوا: كلا! إنّنا لا نعترف للحاكم بأية ولاية علينا. ونحن لا نتقاضى أي

أجر من جهة حكومية. فكيف نقبل إذن أن تتولى جهة حكومية رسمية المصادقة على هذه الألقاب؟!

قلت: لكنكم فيما بينكم تتنافسون أشد التنافس، تتطلعون إلى الوجاهة بين الناس، فكيف يتصف البعض بأنهم «مراجع تقليد» دون البعض الآخر؟

فأجابنا: الأمر كله مرسل بلا قواعد ولا قيود.

وهذا في الواقع هو الحال فيما يتصل بلقب «مرجع تقليد»، وفي اتخاذ لقب «آية الله العظمى»: الأبرع في الدعوة إلى نفسه واجتذاب الأنصار، وتحصيل أكبر قدر من الزكاة هو الذي يفرض نفسه. وما دام اتخاذ هذا اللقب لا يلزم احداً من الناس، فمَن شاء فليعترف به، ومَن شاء فلينكره ولا لوم عليه.

والملاحظ انه لا يجمع «مراجع التقليد» هؤلاء أية رابطة، ولا يمكن ان يجتمعوا لإصدار قرار موحّد أو فتوى واحدة في أي أمر يشكل على الناس. انهم ليسوا هيئة، ولا «نقابة»، ولا «لجنة دينية عليا»، ولا مجلساً دينياً أعلى، وبالجملة هم لا يرتبطون بأية رابطة.

والناس يقدّمون «الخُمْس»، وهو النصيب المفروض للنبي ومن بعده عند الشيعة الأئمة - إلى مَن يشاؤون من آيات الله في الأقاليم، او إلى «آية الله العظمى» الذي يختارونه.

وهذا الخمس من المفروض ان ينفقه آية الله، أو آية الله العظمى في الأغراض التالية:

١ - انشاء المدارس وتعليم الدين لعامة الناس؛

٢ - الانفاق على المعاهد الدينية، اي الحوضات العلمية، التي يتخرّج فيها رجال الدين ويسمون بعد تخرجهم: أخوندة (والجمع: أخوندات).

٣ - بناء المستشفيات والانفاق عليها.

٤ - انشاء دفتر «خيرات إسلام»، يتولّى توزيع الخيرات على الفقراء، وبناء مساكن لهم.

٥ - تشجيع قيام المصارف (البنوك) الاسلامية، وهي مصارف لا تتعامل بالفوائد الربوية ولا في الايداع، ولا في الاقراض للغير. فتعطى مبالغ صغيرة نسبياً لمساعدة مَن يريدون الزواج، او يريدون اقامة متاجر صغيرة.

٦ - صرف مرتبات لرجال الدين في مناطقهم، لأنّ رجال الدين من حيث

المبدأ يرفضون ان يتقاضوا مرتبات من الحكومة، لأنَّ كل حكومة ـ بحسب نظرهم ـ ظالمة إلى أن يأتي المهدي فيملأ الأرض عدلاً بعد ان مُلئت جوراً.

المدارس الدينية

ونشاط هؤلاء «المراجع» ينطلق أساساً مما يسمَّى «حوضة علمي»، أي مركز دراسات دينية.

والمدرسة الدينية في ايران مؤسسة حرّة مستقلة عن الدولة في كل شيء: في ادارتها ونظامها الدراسي، وموازنتها، ومواردها. وأهمها تلك الموجودة في مدينة قم.

وبعض هذه المدارس قديمة ترجع إلى عهد الصفويين، والبعض الآخر إنَّما أُنشئت في عهد رضا شاه وابنه محمد. وهاك ثبتاً بكلا النوعين في مدينة قم:

أ ـ المدارس القديمة في قم:

اسمها	تاريخ انشائها
الفيضية	في عهد شاه طهماسپ الأول، سنة ٩٣٤ هـ/ ١٥٢٧م
دار الشفا	في عهد شاه عباس الثاني، سنة ١٠٥٥ هـ/ ١٦٤٥م
مهدي جولي خان	سنة ١١٢٣ هـ/ ١٧١١م
المؤمنية	سنة ١١١٣ هـ/ ١٧٠١م

ب: المدارس الحديثة في قم:

الحجتية	سنة ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٦م
الواحدية	١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م
دار التبليغ	سنة ١٩٦٥م ـ وهي تتبع شريعة مداري
حقاني (المنتظرية)	١٩٦٤م ـ وتتبع آية الله قدوسي
امام أمير المؤمنين	١٩٧٤م

والتعليم في المدارس الدينية على الطريقة التقليدية يتم على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: مقدمات

وفيه يدرس الطالب:

علم الصرف: في الكتب الآتية: «الأمثال»، «صرف مير»، «التصريف»، «شرح تصريف».

علم النحو: في الكتب الآتية: «العوامل» لمُلاّ مُحْسنٍ؛ «الهداية»، «الصمدية» ألفية ابن مالك بشرح السيوطي المسمَّى «البهجة المرضية».

البيان والمعاني والبديع: في كتاب «نهج البلاغة»؛ و«مختصر المعاني»، أو «المطول» وكلاهما لسعد التفتازاني.

المستوى الثاني: الذاتيات

وفيه يدرس الطالب:

المنطق: في حاشية مُلاًّ عبدالله علي التفتازاني؛ و«شرح المنظومة» لملاّ هادي سبزداري، الجزء الأول (أمّا الجزء الثاني ففي التصوّف).

أصول الفقه: في كتاب «المعالم» للشيخ حسن بن زين الدين الملقب بـ «خطيب المسلمين» (المتوفى سنة ١٠١١ هـ)؛ وفي «قوانين الأصول» لميرزا أبو القاسم قُمّي (المتوفى سنة ١٢٣٣ هـ)؛ من «رسائل» الشيخ مرتضى الأنصاري (المتوفى سنة ١٢٨١ هـ).

الفقه: في «شرح اللمعة» للشيخ زين الدين بن علي الجُبّائي العاملي، الملقب بـ «الشهيد الثاني» (قُتل سنة ٩٦٦ هـ)؛ و«شرائع الاسلام» للمحقق الحِلّي.

المستوى الثالث: درس خارج

ولا يستند إلى كتاب

وفيه يدرس الطالب: الأخلاق، والتفسير، والحكمة (= الفلسفة). وفي الحكمة يدرس الطالب: «الأسفار الأربعة» لِمُلاّ صدر ا. شيرازي، و«أصول فلسفة» للعلامة محمد حسين طباطبائي، و«مسائل جديد فلسفة» للعلامة محمد حسين طباطبائي أيضاً.

أمّا في المدارس الدينية التي تطلق على نفسها صفة: الحديثة، مثل مدرسة حقاني في قم، فإنّ الدراسة تشمل المواد التالية:

١ ـ الفقه وأصوله.
٢ ـ الأخلاق.
٣ ـ الأدب الفارسي.
٤ ـ الأدب العربي.
٥ ـ اللغة الانجليزية.
٦ ـ الرياضيات.
٧ ـ المنطق والفلسفة.
٨ ـ القرآن وتفسيره.
٩ ـ الفيزياء والكيمياء.
١٠ ـ الحديث (الرواية والرجال).
١١ ـ العلوم الانشائية: الأخلاق، علم النفس، علم الاجتماع، الاقتصاد الاسلامي، الجغرافيا، التاريخ.
١٢ ـ العقائد الدينية، تاريخ الأديان وعقائد الأمم.

الوعاظ والروضة الحسينية

قال لي أحد رجال الدين في طهران: أنتم أيُّها المصريون تمتازون بتجويد القرآن وعندكم أعظم القراء في العالم الإسلامي، أمَّا نحن في ايران فنمتاز بالوعظ الديني، ولدينا نخبة ممتازة من الوعاظ.

وهذا صحيح. وقد كان أفضل الوعاظ حين كنت في ايران هو أقاي راشد. لهذا كنت أحرص على سماع وعظه من الاذاعة في مساء كل خميس ما بين الثامنة والتاسعة بتوقيت طهران. صحيح انه لم يكن عميقاً أو مجدداً في مواعظه، لكنه كان بليغاً متدفق البيان، ذا ذاكرة قوية تسهّل عليه الاستشهاد بأحاديث الأئمة. وكانت مواعظه تقليدية الموضوع والأسلوب: فلا يتخذ أمثلة من واقع الحياة العصرية أو اليومية كما يفعل بعض أدعياء التجديد من الوعاظ في مصر. كما لم يكن يتطرق إلى أية موضوعات سياسية او مشاكل قائمة، بل يظل في نطاق الأخلاق الدينية بوجه عام.

وإلى جانب أقاي راشد، كان هناك وعاظ آخرون في مستوى جيد، أذكر

منهم الشيخ محمد تقي فلسفي، وفخر الدين حجازي، والشيخ أحمد كافي؛ وجواد مناقبي.

وهناك طائفة من رجال الدين اشتهروا خصوصاً بإحياء الروضات الحسينية. . والروضة الحسينية يقصد بها احياء ذكرى استشهاد الإمام ابي عبدالله الحسين بن علي، سيّد الشهداء، طوال الأيام العشرة الأولى من شهر المحرم، أي حتى يوم عاشوراء (العاشر من محرم)، وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين (١٠ محرم سنة ٦١ هـ/ ١٠ أكتوبر سنة ٦٨١م). فيتولى واعظ طوال تلك الأيام العشرة سرد تاريخ حياة الحسين، وخصوصاً العشرة الأيام الأخيرة منها وهي التي انتهت باستشهاده في ظهر يوم الجمعة ١٠ محرم سنة ٦١ هـ بكربلاء. ويفتن هؤلاء الوعاظ في استدرار الدموع من مآقي الحاضرين، خصوصاً النساء.

وكان صديقنا وزميلنا في كلية الإلهيات والعلوم الإسلامية بجامعة طهران، د. مرتضى مطهّري، من أبرز الوعاظ في الروضات الحسينية. وكانت تدرّ عليه أموالاً طائلة، لأنَّ هذه الحسينيات إنما ينفق عليها كبار الأغنياء، خصوصاً التجار. وكانوا يغدقون الأموال على كبار الوعاظ، تماماً مثلما هي الحال في مصر بالنسبة إلى أكابر القراء في المآتم. وكان مرتضى مطهّري بارعاً في التمثيل والإلقاء! كأنَّه ممثل تراجيدي قدير في الترويع والتهويل واجتلاب المدامع. وقد كان من أقرب المقرّبين إلى الخوميني، ولحق به لما ان ترك النجف في العراق إلى فرنسا، وعاد معه في أول فبراير سنة ١٩٧٩. فعيّنه الخميني عضواً بارزاً في مجلس قيادة الانقلاب الاسلامي، ورئيساً لمحكمة الثورة التي أصدرت الكثير من أحكام الإعدام. ولهذا السبب قتلته جماعة فرقان في مايو سنة ١٩٧٩ ولما يتمتع بنفوذه السياسي الهائل الجديد غير ثلاثة أشهر!

وتتخلل الموعظة في هذه الروضة (أي ذكرى الحسين) البكاء والشهيق والزفرات الحارّة، وتتبادل مع الصلوات والتسليمات التي ينطق بها الحاضرون كلما ورد اسم النبي او أحد أهل البيت والأئمة.

ومن الوعاظ الدينيين كان نفر من الملتزمين اديولوجياً. وكان أبرز هؤلاء آنذاك - أي في سنة ١٩٧٣ - ١٩٧٤: الشيخ محمد تقي فلسفي. وقد سبق له في منتصف الخمسينات ان كان من أنشط دعاة الحركة التي قام بها آية الله بروجردي في طهران ضد البهائية - وهو الذي كان يتولّى إلقاء الأحاديث العنيفة ضد البهائية في الاذاعة - وقد اضطرت حكومة الشاه إلى السماح له بذلك البث من الاذاعة الرسمية استرضاء للتيار الشعبي الجارف ضد البهائية. وهو الذي خطب في اجتماع

دعا إليه آية الله خونساري في سنة ١٩٧٠ في طهران للاحتجاج ضد طرد العراق الوطنيين الايرانيين، وهجوم الشرطة العراقية على الايرانيين في النجف. فانتهز الفرصة وهاجم حكومة الشاه محمد رضا لتقاعسها عن الرد على ما فعلته العراق، وقيل انه قال في هذه الخطبة إنَّه اذا كان الحجاج يرجمون الشيطان الوهمي بالحجرات، فإنَّ الطلاب الايرانيين الذين رجموا الشاه، أثناء زيارته لألمانيا، بالبيض الفاسد والطماطم فإنَّما كانوا يرجمون شيطاناً حقيقياً!

ويتلوه في هذا الاتجاه آية الله سيد محمود طالقاني، وكان سجيناً حينما كنت في طهران؛ وكان يقال عنه انه يساري الاتجاه. ولما نجحت الثورة في أول فبراير سنة ١٩٧٩ كان من أبرز رجالها، ونظراً إلى ماضيه في النضال العملي الذي أدَّى به إلى السجن مراراً، نال أكبر الأصوات في جمعية الخبراء التي تولت توجيه الثورة الاسلامية، لكن آية الله حسين منتظري وآية الله بهشتي استطاعا المناورة لمنعه من ان يكون رئيساً لهذه الجماعة. وطالب بتوفير الحرية وعدم اتخاذ الدين ستاراً للدكتاتورية، ودافع عن حق الناس في نقد تصرفات رجال الثورة، وذلك في خطبة ألقاها في مقبرة بهشت زهراء في طهران. وبعد هذه الخطبة بأيام قليلة وُجد ميتاً، في ٩ سبتمبر سنة ١٩٧٩!! ومن ثم انطلقت الشائعات بأنَّه لم يمت موتاً طبيعياً! وأشارت أصابع الاتهام الى بهشتي ورجاله، وكان بهشتي هو زعيم «حزب جمهور اسلامي» (حزب الثورة الاسلامية، الذي يرعاه الخوميني).

وكان طالقاني (وُلِد سنة ١٩١٠ وتوفي في ١٩٧٩/٩/٩) قد أسَّس مع المهندس مهدي بازركان (وكان استاذاً للديناميكا الحرارية في كلية الهندسة بجامعة طهران) في مايو سنة ١٩٦١ حركة باسم: «نهضة آزادي ايران» (= نهضة حرية ايران). وظلَّ يجاهد في سبيل حركته، مما كلَّفه السجن عدة مرات. ولهذا يطلق عليه عادة صفة «نستوة» (= مناضل). واتجاهه العام تقدّمي متأثر بالماركسية، وإن كان هو يعد اتجاهه نابعاً من صميم الإسلام. وله كتاب يشرح رأيه هذا، عنوانه: «الاسلام والملكية، بالمقارنة مع المذاهب الاقتصادية في الغرب» (طهران، انتشار، سنة ١٩٦٥). وفي هذا الكتاب يقرر ان الملكية ليست مطلقة في الاسلام، ويربط بين المِلكِية والعمل. ويقرر ان الاسلام ضد الرأسمالية، وضد الربا بكل أشكاله، وشجع على تداول الأموال والثروات بين الناس.

لكنه في الوقت نفسه يطالب بأن يكون النشاط الاقتصادي حرًّا مرسلاً، وليس موجهاً، ولا يجوز ان يحدد بحدود إلاَّ العدالة، واشراف الدولة على الاقتصاد يجب ان يكون مقصوراً على الخطوط العامة للاقتصاد.

ويناضل ضد انقسام المجتمع إلى طبقات مغلقة على نفسها لأنَّ هذا يؤدِّي إلى استغلال المستضعفين.

ولا يرى لرجال الدين ـ أو «الروحيين» كما يسمّيهم ـ أي امتياز على سائر أصناف الناس؛ وإذا كانوا هم الأجدر بتفسير الشريعة فهم ايضاً الأجدر بأن يطبّقوها على أنفسهم.

أعياد الشيعة

ويستغل هؤلاء الوعّاظ كثرة أعياد الشيعة كثرة مفرطة تمتد على طول العام الهجري، من أجل ممارسة الوعظ. وأعياد الشيعة الرئيسية هي:

أ ـ التاسع والعاشر من شهر المحرم: تاسوعاء، وعاشوراء، وفيهما يحتفل باستشهاد الإمام أبي عبدالله الحسين بن علي في معركة كربلاء بينه وبين الجيش الأموي الذي أرسله عبيدالله بن زياد للقضاء على خروج الحسين.

ب ـ الاحتفال بمولد النبي محمد (ﷺ) في ١٧ ربيع الأول، وهو نفس اليوم المختص للاحتفال بمولد الإمام السادس جعفر الصادق.

جـ ـ الاحتفال بإسراء النبي (المعراج) في ٢٧ رجب.

د ـ الاحتفال بمولد الإمام الثاني عشر، قائم الزمان، الحُجّة، محمد بن الحسن العسكري في ١٥ شعبان.

هـ ـ عيد الفطر في أول شوال.

و ـ عيد الأضحى (عيد قربان) في ١٠ من ذي الحجة.

ز ـ عيد الغدير في ١٨ ذي الحجة ـ وفيه يحتفل بما يعتقده الشيعة من أنَّ النبي قبل وفاته وعند غدير خم قد أوصى لعليّ بن أبي طالب بالخلافة بعده مباشرة.

وإلى جانب هذه الأعياد الرئيسية توجد أعياد أو احتفالات ثانوية، أجدرها بالذكرى:

ـ وفاة النبي محمد (ﷺ) في ٢٨ صفر.

ـ وفاة كل امام من الأئمة الاثني عشر وخصوصاً:

أ ـ وفاة الإمام الرضا في ٣٠ صفر، وهو يوم عطلة في مشهد.

ب ـ وفاة الإمام علي بن أبي طالب في ٢١ رمضان.

جـ ـ وفاة الإمام جعفر الصادق في ٢٥ شوّال.

ـ ميلاد كل واحد من الأئمة الاثني عشر.

ـ مولد ووفاة فاطمة الزهراء.

وهكذا تستغرق الاحتفالات بمولد ووفاة النبي محمد (ﷺ) وفاطمة والأئمة الاثني عشر ٢٨ يوماً في السنة. فإنْ أُضيفت إلى الأعياد الستة الأخرى كان المجموع ٣٤ يوماً.

أمَّا السُّنَّة فلا يحتفلون إلاَّ بالعيدين (الفطر والأضحى) ومولد النبي ومعراجه، أي بأربعة أعياد فقط.

وفي أيام الاحتفال بتاسوعاء وعاشوراء ووفيات النبي والأئمة الاثني عشر تمتنع الاذاعة عن بث أية أغان أو موسيقى، وتقتصر على الأخبار وقراءة القرآن والقاء المواعظ وكلمات الذكرى.

عاشوراء

وأجلّ هذه الاحتفالات وأحفلها بالمشاعر والانفعالات الاحتفال بعاشوراء. وهذا الاحتفال يتخذ ثلاثة أشكال:

١ ـ **روضة خان**: وهو اجتماع يعقد في مسجد او في منزل، ويشهده الرجال والنساء كل فريق منفصل عن الآخر لكن في نفس المكان. ويأخذ واعظ في سرد مصرع الحسين في كربلاء. وفي أثناء وصفه لمصرع الحسين ينطلق البكاء من الحاضرين والحاضرات، وتنبعث ألوان النحيب والصراخ من السيدات بخاصة.

٢ ـ **مسيرة مواكب** (دستجات) في الشوارع الرئيسية في المدن، مؤلفة من: (أ) تلاميذ وتلميذات المدارس وهم يلبسون جلابيب سوداء وفي أيديهم حزماً من أعواد حديدية يضربون بها ظهورهم وصدورهم؛ (ب) شباب بين الخامسة عشرة والثلاثين، غالباً من العمال والفلاحين، يقرعون صدورهم نصف العارية بقبضات أيديهم وبقسوة تتزايد مع تزايد حماسة الشباب الايمانية، فتسمع لضرباتهم أصوات مروِّعة؛ (جـ ـ) كهول وشيوخ بعمائم أو كلاهات، وهؤلاء يكتفون بإبداء علامات التأثر والحزن على وجوههم، وبينهم رجال يصيحون بين الحين والحين بنداءات مثل: «يا حسين»، «روز عِاشوراء يوم قياقب بزرج (= يوم عاشوراء هو يوم قيامة خطير). ويمر الموكب على ايقاع طبول رتيب متقطع.

وقد شاهدت انا هذه المواكب في طهران مرتين: في فبراير سنة ١٩٧٤،

وفبراير سنة ١٩٧٥، وذلك في ميدان سپه (أكبر ميادين طهران) وشارع أمير خسرو الآخذ منه إلى البازار.

وعلى الأفاريز جموع من النسوة الباكيات الصارخات الضارعات.

٣ ـ **التعزية**: وهي تمثيليات بدائية، تشبه الميستير Mystères عند المسيحيين في العصور الوسطى. وهذه التمثيليات بالفارسية الشعبية غالباً، ويتولّى إلقاءها ممثلون غير محترفين، بل من عامة الناس. وهي مكتوبة في أوراق يقرأ منها هؤلاء «الممثلون» الارتجاليون. وقد طبع بعضها في كتب، فقد طبع س. همايوني مجموعة بعنوان: «تعزية وتعزية خان» (طهران سنة ١٣٥٣ هجري شمسي)، وم. هُنري بعنوان: «تعزية در خور» (طهران سنة ١٣٥٤ هجري شمسي). وهذه التمثيليات متعددة الصيغ والأشخاص، لكن موضوعها الجوهري هو استشهاد الحسين. ولتوضيح معنى التعزية نقدّم للقارىء نموذجاً لليلة واحدة من هذه التعازي:

المشهد الأول

١ ـ امتحان النبي ابرهيم الخليل بإلقائه في النار. ويأتي جبريل فيجعل النار «برداً وسلاماً على ابرهيم». فيخرج ابرهيم من النار سليماً بفضل قوة ايمانه.

٢ ـ ابرهيم يذبح ابنه اسماعيل. وفي هذا بيان لأعلى مراحل التسليم لأمر الله.

٣ ـ بكاء النبي يعقوب وهو يسمح لأخوة يوسف بأخذه معهم.

٤ ـ وفاة ابرهيم، ابن النبي محمد (ﷺ). ويُسْأل النبي ان يختار بين ابرهيم وبين حفيده الحسين. فيختار ان يعيش الحسين ويستسلم لوفاة ابنه ابرهيم، على أساس ان أُم ابرهيم كانت قد ماتت، بينما فاطمة أُم الحسين لا تزال حية، فالمصيبة أهون. وهكذا كان ابرهيم بن النبي فداء للحسين، كما سيكون الحسين فداء لكل الشيعة.

٥ ـ جبريل يخبر النبي محمداً (ﷺ) ان مرتكبي المعاصي من المسلمين وغير المسلمين سيدخلون جهنم. ويصيح شخص من أعماق جهنم. إنَّ أُمّه قد لعنته لأنَّه فضّل زوجته على أُمّه. فيحاول أفراد من أهل البيت على التوالي ان يتشفعوا له. ولا تصفح الأُم عن معصية ابنها إلاّ حين يذكّرها جبريل بأن الأفضل لها ان تصفح من أجل قضية الحسين.

٦ ـ وفاة النبي محمد (ﷺ)، واغتصاب الخلافة بعده: بينما علي والعباس والزبير بن العوّام وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري ومقداد بن الأسود وعمّار بن ياسر يتولون دفن النبي، عقد أبو بكر وعمر اجتماع السقيفة لاختيار الخليفة. ويجيء عمر ويرغم عليًّا على البيعة لأبي بكر بأن يقرع باب بيت عليّ ثم يحرق الباب ويقتاد عليًّا بالقوة إلى أبي بكر ليبايعه.

٧ ـ وفاة فاطمة (الزهراء): إنها تستعرض قبل وفاتها أعزّ ما تملك: سنّ النبي التي اقتلعت في معركة أُحد؛ خاتم سليمان الذي سيجلب الرّيّ لشهداء كربلاء، ودم الحسين الذي ستستعين به في الشفاعة للشيعة يوم الحساب.

٨ ـ استشهاد علي بن أبي طالب: كلثوم بنت علي بن أبي طالب تدعو والدها للعشاء. وبعد العشاء ينام، وفي الختام يدعو النبي محمداً (ﷺ) أن يخلّصه من متاعب الدنيا. زينب ترجوه ألا يذهب إلى المسجد، ويحاول بعض الإوَزّ ان يعترض طريقه، لكنّه يقول إن ما هو مقدر لا بد أن يقع وعليه ان يؤدّي واجبه. جبريل يخبر الملائكة ان عليًّا قد ذهب للصلاة في المحراب. ابن ملجم يطعن علياً طعنة قاتلة. علي يقول إنَّه إذا مات، فيجب قتل ابن ملجم بضربة واحدة، لكن قبل تنفيذ هذا الاعدام ينبغي معاملته بالحسنى هو وأسرته.

٩ ـ استشهاد الحَسَن بن علي: زوجته، بأمر من معاوية، تقتله بأن تدس السمّ في ماءٍ تقدّمه له. وبهذا يتحلل معاوية من وعده بإعادة الخلافة إلى الحسن بعد وفاة معاوية.

المشهد الثاني

١٠ ـ استشهاد مُسْلِم بن عقيل، ابن عم الحُسَين، وابنيه الاثنين: مُسْلم بن عقيل، وهو ابن عقيل بن ابي طالب أخي علي بن أبي طالب، يأتي برسالة من الكوفة لتدعوه إلى المجيء إلى الكوفة. ومساعدة هانيء بن عروة على اقصاء الوالي الذي ولاّه يزيد بن معاوية على الكوفة. لكن المؤامرة تكشفت، ويصدر الأمر بالقبض على مُسْلم بن عقيل. يستعد مُسلم للهرب. ويطلب ماء، فتعطيه امرأة تقية، تدعى طوّة، الماء؛ لكنّه حين يحاول الشرب منه يتحول إلى دم ويُسقط سناً في الكأس الثانية فتتحول الكأس إلى دم. ويُقبَض على مسلم، ويُقتل. ويقبض على أولاده؛ ويسمح لهم السجّان، ابن زيد، بالهرب، لكن يقبض عليهم ويقتلهم الحارث، ويتقاضى مكافأة على ذلك.

١١ ـ الحسين يغادر المدينة (المنوّرة) متجهاً إلى الكوفة. يعترضه الحُرّ بن يزيد التيمي اليَرْبُعي، ويعسكر في سهل كربلاء. عُمر بن سعد وشِمر بن ذي الجوشن يأتيان من الكوفة ليتأكدا من ان الحرّ بن يزيد سيحمل الحسين على الاستسلام.

١٢ ـ استشهاد الحرّ، وشوذب: الحر بن يزيد ينضم هو وأخوه إلى الحسين ويستشهدان في المعركة.

١٣ ـ استشهاد علي الأكبر. علي الأكبر يقارن نفسه باسماعيل بن ابرهيم الخليل. زينب تقارنه بيوسف. يقاتل ويُقْتَل.

١٤ ـ زواج القاسم وموته: القاسم يتزوج من بنت الحسين في ساحة المعركة وفاء لوعد قطعه الحسين لأخيه الحسن حين كان الحسن على فراش الموت.

١٥ ـ استشهاد العباس، أخي الحسين غير الشقيق: سكينة، صغرى بنات الحسين، تصرخ طالبة الماء. إن ابن سعد كان قطع عن معسكر الحسين ماء الفرات. العباس يمشي إلى النهر ليملأ قربه ماء. ولا يشرب، لأنَّه لا يحق له ان يشرب قبل ان يشرب الصغار. وفي أثناء عودته إلى معسكر الحسين يعترضه جند ابن سعد، ويقطعون يده، فيمسك القربة باليد الأخرى. فتُقطع هذه اليد الثانية، فيمسك بالقربة بأسنانه. فتحترق القربة، ويتدفق منها الماء. ويُذْبح العباس.

١٦ ـ استشهاد هاشم، وهو زوج ابنة ابن سعد وابن عمه. لقد انضم إلى الحسين، وقُتِل.

١٧ ـ استشهاد الحسين: حرملة يقتل ابن الحسين. سنان يغرز الرمح في جنب الحسين. يصل الحسين إلى النهر لكنه لا يشرب لأنه يفكّر في أخته زينب وقد أُخذت أسيرة، وابنته سكينة صارت في أيدي جنود ابن سعد. يقاتل، ويموت. وتُجَزّ رأسه لترسل إلى يزيد بن معاوية. وجثته تردم في الدم والطين ـ ويشير إلى نفسه بأنه يوسف (النبي): إن قميصه مزقته الذئاب وملأته دماً، وها هو في الطريق ليكون وزيراً في الجنة.

المشهد الثالث

١٨ ـ هرب بيبي شهربانو زوجة الحسين، وهي ابنة آخر ملوك الفُرْس، يزدجرد الثالث: تهرب إلى مدينة الريّ (طهران) على فرس الحسين المسمَّى بذي الجناح. وأخوها الذي سار على رأس جيش ليحول دون وقوعها في أيدي جنود

الشام الأمويين، يلتقي بها ويغدو لمواجهة شمر بن ذي الجوشن وابن سعد والمطالبة باستعادة نساء الحسين. ابن سعد يرفض تسليم النساء، باستثناء، ابنة زوجة الحسين (بنت يزدجرد الثالث)، لأنها أرملة القاسم.

١٩ ـ الترحيل إلى دمشق فزينب هي التي تتولى رعاية المُرَحّلين، لأنَّ الذكر الوحيد الذي نجا من المذبحة، وهو زين العابدين، قد جرح جرحاً بالغاً. وكان سيُذبح لولا ان جيش شمر بن ذي الجوشن ظنّه مات متأثراً بجرحه.

٢٠ ـ السفير الأوروبي في دمشق في حضرة يزيد بن معاوية: يزيد يتباهى باستعراض الأسرى ورؤوس الشهداء. رأس الحسين يتلو القرآن. يزيد ينكثه بعصا. يحتج السفير ويدافع عن الحسين وكان قد التقى به في المدينة (المنوّرة). فيأمر يزيد بقتل السفير.

٢١ ـ وفاة رُقيَّة بنت الحسين. بنات دمشق يسخرن من بنات أهل البيت: بنت يزيد تستحي وتشعر بالخجل، فتوافق على رجاء رقية ان تسلّمها رأس الحسين. وهي تلتمس رأس الحسين ليكون ذلك شفيعاً لها في دخول الجنة.

٢٢ ـ زينب تلقي موعظة في دمشق عند صلاة الجمعة فتسربل بالعار أنصار يزيد.

٢٣ ـ موعظة زين العابدين في الكوفة. في لحظة ندم يسمح يزيد للأسرى من أهل البيت بترك دمشق. زين العابدين يلقي موعظة تهز من مكانة يزيد في نفوس أعوانه.

٢٤ ـ يوم البعث: جبريل يدعو اسرافيل إلى النفخ في الصُّور لإيقاظ الموتى. يعقوب يشكو من الحرارة ويلتمس النجاة مهما يحدث ليوسف؛ يوسف يلتمس النجاة مهما يحدث ليعقوب. ابرهم يقول نفس الشيء بالنسبة إلى اسماعيل، وكذلك اسماعيل بالنسبة إلى ابرهيم. اما محمد (ﷺ) وعلي فهما وحدهما المشغولان بآلام الآخرين، ويحاولان العثور على طريقة للشفاعة؛ ويدعوان سائر أفراد أهل البيت للمساعدة في طلب الشفاعة. جبريل يقول إن الشفاعة لن تقبل إلاَّ مِمَّن لقي من الآلام أكثر من غيره. والاشارة هنا طبعاً إلى الحسين، سيد الشهداء الذي عانى من الآلام أكثر من غيره.

❀ ❀ ❀

ومن هذا الهيكل العام للتعازي يتبيّن ان «التعزية» تبدأ باستعراض التجارب الأليمة في حياة الأنبياء السابقين على النبي محمد (ﷺ): إلقاء ابرهيم في النار،

ذبح ابرهيم لإبنه اسماعيل تنفيذاً لأمر الله، مأساة يوسف؛ ثم حزن النبي محمد (ﷺ) على وفاة إبنه ابرهيم؛ وفاة النبي، وفاة فاطمة الزهراء، استشهاد علي بن أبي طالب. وكل هذه المآسي إنما هي مراحل في الطريق إلى المأساة الكبرى التي هي استشهاد الحسين بن علي. واستشهاد الحسين سيكون الفداء لنجاة الشيعة.

وسرد مأساة الحسين في كربلاء يتمشى في ملامحه العامة مع الرواية التاريخية.

أمَّا ادخال شخصية السفير الأوروبي في المشهد الثالث فاختراع محض لا أصل له من التاريخ وإنَّما قصد به التهويل من جريمة يزيد بن معاوية ببيان انه حتى الأوروبي المسيحي استنكر جريمة يزيد.

وادراج زوجة الحسين، وهي بنت آخر ملوك الفرس، يزدجرد الثالث، إنَّما قصد به الاشارة إلى دور الفرس في رعاية تراث الحسين، والسهر على تأييده واستمراره.

وتختم «التعزية» بتمجيد «الحسين» إلى أعلى درجة، والتأكيد بأن دوره في الشفاعة يوم الحساب سيتفوق حتى على دور النبي وعليّ.



والاحتفال بعاشوراء على هذا النحو الفاجع بدأ منذ عهد الصفويين، لكنه لم يكتمل على هذه الصورة المثلثة إلاَّ في عهد القاجار (١٧٨٥ ـ ١٩٢٥)، إذ وجدوا في ذلك ما يعينهم على اجتذاب مشاعر العامة نحوهم، مع صرف العامة عن الشؤون السياسية بهذا التصريف النفسي للانفعالات الكامنة.

فلما جاء رضا بهلوي سنة ١٩٢٥ عزم على القضاء على هذا الاحتفال او التخفيف منه. لكنه تروَّى في ذلك، نظراً لما يرتبط به من مشاعر عميقة عند العامة. فلم يصدر إلاَّ في سنة ١٩٣٢ امراً بمنع تمثيل «التعازي»، ومع ذلك اضطر إلى الابقاء على المظهرين الأول والثاني لاحتفال عاشوراء، أعني: روضة خان، ودستيجات، أي الاجتماع لإحياء ذكرى مصرع الحسين، وتسيير المواكب على النحو الذي وصفناه. وفي عهد ابنه محمد رضا شاه عاد تمثيل «التعازي» لكن على نطاق ضيق وفي الخفاء. ولهذا لم أستطع مشاهدة «تعزية» في أثناء مقامي في ايران عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥. وقيل لي ان في محافظة يزد يمكن مشاهدة هذه التعازي، وأنَّى لي بترك طهران إلى يزد في هذا البرد القارس، إذ كان الشهر هو شهر فبرايرا!

أمَّا رجال الدين فكان موقفهم من هذا الاحتفال، وخصوصاً من «التعازي»،

مبهماً مريباً. فهم لا ينكرونه علناً، حتى لا يضيعوا على أنفسهم هذه المناسبة التي هي أكبر المناسبات لتحصيل الأموال بإقامة الروضات، ولبث دعاواهم ضد النظام السياسي القائم لأنّهم يتخذون من الروضات وسيلة للهجوم على الحكّام وإثارة العامة ضد ما لا يريدونه من قوانين او ترتيبات يصدرها الحكّام.

بيد ان بعض المتصدرين منهم كانوا يجهرون باستنكارها باعتبارها تنطوي على بِدَع لا يقرّها الاسلام: مثل ضرب الصدور سواء بالأكف وبالقضبان او الأعواد الحديدية، والمبالغة في البكاء واستجلاب الدموع وشق الصدور ولطم الخدود، وهي أمور طالما نهى عنها النبيّ في أحاديث عديدة يقر بها علماء الشيعة. ومن بين هؤلاء العلماء الذين استنكروها نذكر الشيخ عبد الكريم حائري يزدي، وهو أستاذ الإمام الخميني لما كان طالباً في قم، وقد توفي سنة ١٩٣٦م.

ومع ذلك، وحتى بعد انتصار الثورة الاسلامية (انقلاب اسلامي) بقيادة الخوميني في فبراير سنة ١٩٧٩ استمر الاحتفال بعاشوراء في صورتيه الأولى والثانية يجري في ٩ و١٠ محرم من كل عام حتى كتابة هذه السطور (٩ فبراير سنة ١٩٨٨)، بل صارت الروضات تبث من الاذاعة طوال الأيام العشرة الأولى من شهر المحرّم، وكنت أنا أُتابع سماعها وأنا في الكويت، وتيسّر لي بذلك ان أستمع إلى بعض الروضات التي أقامها المرحوم د. مرتضى مطهّري، ولم أكن قد استمعت إلى روضاته من قبل.

أصناف رجال الدين

مُلاّ: لقب يطلق على رجل الدين في ايران بوجه عام، ويناظره في مصر كلمة: شيخ إذا أُطلق على رجل دين. ويطلق على أصغرهم مرتبة كما يطلق على أكبرهم مرتبة وعلماً، فمثلاً: صدر الدين الشيرازي (المتوفى سنة ١٦٤٠م) كان يطلق عليه لقب: مُلاّ صدرا؛ كذلك كاظم خراساني وهو من أكبر علماء ايران في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن وتوفي سنة ١٩١١م كان يطلق عليه لقب: مُلاّ كاظم خراساني.

أخوند (وأخوندا): لقب أخصّ من مُلاّ، ولا يستعمل إلاّ لمَن حصل على درجة علمية من معهد ديني، ويطلق غالباً على طلبة المعاهد الدينية.

آية الله: لقب اختص به رجال الدين في ايران الذين بلغوا درجة «مجتهد» بإجازة من أستاذ.

آية الله العظمى: يطلق هذا اللقب على أقطاب رجال الدين، وعددهم في العصر الواحد يتراوح بين خمسة وعشرة وليس هناك معيار بموجبه يطلق هذا اللقب على مَن يطلق عليه، ولا توجد هيئة او سلطة تمنحه. إنَّما هو عرف يشيع بين رجال الدين، ولا ضابط لإطلاقه او استعماله.

ورجل الدين في ايران تتميّز هيئته الخارجية بما يلي: «عمامة» على رأسه، و عباء (عباية) فوق جلباب او قفطان تغطّي كل جسمه، ويلبس في قدميه نعلين، وله لحية تشمل سالفيه وذقنه. والعمامة إمَّا سوداء، وإمَّا بيضاء، وإمَّا خضراء. والخضراء يلبسها مَن يزعمون أنهم من نسل الإمام علي، كما هي الحال في سائر البلاد الاسلامية. أمَّا التمييز بين العمامة البيضاء والسوداء فلم نستطع ان نتبينه، وإن قيل إنَّ العمامة السوداء هي لمَن هو «سَيِّد».

ومن أهم الوظائف التي يتولاها رجال الدين في ايران وظيفة «إمام جُمْعة»، أي مَن يؤمّ المصلّين في «مسجد جمعة» أو «مسجد جامع» في المدن الكبرى. أمَّا في القرى وفي المساجد الصغيرة بالمدن فيؤم المصلِّين «إمام جماعت»، أو «پيش نماز». و«إمام جمعة» في مسجد كبير يتقاضى مرتباً من الحكومة، ولهذا كانت الدولة هي التي تعيّنه. أمَّا «إمام جماعت» فيختاره أهل القرية أو أهل الحيّ في المدينة، ومنهم يتقاضى معاشه بالتبرع الحرّ.

❀ ❀ ❀

ولما كان زواج «المُتعة» ـ أي الزواج المحدّد بمدة معيّنة ـ مباحاً عند الشيعة، فأحياناً يعرض للمرء وهو في مسجد كبير ان يهمس في أذنه أحد رجال الدين قائلاً: صيغة ميخم؟» (أي: هل تريد عقد زواج متعة؟)، ويتكفل رجل الدين هذا بتقديم الفتاة أو المرأة التي يتولى هو عقد الزواج بها عقد متعة. وقد يحدث هذا ايضاً في الشارع، وقد حدث لي شخصياً في شارع سعدي في طهران ان اقترب مني مُلاّ وعرض عليّ ذلك قائلاً: «صيغة ميخم؟» ولما كنت لم أفهم آنذاك معنى هذه العبارة، فقد حسبته يطلب إحساناً، فانصرفت عنه دون ان أرد عليه. فلما سألت أصدقائي الإيرانيين عن معنى هذه العبارة أخبروني، وقالوا إنَّ هذا لأمر منتشر خصوصاً في مساجد الجمعة وفي الأضرحة الكبيرة في مشهد وقم. إنَّهم نوع من «المأذونين» الجوّالين المتطوعين لتزويج الناس زواج متعة، نظير مبلغ من المال يتقاضونه من الزوج المحتمل والزوجة المحتملة. ولئن اتخذ مظهراً شرعياً من حيث الشكل، فإنّه في الواقع نوع من فعل القوّادين!!

محاولات إصلاح رجال الدين

ونظراً إلى انحطاط المستوى العلمي عند رجال الدين في ايران، فقد قامت جماعة منهم في سنة ١٩٦٢ بالدعوى إلى اصلاح المستوى العلمي لرجال الدين، لكنهم اقتدوا في ذلك بآية الله بروجردي الذي لم يكن واسع الأفق، بل تقليدي التفكير والتحصيل. ولهذا جاءت ثمرة دراساتهم هزيلة، وقد صدرت في كتاب بعنوان: «بحث دربارة مرجعية وروحانية» (سنة ١٣٤١ هرش/ ١٩٦٢م).

وعملاً بما دعا إليه بروجردي نادوا بالتعمق في فهم الأحاديث، وبالاجتهاد في الفقه، وبالاطلاع والاهتمام بالمشاكل المعاصرة. وكان الحسين بروجردي (المتوفى سنة ١٩٦١) قد قام بالتعليق على كتاب «وسائل الشيعة» للحرّ العاملي؛ فتولّى تلاميذ البروجردي هؤلاء بتكملة شرح البروجردي، وذلك في كتاب بعنوان: «تهذيب الوسائل».

وفي الوقت نفسه قام بعض العلماء بنشر خطبهم ودراساتهم في مجلة شهرية عنوانها: «گفتار ماه» (= الخُطَب الشهرية). وفيها حاولوا تقديم آرائهم في المشاكل الحالية. أنشأوا داراً ومسجداً لهم في الشمال الشرقي من طهران سمّوها باسم: «حسينية إرشاد».

وقد لعبت «حسينية ارشاد» هذه دوراً بارزاً في عرض آراء دعاة الاصلاح هؤلاء طوال الستينات وأوائل السبعينات إلى ان أغلقت في سنة ١٩٧٣ قبل وصولي إلى طهران.

وفي هذه الحسينية برز خصوصاً د. علي شريعتي، الذي وُلِد في سنة ١٩٣٣ في محافظة خراسان وكان أبوه رجل دين منفتحاً هو الأستاذ محمد تقي شريعتي. ودَرَس في كلية الآداب بجامعة طهران، وهنا بدأ نشاطه السياسي، وكان ذلك في عهد حكومة د. مصدّق. ثم سافر إلى باريس، ودَرَس في السوربون من ١٩٦٠ حتى ١٩٦٤. وفي أثناء اقامته في باريس اتصل بالمناضلين الجزائريين وبحركات التحرير النشطة في باريس.

وبعد ان حصل على الدكتوراه من جامعة باريس عاد ليكون مدرساً للتاريخ في كلية الآداب بجامعة مشهد. ثم انتقل إلى طهران، وصار يلقي محاضرات في «حسينية ارشاد» في طهران، والتف حوله العديد من الشباب. ولما كان مضمون هذه المحاضرات في الغالب سياسياً وثورياً وموجهاً ضد حكومة الشاه محمد رضا بهلوي، فقد أُودع السجن، وظلّ في السجن ١٨ شهراً. وفي ربيع سنة ١٩٧٧ ترك

ايران، وسافر إلى لندن، وهناك أُصيب بأزمة قلبية توفي على إثرها في ١٩ يونيو سنة ١٩٧٧.

ولب دعوة علي شريعتي هو: تجديد الاسلام الشيعي. وذلك بالطرق الثلاث التالية:

أ) اعتبار الجانب الاجتماعي في الاسلام، وغض النظر عن الجانب اللاهوتي؛

ب) تفسير القرآن على أساس انه يهتم بالمبادىء الاجتماعية أكثر من اهتمامه بالعبادات. ومن أجل هذا يقوم علي شريعتي بتحليل المفهومات الرئيسية في القرآن مقارناً إيّاها بنظائرها في الفكر الأوروبي، مبيّناً ان للمعاني الرئيسية في القرآن مدلولاً ديناميكياً، لا استاتيكياً: فـ «الأمّة» هي الجماعة الثائرة التقدمية؛ و«القبلة» هي الهدف من التقدم الاجتماعي للناس؛ الخ.

جـ) بيان التعارض الحاد بين المجتمع الاسلامي السليم وبين المجتمع الأوروبي الديمقراطي الرأسمالي. وفي هذا المجال يقول إن الغرب، لكي يتمكن من استغلال العالم الاسلامي قد صرف العقول الاسلامية عن حقيقة الاسلام. ان النماذج الأوروبية إنّما تخدم أطماع أوروبا في اخضاع المسلمين لحاجات الرأسمالية الأوروبية. وحتى تحرير المرأة هو في نظره وسيلة وشكل من أشكال السيطرة الاستعمارية للدول الغربية!

صحيح ان نفس المعاني ترد في خطب رجال الدين التقليديين، بل هي بضاعتهم في خطبهم المنبرية الاسبوعية، لكن الجديد عند علي شريعتي هو في الصياغة التي يصوغ بها أفكاره هذه. إذ يستعمل الاصطلاحات والمفهومات العصرية المألوفة خصوصاً عند الكتّاب التقدميين مثل فرانز فانون Franz Fanon وسارتر ـ مثل: ديالكتيك، مغايرة، دينامية، التفسير التاريخي، الأصالة.

وبالجملة تتسم كتابات علي شريعتي بهذه الرطانة المألوفة عند مَن يسمّون أنفسهم «الكتّاب الثوريين» في العالم العربي والاسلامي ودول العالم الثالث بعامة. ولما كان يربط آراءه بالاسلام فإنّه يستشهد مراراً بآيات من القرآن، لكنه يؤولها تأويلاً ملتوياً مفتعلاً حتى يستطيع ان يسند إليها وجهات نظره. وإذا ما حلّلت أقواله لم تخرج منها بأي معنى عيني محدد يصلح للتطبيق العملي. ومن هنا فإنّه لما نجحت «الثورة الاسلامية» (انقلاب اسلامي) في ايران ابتداء من فبراير سنة ١٩٧٩ لم تستطع حتى الآن ان تضع أي رأي من آرائه موضع التطبيق على الرغم من

التعاطف الذي تبديه بعض أوساط الثورة الاسلامية نحوه إذ تعده من «المناضلين» الذين أسهموا في التمهيد لقيام الثورة ولسنا ندري ماذا كان سيكون وضعه ـ أو مصيره ـ لو انه كان قد عاش لحين قيام الثورة وما تلاها. وأغلب الظن انه كان سيكون كمصير بني صدر، ومن إليه.

ولم يتح لي ان أراه لأنني لم أحضر إلى فرنسا في الفترة التي كان فيها طالباً (١٩٦٠ ـ ١٩٦٤) في باريس؛ كذلك لما كنت أنا في ايران (سبتمبر سنة ١٩٧٣ ـ يونيو سنة ١٩٧٤، ثم فبراير سنة ١٩٧٥) كان مطارداً ثم سجيناً. لكن لما كنت في باريس في يونيو ـ يوليو سنة ١٩٧٧ شاهدت جدران السوربون وما حولها مغمورة باسمه مكتوباً بخط عريض جداً. وذات يوم كنت جالساً في مقهى بشارع سان جرمان فجاءني طالب ألماني كان يتخصص في الدراسات الاسلامية وكان يحضر محاضراتي في السوربون، ومعه طالب ايراني. فقال هذا الطالب الايراني إنَّ الطلبة الإيرانيين يريدون اقامة حفل تأبين لعلي شريعتي، وهم يلتمسون منّي ان أُشارك بكلمة في هذا التأبين. فأجبته: إ نّني لم تتح لي معرفة علي شريعتي، ولم أقرأ له شيئاً، لهذا لا أستطيع ان أتحدّث عنه. فقال لي: لكنه ترجم لك مقدمة كتابك: «أشخاص قلقة في الإسلام»، وكثيراً ما كان يتحدّث عنك بإعجاب، ويحثّنا على قراءة كتبك. فاعتذرت ثانياً بأنني لا أُشارك في أي نشاط سياسي في باريس، وأنا أعلم ان الشرطة الفرنسية ترصد نشاطكم. وهكذا تخلصت من هذا المأزق.

على أنّه مما يحمد لعلي شريعتي انه بخلاف علماء الشيعة أقرَّ بصحّة خلافة أبي بكر الصدّيق، وفي سبيل ذلك يورد الروايات التي تؤيّد ذلك، ومنها:

ـ ان النبي أمر بإغلاق كل الأبواب التي كانت تفتح لمسجد الرسول، إلاَّ باب أبي بكر. والشيعة ينكرون هذه الرواية، ويحتجون بأنَّ الراوي لها هو عكرمة، وعكرمة عندهم كذاب.

ـ وان النبي في آخر عمره مرض مرضاً شديداً منعه من ان يؤم المصلّين، فحلَّ أبو بكر محلّه. ولما تحسنت صحة النبي أتى إلى المسجد، ورفض ان يؤم المصلين، وصلّى إلى جانب أبي بكر. والشيعة يضعفون هذا الخبر.

ـ يستند إلى آيتين في القرآن عن الشورى، ويستنبط منهما ان هاتين الآيتين تقرران ان الخلافة بالشورى، أي بالانتخاب. وهو أمر ينكره الشيعة، لأنهم يرون الخلافة بالوراثة: علي فابنه الحسن، فأخوه الحسين، فابنه علي زين العابدين، فابن محمد الباقر، فابنه جعفر الصادق، فابنه موسى الكاظم، وهكذا.

ـ ويقول: «كم كان الاسلام سيكون قوياً في التاريخ لو ان المسلمين نبذوا الخلافات فيما بينهم! إذن لكان أبطال السُّنَّة، مثل صلاح الدين الأيوبي، أبطال الشيعة ايضاً» (في «تشّيع علوي وتشيّع صفوي»).

ـ ويقول إن علياً أخبر فاطمة (الزهراء) انه سيبايع أبا بكر على الخلافة. ـ لكن علماء الشيعة يؤكدون ان علياً لم يبايع أبا بكر إلاّ بعد وفاة فاطمة، ويزعمون ان فاطمة القت خطباً أكّدت فيها عدم شرعية انتخاب الخليفة.

وبسبب آرائه هذه، القريبة جداً من آراء أهل السُّنَّة، هاجمه بعض علماء الشيعة مثل آية الله ناصر مكارم في مقال كتبه في مجلة «مكتب اسلام» (١٣ رقم ١ سنة ١٩٧٢) بعنوان: «أي حكومت اسلام بر پاي شورى است؟» (ص ٧٦ ـ ٧٨)، وكذلك هوجم في مقال بتوقيع: «حسيني»، عنوانه: «دكتر چه مگويد؟» (ماذا يقول الدكتور [علي شريعتي]).

وهو في سبيل هذا التقريب بين السُّنَّة والشيعة ينعى على الصفويين انهم هم الذين أججوا نار الخلاف بأن أمروا الخطباء في المساجد بلعن أبي بكر وعمر، وهوّلوا في الاحتفال بعاشوراء، وشدّدوا في ابراز أوجه الخلاف. وفصل القول في ذلك في كتابه: «تشيُّع عَلَوي ـ تشيّع صفوي» (ويقول في ٣٢٥ ص، ولم يرد عليه ذكر تاريخ الطبع ولا مكانه).

كذلك يحمد لعلي شريعتي نقده المرّ للنزعة الشكلية عند رجال الدين؛ فهم لا يهتمون إلاّ بالشكل في العبادات، ولا يهتمون بجوهر الاسلام من حيث هو في المقام الأول نظام اجتماعي يقوم على العدالة وانصاف المحرومين. فيقول مثلاً: «نحن نجادلهم ببلاهة حول ان هذه الجماعة تؤدي الصلاة والذراعان مضمومتان، بينما تلك الجماعة الأخرى تؤدي الصلاة والذراعان مبسوطتان.

ويحمد له ثالثاً هجومه على ماركس والاشتراكيين الأوروبيين لأنهم ـ كما يقول ـ لم يحفلوا أبداً بالعالم الثالث والدول التي اغتصبها وامتص ثرواتها الاستعمار، وإن كان همّ ماركس والاشتراكيين الأوروبيين الوحيد هو المطالبة بإشراك العمال الأوروبيين بنصيب فيما نهبه الاستعمار الأوروبي من ثروات العالم الثالث.

وما دام قد اطرح ماركس مرشداً له، فقد أحلَّ محلّه النبي محمداً (ﷺ) وعلياً، فأكّد ان النبي محمداً كان المدافع عن الطبقة العاملة، وقرّر ان كل الأنبياء

نشأوا من الشعب والطبقات الفقيرة (راجع كتابه: «فرهنكر وايديولوجي»، سنة ١٩٧١ [الثقافة والايديولوجيا]).

موقف رجال الدين من تحرير المرأة

ومن المسائل التي شغلت رجال الدين في العهد البهلوي مسألة تحرير المرأة. ذلك ان رضا شاه:

قد أصدر في سنة ١٩٣٦ قانوناً يمنع المرأة من الاحتجاب، وعرف بقانون «كشف حجاب». وكانت المرأة الايرانية في المدن خصوصاً، قد تعودت ان تلبس ما يسمَّى «چادر». والـ «چادر» يناظر ما يعرف في مصر بالملايه، وفي العراق بـ «العباية».

فتصدى لهذا القانون رجال الدين وعلى الرغم من انه بعد ارغام رضا شاه على التخلّي عن العرش لإبنه محمد في سنة ١٩٤١ لم يعد لهذا القانون تنفيذ عملي، وعادت الكثيرات من النساء الى لبس الـ «چادر»، فإن رجال الدين ظلّوا يثيرون هذا الموضوع ويتوسعون فيه بحيث جعلوا منه موضوعاً أهم وهو: «تحرير المرأة» بعامة.

ومن العلماء الذين خاضوا فيه في الستينات: سيد محمد حسين طباطبائي، في بحث له بعنوان: «زَنّ در إسلام» (= المرأة في الاسلام، مكتب تشيّع، سنة ١٩٥٩)، ويحيى نوري في كتابه: «حقوق زن در اسلام وجهان» (= حقوق المرأة في الاسلام وفي العالم»، طهران سنة ١٩٦٤)، وشيخ قوام وشنوئي في كتابه: «حجاب در اسلام» (= الحجاب في الاسلام)، قم سنة ١٩٧٢) ومرتضى مطهّري في كتابه: «مسائل حجاب» (طهران، سنة ١٩٧٤).

وهم يبدأون بأن يقرروا انه لا محل لقيام مشكلة تحرير المرأة في البلاد الاسلامية كما هي الحال في البلاد الأوروبية، لأنَّ الاسلام رفع مكانة المرأة من مجرد سلعة إلى شخص كامل له كافة الحقوق: فالإسلام يبيح للمرأة ان تعمل، وان تتعاقد، وأن تكون لها ملكية خاصة بها مستقلة تماماً عن ملكية زوجها، ولها الحق في اختيار الزوج، والحق في طلب الطلاق إن نص في عقد الزواج على أنَّ عصمتها بيدها، ولها نصيبها في الميراث. وكل هذه الحقوق التي للمرأة في الاسلام محرومة منها المرأة الأوروبية. والمرأة لها الحق ـ في الاسلام ـ في ان تكشف وجهها ويديها، وأن تسافر وتتنقل من أي مكان إلى آخر.

وكل ما طالب الاسلام به النساء هو ان يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، أي ان لا يثرن شهوة الرجال، وان يتحلين بالعفة، ويتجنبن أسباب الاغراء والفجور، فلا يبدين من زينتهن إلاَّ ما ظهر خارجاً، ويغطين نحورهن بما يسترها وألاَّ يبدين زينتهن إلاَّ لأقاربهن وغير ذي الحلم من الأطفال.

وهنا يستشهد مطهّري بشعر لمولانا جلال الدين الرومي يقول فيه: إنَّ المرأة والرجل مثلهما مثل الماء والنار؛ إن لم يُفصل بينهما أطفأ الماءُ (المرأة) النار (الرجل).

وينعى ناصر مكارم («مشكلة جنس جوانان» (= المشكلة الجنسية عند الشباب، قم سنة ١٩٧١) ان الكشف عن جمال المرأة يفضي بالرجال الى الجنون لأنَّه يغري الرجال بطلب ما لا يستطيعون الوصول إليه، ويرى ان الصور العارية في المجلات الجنسية تحرّض الشباب على الاستمناء غير الطبيعي.

ويؤكّد مطهّري ان التحرر الجنسي يدمّر الحب والزواج بوصفه رابطة أسرية: لإنَّه اذا انحصر الجنس في الزوج والزوجة، كان الزواج مسرحاً للحرية الجنسية؛ وإذا لم يوضع على الجنس قيد، صار الزواج سجناً.

ويستشهدون على ذلك بأن الحب في الغرب مفقود، بسبب الحرية الجنسية. وإلاَّ فأين تجد في الغرب أمثال ليلى ومجنون ليلى، وخسرو وشيرين؟ لقد تحطم الحب في الغرب بسبب التحرر الجنسي، تحطمت الأُسرة بسبب التحرر الجنسي.

أمَّا عن دعوى المساواة التامة بين الرجل والمرأة في كل شيء فيدحضها علماء الدين استناداً إلى التركيب البيولوجي لكليهما: فالمرأة تحمل، ويستمر حملها تسعة أشهر، والمرأة تحيض لمدة أربعة أو خمسة أيام كل شهر قمري. وأمَّا نفسياً، فالمرأة أشد انفعالاً، واكثر تقلباً في مزاجها، وأشد أنانية.

ولهذا يقول طباطبائي إنَّ المرأة لا يجوز ان تكون قاضية، ولا مجتهدة.

ويستشهد بعضهم، مثل يحيى نوري، الذي كان زميلاً لنا في كلية الالهيات والعلوم الاسلامية بجامعة طهران، بالأبحاث البيولوجية في القرن التاسع عشر وهي تقوم على احصاءات أُجريت على النساء يُستخلص منها ان مخ المرأة أقل حجماً من مخ الرجل. ولهذا يرى ان القضاء والحرب والحكم يجب ان يكون للرجال دون النساء.

أمَّا حق المرأة في التعليم بكل مراحله وأنواعه، حتى الديني منه، فمكفول للمرأة والرجل على سواء، ولم يجادل أحد من هؤلاء العلماء في هذا الحق، ولم

يحدّه بأي حد. والدليل على ذلك انه كان في كلية الإلهيات والعلوم الاسلامية بجامعة طهران حين كنت أستاذاً بها عددٌ غير قليل من الطالبات، سواء في مستوى الليسانس، أو في مستوى ما فوق الليسانس. وكانت في اصفهان سيدة تدعى بانو أمين متبحرة في علوم التفسير والدين بعامة، وقد حصلت على «إجازة» من آية الله العظمى مرعشي نجفي وغيره من كبار رجال الدين. ولها تفسير للقرآن لا بأس به.

وكدليل على مبالغة علماء الدين في الاهتمام بمشكلة المرأة في الاسلام، نذكر ان كتاب د. مطهّري بعنوان «نظام حقوق المرأة في الاسلام» (طهران سنة ١٣٤٣ هـ ش) يقع في ٤٦٦ صفحة!)

موقف رجال الدين من الموسيقى والغناء

لكن إذا كان موقف رجال الدين من تحرير المرأة لا يخلو من حجج وجيهة، فإنَّ موقفهم من الموسيقى والغناء موقف يتّسم بالحمق والجهل وضيق الأفق.

فهم يقولون ان الموسيقى والغناء حرام! ويستندون في ذلك إلى الآيات القرآنية التالية:

أ ـ ﴿ومن الناس مَنْ يشتري لَهْوَ الحديث ليُضِلّ عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هُزُواً أولئك بهم عذابٌ مُهِين﴾ (سورة لقمان: ٦).

ب ـ ﴿والذين لا يشهدون الزُّور وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً﴾ (الفرقان: ٧٢). فهم يزعمون ان «اللغو» هو الموسيقى والغناء، وكذلك «لهو الحديث»! وهو زعم باطل لا يشهد عليه أي شاهد: لا من اللغة، ولا من الاصطلاح. بل المقصود باللغو وبلهو الحديث: الهزل والكلام الماجن، وما لا معنى له من القول ـ ولا شأن لهذه المعاني بالموسيقى ولا بالغناء. فالموسيقى ليست كلاماً حتى تعدّ من لهو الحديث؛ واللغو هو الكذب والباطل، والموسيقى ليست قولاً خبرياً حتى توصف بالكذب. وإذن فليس في هاتين الآيتين أية إشارة ـ من قريب أو من بعيد ـ إلى الموسيقى وإلى الغناء.

ومن رجال الدين مَن يضيف إلى الاستشهاد بهاتين الآيتين الاستشهاد بأحاديث يؤولها بنفس الطريقة الزائفة، كما فعل سيد مرتضى علم الهدى في كتابه: «ساز وأواز» (قم، سنة ١٩٧٧). ومن السهل الرد عليه بعشرات من الأحاديث التي تروي أنَّ السيدة عائشة، زوجة النبي، كانت تستمع في بيتها إلى موسيقى الطبول

والدفوف، وان النبيّ (ﷺ) دخل عليها مرات وهي تستمع إلى العازفين فلم يستنكر صنيعها هذا، ولم يطرد العازفين.

على ان مسألة تحريم أو تحليل الموسيقى قد أشار لها بعض المؤلفين عن الصوفية تحت باب: «السماع»، وذكروا آراء المؤيِّدين للسماع ـ أي الموسيقى ـ والمنكرين له. ونحن نعلم ان بعض الطرق الصوفية تلتزم بالسماع، مستعملين: إمَّا الناي، كما تفعل المولوية (طريقة جلال الدين الرومي)، وإمَّا الدف والطبول (كما تفعل طرق صوفية عديدة كالتجانية)، وبعضها يلجأ إلى الرقص مع الموسيقى والغناء، وهم الذين يسميهم الأوروبيون باسم: «الدراويش الدوّارين» Derviches Tourneurs (ومنهم المولوية).

ومن غرائب ما فعلته «الثورة الاسلامية» غداة نجاحها في سنة ١٩٧٩ ان حظرت الموسيقى والغناء، فاضطر المطربون والمطربات الايرانيون إلى مغادرة ايران إلى أوروبا وأمريكا. وكانت في ايران كوكبة عظيمة منهم، نخص بالذكر منها: مرضية، وگوگوش، وعهدية، ومهاستي ـ من المطربات، وعارف، وداريوش من المطربين.

ولتبرير هذا الاجراء الشاذ زعم رؤساء «الثورة الاسلامية» ان الموسيقى تسبب انحلال الأخلاق وفساد النفوس! وأذكر ان صحفية ايطالية أجرت حديثاً مع الإمام الخميني وسألته فيما سألته: هل موسيقى بيتهوفن وڤجنر وڤردي يؤدِّي سماعها إلى الانحلال وفساد الأخلاق؟ فأجاب الخميني: مَن هؤلاء الذين ذكرتِ أسماءهم؟ إنَّني لم أسمع عن أحد منهم في حياتي!

إن تحريم «الثورة الاسلامية» للموسيقى والغناء هو اهدار شائن لجانب من أجمل جوانب الحضارة في ايران الاسلامية. ويدهش المرء من هذا الحرص المَرَضي لدى رجال الدين في ايران على اشاعة الحزن في الحياة وإسبال السّواد على كل نشاط إنساني، وجعل الحياة الدنيا مأساة دائمة. أما كفاهم ما يجري في يوم عاشوراء من ضرب للصدور (سينه زني) بالأكف الغليظة او السلاسل الحديدية، ومن بكاء وعويل يومين متوالين (٩، ١٠ المحرم) وطوال عشرة أيام في الروضات الحسينية؟! أما كفاهم أربعة عشر يوماً في العام يتذكرون فيها وفيات النبي وفاطمة، والأئمة الاثني عشر؟!

ولقد كان من المآثر الجليلة لعهد محمد رضا شاه اهتمامه بالموسيقى الإيرانية التقليدية وادخاله الموسيقى الأوروبية الحديثة في المعاهد الموسيقية وتشجيع تقدم الكونشرتات والأوبرات وتخصص قاعة جميلة لذلك هي: تالار

رودَكي (عند تقابل شارع بهلوي مع شارع شاه رضا).

وقد لاحظنا أثناء مقامنا في ايران اهتمام الشعب الايراني بمختلف طبقاته بالموسيقى وبحضور الحفلات الموسيقية التي كانت تقام في تلك القاعة. وكان من المعتاد حتى عند الطبقة الوسطى انهم إذا أقاموا عشاء لمجموعة من الأشخاص، أحضروا لإحياء العشاء او ما بعد العشاء مجموعة من الموسيقيين (حوالى أربعة أو أكثر) لإحياء السهرة بالموسيقى والطرب.

المتفلسفة من رجال الدين

ومن رجال الدين مَن اشتهر بالاشتغال بالفلسفة والتأليف فيها، وأشهرهم في النصف الأول من القرن الحالي: «العلاّمة» سيد محمد حسين طباطبائي، الذي وُلِد في تبريز سنة ١٩٠٣ من أُسرة علماء. وقد واصل دراساته في العلوم الدينية في النجف. وعاد إلى ايران وقام بتدريس التفسير والفقه وأصول الفقه والحكمة الإلهية في حوزة علمية قم، في مدينة قم.

لكن ما يميزه من سائر رجال الدين في ايران هو اطلاعه الواسع على الفلسفة الأوروبية، وعلى الأيديولوجيات الأوروبية الحديثة والمعاصرة؛ ومن هنا قام بنقد موسّع للماركسية. وأهم انتاجه في ميدان الفلسفة كتابه: «أصول فلسفة وروش رياليسم» (وقد طبع في طهران، مع مقدمة بقلم مرتضى مطهّري، في ثلاثة أجزاء مجموعة في مجلد واحد ج٢ بتاريخ اسفند ١٣٣٣ هـ ش، ج٣ مردادماه هـ ش) ـ أي: «أصول الفلسفة والمنهج الواقعي».

في هذا الكتاب يذكر طباطبائي أمهات المسائل في الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة. وقد كسره على أربع عشرة مقالة:

١ ـ ما الفلسفة؟

٢ ـ الرياليسم والايدياليسم (كذا، بالرسم الفرنسي).

٣ ـ العلم والإدراك.

٤ ـ قيمة المعلومات.

٥ ـ كيفية حصول الكثرة في المعلومات.

٦ ـ ادراكات اعتبارية.

٧ ـ مباحث وجود.

٨ ـ الامكان والوجوب ـ الجبر والاختيار.

٩ ـ العلة والمعلول.

١٠ ـ الإمكان والفعل ـ الحركة ـ الزمان.

١١ ـ الحدوث والقِدَم ـ التقدم، التأخر، المعية.

١٢ ـ الوحدة والكثرة.

١٣ ـ الماهية ـ الجوهر والعَرَض.

١٤ ـ إلهيات: إله العالم، والعالم.

ويورد في أثناء عرضه آراء فلاسفة الاسلام، ويقارنها بآراء الفلاسفة الأوروبيين المحدثين.

وينصب اهتمامه الرئيسي على نقد المادية الديالكتيكية.

وفي آخر كل مقالة ـ ملخص ما أثبته من آراء.

وبمراجعة هذه الآراء نجد انها في الجملة لا تخرج عما انتهى اليه فلاسفة الإسلام، ولا تستفيد من النظريات والآراء الحديثة. ولهذا لا تستطيع ان تقرر أنّ «العلامة» سيد محمد حسين طباطبائي قد استفاد استفادة حقيقية من اطلاعه على الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة. وإنَّما يعتمد في استدلالاته على ما استقرّ عليه الرأي عند فلاسفة الإسلام. فهو مثلاً ينقد «المادية التحولية» أي الديالكتيك المادي او المادية الديالكتيكية على أساس الاعتبارات التالية:

أ ـ مبدأ العينية أي الهوية، اي ان الشيء هو هو عينه.

ب ـ مبدأ الثبات، أي ان الشيء في لحظة ثانية هو عينه كما كان في اللحظة السابقة.

جـ ـ مبدأ امتناع اجتماع ضدين، أي وجود وعدم معاً في وقت واحد ومن جهة واحدة على ان «العلامة» سيد محمد حسين طباطبائي لم يستمر طويلاً على موقفه العقلي المنطقي، بل تحوّل إلى التصوّف ـ أو العرفان كما يميل إلى تسميته الإيرانيون ـ تحت تأثير محيي الدين بن عربي. وأخذ يقارن بين التصوف الاسلامي، والتصوف الهندي.

مع رجال الأدب

أ ـ علي دشتي

وندع رجال الدين جانباً، ونتحدّث الآن عن الأدباء الذين عرفناهم أثناء مقامنا في ايران.

وأولهم الشاعر والقصصي والناقد: علي دشتي، وقد زرناه عدة مرات في بيته القائم في شمالي طهران في حيّ (أو ضاحية) شميران. وكان آنذاك عضواً في مجلس الشيوخ، وبذلك كان يحظى بمعاش شهري كبير يكفل له حياة رغيدة. وعنده تعرفت إلى المطربة الكبيرة: مرضية، واستمعت إلى بعض أغانيها. ومثلها عند الايرانيين مثل أم كلثوم في مصر: فكلتاهما تتمتع بخبرة قوية وصوت حافل، وقدرة على التغنّي بالقصائد الكلاسيكية: فكما غنَّت أم كلثوم من شعر شوقي وأبي فراس الحمداني وابن النبيه المصري والبوصيري، كذلك غنَّت مرضية من شعر سعدي وحافظ وخيام وغيرهم من كبار شعراء الفرس. ومرضية هي الوحيدة ـ فيما نعلم ـ من بين كبار المطربات الإيرانيات التي تغني قصائد لهؤلاء الشعراء الكبار، اما سائر المطربات: گوگوش، ومهاستي، وعهدية، الخ فمثل شادية وصباح وفايزة أحمد: أغانيهن عادية شعبية خالية من المعاني.

وكان أول انتاج أدبي لعلي دشتي هو مجموعة بعنوان «أيام مَحْبس» (= أيام السجن) وقد صدر سنة ١٩٢١، ويشتمل على حكايات هزلية ومقالات أدبية كتبها وهو في السجن. وأصدر بعد ذلك قصصاً نالت نجاحاً كبيراً لدى القرّاء.

لكن أهم انتاجه هو النقد الأدبي، أعني دراساته القيمة العميقة عن عمر الخيام، وعن حافظ الشيرازي.

وقد عني بحافظ الشيرازي عناية خاصة، فأصدر عنه دراسة بعنوان: نقش از حافظ» (طهران، سنة ١٩٥٧م)، ثم كتب عدة مقالات في مجلة «يغما»، وهي مجلة أدبية جيدة كان يصدرها منذ سنة ١٩٤٨ الشاعر حبيب يغمائي (وُلِد سنة ١٩٠١) الذي قابلناه في منزل علي دشتي، ثم جمعت هذه المقالات في كتاب بعنوان «كاخ ابداع» (= قصر الابداع)، صدر في شهر (مرواد سنة ١٣٥٢ هـ ش). وهذه المقالات تشمل العناوين التالية:

١ ـ حافظ في الدنيا.

٢ ـ الله عند حافظ.

٣ ـ آدم في ديوان حافظ.

٤ ـ على شاطىء بحر الغناء.

٥ ـ الجبر.

٦ ـ عشق وغزل.

٧ ـ شكاية.

٨ ـ مدائح حافظ وغيرها.

ففي مقالة: «الله عند حافظ» يقول: «حافظ هو رسمياً مسلم، سُنّي، شافعي المذهب. لكن لم يكن في مقدوره ان ينحصر في قالب العقائد والمذاهب والأديان». ولهذا فإنَّ آراءه الدينية لا يمكن ان يقبلها مثل أحمد بن حنبل وابن تيمية، بل سيعدونه ملحداً؛ والشيخ نجم الدين في كتابه «مرصاد العباد» قد وضع حافظ الشيرازي في دركات جهنم! ثم يقول: «وفي ديوان خواجه» (= حافظ) نجد أبياتاً يستنكرها ليس فقط المحدّثون والقشوريون، بل وأيضاً المتكلمون وأهل الاستدلال، ويمكن ان تكون موضوع طعن مثل قوله المعروف:

پير ما گفت خطا برقلم صنع نرفت. قال شيخنا: إن قَلَم الخَلْق لم يخطىء.

آفرين بر نظر پاك پوشش باء.

إن اتقان صنع الباري هو من الأدلة المحكمة التي يسوقها المتكلمون لإثبات ذات الصانع، إذ يقول إن عالم الوجود هو من كل ناحية كامل ومنظم. لكن حافظاً يخالف عقيدة المتكلمين هذه، وذلك في قوله:

ينست در دايره يك نقطه خلاف ازكم وبيش. ليست نقطة الخلاف هي في القليل والكثير.

كه من اين مسئله بي چون وچرامي بينم. بل أرى ان المسألة هي بدون كيف ولا أين.

وإنّما الله في تصوره: فياض، كريم، رؤوف، كله شفقة وبركة. («كاخ ابداع»، ص ١٦ ـ ٢١).

وهذا نموذج من طريقة فهم علي دشتي لشعر حافظ: إنّه يرى فيه شاعراً متحرراً من شكليات العقيدة، واسع الأفق في نظرته الدينية.

❀ ❀ ❀

أمّا مكانته بين كتاب القصة في ايران المعاصرة فأدنى من مرتبة جمال زادة، (ويكتب احياناً: جمالزادة)، وصادق هرايت اللذين يعدان أكبر قصصيين في ايران المعاصرة.

أمّا سيد محمد علي جمال زادة(وُلِد سنة ١٨٩١ او سنة ١٨٩٢) وقد تعرّفنا إليه في جنيف في يوليو سنة ١٩٥٦ أثناء حضور كلينا مؤتمر التربية الدولي: هو بوصفه مندوباً لإيران لدى هيئة الأُمم المتحدة في جنيف، وأنا بوصفي مستشاراً ثقافياً لدى السفارة المصرية في برن. وكان الوسيط في تعارفنا هي ابنة السفير السابق لإيران في لبنان، زين الدين رانما، وكانت تحضر محاضراتي في كلية الآداب العليا في بيروت.

وكان أول انتاج جمال زادة مجموعة أصدرها سنة ١٩٢٢ (برلين، مطبعة كادي) بعنوان: «يكي بود يكي بنود» (= كان وما كان)، وهي مجموعة من الحكايات الساخرة، قدم لها بمقدمة تعد بمثابة بيان لما ينبغي ان تكتب به القصة الفارسية المعاصرة، وفيه يدعو إلى تبسيط لغة القصة، ومزجها بالألفاظ العامية، وحشوها بعبارات لغة التخاطب اليومي مهما تكن الألفاظ او العبارات مستهجنة عند النحويين واللغويين.

وواصل كتابة القصص والأقاصيص، لكنه لم ينشرها إلاّ في سنة ١٩٤١. وكتب ترجمة ذاتية بعنوان: «سر او ته يك كرباس» (سنة ١٩٥٦).

والأقاصيص الست الواردة في المجموعة الأولى: «يكي بود، يكي نبود، تستمد مادتها من الأحوال في ايران المعاصرة. ففيها نلتقي بالأعيان والتجار والعمال بكل خصائصهم وطباعهم وعيوبهم وأطماعهم ومطامحهم، وجمال زادة يصفهم بمنتهى الواقعية، بلا تزويق ولا مبالغة عاطفية والشخصيات فيها تتكلم لغة التخاطب اليومي، المتفق مع الأوساط التي يعيش فيها كل صنف من هؤلاء. ولما كان القارىء الايراني المثقف لا يفهم الكثير من هذه العبارات والألفاظ العامية، فإنَّ المؤلف زود الكتاب بمعجم صغير يفسّر فيه معاني هذه الألفاظ والتعبيرات العامية الدارجة.

وإلى جانب هذه القصص كتب جمال زادة مقالات تاريخية وسياسية. من ذلك مقالة عن مزدك، مؤسّس مذهب المزدكية وهو مذهب ثوري إباحي ظهر في أواخر عهد الساسانيين وظلَّ له أتباع بعد الفتح الاسلامي وحتى القرن الثالث أو الرابع الهجري؛ وبحث عن العلاقات الايرانية ـ الروسية. وقد نشر هذه المقالات في مجلة «كاو» التي كانت تصدر في برلين.

وله كتابات ساخرة لاذعة: نذكر منها: «فلتش ديوان»، وفيه سخرية وصورة فكرية لطهران في العقود الأولى من القرن العشرين. ومن ذلك أيضاً قصة ساخرة بعنوان «راه آب نامه» (= طريق الماء) وفيه يصوّر النزاع الذي قام بين سكان إحدى الحارات حول إنشاء قناة. كذلك سخر من معتقدات الشيعة في أقصوصة: «صحراء محشر» (= ساحة يوم الحشر).

أمّا صادق هرايت (وُلِد سنة ١٩٠٣، وانتحر في باريس سنة ١٩٥١) فكان في الأصل طالباً في كلية الأسنان. ثم سافر إلى فرنسا، وتأثر بالتيارات الأدبية التي كانت سائدة في فرنسا حوالى سنة ١٩٢٥، وعلى رأسها السريالية. وقد استخدم اسلوب السريالية في تحليل الأحوال المرضية العقلية عند شخصيات قصصه. وكان في أعماقه عَدَمي النزعة Nihiliste. وخير ما كتب من القصص هو في الفترة ما بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٧. وقد نشر قصصه في مجموعات بالعناوين التالية:

- «زندة پكور» (= بلا قبر) [سنة ١٩٣٠].
- «قطرة خون» (= قطرة دم) [سنة ١٩٣٢].
- «سايه رَدْشَن» (= ظل ساطع)، سنة ١٩٣٣.
- «عَلَويه خانم» (سنة ١٩٣٣).
- «البومة العمياء» (سنة ١٩٣٦).
- «حاجي أقا» (سنة ١٩٤٥).

وتعد هذه القصة الأخيرة خير انتاجه (وقد ترجمت مرتين إلى الانجليزية عام ١٩٥٧ و١٩٧٤).

وتسود قصصه النزعة الطبيعية الفاضحة، واستلهام الفولكلور الفارسي. وهو من غير شك اشهر الكتّاب الايرانيين في أوروبا.

وله مسرحيات: «پروين دختر ساساني»، «مازيار»، «أفسانه».

ويمكن ان نذكر إلى جانب جمال زادة وصادق هدايت من بين القصصيين الايرانيين في القرن العشرين: محمد حجازي (١٨٩٩ ـ) الذي اشتهر في عهد رضا شاه. والموضوع الرئيسي الذي تناوله في قصصه هو حال المرأة الايرانية. وأول قصة جلبت له الشهرة هي بعنوان: «زيبا» (= جمال) وقد نشرها في سنة ١٩٣١، وتعدّ من أعمق القصص الإيرانية تصويراً للحياة في ايران في القرن

العشرين. وموضوعها هو الحب بين فتاة رائعة الجمال تدعى زيبا وبين آخندو شاب انتهى امره معها إلى الجنون. ـ لكن له قصتين أخريين تحملان أيضاً اسمي البطلتين، وهما: «هما» وفيها يحكي حياة فتاة مرهفة الاحساس؛ ويدافع عن حقوق المرأة، ويطالب بتربية البنت تربية عصرية. والثانية عنوانها: «پريچهر»، وفيها يحلل تجربة حب مغامر. ـ ولحجازي أيضاً مسرحية هزلية بعنوان: «محمود أقارا وكيل كُنير» (= كن وكيلاً يا سيّد محمود).

وكان لحجازي نجاح ظاهر لدى الأوساط الايرانية المثقفة، بسبب لغته المزخرفة التي تذكرنا بأسلوب ولغة «المقامات». ولهذا، أي لاحتفاله باللغة العالية، منح في سنة ١٩٥٧ جائزة الدولة في انتز.

❀ ❀ ❀

وصاحبنا علي دشتي هو الآخر عني بموضوع المرأة في أقاصيصه، التي أصدرها بعنوان: «فتنة». وهو يتناول نفسانية المرأة الايرانية في مختلف الأوساط الميسورة الحال، فيحلّل مشاكلها ويشرّح مشاعرها. وله مجموعة أخرى من الأقاصيص والمقالات تحمل عنوان: «سايه» (= ظلال) تحتفل بالأسلوب واللغة، فضلاً عما فيها من أفكار حرّة ونزعة منطلقة.

ب ـ پرويز ناتل خانلدي

والأديب الثاني الذي توثقت علاقتي به أثناء مقامي في طهران هو الشاعر والنحوي واللغوي الدكتور پرويز ناتل خانلدي (وُلِد سنة ١٩١٣).

كان خانلدي أحد شعراء ثلاثة طالبوا بالتجديد في عروض الشعر الفارسي، وهم: فريدون توكلّي، وپرويز ناتل خانلدي، ونادر نادرپور.

وكان يتولى رئاسة تحرير مجلة «سُخَن» (= الكلمة) التي صدرت في سنة ١٣٢٢ هجري شمسي. وهي مجلة أدبية ممتازة، يجد فيها المرء أحدث انتاج الشعراء الايرانيين والكتّاب الايرانيين وممَّن كان يكتب فيها: صادق هدايت. كذلك نجد فيها ترجمات لروائع من الأدب الأوروبي، ومقالات في النقد الأدبي تتناول مشاكل تاريخ الأدب الفارسي، كما نجد فيها دراسات عن الآداب الأوروبية والفن الأوروبي. وبالجملة هي خير مجلة أدبية في ايران المعاصرة.

أمّا التجديد في العروض الفارسي، الذي دعا إليه هو وزميلاه: فريدون توكلّي، ونادر نادرپور، فيقوم على جعل الوزن في الشعر قائماً على الكمية (قصير ـ

طويل) كما في الشعر اليوناني واللاتيني والأوروبي الحديث، بدلاً من ان يقوم الوزن على التفعيلة كما في الشعر العربي، وكما جرى عليه الشعر الفارسي منذ القرن الثالث الهجري.

كما يقوم هذا التجديد على التحلل من القافية، وسمُّوا ذلك: «شِعْر آزاد» (= الشعر الحر).

أمَّا مؤلفاته في النحو واللغة فنذكر منها:

١ ـ «تاريخ زبان فارسي» (= تاريخ اللغة الفارسية) في أربعة أجزاء (ظهر الجزء الأول في سنة ١٣٤٨ هـ ش ضمن مجموعة انتشارات بنياد فرهنگر ايران، رقم ٢٤).

الجزء الأول: يشمل بابين: الباب الأول يذكر فيه الأصول والمبادىء العامة؛ والباب الثاني يتضمن بيان انواع اللغة الفارسية في العصر السابق على الفتح الاسلامي: مادي ـ سكائي ـ پارسي ـ أو ستائي ـ الخ. وقد زوّد هذا الجزء بالكثير من النقوش والكتابات القديمة المصوّرة.

الجزء الثاني: يبحث في أنواع اللغة الفارسية بعد الاسلام حتى أوائل القرن السابع الهجري.

الجزء الثالث: الصرف والنحو الفارسيان من القرن السابع الهجري حتى القرن الثالث عشر الهجري.

الجزء الرابع: قواعد اللغة الفارسية في فترة التحول، أي من أواخر القرن الثالث عشر الهجري حتى العصر الحاضر.

ويعد هذا الكتاب أجلّ كتاب في موضوعه.

٢ ـ «دستور زبان فارسي» (= قواعد اللغة الفارسية) وهو مختصر جيد لطلبة المدارس في نحو اللغة الفارسية وصرفها، ويقع في ٢٩٥ ص من القطع الصغير (وتاريخ الطبعة ٢ في شهريور سنة ١٣٥٢ هـ ش ونشر بنفس المجموعة تحت رقم ٢٥ من قسم: زبان وأدبيات فارسي).

٣ ـ «زبان شناسي وزبان فارسي» (= علم اللسانيات واللغة الفارسية»).

وكان خانلدي مديراً لـ «مؤسسة الثقافة الايرانية» (بنياد فرهنگ ايران)، وهي مؤسسة تقوم على نشر كتب التراث الايراني وما يتصل بهذا التراث من دراسات. وكان رئيسها الفخري هو الامبراطورة فرح ديبا، وتشرف عليها الأميرة أشرف

بهلوي، أخت محمد رضا شاه. وأصدرت هذه المؤسسة، بفضل ادارة خانلدي لها، ما يزيد عن ألف كتاب، بعضها يقع في عدة مجلدات. وبهذا أسهمت إسهاماً عظيماً جداً في تحقيق التراث الفارسي والتراث العربي لمؤلفين فارسيين ودراسة كلا التراثين.

وقد نشرت لنا هذه المؤسسة تحقيقنا لكتاب «صوان الحكمة» لأبي سليمان المنطقي السجستاني وما بقي من رسائله، وصدر الكتاب في سنة ١٩٧٤.

وكان خانلدي يدير هذه المؤسسة بإخلاص ونزاهة منقطعي النظير، وكل همّه ان يخدم التراث الفارسي - العربي، دون أن ينتظر من وراء ذلك شهرة او دعاوة لنفسه، او الظفر بألقاب التشريف عند الامبراطور، وذلك على العكس تماماً من أولئك الدجالين الأدعياء الذين تولوا مثل منصبه من أجل ابتزاز الشهرة بأخسّ الطرق، مثل شجاع الدين شفا وسيّد حسين نصر.



وقد قام خانلدي بتحقيق بعض آثار هذا التراث الفارسي، يأتي في مقدمة ما قام به في هذا الباب تحقيقه لمائة واثنين وخمسين غزلية لحافظ الشيرازي، تحت عنوان: «غزلها خواجه حافظ شيرازي، بحسب أقدم مخطط كتب في سنة ٨١٣ - ٨١٤ هـ (١٤١٠ - ١٤١٢ م) - طهران سنة ١٣٣٧ هـ ش. وكان قد نشر ديوان حافظ الشيرازي قبل ذلك من الإيرانيين سيد عبد الرحيم خلخالي، تبعاً لمخطوط قيل إنَّه نُسخ في سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م) لكن يشك في صحة هذا التاريخ، وصدرت هذه النشرة في طهران سنة ١٣٠٦ هـ ش. وتلاه محمد قزويني وقاسم غني، فأصدرا نشرة أخرى في طهران سنة ١٣٢٠ هـ ش، لكنها جاءت أسوأ من طبعة خلخالي، رغم مكانة وشهرة مَن قاما بها! ذلك ان قاسم غني (المتوفى سنة ١٣٣١ هـ ش/ ١٩٥٢م) اصدر دراسة جيدة عن حافظ بعنوان: «تاريخ عصر حافظ» (طهران سنة ١٣٢١ هـ ش) فكان ينتظر منه ان يصدر نشرة جديدة لديوان حافظ أفضل من نشرة خلخالي التي سبقت نشرته بأربعة عشر عاماً.

وفي ميدان تحقيق التراث الشعري الفارسي، ينبغي ان ننوه ها هنا بالتحقيقات التالية للعلماء الايرانيين المعاصرين:

١ - «كليات شمس يا ديوان كبير» - أي «ديوان شمس تبريز» لجلال الدين الرومي، تحقيق بديع الزمان فروزان فر (طهران سنة ١٣٣٥ هـ ش، مطبوعات جامعة طهران برقم ٤٣٠) الذي كان عميداً لكلية «الهيات وعلوم إنساني»، ولم نلقه

لأنّه كان قد توفي قبل مجيئنا إلى ايران وتدريسنا في هذه الكلية. وهذه النشرة من أجلّ الأعمال الفيلولوجية وكان فروزان فر قد أصدر قبل ذلك: «خلاصة مثنوي» لجلال الدين الرومي، في طهران سنة ١٣٢١ هـ ش. كذلك حقق قصة لجلال الدين الرومي بعنوان: «فيه ما فيه» (طهران سنة ١٣٣٠ هـ ش ضمن مطبوعات جامعة طهران، برقم ١٠٥). وله ايضاً «رسالة در تحقيق أحوال وزندگاني مولانا جلال الدين» (طهران سنة ١٣١٥ هـ ش).

٢ ـ «أحوال وأشعار رودكي سمرقندي»؛ في ٣ أجزاء، طهران ١٣٠٩ ـ ١٣١٩ هـ ش، تحقيق سعيد نفيسي (وُلِدَ سنة ١٣١٢ هـ ش ـ وتوفي سنة ١٣٤٥ هـ ش = ٢ شعبان سنة ١٣٨٦ هـ).

٣ ـ «كليات» سَعْدي (أبي عبدالله مشرّف الدين)، تحقيق محمد علي فروعن، عدة طبعات، آخرها في طهران سنة ١٣٣٧ هـ ش. كذلك نشر له محمد علي فروعن: «غزليات»، طهران سنة ١٣١٨ هـ ش، و«بوستان» (طهران سنة ١٣١٦).

٤ ـ «حدائق السحر في دقائق الشعر» ـ وهو كتاب في العروض الفارسي، تأليف رشيد الدين الوطواط، تحقيق عبّاس إقبال، طهران سنة ١٣٠٨ هـ ش.

٥ ـ «ديوان» عطار، ولكن بدون الرباعيات، تحقيق سعيد نفيسي، طهران سنة ١٣١٩ هـ ش. ونشر محمد جواد مشكور: «منطق الطير» لعطّار، طهران سنة ١٣٣٧ هـ ش.

٦ ـ «ديوان حَسّان العَجَم»، تحقيق علي عبد الرسولي (طهران سنة ١٣١٦ هـ ش).

٧ ـ «رباعيات» عمر الخيام، تحقيق سعيد نفيسي (طهران سنة ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦ هـ ش)؛ تحقيق محمد علي فروعن وقاسم غني (طهران سنة ١٣٢١ هـ ش).

٨ ـ «ديوان أشعار» ناصر خسرو، تحقيق نصرالله تقوي (طهران سنة ١٣٠٤ ـ ١٣٠٧ هـ ش)؛ «جامع الحكمتين»، ناصر خسرو، تحقيق محمد معين، مع مقدمة لهنري كوربان (طهران سنة ١٩٥٣م)؛ «سفرنامه»، تحقيق محمد دبير سياقي (طهران سنة ١٣٣٥ هـ ش).

٩ ـ «خمسه» للشاعر نظامي گنجوي، تحقيق وحيد دستگردي (طهران سنة ١٣١٣ هـ ش).

١٠ ـ «حديقة الحقيقة» تأليف سنائي، تحقيق مدرّس مرتضوي (طهران سنة

١٣٢٩ هـ ش)؛ «ديوان»، تحقيق مدرّس رضَوي (طهران سنة ١٣٢٠ هـ ش)، وتحقيق مظاهر مُصَفّى (طهران سنة ١٣٣٦ هـ ش).

١١ ـ «ديوان» بابا طاهر، تحقيق وحيد دستگردي (ط ٢، طهران سنة ١٣١١ هـ ش).

١٢ ـ «كليات» عُبَيْد زاكاني، تحقيق عباس إقبال (طهران سنة ١٣٢١ هـ ش، ط ٢ سنة ١٣٢٢ هـ ش)؛ «محشات نامه» لعبيد زاكاني، تحقيق سعيد نفيسي (طهران سنة ١٣١٤ هـ ش).

جـ ـ محمد محيط طباطبائي

وقد عرفناه لأول مرّة أثناء الاحتفال بالذكرى الألفية لابن سينا في بغداد (أواخر مارس ـ أوائل ابريل سنة ١٩٥٢) وكان هو آنذك ملحقاً ثقافياً بالسفارة الايرانية في بغداد.

ولما جئنا إلى طهران في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٧٣ كنا نلتقي أيام مؤتمر البيروني، ثم لما أقمنا في طهران طوال عام دراسي كنا نلتقي معاً إمَّا في مكتبة مجلس شوراي ملّي، وإمَّا مع جماعة اعتادت اللقاء للغداء معاً في يوم الأربعاء في غرفة بمدرسة سپهسالار المجاورة لمجلس شوراي ملّي، كان من بين أفرادها: د. مهدي محقق رئيس قسم اللغة الفارسية بكلية الآداب بجامعة طهران، ود. جعفر شهيدي أستاذ اللغويات، الخ.

وانتاج محمد محيط طباطبائي (ونذكر هنا ان: اللقب «طباطبائي» يعني الانتساب إلى آل البيت من ناحيتي الأب والأم، ان حقاً أو ادعاء وهو الأغلب؛ وكما ينتشر هذا اللقب بين الشيعة، كذلك يوجد، على نحو أقل انتشاراً، بين السُّنَّة) ينحصر في مقالات صغيرة يحقق فيها جزئيات تاريخية، مثل مقال: «تاريخ وفاته قا آني ووصال» (مجلة «أرمغان» ١٨: ص ٥٧ ـ ٦١)، أو شخصيات شبه مجهولة مثل مقالاته عن: «صحابي أسترم بادي» لـ (مجلة «أرمغان»، ١٣: ٦١٧ ـ ٦٢٠) و«شهاب تُرْشيزي» («أرمغان»، ١٣: ٢٣٩ ـ ٢٤٤)، أو يدخل في مجادلات مع المستشرقين مثل مقال: «عقيدة ديني فردوسي. انتقاد دانشمندان أروبائي» (مجلة «فِهر» ٦٣٥ ـ ٦٧٢). وكان يلقي في الاذاعة أحاديث كلها من هذا النوع. وكان آنذاك ينشر مقالاته في مجلة «يغما»، وما أكثر ما نُشر فيها من مقالات من ذلك النوع!

د ـ مهدي محقق

كان رئيساً لقسم الأدب الفارسي بكلية الآداب بجامعة طهران. وقد درس العلوم الدينية في جامعة مشهد. كان يلبس زيّ رجال الدين. لكنه سافر في بعثة إلى كندا والولايات المتحدة، وعاد من تلك البعثة ليعمل مدرساً في كلية الآداب بجامعة طهران، وتخلّى عن زيّه الديني ولبس الملابس المدنية. وعهدت إليه جامعة ماك جل Mac Gill في مونتريال (كندا) بالاشراف على الفرع الذي فتحته في طهران لاستقبال الباحثين في الدراسات الفارسية ونشر النصوص والدراسات المتعلقة بالأدب والتصوف وسائر فروع العلوم الاسلامية في ايران.

وقد تولّى هذا الفرع نشر كتابنا: «أفلاطون في الاسلام» (طهران، سنة ١٩٧٤) الذي فيه جمعنا كل ما ترجم لأفلاطون إلى العربية من نصوص صحيحة وطائفة مما نُحل إليه في العربية من نصوص منحولة، وكذلك ما كتبه فلاسفة الاسلام (خصوصاً الفارابي) من تلخيصات لمؤلفات أفلاطون وما نقلوه عن مؤلفاته الصحيحة من مقتبسات.

ويشترك معه في اصدار هذه السلسلة ايزتسو، وهو باحث ياباني له كتاب جيد في «المصطلحات الأخلاقية في القرآن».

د ـ مصنفي فهارس المخطوطات

دانست پژوة، وآية الله نوراني، وحائري

ومن مصنفي فهارس المخطوطات تعرّفتُ إلى دانست پژوة، الذي صنف ثبتاً موجزاً جداً بما في المكتبة المركزية لجامعة طهران من ميكروفلمات لمخطوطات كان الفضل في تحصيل المكتبة لها راجعاً في المقام الأول إلى الأستاذ ايرج أفشار؛ مدير المكتبة ومصنف النشرة الفهرسية: «كتا بشتاسي ايران» التي بدأ إصدارها في طهران سنة ١٣٣٢ هـ ش. وآفة مصنف دانست پژوة انه مجرد ثبت موجز جداً يقتصر على ذكر المؤلف وعنوان الكتاب وعدد صفحاته ورقم الميكروفلم. وكثيراً ما وردت فيه أخطاء سواء في تحديد هوية المؤلف أو عنوانات الكتب الرسائل. لهذا ينبغي ان يحذر المرء في الاعتماد على ما فيه من بيانات.

كما تعرّفت إلى رجل دين فاضل هو آية الله نوراني، وقد اشترك في تصنيف فهرس لمخطوطات مكتبة مشهد، وهو في الوقت نفسه إمام لمسجد في ضاحية شميران بشمالي طهران، وله تحقيقات في مسائل جزئية.

أمَّا الأستاذ حائري، المشرف على قسم المخطوطات العربية في مكتبة مجلس شوراي ملّي ايران؛ فعالم فاضل واسع الاطلاع على المخطوطات، وكان آنذاك يعمل في تصنيف فهرس مفصل لمخطوطات مكتبة مجلس شوراي ملّي، في عدة أجزاء. وهو خير مَن يتقن اللغة العربية بين واضعي فهارس المخطوطات في ايران.

اللغة الفارسية واللغة العربية

وهذا يقودنا إلى الحديث عن اللغة الفارسية كما يتكلمها القوم في ايران اليوم.

فتح المسلمون ايران في العقد الخامس من القرن السابع الميلادي. ومنذ ذلك التاريخ أخذت اللغة العربية تغزو اللغات الايرانية.

وبحسب ما أورده ابن النديم في كتاب «الفهرست» نقلاً عن ابن المقفع كانت اللغات المتداولة في ايران حوالى سنة ٧٥٠م هي:

أ ـ في ميديا وآذربيجان: اللغة الپهلوية: پهلوي.

ب ـ في مقاطعة فارس: الفارسية: فارسي.

جـ ـ في شرقي ايران: دَرِي، ودَرِي هي لغة التخاطب عند الطبقة الحاكمة في الفترة الأخيرة من حكم الساسانيين، كما كانت لغة القصر الساساني في المدائن (٤٠ كم جنوبي بغداد)، كما كانت ايضاً لغة الادارة في أنحاء الامبراطورية الساسانية كلها. وبسبب اندثار لغة الپارثيين في خراسان وارتحال المانوية والزرادشتية بسبب اضطهاد الساسانيين لهم، استقرت لغة دَرِي هذه في شرقي ايران الذي كانت مدينة بلخ مركز العمران فيه.

وصارت دري هي الصورة الأولى للفارسية الجديدة التي هي لغة الكتابة في الفترة ما بين القرن السابع إلى العاشر الميلادي. ولغة دَري تختلف عن اللغة الميدية في «الجبال» وعن لغة اقليم فارس، وحاولت ان تقاوم نفوذ اللغة العربية في ألفاظها وتراكيبها.

وتكوّنت اللغة الفارسية الجديدة التي ستصير لغة الكتابة ابتداء من القرن الرابع الهجري عند مَن يكتبون بالفارسية في ايران، من لغة فارس ومن تطعيمها بعناصر عربية تزايدت مع الزمن حتى صارت الألفاظ العربية تكوّن ثمانين في المائة من معجم اللغة الفارسية الجديدة. وكان للبويهيين الفضل الأكبر في جعل الفارسية

الجديدة، في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) هي اللغة السائدة في الكتابة والتخاطب في كل ايران، إلى جانب اللغة العربية.

واستمر تزايد العناصر العربية في اللغة الفارسية الحديثة في عهد المغول، وعهد التيموريين وحتى في عهد الصفويين. وفي الوقت نفسه دخلتها عناصر من لغة هؤلاء الحكام: عناصر مغولية وتركية.

لكن هذه اللغة الفارسية الحديثة؛ على الرغم من وحدتها على الأقل في الأدب والكتابة بعامة، كانت تجاورها لهجات محلّية بعضها كان يكتب به الأدباء. ومن ذلك اقليم طبرستان (حول جنوبي بحر قزوين) لأنَّه ظلَّ مدة طويلة ينعم بالاستقلال الذاتي فإن لهجته استعملها بعض الأدباء في مؤلفاتهم مثل كتاب: «مرزبان نامه»، وكتاب نيكنى نامه = (كتاب الجمال) وهو مكتوب بالنظم. وتجمع حول قابوس بن وشمگير مجموعة من الشعراء الذين نظموا أشعارهم بلهجة طبرستان. كذلك نظم محمد بن سعيد البيهقي بلهجة بيهق (تسمَّى اليوم: سبزوار) أشعاره. وبلهجة هرات كتب آية الله خواجه الأنصاري الهروي نثراً، والبنائي كتب قصيدته. ولدينا بعض أبيات من الشعر نظمها سعدي وحافظة بلهجة شيراز.

وفي القرن التاسع عشر والنصف الأول من هذا القرن دخلت عناصر أوروبية في اللغة الفارسية، معظمها يتعلق بالصناعات وأدوات الحياة اليومية.

لكن لما تولَّى رضا خان الحكم في سنة ١٩٢٥ وشجع على العودة إلى التقاليد الايرانية السابقة على الاسلام - وبتعبير رجال الدين في ايران: «الجاهلية الايرانية» - كان من الحركات السائرة في هذا الاتجاه حركة تدعو إلى تطهير اللغة الفارسية من الألفاظ العربية ومن الألفاظ الأوروبية. وعبّرت هذه الحركة على نشاطها في مجلات خصّصتها لهذا الغرض: أولها مجلة «نمكدان» التي صدرت في سنة ١٩٢٩ في طهران، ثم مجلة «ريحان» التي كان يرأسُ تحريرها كسروي تبريزي. ثم أُنشئت الأكاديمية الايرانية، واسمها: فرهنجستان ايران، في سنة ١٩٣٥ وجعلت مهمتها الأولى تطهير اللغة الفارسية من الدخيل، عربياً كان أو أوروبياً، وفي المعجم الذي أخذت في إصداره سعت إلى هذا التطهير.

على انه سبقت هذه الحركة نزعات تطهير للغة الفارسية، وذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر، تولّى كبرها الشاعر الساخر: ميرزا أبو الحسن يغما (وُلِدَ حوالى سنة ١١٩٦ هـ/ ١٧٨٢م في خور بيابانك بنواحي چندك في دشت وير شمالي يزد - وتوفي سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩م في قريته)، إذ زعم يغما انه يستطيع ان

يكتب فارسية خالية من الألفاظ العربية، وسمّاها: فارسي نگاري، وقيل إنه كتب بضع رسائل بهذه اللغة الفارسية المحضة!!

لكن هذه الحركة التي تولاها يغما ما لبثت ان وئدت في مهدها، وبالغ الشعراء والكتّاب في الاتجاه المضاد، وعلى رأسهم رضا قولي خان هرايت، المعروف ايضاً بلقب: لا لا باشي (= مربِّي الحكّام) [وُلِدَ في طهران سنة ۱۸۰۰، وتوفي سنة ۱۸۷۱م]، فقد احتفل للغة الفارسية الكلاسيكية أيما احتفال، يتجلى ذلك في ديوان شعره الذي يحتوي على خمسين ألف دوبيت وستة مثنوي، ويشتمل على ملحمة شعرية بعنوان: «جُلستان إرم»، او «بكتاش نامه»، وفيه يهتم بغرام البطل الشاب بكتاش، وقد استمد مادّتها من ديوان «إلهي نامه» لفريد الدين العطار.

لكن اذا كانت اللغة الفارسية الحالية تحتوي على ثمانين في المائة من الألفاظ العربية، فقد لاحظنا أنه يحدث في كثير من الأحيان ان يختلف المعنى للفظ الواحد بين العربية والفارسية. وها نحن نسوق بعض الأمثلة التي لفتت انتباهنا أثناء مقامنا في ايران:

اللفظ	المعنى في العربية	المعنى في الفارسية
حقوق	جمع: حقّ ما هو للانسان	مرتب الوظيفة
ماليات	شئون المال، أمور مالية	ضرائب حكومية
كثيف	ضد خفيف او متخلخل	وسخ، قذر
كاراخانه	في اللغة الدارجة المصرية: بيت دعارة	مصنع
مخابرات	تجسُّس	مواصلات (سلكية ولاسلكية)
يتقاضى	طرف في قضية	مقدم طلب إلى جهة
عكّاس	-	مصوّر
عينك	-	نظّارة
تسليت	تفريج الهم	عزاء في الميت
تشريفات	مظاهر التكريم	شكليات
تشخيص	تحديد، تمثيل	تمييز (مثلاً: بين الخير والشر)

اللفظ	المعنى في العربية	المعنى في الفارسية
تحميل	وضع حمل على دابة أو عربة	فرض أمر، اعتداء
امارة	سلطة دولة يحكمها أمير	حساب
جهة (ت)	ناحية	سبب، عِلّة
سفّار	-	بائع كتب
عكس	الوضع المقابل	تصوير فوتوغرافي
غمز	اشارة مستترة	تبليغ ضد شخص
غمّاز	مَن يغمز بطرف عينه	واشي، مُخبّر عن جرائم
قلم	أداة الكتابة	نوع، شكل
توجه	اتخاذ وجهة	اهتمام، اعتبار
تورّم	انتفاخ عضو	تضخم مالي
تصاعد	تزايد في الارتفاع	متوالية (حسابية أو هندسية)
توطئة	تمهيد	مؤامرة
حوزة	مِلْك	حوزة انتخابية: دائرة انتخابية
محكمة	مكان التقاضي	ممارسة الطب، تطبيب
منقبة	صفة	نقاب، برقع
مسلسل	متوالي	مدفع رشاش

صحيح ان ثمّ علاقة في المعنى بين الاستعمال الفارسي للكلمة العربية وبين المعنى الأصلي للكلمة العربية، لكن هذه العلاقة قد تكون بعيدة جداً بحيث يؤدّي الأمر إلى لُبس خطير.

يضاف إلى هذا اللبس الناشىء عن الألفاظ المتفقة بين العربية والفارسية لبس آخر قد يصبح فاحشاً ومؤدّياً إلى التناقض، هو اللبس الناشىء عن عدم استطاعة الايرانيين النطق ببعض الحروف العربية مثل العين والحاء والضاد والقاف: فالعين

ينطقونها ألفاً، والحاء هاء، والضاد ظاء، والكاف غيناً.

ومن المفارقات الغريبة التي يؤدِّي إليها سوء نطق الايرانيين لهذه الحروف نذكر مثلين:

أ ـ اعتاد رجال الدين وعامة الناس بعد ذكر اسم الامام الثاني عشر ان يقولوا: عجَّل الله فَرَجه، فينطقون الكلمة الأولى: «أجّل...» وهكذا ينقلب المعنى إلى نقيضه.

ب ـ ثمَّ جمعية «للتقريب» بين مذهب الشيعة ومذهب السنَّة في الفقه؛ ولما كان الايرانيون ينطقون القاف غيناً، فإنَّ هذا النّطق يقلب معنى الكلمة إلى ضد المقصود، إذ تصبح: «التغريب...».

والنطق بالقاف غيناً هو أحفل هذه التشويهات في نطق الحروف العربية بالمفارقات والتلبيسات الأليمة أحياناً، الفكرية أحياناً أخرى. تأمّل مثلاً الكلمات العربية الثانية لو نطقت القاف فيها غيناً: باقي (باغي) ـ مصدق (مصدغ) ـ نقل (نَغِل) ـ بقية (بغيّة) ـ قربان (غربان» ـ قول (غول) ـ فراق (فراغ) ـ بقل (بغل).

أمَّا النطق بالضاد ظاء فيشارك الايرانيين فيه لهجات عربية مثل لهجة العراق، وسائر دول الخليج وليبيا الخ.

على ان الايرانيين في نطقهم للكلمات العربية المنقولة إلى الفارسية انما ينطقون نطقاً مبايناً بالجملة لنطق العرب لها، لهذا يصعب كثيراً على العربي ان يميّز الكلمة العربية التي ينطق بها الايراني ضمن لغته الفارسية.

وأذكر مرة ان محمد محيط طباطبائي طلب منِّي قراءة قصيدة لجلال الدين الرومي كنت قد استشهدت بها في إحدى محاضراتي عن التصوف في كلية الاهيات وعلوم إسلامي ولم يكن قد سمع بهذه القصيدة من قبل. فقال لي بعد ان قرأت القصيدة: أنت تحسن النطق بالكلمات الفارسية مثلنا تماماً، أمَّا الكلمات العربية في القصيدة فأنت لا تنطق بها مثلنا، فعليك لاتقان الفارسية تماماً ان تنطق ما فيها من كلمات عربية كما ننطق بها نحن، لا كما ينطق بها العرب.

فأجبته: كلا، يا سيدي! لن أفعل هذا أبداً، لأنَّني لن أسمح لنفسي بتشويه لغتي العربية من أجل اتقان النطق بالفارسية!!

هذا ومن المؤسف حقاً ان بعض أساتذة اللغة الفارسية في مصر بلغت بهم الببغاوية في المحاكاة حدًّا يجعلهم ينطقون الألفاظ العربية في الفارسية علىَ النحو المشوّه الذي اعتاده الايرانيون! ومثلهم مَثَل ببغاوات اللغات الأوروبية الحديثة الذين ينطقون أسماء الأعلام العربية كما ينطقها أصحاب هذه اللغات؛ فيقولون:

ماهومت (محمد) ـ كايرو (القاهرة) ـ اومار (عمر) ـ سيري (سوريا) ـ ألي (علي). وهذا الحمق التام قد بلغ القمة عند اللبنانيين والتونسيين والجزائريين والمغاربة!! شفاهم الله من هذا الداء الوبيل، الذي يتباهون مع ذلك به دون أي حياء ولا خجل. ألا فليعلموا انه لا علاقة مطلقاً بين هذه الببغاوية الشائنة وبين اتقان اللغة الفارسية او اللغات الأوروبية، الحديثة، بل هي علامة افلاس وعجز لغوي في العربية وفي هذه اللغات الأجنبية على السواء. ولئن ألتمس العذر لغير العرب عند عجزهم عن نطق بعض الحروف العربية، فأي عذر لدى هؤلاء الناطقين بالعربية؟!

مؤتمر سيبويه في شيراز

وما دمنا بسبيل الحديث عن اللغة، فلنذكر ها هنا مؤتمر سيبويه الذي عقد في شيراز في أوائل شهر ابريل سنة ١٩٧٤، وعقدت جلساته في القاعة الكبرى بجامعة پهلوي في شيراز، وهي جامعة جديدة الانشاء، فخمة الأبنية، تشتهر خصوصاً بتدريس الطب لأنها على ارتباط وثيق بإحدى الجامعات الأمريكية: تتبادل معها الأساتذة، ويتم تدريس الطب باللغة الانجليزية. وكان مدير جامعة پهلوي آنذاك طبيباً زرادشتي الديانة.

وحضر المؤتمر عدد كبير من المختصين بالدراسات اللغوية العربية والسامية في البلاد العربية، وتركيا، وايران، نذكر منهم: من المغرب: علال الفاسي؛ ومن مصر: د. سيد يعقوب بكر، المتخصص في السريانية، ولطفي عبد البديع. أمَّا من ايران فكان عدد كبير من أساتذة اللغة العربية وبعض العلماء الايرانيين المتقنين للغة العربية، ونذكر منهم: د. محمد محمدي، عميد كلية إلهيات وعلوم إسلامي، ومحمد محيط طباطبائي، وأساتذة من جامعة مشهد غابت عنَّا أسماؤهم.

واشتركت أنا في هذا المؤتمر ببحث عن «تأثير النحو اليوناني في كتاب سيبويه». وقد أثار بحثي هذا الكثير جداً من المناقشات، نظراً لطرافة وأصالة الآراء التي أبديتها في هذا البحث:

١ ـ فقد أثبت أولاً ان ما يعرف بـ «الكتاب» والمنسوب إلى سيبويه هو في الحقيقة لعدة مؤلفين من بينهم سيبويه. واستشهدت على ذلك بما ورد في كتاب «الفهرست» لابن النديم، حيث ورد ما يلي:

«قرأت بخط أبي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون انساناً، منهم سيبويه. والأصول والمسائل للخليل» (ابن النديم: «الفهرست» ص ٥١ س ٢٤ ـ ٢٥، نشرة فلوجل، ليپتك سنة ١٨٧١).

ومعنى هذا النص ان الأصول والمسائل الواردة في «كتاب» سيبويه هي من اقتراح الخليل بن أحمد (توفي سنة سبعين ومائة، وعمره اربع وسبعون سنة)، وعنه أخذ سيبويه النحو. ومعنى هذا ان سيبويه أخذ عن استاذه الخليل بن أحمد أصول المسائل النحوية وأثبتها في كتاب، وزاد في شرح هذه الأصول، وأضاف إليها شواهد، وحدّد بعض قواعد النحو. ثم جاء بعده أربعون عالماً زادوا في الكتاب والشواهد حتى صار الكتاب هو ما عُرف بعد ذلك بـ «الكتاب» لسيبويه.

٢ ـ وبيَّنت ثانياً ان أسماء الاصطلاحات النحوية: اسم، فعل، حرف، فاعل، مفعول به، مفعول معه، مفعول مطلق، ظرف زمان، ظرف مكان، الخ تدل على ان واضعها للعربية لا بد ان يكون على قدر كبير من القدرة على التجريد الفكري وان يكون مسبوقاً بأبحاث تحليلية في نحوّ اللغات عامة. ولما كانت اللغة اليونانية هي وحدها من بين اللغات المنتشرة في الشرق الأوسط التي وضعت كتب في نحوها وصرفها، بينما اللغة العبرية لم يوضع لها نحو إلاَّ في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، كما انه لم توجد كتب في نحو اللغة الفارسية الوسطى (الفهلوية) لهذا فإنه ما كان يمكن لسيبويه ان يعرف هذا التجريد في النحو إلاَّ من كتب النحو اليونانية. لكن لم يثبت لدينا ان سيبويه كان يعرف اليونانية ـ فكيف نزعم هذا الزعم؟ هنا نفترض ان سيبويه عرف ذلك شفاهاً من علماء اليونانيات في جند نيساپور، وهي قريبة من مسقط رأسه ومكان نشأته. إذ وُلِد سيبويه في البيضاء، بمقاطعة فارس، وهي غير بعيدة عن جند نيساپور التي كانت في القرون من السادس الى التاسع الميلادي من اكبر مراكز الثقافة اليونانية (راجع كتابنا: «التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية»).

❁ ❁ ❁

أمَّا سائر الأبحاث التي قدّمت في هذا المؤتمر فكانت مجرد ترديد للمعلومات التقليدية المعروفة حتى كان معظم المشتركين يكرر بعضهم بعضاً، ومن ذلك تكرار ما يسمَّى بالمسألة الزنبورية أي المجادلة التي وقعت بين سيبويه وبين الكسائي حول العبارة: «كنت أظن ان لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور فإذا هو هي ـ أو: فإذا هو إياها». ـ وكانت المجادلة بينهما في حضرة يحيى بن خالد البرمكي (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) ـ واحتكما في الخلاف بينهما الى أعراب فصحاء كانوا قد وفدوا على السلطان، فكان الكسائي على الصواب، وكان سيبويه على خطأ. فأثّر الحادث في نفس سيبويه، وعاد الى البصرة ومنها إلى فارس ومات

بها. وقيل إنّه مات غمًّا بسبب هزيمته هذه. ولا يعرف تاريخ وفاته: فابن النديم يجعله في سنة سبع وسبعين ومائة وابن الجوزي يجعله في سنة أربع وتسعين ومائة؛ اما الخطيب البغدادي فيقول في كتابه «تاريخ بغداد» ان ابن دريد يؤكّد ان سيبويه توفي في شيراز، وان قبره بشيراز.

وعلى أساس هذا الزعم أُقيم لسيبويه قبر حديث قام المؤتمرون بزيارته. لكن لا يوجد أي سند تاريخي صحيح لكون سيبويه قد دفن في هذا المكان الذي خصص حديثاً ليكون به قبر سيبويه.

ومن الأبحاث التي ألقيت بحث عن معنى كلمة «سيبويه» إذ يرد في معظم كتب السيّر ان هذا اللفظ معناه: «رائحة التفاح» (= الفهرست» لابن النديم ص ٥١ س ٢١، نشرة فلوجل)، على أساس ان: «سيب = التفاح + بويه = رائحة. لكن الباحثين المحدثين من المستشرقين يرفضون هذا التفسير «لأنه لم يثبت ابداً ان هذا الاسم كان ينطق بباء مشدّدة (سيب بويه)؛ وبالقياس إلى عدد كبير من الأسماء الفارسية القديمة التي تحتوي على المقطع الأخير: «ويه» يمكن باحتمال كبير ان يكون الاسم ينطق سيبُويه وانه كان اسماً للتلميح معناه: «تفاحة صغيرة» (ف. كرنكوف: «دائرة المعارف الاسلامية» الطبعة الأولى، جـ٤ ص ٤١٢ عمود ٢).

فأورد صاحب ذلك البحث ثبتاً طويلاً بأسماء تنتهي بـ: ويه. وعلقت أنا على البحث فأضفت حوالى خمسة عشر اسماً آخر تنتهي بـ: ويه. وقلت انه باستقراء هذه الأسماء المنتهية بـ «ويه» لا نستطيع ابداً استخراج معنى مشترك يحدد المقصود بهذا المقطع الأخير، وهذا يؤذن بأنه من غير الممكن تحديد المقصود بهذا المقطع على وجه التحديد. إذن لا حل لهذه المشكلة.

مدينة شيراز

وفي هذه المرة، وهي الثانية، أُتيحت لي زيارة معالم مدينة شيراز والاستمتاع بجمال آثارها وعميق ذكرياتها.

إن في مدينة شيراز، وهي الآن عاصمة محافظة فارس، تقع على نهر كنأباد، وهو نهر صغير، على خط عرض ٢٩° ٣٦ ثانية شمالاً، وخط طول ٥٠° ١٠ ثوان شرقاً. وبحسب ما يرويه المؤرخون والجغرافيون العرب فإنَّ الذي أسَّس مدينة شيراز هو الحجاج بن يوسف الثقفي حين كان والياً على العراق (القرن السابع الميلادي). لكن الثابت تاريخياً هو انها أقدم من ذلك بكثير: فقد كانت مدينة مهمة

في عهد السلوقيين (من سنة ٣١٢ إلى سنة ١٧٥ ق.م)، وفي عهد البارثيين (سنة ٢٤٧ ق.م - ٢٢٤ بعد الميلاد)، وعهد الساسانيين (حوالى سنة ٢٢٤ م - ٦٥١ م). وفي اوائل القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) لما استولى المغول على ايران أنشأوا المسجد الجديد (مسجدلو) وقلعة باغ تخت. وغزاها تيمور لنگ في عامي ١٣٨٧ م و١٣٩٣ م.

ونهبها الجيش الأفغاني في سنة ١٧٢٤. ثم صارت عاصمة لدولة زند (١٧٥٠ م - ١٧٩٤ م) التي أسَّسها «الوكيل» كريم خان زند، فزود المدينة بالأبنية الفخمة ومن بينها ضريحه الذي صار الآن متحفاً، وقلعة (صارت الآن سجناً)، وبازار الوكيل (وكيل: لقب اتخذه ملوك أُسرة زند، بدلاً من: شاه).

ومن أفخم العمائر في شيراز ضريح شاه چراغ (١٣٤٤ م - ١٣٤٩ م).

وعلى الرغم ما أصاب شيراز من كوارث: فيضانات في سنة ١٦٣٠ و١٦٢٨، وزلازل: خصوصا في عام ١٨٢٤ و١٨٥٣ فقد احتفظت بالكثير من آثارها.

وفي شيراز وُلِدَ الشاعران العظيمان: سعدي، وحافظ. وقبراهما في شمالي المدينة بستان رائع الجمال حافل بأشجار السرو والبرتقال.

وفي شيراز قامت مدرسة للتصوير في عهد المغول الايلخان (١٢٥٦ - ١٣٩٣) استمرت حتى النصف الأول من القرن السادس عشر، لكن اوجها كان في العقد الثاني من القرن الخامس عشر في عهد التيموريين (أسَّسها تيمور سنة ١٣٧٠ م). ويقسم تاريخ هذه المدرسة الى ثلاث مراحل:

الأولى: وتمثلها لوحة مصوّرة بتاريخ سنة ١٣٤١، هي ورقة في مخطوط «شاهنامه» للشاعر فردوسي، تصوّر الأمير سياووشن وهو يلعب البولو. وفيها شخوص عديدة وهي تحتفل بالرسم بقدر ما تحتفل بالتلوين.

الثانية: والتصوير فيها غارق في الأحلام؛ ويقل فيه رسم الشخوص، والوجوه قوية التعبير. وعنصر المنظور موجود فيها. وتسود الألوان: الأزرق، القرمزي، الرمادي، والأبيض.

الثالثة: تبدأ مع منتصف القرن الخامس عشر حين استولت قبائل التركمان على شيراز وفي هذه المرحلة أولع المصورون بالألوان الغامقة، وبالافراط في استعمال اللون الأسود، وبالاهتمام بالمناظر الطبيعية. ومن الشواهد عليها ورقة تاريخها حوالى سنة ١٤٨٠ في مخطوط «خوران نامه» لابن حسام.

وشيراز تشتهر بالسجاد الشيرازي، وأفضل أنواعه النوع المعروف بالقشقائي ولشهرة مدرسة التصوير في شيراز بعث امبراطور الهند: أكبر (المتوفى سنة ١٦٠٥) إلى شيراز واستدعى أحد المصورين المشهورين فيها، ويدعى عبد الصمد، للتدريس في مدرسة التصوير التي أنشأها اكبر في دهلي، وعلى يده تخرّج عدد من المصورين الهنود في القرن السادس عشر.

زيارة قبري سعدي وحافظ

وكانت زيارتي الأولى لقبري سعدي وحافظ هي بصحبة المشاركين في مؤتمر سيبويه.

وكم كان تأثري عميقاً لهذه الزيارة، خصوصاً لقبر حافظ الشيرازي الذي طالما قرأت ديوانه وأنا أُترجم «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» للشاعر الألماني الأكبر يوهان ڤلفجانج جيته. وكانت قراءتي الأولى لهذا لديوان حافظ هي في ترجمته الألمانية التي قام بها يوسف فون همّر (في جزئين، توبنجن، ١٨١ ـ ١٣) لأنّي لم أكن أُتقن الفارسية آنذاك (سنة ١٩٤٣)؛ وكانت قراءتي الثانية له في الترجمة العربية الجيدة التي قام بها د. أمين الشواري وأصدرها بعنوان: «أغاني شيراز» (سنة ١٩٤٧). وكانت قراءتي الثالثة وما تلاها من قراءات حتى الآن هي في النص الفارسي للديوان بتحقيق محمد قزويني وحافظ غني (ط[١]، طهران سنة ١٩٤١).

وحافظ الشيرازي قد وُلِدَ في شيراز في تاريخ اختلف في تحديده: ٧١٧ هـ، أو ٧٢٠ هـ، او ٧٢٦ هـ (١٣١٧ م أو سنة ١٣٢٠ م، أو ١٣٢٥ ـ ٢٦ م على التوالي). وأمضى معظم حياته في شيراز، حيث كان مقرّباً إلى بلاط المظفّرين حكام شيراز. وتوفي في شيراز إمّا في سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) أو سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م).

وكانت شيراز قد صارت تحت حكم المظفرين منذ انتصار مبارز الدين محمد على أُسرة الاينجو، واستمر في الحكم خمس سنوات إلى ان عَزَله وسمل عينيه ابنه جلال الدين شاه شجاع الذي استمر في الملك من سنة ٧٥٩ هـ حتى سنة ٧٨٦ هـ (٣٥٨ آ ـ ٨٤ م). وفي عهد حكم شاه شجاع ظفر حافظ بالرضا ثم غضب عليه شاه شجاع لمدة قدرها عشر سنوات (٧٦٨ ـ ٧٧٨ هـ = ١٣٦٦ ـ ٧٦ م)، مما حمل حافظ على ترك شيراز والاقامة عاماً أو عامين في أصفهان ويزد. ثم عاد شاه شجاع فرضي عنه، كما رعاه وزيره جلال الدين تورانشاه.

وكان حافظ الشيرازي سُنِّي المذهب.

ويقال إنه جمع ديوانه قبل وفاته بعشرين سنة، أي في سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م). لكن هذا الخبر غير أكيد. وأكثر احتمالاً خبر آخر يقول ان تلميذه محمد جُلْ آندام هو الذي جمع ديوانه بعد وفاته. وهذه النسخة هي الأم لكل ما صدر بعد ذلك من مخطوطات ومطبوعات لديوان حافظ الشيرازي. بيد ان ما لدينا من مخطوطات يؤذن باختلاف عدد القصائد، مما جعل الطبعات تختلف اختلافاً كبيراً في عدد ما تحويه من قصائد: نشرة هـ. بروكهارس (ليپتك سنة ١٨٥٤ ـ ١٨٦١) تحتوي على ٦٩٢ قصيدة؛ ونشرة حسين خلخان (طهران سنة ١٩٢٧) تحتوي على ٤٩٥ وتقوم على أساس مخطوطات تاريخية سنة ٨٢٨ هـ)، ونشرة حسين پژمان (طهران سنة ١٩٣٦) تحتوي على ٩٩٤ قصيدة؛ ونشرة محمد قزويني وقاسم غني (طهران سنة ١٩٤١) تحتوي على ٥٧٦ قصيدة!

واختلف في تأويل هذه القصائد اختلافاً شديداً بين مَن يأخذها بحروفها ومعانيها الحسية، وبين مَن يؤوّلها تأويلاً يوغل في الرمز.

ولم يظفر شاعر مسلم سواء في الشرق وفي أوروبا بما ظفر به حافظ من شهرة ومكانة. ولو عُدَّ أعظم عشرة شعراء في تاريخ الانسانية كلها، لكان حافظ الشيرازي واحداً منهم.

وكثير من الايرانيين يحفظون عن ظهر قلب قصائد عديدة لحافظ. وقد قام اثنان من شباب المشاركين في مؤتمر سيبويه بإنشاد بعض قصائد حافظ على قبره. وكانا في انشادهما منفعلين بوجد عارم وحرارة وحنان. وفي احدى غرف الضريح مكتبة صغيرة تحتوي على نسخ عديدة من ديوان حافظ المطبوع. ولما كان الناس منذ القرن الخامس عشر يستطلعون الفأل من ديوان حافظ، فلا يزال بعض الزائرين يفعلون ذلك الآن!

أما سعدي فهو الشيخ ابو عبدالله شرف الدين بن مصلح الدين سعدي. وقد وُلِد في شيراز بين سنة ٦١٠ هـ وسنة ٦١٥ هـ وتوفي بها أيضاً في ٩ ديسمبر سنة ١٢٩٢ وفقد أباه وهو في حوالى الثانية عشرة لكنه ذهب إلى بغداد للدراسة في المدرسة النظامية، حيث درس العلوم الاسلامية. لكن استيلاء المغول على ايران وبعد ذلك على بغداد في سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م جعله يطوّف في البلاد الاسلامية فسافر إلى الأناضول، وسوريا، ومصر. وهو يشير في شعره إلى الهند وآسيا الوسطى (كشغر). لكن ليس من المعلوم انه زار فعلاً هاتين المنطقتين. ولما كان في بلاد الشام أسره الفرنجة، وأرغموه على العمل في حفر خنادق قلعة طرابلس.

ثم عاد إلى مسقط رأسه شيراز في عام ٦٥٤ أو ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٦ ـ ٥٧ م وهنا أخذت شهرته تلمع، ونال الحظوة عند حاكم شيراز، وهو سلجوقي، ويدعى أبو بكر بن سعد بن زنكي، وإليه أهدى كتابه (بوستان) (حديقة الفاكهة) في سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧ م. وبعد ذلك بعام أهدى رائعته الثانية: «گلستان» (حديقة الورد) إلى الأمير سعد بن أبي بكر بن سَعْد. ومن إسم أُسرة هذا الأخير وأُسرة الحاكم السلجوقي السابق الذكر ـ اتخذ سعدي لقبه، او تخلّصه كما يقال في الأدب الفارسي، وهو: سعدي.

وبفضل هذين الكتابين: «بوستان» و«گلستان» ارتفعت مكانة سعدي سواء في عيون حكام شيراز وفي عيون عامة المشتغلين بالأدب والعلم. ورغم هذه الخطوة استمر سعدي يحيا حياة الصوفية والزهاد. وكان يشغل وقته بنظم الشعر، وبتعليم عامة الناس وكبارهم.

وكان سعدي سُنّي المذهب.

وتوفي سعدي في الخانقاه التي اعتزل فيها، وذلك في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٩١ هـ/ ٩ ديسمبر سنة ١٢٩٢ (وإن وردت روايات أخرى تضع وفاته بين ٦٩٠ هـ وسنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩١ ـ ١٢٩٥). ودُفن في هذه الخانقاه.

و«بوستان» كله شعر من وزن بحر المتقارب، أمّا «گلستان» فمعظمه نثر يتخلله أبيات في كل موضع، وهذا النثر حكايات، أمّا ما يتخللها من أبيات قليلة فهي حكم وأمثال. وفي هذا النثر يلتزم السجع. ويقال إنّه تأثر في ذلك بأنصاري (المتوفى سنة ٤٨١ هـ/ ١٠٨٨ م) في كتابه: «مناجات». ونستطيع من خلال قراءة كتاب «گلستان» ان نتلمس الأوضاع الاجتماعية في عصر سعدي، بما فيها من محاسن ومساوىء. والروح الغالبة على الحكايات والأمثال الواردة في «گلستان» هي: التهكم من أطماع الناس في الدنيا، والتشاؤم من اصلاح حال بني الانسان، وازدراء الطموح إلى المراتب العليا، والهزء من الأمثلة الشائعة بين الناس. ومع ذلك فهو لا يدعو إلى حياة البطولة او الاستشهاد في سبيل الحق، بل يدعو إلى السلام والحياة الهادئة القانعة بالقليل. وتسوده نزعة انسانية تدعو إلى التسامح والمسالمة، خصوصاً وقد عانى من الويلات التي جرّتها جحافل المغول على ايران والعراق، وقد وصف سير هذه الجحافل بأنّه أمواج تشبه شعر الزنجي المتجعد المعقد.

وإلى جانب «بوستان» و«گلستان» نظم سعدي قصائد طويلة، بعضها في

المديح، وبعضها الآخر غزلية صوفية. وبعض قصائده نظمه باللغة العربية، لكن هذه القصائد العربية بما فيها من تكلف وصنعة أدنى مستوى بكثير من قصائده الفارسية، كما لاحظ ادورد ج. براون (= تاريخ الأدب الفارسي» جـ[٢] ص ٥٣٣). وقصائده في المدح أدنى مستوى من قصائده في الغزل، وهو نفسه يعترف بضعف قصائده في المدح قائلاً إن الفقر هو الذي أحوجه إلى نظم هذا النوع من الشعر، أعني المديح. ومن المؤسف حقاً ان يضطره التكسب بالمديح الى الوقوع في خطيئة لا غفران لها ومن شأنها ان تهز مكانته بوصفه واعظاً اخلاقياً، وهذه الخطيئة هي النفاق الشائن: فقد مدح هولاگو الذي قضى على السلاجقة أرباب نعمته وممدوحيه من قبل، والذي قتل آخر الخلفاء العباسيين، المستعصم شرّ قتلة، وكان سعدي قد مدح قبل ذلك الخليفة المستعصم ورثاه بمرثاةٍ طويلة!

وقد حظيت غزليات سعدي بالاطراء الكبير من جانب الشعراء الفرس: فالشاعر أمير خسرو دهلوي (المتوفى سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٥ م) يقول عن نفسه إنَّه انما يضرب على قالب سعدي في الغزل؛ وحافظ الشيرازي «يسرق» الكثير من أفكار سعدي، دون ان ينسبها إلى سعدي ويحدد ألطاف حسين حالي (في كتابه: «حيات سعدي» ص ٩٦ وما يليها) خصائص غزليات سعدي على النحو التالي:

١) الانسجام الموسيقي بين الشكل والمضمون، حتى ان العشاق لدى سماعهم لهذا الغزل يفقدون الوعي؛

٢ ـ رفع الحب فوق كل عاطفة أخرى؛

٣ ـ انبثاق الصور عينياً من المشاعر والأحاسيس؛

٤ ـ البساطة المنعشة؛

٥ ـ استخدام المجازات في التعبير عن الأفكار؛

٦ ـ الحب الصوفي في ثوب الحب الدنيوي؛

٧ ـ السخرية من المنافقين في الدين.

وكما حدث بالنسبة الى غزل حافظ، قام البعض بتأويل غزليات سعدي تأويلاً صوفياً محضاً.

ويبعد ضريح سعدي عن ضريح حافظ بحوالى ٤٠٠ م. وقد قامت حكومة الشاه محمد رضا پهلوي ببناء ضريح لسعدي تمَّ في سنة ١٩٥٢ وفقاً لتصميم وضعه أندريه جودار André Godard الفرنسي حين كان مديراً للآثار الايرانية. ويحتوي الضريح على قاعة مرتفعة السقف (تالار) ويعلو البناء قبة مغطاة بالقيشاني الملون

باللون الفيروزي (التوركواز). وبالقرب من القبر غرفة تتفجر فيها المياه من نبع هناك. وبهذا الماء يتبرك بعض العامة من النساء.

ضريح شاه جراغ

وفي جنوب شارع لطف علي خان يوجد ضريح شاه جراغ (شاه المصباح)، وهو يحلّق فوق هذا الحيّ القديم بقبته التي على شكل كمثري. وشاه جراغ هو لقب الأمير أحمد، أخي الامام الرضا، الامام الثامن عند الشيعة الاثنا عشرية (وُلِدَ سنة ١٥٣ هـ/ ٧٧٠ م في المدينة، وتوفي سنة ٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م في طوس، وفيها دُفن وله ضريح فخم في طوس = مشهد). وقد توفي الأمير أحمد في شيراز سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م ودُفن في شيراز. لكن الضريح الحالي قد بُني في المدة من عام ١٣٤٤ م إلى عام ١٣٤٩ م. ولما أصابت شيراز الزلازل في عامي ١٨٢٢ و١٨٥٣ سقطت القبة، فتم إعادة بنائها على الشكل الكمثري الذي نشاهده اليوم، وهي تجمع بين اللون السَّمْني واللون التوركواز.

مساجد شيراز

وفي شيراز مساجد عديدة، لكن الجدير بالذكر منها مسجدان: مسجد جمعة عتيق، ومسجد نو (= المسجد الجديد).

أما مسجد جمعة عتيق فيقال إنَّه بُني أول ما بُني في سنة ٢٨١ هـ في عهد الصّفاريين. ولا تزال بعض بقايا البناء الأصلي ظاهرة في القرب من المحراب، وهي عبارة عن بعض الجدران وبعض الزخارف. أمَّا البناء الحالي فيرجع إلى القرن العاشر الهجري، ثم توالى تجديده. وفي فناء المسجد بناء مكعب يسمَّى: خدا خانه (بيت الله)، وهو مستوحى في بنائه من الكعبة الشريفة بمكة، وعلى زواياه الأربع أبراج صغيرة اربعة، ويقال إنَّ هذا البيت المكعب بُني في القرن الثامن الهجري وقد تمَّ تجديد هذا البيت في عامي ١٩٣٧ و١٩٥٤. وعليه كتابة بخط الخطاط يحيى الصوفي الجمالي.

أمَّا مسجد نو (= المسجد الجديد) فيرجع إلى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وقد أمر ببنائه الأتابك سعد زنگي، حاكم شيراز من قِبَل السلاجقة، والذي مدحه سعدي الشيرازي. وهو مسجد واسع جداً، إذ انه يشغل مساحة عشرين ألف متر مربع.

وبخلاف هذين المسجدين الأثريين، توجد مساجد أحدث بناء بكثير، منها مسجد وكيل الذي بُني في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، وجُدّد في القرن التالي، وفيه ايوانان: أحدهما في الشمال، والآخر في الجنوب. وفيه زخارف غنيَّة بالقيشاني الذي يغلب عليه ألوان الورد وألوان الأقحوان، وان كان هذا النوع من القيشاني يسمَّى بـ «هفت رنگي» أي السباعي الألوان. والديوان الجنوبي يفضي إلى قاعة الصلاة إبان الشتاء، وتحمل قبتها ٤٨ عموداً منحوتاً على شكل حلزوني، تنتهي بتيجان موشاة بأوراق الأقنثة (شوكة اليهود). والمنبر منحوت في كتلة واحدة من مرمر مدينة مراغة. ويتوافد الكثير من طلبة العلوم الدينية على مسجد وكيل للمذاكرة وهم جالسون على البساط متربعين او مستطيلين.

ومن ذلك أيضاً: مسجد مشير.

الزيارة الثالثة لشيراز
زيارة قبر روزبهان البقلي
ومدرسة ملاّ صدرا

وحتى يتسلسل الحديث عن شيراز، عليَّ هنا ان أذكر زيارتي الثالثة لشيراز في أواخر شهر فبراير سنة ١٩٧٥ عقب انتهاء مؤتمر الفارابي الذي سأتحدث عنه عما قليل. ذلك انه لا يوجد خط طيران مباشر من طهران إلى الكويت، بل لا بدَّ من أخذ الطائرة من شيراز للسفر إلى الكويت بعد التوقف في مدينة الدوحة عاصمة قَطَر. فرأيت انتهاز الفرصة لزيارة مدينة شيراز مرة ثالثة وقضاء ثماني ساعات فيها. فاستقللت الطائرة من طهران في التاسعة صباحاً، ووصلت شيراز في العاشرة، وحملتني سيارة أُجرة إلى مدينة شيراز.

وعلى الرغم من ان الموعد الفلكي للربيع لم يوافِ بعد، فقد كان الطريق من مطار شيراز إلى المدينة عبارة عن باقة من الورد المتعدد الألوان طولها حوالى خمسة عشر كيلومتراً. ولم أُشاهد بعد في حياتي طريقاً أجمل من هذا الطريق في أي مكان في العالم عرفته. الورود البيض والحمر والصُّفر بما تشتمله عليه هذه الألوان الثلاثة من عشرات التدرجات والفروق اللونية تشغل من الطريق مساحة عرضها عشرة أمتار أو يزيد، ويمتد الطريق كما قلنا حوالى خمسة عشرة كيلومتراً ـ فأين، بربّك، مثل هذا المنظر الفاتن في أي موضع في الدنيا؟! وشذى الورود يملأ

الجو كله طوال هذه المسافة، ويستروحه كل السائرين على هذا الطريق راكبين في سيارات كانوا أو مشاة.

مملوءاً بهذا العطر الفاغم دخلت شيراز ويممت أولاً شطر ضريح روزبهان البقلي. والضريح بسيط البناء خال من كل زخرفة: إنَّه غرفة مبنية بالقرميد الاصفر، فيها الضريح، وبجوارها غرفة أخرى بها بعض الكتب القليلة. والبناء قد تمَّ منذ سنوات قليلة، ولم يكلف إلاَّ القليل، على عكس ما نشاهد في ايران من أضرحة وآثار.

وُلِدَ روزبهان البقلي في سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م بمدينة فَسَا بإقليم فارس وتقع على بعد حوالى ١٤٠ كم من شيراز. وتوفي في شيراز في سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م.

وقد ترجم لنفسه ترجمة ذاتية في كتاب بعنوان: «كشف الأسرار» (توجد منه نسخ خطية عديدة، منها نسخة بمكتبة مشهد تحت رقم ٩٣١ حكمة)، وقد كتبه وهو في الخامسة والخمسين من عمره بناء على إشارة من أحد أصدقائه.

وهو يقول في نفسه انه وُلِد بين جُهّال غلاظ غارقين في السُّكْر والضلال، مَثَلهُم مَثَل «حُمُر مستنفرة، فرّت من قسورة» (القرآن سورة ٧٤ آية ٥١). ولما بلغ الثالثة من عمره سأل نفسه: أين إلاهك وإله الخالقين؟ وكان بالقرب من بيته مسجد. فشاهد صبية ذات يوم فسألهم: هل تعرفون ربكم؟ فأجابوا: يقال إنَّه لا أقدام له ولا يد. إذ كانوا قد سمعوا عند أهليهم مَن يقول: إنَّ الله تعالى ليس له أعضاء. فأصابته حالة من الانفعال جعلته يعدو مسرعاً. ولما بلغ السابعة، أُولع بالذّكر والعبادات، وراح يبحث عن سرّه. هنالك انبثق العشق في قلبه، وشعر بأن قلبه يذوب في هذا العشق ومن ثم استغرق في الشوق، وراح يتذكر حياته قبل الوجود في الدنيا ويسرح عبر العالم العلوي. وانتابت نفسه أحوال من الوجد الوقتي. وصار يشاهد كل الموجودات كما لو كانت وجوهاً جميلة، وصار يعشق الخلوة والمناجاة.

ولما بلغ الخامسة عشرة شعر بأنَّ صوتاً باطناً يلهمه انه في مقام النبوة. لكنه اطّرح هذا الخاطر، لأنَّه لا نبي بعد محمد (ﷺ).

وذات مساء بعد العشاء، وكان قد اتخذ حانوتاً للتجارة، نهض من الدكان، وتوجه نحو موضع في الصحراء المجاورة، فسمع فجأة نداء بصوت عذب. فصعد رابية، ووجد نفسه بحضرة شيخ صوفي، وجّه إليه بضع كلمات في التو. فعجز عن

الكلام، وصار خارجاً عن حواسه ولما عاد إليه وعيه كان قد مضى من الليل شطر طويل. فعاد إلى بيته وهو موزع النفس بالخواطر المقلقة والانفعالات الهائجة، وراح يطلق الزفرات ويذرف العبرات. وبغير ارادة منه راح يقول: غفرانك اللهم غفرانك! لكن غلب عليه الانفعال إلى درجة انه راح يحزم كل ما في دكانه من بضاعة. ومزّق ثيابه، وقصد الصحراء. وظلَّ على هذه الحال طوال عام ونصف، ينتابه الشوق والحيرة، ويذرف الدموع. وفي كل يوم كانت تنتابه رؤيا رائعة، وتتوالى عليه واردات من العوالم الخفية. وخلال هذه الرؤى كانت السموات والأرض والجبال والفيافي والأشجار تبدو له كأنَّها نور محض.

وبعد ذلك عاد إلى بيته، وذات يوم وهو على سطح منزله شاهد «الله» بصنعة القدرة والجلال. فبدا له الكون كأنَّه نور ساطع فياض شامل. ومن مركز هذا النور جاءه نداء سبع مرات يقول باللغة الفارسية: يا روزبهان! لقد اخترتك للولاية، اخترتك للحب؛ أنت وليِّي، أنت حبيبي. لا تستسلم للخوف ولا للحزن، لأنِّي أنا ربُّك، وسأعنى بك في كل ما تصنع.

وفي رؤية أخرى شاهد نفسه كأنه في جبل المشرق، ورأى هناك جماعة من الملائكة. ومن الشرق إلى الغرب كان ثم بحر شاسع، ولم يشاهد غير ذلك. قالت له الملائكة: انزل في هذا البحر اسبح حتى المغرب. فنزل في البحر وأخذ في السباحة فلما بلغ مغرب الشمس شاهد مجموعة من الملائكة تقف على جبل المغرب، يُضيؤهم نور الشمس الغاربة. فصاحوا: يا مَن أنت هناك! اسبَحْ ولا تخف. فلما بلغ الجبل قالوا له: لم يجتز هذا البحر أحد إلاَّ عليا بن أبي طالب وأنت من بعده.

وتوالت الرؤى عليه حتى شاهد في إحداها الخضر، وأعطاه تفاحة، قطم منها قطمة فدعاه الخضر إلى التهامها كلها. وبدا له حينئذ انه من كرسيّ عرش الله حتى نجوم الثريا كان هناك بحر هائل، ولم يشاهد غير ذلك. وكان هذا شبيهاً بشعاع الشمس. هنالك فتح فاه رغماً عنه، فدخل كل هذا البحر من النور فيه وشرب كل نقطة فيه.

وفي رؤية تالية بلغ مرتبة «الأبدال» السبعة، المحيطين بـ «القطب».

وصار يشاهد في كل ليلة سبع فتحات في السماء، وتجلّى له الله منها قائلاً له: إنِّي أتجلّى لك من خلال هذه الفتحات، وهي تكوّن سبعة آلاف عتبة حتى عتبة الملكوت، لكني أتجلَّى لك مباشرة دون أن تجتازها كلها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبعد ذلك انفتحت له أبواب العلوم اللَّدُنية (أي التي من «الدن» [من عند] الله)، والمعارف المستورة والحقائق اللطيفة. وشاهد ان بعض دعواته مستجابة، وان الألطاف تتوارد عليه. فثبت سِرّه في الحقائق العلوية. وعانى المقامات، والأحوال، والمكاشفات وعلوم التوحيد.

فشاهد «الحق» (= الله) في ثوب الجلال واللُّطف والجمال. واستقى من بحر الوداد، وارتفع إلى مقام الأُنس، وشاهد عالم القُدْس. وبعد ان تجوّل في فضاء الأزلية توقف عند عتبة القدرة. وهناك شاهد كل الأنبياء الحاضرين: موسى وبيده ألواح التوراة، وعيسى وبيده الانجيل، وداوود وبيده الزابور، ومحمد (ﷺ) وبيده القرآن. فأذاقه موسى طعم التوراة، وعيسى طعم الانجيل، وداوود طعم الزابور، ومحمد (ﷺ) طعم القرآن، أمّا آدم فأسقاه «الأسماء الحسنى»، والاسم الأعلى. وهكذا فهم ما أتيح له ان يفهمه من المعارف اللاهوتية التي وهبها الله لأنبيائه وأوليائه.

وفي رؤية أخرى يقول: شاهدت الحضرة مملوءة بملائكة من أعلى الدرجات وهم جالسون تحت سرادق المجد. وشاهدت الله، وكان كل الأنبياء والرسل ينتظرون بالقرب من المنبر. فلما جلست وذكرت كلمات التعارف المتبادل بين الأرواح ذرفت الملائكة الدموع وكذلك فعل الأنبياء. وكان الله يسمع. ومن ذاته تجلّى نور يشير إلى انه يتفق معهم. ثم قال الله: هكذا ستكون الحال يوم البعث. فمَن ظنَّ ان هذه الكشوف أوهام يشتم منها رائحة التشبيه فما هو إلا مبتدىء لم يذق شيئاً، ولم يستروح رائحة أزهار الجنة. إنها أذواق من عالم القدس، ومقامات يحظى بها الواصلون الذين يعلمون انها أشكال من الربوبية، وتجلّ للأنوار الأزلية، وأوصاف تتجلى بها الصفات الإلهية بواسطة التجليات.

ويختم روزبهان كتابه «كشف الأسرار» بصفحة رائعة يقول فيها ما معناه: ثم شاهدته! ثم شاهدته! ثم شاهدته! عدداً من المرات يستحيل عليَّ ان أحصيها . . . لقد جعلني أتجوّل في الملكوت، كاشفاً لي عن الأعماق الأزلية وهي في حال التنزيه. وكشف لي عن الجمال والجلال. ثم تجلّى لي بصفات الالتباس. وكان كل الملائكة الكروبيين عند مقدم سرادقات الجلال، وصورهم هي صور اللطف والجمال وغدائر شعورهم مثل غدائر النساء. والحوريات في ثياب أهل الجنة يفترقون ويجتمعون. وشاهدت جبريل وفيه من اللطف والجمال ما يعجز عنه الوصف. وشاهدت الأنبياء والأولياء غارقين في الأنوار المشعّة من جلاله. وكنت أنا بين الاستتار والتجلّي، خارجاً عن طوري، أصيح وأنوح وبي شوق مبرح مثل

السُّكارى. وهناك أزال كل همومي وشجوني. وامتلأ قلبي بالسرور للأنس به ولجماله. وبعد ذلك دعوت الله ان يغيث أُمَّة محمد، وذلك في الوقت الذي أصاب فيه شيراز طاعون جارف، فكثر الموتى والمرضى. وأخيراً دعوت الله أن يخلّصني، فلا أدخل بعدُ قصر الأمراء. فلما تنفس الصبح جاء الأمر الإلهي، ومنذ تلك اللحظة تخلّصت من مرآهم ومن جماعتهم «إنَّه بفضله يغنيني عن غيره، فاستغنيت به، وهو حسبي».

تلك خلاصة كتاب «كشف الأسرار ومكاشفات الأنوار» الذي ترجم فيه روزبهان البقلي لنفسه ترجمة روحية ذكر فيها ما وقع له «من وقائع المكاشفات وأسرار المشاهدات».

أمَّا عن حياته في الواقع المادي، فيذكر ان أول شيخ أخذ عنه الطريقة (التصوف) في فَسَا هو الشيخ جمال الدين بن خليل الفَسَوي، وأول رباط نزل به هو رباط الشيخ أبو محمد الجوزك.

واختار بعد ذلك الاقامة في رباط بمدينة شيراز، أقام بالقرب من باب خداش بن منصور سنة ٥٦٠ هـ.

وكما هو واجب في ابتداء حال الصوفي، قام روزبهان بالسياحة للقاء المشايخ والافادة منهم. فزار العراق، وكرمان، والحجاز، وبلاد الشام. أمَّا ما ذكره أبو القاسم جنيد في كتاب «شعر الإزار» من أن روزبهان زار الاسكندرية بصحبة أبي النجيب السهروردي (المتوفى سنة ٥٦٣) فغير ممكن في نظر ماسينيون وإنَّما المقصود بروزبهان هنا: روزبهان الكازروني المصري (راجع ترجمته في «نفحات الأُنس» لعبد الرحمن جامي، ص ٤٨٠، نشرة ليس ـ نساو).

ثم عاد إلى شيراز، وظلَّ طوال مدة خمسين عاماً يلقي المواعظ في الجامع العتيق بشيراز.

«وكان صاحب سماع: ثم رجع في آخر عمره. فقيل له في ذلك، فقال: إنِّي أسمع الآن من ربِّي ـ عزَّ وجل، وأعرض عما سمعت من غيره» («شعر الإزار»، ص ٢٤٦).

في أواخر عهده أصابه الفالج، لكن لم تتغير بذلك حالته الروحية.

وتوفي في منتصف شهر المحرم من سنة ٦٠٦ هـ (سنة ١٢٠٩ م).

ودُفن في الخانقاه التي أقامها في شيراز؛ وذلك في محلة باغ نو بشيراز.

وممَّن زار قبر روزبهان الرحالة الشهير ابن بطوطة، حوالى سنة ٧٢٥ هـ/

١٣٢٥ م فقال عن شيراز: «ومن المشاهِد بها: مشهد الشيخ الصالح القطب روزبهان البقلي، من كبار الأولياء. وقبره في مسجد جامع يخطب فيه؛ وبذلك المسجد يصلّي القاضي مجد الدين» («رحلة ابن بطوطة»، طبعة القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ/ ١٩٣٨ م، جـ[١] ص ١٣٤ ـ ١٦٥).

وكان روزبهان البقلي سُنّياً على مذهب الامام الشافعي.

وترك من المؤلفات ما قدّره البعض بستين كتاباً، لكن لم يبق لنا منها إلاّ حوالى العشرين. وهي في التفسير، والفقه، والتصوّف. ونذكر هنا اهمها وبعضها بالعربية والآخر بالفارسية:

أ ـ في تفسير القرآن:

ـ «عرائس البيان في حقائق القرآن» ويقول في مقدمته: «صنّفته موجزاً مخففاً لا إطالة فيه ولا إملال. وذكرتُ ما سنح لي من حقيقة القرآن ولطائف البيان، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة. وربّما ذكرت تفسير آية لم يفسّرها المشايخ. ثم أردفت بعد قولي أقوال مشايخي بما عبارتها ألطف، وإشارتها أظرف. وتركتُ كثيراً منها ليكون أخف محملاً وأحسن تفصيلاً» (حاجي خليفة في «كشف الظنون» جـ[٢]، ص ١١٣١، طبع استانبول).

وهو بالعربية، وتوجد منه نسخ عديدة: في دار الكتب المصرية وكتابخانة ملّي في طهران، ومكتبة الأوقاف في بغداد، ومكتبة مشهد الخ. (راجع مقدمة محمد معين لنشرته: «كتاب عبهر العاشقين»، طهران سنة ١٣٣٧ هـ ش/ ١٩٥٨).

ب ـ في التصوف:

١ ـ «منطق الأسرار ببيان الأنوار» ـ وهو في تفسير شطحيات الحلاّج، والحق بها شطحيات بعض المشايخ ومنه نسخة في كتابخانه آستانه رضوي (مشهد). وقد أهدانا ماسينيون صورة شمسية منها على أمل ان نقوم بتحقيقه، لكن تقلّب الأحوال حال بيننا وبين القيام بتحقيقه، ثم ان النسخة من الرداءة بحيث لم نتحمس لتحقيقها طمعاً في الحصول على خير منها، لكننا لم نحصل بعد على نسخة أخرى. وهذا الكتاب كتبه روزبهان باللغة العربية. ثم قام بعد ذلك باختصاره باللغة الفارسية، ونشر هذا المختصر محمد معين وهنري كوربان ضمن منشورات المعهد الفرنسي بطهران.

٢ ـ «كشف الأسرار ومكاشفات الأنوار» ـ وهو الذي لخصناه من قبل، وفيه

ترجمة ذاتية لمسيرته الروحية. وهو بالعربية. ومنه نسخة عند ماسينيون، ونسخة في مشهد.

٣ ـ «شرح الحجب والأستار في مقامات أهل الأنوار» أو «كتاب الإغانة» ويبدأ هكذا: «الحمد لله الذي تقدّس بجلاله عن نسبة الحدثان؛ وتنزّه بجماله عن الاحتجاب بالزمان والمكان... فسنح لي أن أصنّف كتاباً فيما أمرني سيدي ومولاي ـ جل وعز ـ فنظرت في حالي، وتفكرت ايش أقول. فوقع قلبي مسئله الإغانة للنبي ـ ﷺ فعلمتُ من هناك نبذاً من لطائف الحجاب، وذلك قوله (ﷺ): «انه ليغان على قلبي وإني لأستغفر في كل يوم سبعين مرة». وثبت من قوله ـ ﷺ ـ ان للأنبياء والأولياء إغانة الأسرار وأستار الأنوار. وذلك امتحان الحق سبحانه، ابتلاهم الله تعالى ـ بعد وقائع الغيب وكشف الأسرار وبروز الأنوار ـ بالإغانة، وهي حجب شتى على قد المقامات، ولكل عارف حجابٌ في كل مقام.

وهو باللغة العربية. ومنه نسخة في كتابخانه آستانه رضوي (مشهد) تاريخ نسخها سنة ١٠٥٩ هـ في ١٩٠ ورقة، وفي الصفحة ٢١ سطراً.

٤ ـ «سير الأرواح». وهو بالعربية ايضاً ومنه نسخة في أياصوفيا (استانبول) برقم ٢١٦٠، وأخرى في مكتبة فاتح استانبول برقم ٢٦٥٠، وثالثة في كتابخانه ملّي ملك (طهران، برقم ٤٠٤٤).

٥ ـ «عبهر العاشقين» (العبهر = الياسمين). وهو باللغة الفارسية، لكن مقدمته بالعربية، وهاك نصها:

«الحمد لله الذي استأثر لنفسه المحبة والعُشق في أزليته، وتجلّى بهما من ذات القِدَم لأرواح المحبين وأسرار العاشقين، وكشف بهما حُجبَ الملكوت عن جمال الجبروت لقلوب المتهترين (!) وصدور الخائفين إلى أبديته، فأوّله قلوب العارفين بنبرة محبّة، وخير أسرار الموحدين بحلاوة عشقه في قضاء حمديته فألبس بأنوار المحبة فؤاد المحبين، وصفّى بصفاء العشق أرواح المرسلين، وعشق أهل النهايات في الأزل فجعلهم عاشقين لجمال ذاته، وأحبّ أهل البدايات في قدَمه فجعلهم محبّين لجلال صفاته. قرّب المحبين بنور أُنسه في كنف قربه، وقرَّب العاشقين لكشف قدسه في جحر وصلته. بشوقه شوقهم إلى عظيم جمال قدمه، وباصطفائه لهم لمعرفته عرّفهم في بحار كرمه. اصطفاهم عشقه (فهم) بحبل المحبة مجذوبون، وبسلاسل العشق محزونون، وبسيف العشق مذبوحون وعلى باب الحبيب مطروحون، حيارى سكارى من شراب حبيبهم.

فسبحان الذي استحق المجد والثناء والحمد والبقاء، في قِدَمه ودوام ديمومته. فشكر نفسه بنفسه اظهارُ عجائب صنائعه وغرائب بدائعه. فألبسها أنوار جماله وجلاله لأرواح عشاق حضرته وعقول ألبّاء سرادق قربه؛ واراها من مرآة لطائف صنعه حُسْنَ الأزلية وجمال الأبدية، حتى ألفت الأرواح والعقول بجماله في مصنوعاته.. وعشقت الأسرار فيها من لطائف صنعها وجمال قدرته فيها. فجعل الأشخاص الآدميين مشكاة نور بهائه وسناء صفاته ومحلّ إظهار بروز تجلّيه. وألّف قلوب بعضهم بعضاً بسبب سلطان نور قدرته ومشاهدة صفاته - الذي ظهر من أرواحهم. وجمع أرواح المؤتلفين بنعت المحبة والعشق لعشقه ومحبّته في هذا العالم، كما جمعها قبل الأجساد في حضرته التي هي مشهد خطاب ﴿ألستُ بربكم﴾ [سورة الأعراف آية ١٧١] - فاتصلت محبة البداية بمحبة النهاية، وطارت الأرواح في عالم العشق الرباني - بجناح العشق الانساني - بمراكب العشق الرباني.

وصلّى الله على خليفته آدم بديع فطرته، وسراج نور جماله، المخصوص باصطفائيته، المنقوش بنقش خاتم قدرته، - وعلى رئيس مملكته: محمد، المجتبى بخلته، المصطفى بمحبته، - وعلى عترته المطهرة، وعلى أزواجه المقدسة، وعلى صحبه الكرام البررة، وعلى اخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى خُدّامه من الملائكة المقرّبين، وعلى عُشاق أُمّته المجالسين في زمرة محبته - سلاماً دائماً ابداً [ص ٢ - ٣ من نشرة محمد معين، وقد أصلحنا ما فيها من أخطاء عديدة، طهران سنة ١٩٥٨ م].

وبعد هذه المقدمة الكثيرة الصنعة والتصنع، ولكنها مع ذلك تكشف عن الهدف الذي قصد إليه في هذا الكتاب، راح يبحث في العشق الإلهي. ومهد لذلك ببيان ان العشق العفيف يتفق مع «شرع أحمد» - أي مع الإسلام، ويستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿نحن نقصّ عليك أحسن القصص﴾ [سورة يوسف آية ٣]: «أي نحن نقص عليك قصة العاشق والمعشوق: يوسف وزليخا - عليهما السلام، وأيضاً محبة يعقوب ويوسف عليهما السلام، لأنَّ «قصة العشق أحسن القصص عند ذوي العشق» والمحبة؛ وقوله عليه السلام: «مَن عشق وعفّ، وكتم ومات، مات شهيداً». وقال عليه السلام: «مَنْ فيه محبّة وغلبة بالله ولله وفي الله - يحب الوجه الحسن» وقال ذو النون، رحمة الله عليه: «مَنْ استأنس بالله، استأنس بكل شيء مليح ووجه صبيح». وأيضاً قال: «المستأنس بالله يستأنس بكل شيء مليح وبكل صورة طيّبة». ولأهل المعرفة في هذه الأشياء أسرارٌ لا يصلح كشفها إلاّ لأهلها.

فمَن أفشى لغير أهلها حَلّت به العقوبة و«المثلات» [ص ٩ من النشرة المذكورة مع تصحيحها]. ونص كلام المؤلف هنا بالعربية، لأنّه أحياناً يستخدم العربية ضمن الأصل الفارسي.

فإن قال قائل: «هل يجوز اطلاق العشق على الله تعالى؟ وهل يجوز ان يدّعي أحدٌ عشقه؟ وهل اسم العشق عند العشاق من الأسماء المشتركة؟ وهل يكون جواز العشق على الله، ومن الله، وبالله؟ قلت: اختلف شيوخنا في ذلك: فمنهم مَن أنكر، ومنهم مَن أجاز. فمَن أنكر أخفى هذا السرّ عن أهل هذا العالم غيرةً على الخلق؛ ومَن أجاز، فمن جرأته في العشق والانبساط. والعاشقون والمحبوبون لا يخافون في الله لومة لائم ﴿ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله واسع عليم﴾ [سورة المائدة آية ٥٩] (ص ٩ ـ ١٠).

وبعد ان بيّن بالدليل النقلي من القرآن والسُّنَّة جواز العشق الانساني والعشق الإلهي، أخذ في تفصيل القول في العشق الانساني، والعشق الربّاني «ليكون للمحبين والعاشقين نزهة الأنس والريحان من حظيرة القُدْس» (ص ١٢). وقد عقد الكتاب على اثنين وثلاثين فصلاً:

١ ـ في ملاطفة العاشق والمعشوق.

٢ ـ في المحبة مقدمة العشق.

٣ ـ في ذكر الشواهد الشرعية والعقلية على العشق الانساني.

٤ ـ في فضيلة المحبّين الذين يألفون الحسن والمستحسن والمحبوبين المستحسنين.

٥ ـ في الحُسْن والحسن والمستحسن.

٦ ـ في كيفية جوهر العشق الانساني وماهيته.

٧ ـ في بيان سبب بقاء العشق في العاشقين.

٨ ـ في السالكين الذين ليس في بدايتهم العشق الانساني في العشق الإلهي.

٩ ـ في وصف العاشقين الذين بدايتهم العشق الانساني.

١٠ ـ في بداية العشق.

١١ ـ في بداية العشق وامتحانه.

١٢ ـ في لزوم العشق وتأثيره.

١٣ ـ في تربية العشق.

١٤ ـ في نزول العشق.

١٥ ـ في طريق العشق في قلب العاشق.

١٦ ـ في بيان مقدمات العشق الإنساني وترقيها في مقامات العشق الرباني.

١٧ ـ في خلاصة العشق الانساني.

١٨ ـ في غلط أهل الدعوى في العشق.

١٩ ـ في بداية العشق الإلهي.

٢٠ ـ في بداية هذا العشق، وهو العبودية.

٢١ ـ في مقام الولاية في العشق.

٢٢ ـ في المراقبة، التي هي جناحٌ لطير الأنس في مقام العشق.

٢٣ ـ في خوف العاشقين في العشق.

٢٤ ـ في رجاء العاشقين.

٢٥ ـ في وجد العاشقين.

٢٦ ـ في يقين العاشقين.

٢٧ ـ في قربة العاشقين.

٢٨ ـ في مكاشفة العاشقين.

٢٩ ـ في مشاهدة العاشقين.

٣٠ ـ في محبة العاشقين.

٣١ ـ في شوق العاشقين.

٣٢ ـ في كمال العشق.

وهكذا جاء الكتاب أوفى ما كتب في العشق بأنواعه. وهو يذكر في الفصل الأول ان العشق على خمسة أنواع.

١ ـ نوع إلهي، وهو منتهى المقامات، ويتعلق بعالم مكاشفات الملكوت.

٢ ـ نوع عقلي، ويتعلق بأهل المعرفة.

٣ ـ نوع روحاني، وهي من خواص الانسان البالغ غاية اللطافة:

٤ ـ نوع بهيمي، وهو الذي يتعلق به رُذال الناس.

٥ ـ نوع طبيعي، وهو موجود عند عامة الخلق.

ويلوح من اهتمام روزبهان بالعشق الانساني انه هو نفسه ابتلي بالعشق الانساني. ويؤيد ذلك ما أورده محي الدين ابن عربي في الباب رقم ١٧٧ من كتابه «الفتوحات الملكية» (جـ٢ ص ٣١٥، القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ) إذ يقول إنَّ الشيخ روزبهان كان مجاوراً بمكة؛ «وكان كثير الزعقات في حال وجده في الله، بحيث انه كان يشوّش على الطائفين بالبيت. فكان يطوف على سطوح الحرم، وكان صادق الحال». وابتلي بحب مغنية.

ولقد قال عنه صائن الدين حسين بن محمد بن سلمان (المتوفى سنة ٦٦٤ هـ) عن روزبهان وقد عرفه جيداً: «كان صاحب ذوق واستغراق ووَجدٌ دائم. لا تسكن روعته، ولا ترقأ دمعته، ولا يطمئن في وقت من الأوقات، ولا يسلو ساعة من الحنين والزفرات. يتأوّه كلّ ليلة بالبكاء والعويل، ويتفوه عن كل شأن جليل. وله كِلَمٌ لا يدركها فَهم أكثر المستمعين، ابتدرت منه في سورة الوجد» (أمين الدين جنيد شيرازي، شدّ الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار)، تحقيق محمد قزويني، ص ٢٤٤، طهران سنة ١٣٢٨ هـ ش).

وروزبهان يطيل الحديث عن الحُسن البدني والجمال الجسماني. ويورد من القرآن والأحاديث ما يؤيد نظرته في الجمال الانساني الجسماني. فيذكر الآية: ﴿الله الذي... صوّركم فأحسَنَ صورَكم﴾ (سورة المؤمن = غافر آية ٦٤)؛ ويورد الأحاديث النبوية التالية:

أ ـ روت عائشة ـ رضي الله عنها، ان رسول الله ﷺ ـ كان يحب الخضرة ويعجبه «الوجه الحسن».

ثلاث زِيدت في قوة البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الوجه الحسن، والنظر إلى الماء الجاري.

جـ ـ (وروت [أي عائشة] ايضاً ان رسول الله ـ ﷺ ـ يأمر بالجيوش: «إذا أرسلتم رسولاً فاجعلوه حَسَن الوجه الأسمر».

د ـ «وقال عليه السلام: اعتمدوا بحوائجكم صُباح الوجه، فإنَّ حسن الصورة أول نعمة تلقاك من الرجل».

هـ ـ «محمد ـ ﷺ ـ قال: «إنَّ الله جميل ويحب الجمال» («عبهر العاشقين» ص ٢٨ ـ ٢٩).

وبهذا برّر روزبهان عشقه الانساني، وعشقه الإلهي.

وقيل انه «أول ما قَدِم شيراز... سمع امرأة تنصح ابنتها وتقول: يا بُنيَّة! لا

تظهري حسنك لأحد فيبتذل. فقال الشيخ: أيّتها المرأة! إنَّ الحُسن لا يرضى بالانفراد إلاَّ ان يُقرن به العشق لأنهما تعهدا في الأزل، لا يتفارقا» («شدّ الإزار» ص ٢٤٦).

ولعل خير ما نختم به كلامنا عن روزبهان ان نورد ما قاله في ختام كتابه «عبهر العاشقين». قال:

«الصلاة على سيِّد العاشقين وإمام الشائقين، عنقاءُ مَغْرِب اللاهوتي في قفص الناسوتي؛ وعلى آله وأحبّائه أجمعين.

«اللهم نوّر قلوبنا بنور حكمتك، وثبّت قلوبنا بدوام ذكرك وحلاوة مناجاتك، ولذة كلامك. وروِّح أرواحنا بلطفك، ونوّر قلوبنا بنور قلبك، وقرِّر عيوننا بمحبّتك، وطيِّب أسماعنا بلذائذ مناجاتك، إنّك على ما تشاء قدير. «اللهم زوّج قلوبنا بمشاهدة جلالك، وأرنا عجائب ملكوتك، واجعل لنا حظًّا من نصيب أُنسك، واجعل لنا مِنْ عندك موقفاً يقرِّبنا من نفسك، ويؤنسنا بأُنسك. ولا تخيّبنا من ذلك كله، يا أرحم الراحمين!» (ص ١٤٨).

مدرسة مُلاَّ صدرا

وبعد الفراغ من زيارة قبر روزبهان البقلي الشيرازي توجهت إلى المدرسة التي يقال إنَّ مُلاَّ صدرا كان يقوم بالتدريس فيها.

وهذه المدرسة ذات طابقين عاليين في وسط حديقة مسوّرة كانت تزخر آنذاك بالورود. والمدرسة مطلية كلها بالقيشاني ذي الزخارف التوريقية، التي يسودها اللون الأحمر. وقيل لي إنَّ مُلاَّ صدرا كان يدرّس في الطابق العلوي. فصعدت إليه، ووجدت شيخاً يدرس لطلاب صغار، فانصرفت عنه حتى لا يشوّش عليّ هذا المنظر ذكرياتي عن «العلاّمة الثاني»: مُلاَّ صدرا.

واسمه الكامل هو محمد بن ابرهيم صدر الدين الشيرازي، الملقب «بالعلاّمة الثاني» والمعروف اختصاراً بـ: مُلا صدرا شيرازي. وقد وُلِد في شيراز في تاريخ غير معلوم. ويقال إنه حج إلى مكة سبع مرات ماشياً على قدميه، وتوفي لما قفل راجعاً من حجّته السابعة، في سنة ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠ م في مدينة البصرة.

وقام بالتدريس في هذه المدرسة في شيراز. وكان شيعي المذهب.

وأشهر مؤلفاته:

١ ـ «الأسفار الأربعة في الحكمة المتعالية» ـ وقد طبع في طهران سنة

١٢٨٢، ١٢٨٨ ومع حاشية هادي بن مهدي السبزواري المتوفى سنة ١٢٩٥ هـ/ ١٨٧٨ م).

٢ ـ «كتاب المشاعر»، طبع حجر في تبريز، دون تاريخ؛ تحقيق وترجمة كوربان، طهران سنة ١٩٦٤.

٣ ـ «أسرار الآيات وأسرار البيّنات في تفسير القرآن»، طهران ١٣١٩ هـ.

٤ ـ «الحكمة العرشية»، طهران سنة ١٢٧٣، و١٣١٥ (مع كتاب المشاعر).

٥ ـ «مفاتيح الغيب»، طهران سنة ١٢٨٢ هـ.

٦ ـ «شواهد الربوبية في مناهج السلوكية»، طهران سنة ١٢٨٦ هـ (مع شرح هادى طبع حجر سبزواري).

٧ ـ «شرح الأصول من الكافي» وهو شرح لم يتم على «أصول الكافي» للكليني، طهران.

٨ ـ «المبدأ والمعاد»، طهران سنة ١٣١٤.

٩ ـ «كسر أصنام الجاهلية في ذم المتصوفين»، منه مخطوط في پتنا برقم ٢٦٣٣ [٣]، طبع ضمن مطبوعات جامعة طهران على يد دانش پژوة؛ لكنها طبعة حافلة بالأغلاط.

ومن تلاميذه عبد الرزاق بن حسين اللاهجي، المتخلص بـ «فياض»، الذي كان أستاذاً في مدارس قم، وتوفي حوالى سنة ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠ م. وله بالعربية: «شوارق الإلهام»، وبالفارسية: «جوهر مراد» و«سرمائية ايمان» (= رأس مال الايمان)، وقد طبعا طبع حجر في ايران.

ومُلاّ صدرا فيلسوف لاهوتي اشراقي، ويرى ان الوحي القرآني هو النور الذي يمكّن من الابصار، انه بمثابة الشمس التي تفيض بالنور. والعقل الفلسفي هو العين التي تبصر هذا النور. وبدون هذا النور المنبعث من الوحي القرآني لا يمكن رؤية شيء. لكن إذا أغلقنا العينين، أي اذا ادعينا إمكان الاستغناء عن العقل الفلسفي فلن يُرى هذا النور، لأنّه لن تكون هناك أعين لتراه. ولهذا يجب ان يتعاون عقل الفيلسوف مع الوحي القرآني كي يتم فهم الحكمة الإلهية، وقد صارت «الحكمة الإلهية» هي الهدف من الفلسفة وعلم الكلام معاً عند مُلاّ صدرا ومعاصريه. وبسبب هذه «الحكمة الإلهية» وقع مُلا صدرا في صراع مع فريقين:

«الفقهاء»، و«الصوفية». فكتب ضد الفقهاء رسالة بالفارسية عنوانها: «سه أصل» (= الأصول الثلاثة)، وكتب ضد الصوفية كتابه الآنف الذكر: «كسر أصنام الجاهلية في ذم المتصوفين».

مؤتمر الفارابي

وفي ربيع سنة ١٩٧٤ رأت وزارة الثقافة في ايران الاحتفال بذكرى الفارابي. بأية مناسبة؟ بغير مناسبة محددة التاريخ، لأنَّ الفارابي توفي سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م وهذا هو التاريخ الوحيد المعروف عن سيرته، ولا شأن له بعام ١٩٧٥ الميلادي ولا عام ١٣٥٣ الهجري الشمسي، لأنَّ التاريخ الهجري الشمسي لوفاته هو ٣٢٨!

ولما حدّثني المسؤولون عن التحضير لهذا الاحتفال، اقترحت عليهم ان أقوم بتصنيف كتاب عن مؤلفاته، على غرار ما فعلت بالنسبة إلى الغزالي وابن خلدون، وما فعله د. يحيى مهدوي بالنسبة إلى ابن سينا. فوافقوا على هذه الفكرة بحرارة. وانتظرت أن يصلني تكليف رسمي بهذا العمل. ومضى ثلاثة أشهر دون أن يصلني هذا التكليف الرسمي، وكنت على وشك ترك ايران والذهاب إلى باريس لقضاء عطلة الصيف، وكان قد تمَّ بالفعل تعاقدي مع جامعة الكويت، وسأذهب إلى الكويت في اوائل سبتمبر. لهذا كان لا بد من معرفة ما استقر الرأي عليه بهذا الصدد. وإذا بالمسؤولين يراوغون ولا يردون على سؤالي لهم في هذا الشأن. فاستفسرت من الأستاذ ايرج افشار، مدير المكتبة المركزية لجامعة طهران، فأخبرني بما حدث وهو ان دانش پژوه راح - بما عهد فيه من غيرة وحقد فردي - يرجو المسؤولين ان يتولى هو مع د. محسن مهدي القيام بهذا العمل، ويبدو انه كان قد تواطأ مع محسن مهدي على هذا الأمر، ولم يكن لكليهما من هدف إلاَّ منع قيامي أنا بهذا العمل؛ وهما كانا يعلمان تمام العلم انهما عاجزان كل العجز عن الوفاء بهذا العمل. ولا بد ان دانش پژوه توسّل إلى تحقيق غرضه بدعوى انه ايراني، وان محسن مهدي شيعي، فهما إذن الأحق بالقيام بهذا العمل! بهذه الدعوى الكاذبة الخسيسة الهوى يرجع المسؤول - وهو د. ذبيح الله صفا، وكيل وزارة الثقافة آنذاك - عما سبق ان رحّب به بحرارة. ولم أحفل أنا بهذا الدسّ الرخيص، ولم أُبدِ أي اهتمام، خصوصاً وأنا واثق ان دانش پژوه ومحسن مهدي لن يفعلا شيئاً، لأنهما عاجزان كل العجز عن القيام بهذه المهمة.

وفعلاً تحقق ما توقعت، فلم يقوما بأداء هذا العمل حتى يوم الناس هذا (٢٩ فبراير سنة ١٩٨٨)، وكان من المفروض ان يقدماه للطبع في خريف سنة ١٩٧٤

ليوزع مطبوعاً على أعضاء المؤتمر الذي انعقد في فبراير سنة ١٩٧٥!! أي انه مضى على تكليفهما بهذا العمل اربعة عشر عاماً ولم ينجزا منه شيئاً. لكن مسؤولية هذه الجريمة الشنعاء، إنَّما تقع أساساً على المسؤول عنها في وزارة فرهنگر وهنر (وزارة الثقافة) - ذبيح الله صفا!

❀ ❀ ❀

ولما انعقد مؤتمر الفارابي في فبراير سنة ١٩٧٥ لم يجد القائمون على تنظيمه ما يوزعونه من المؤلفات غير كتابي أنا الذي كان قد صدر من وقت قريب، وهو «أفلاطون في الاسلام» الذي تولّى مركز جامعة ماكجل في طهران الانفاق على طبعه، وصدر في مايو سنة ١٩٧٤ في طهران. ذلك ان كتابي هذا يحتوي على رسائل للفارابي لخص فيها بعض محاورات أفلاطون.

ولما كانت عطلة نصف العام في جامعة الكويت هي ابتداء من ٢٢ يناير سنة ١٩٧٥ ولمدة اسبوعين فقد آثرت ان أقضيها في طهران، وان أصلها بمؤتمر الفارابي. لهذا سافرت إلى طهران من الكويت في يوم ٢٤ يناير سنة ١٩٧٥، ونزلت في نفس الفندق الذي كنت أُقيم فيه من ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٧٣ حتى منتصف يونيو سنة ١٩٧٤، أي فندق پارك هوتل Park Hôtel بخيابان (شارع) حافظ.

وطوال الأسبوعين السابقين على المؤتمر رحت أُجدّد ذكرياتي في طهران:

لقد كان الثلج يغطي كل شوارعها. وكانت المجاري السطحية التي تحمل مياه الأمطار إمَّا مملوءة بالثلوج، او بالطين الممزوج بالثلج. لكن الشمس كانت ساطعة في معظم الأيام، مما خفّف من الانقباض الذي يحدثه في نفسي منظر الثلوج. لكن أين مني ورود شيراز! على كل حال عزّيت نفسي بأنّي سأراها وأنا في طريق عودتي إلى الكويت.

كان المقرّ المخصص لجلسات مؤتمر الفارابي هو قاعة واسعة في الطابق تحت الأرضي من مكتبة جامعة طهران. فكان طبيعياً ان يتوّلى مدير المكتبة، الأستاذ ايرج أفشار، الإعداد العملي لجلسات المؤتمر ولما سيصدر من برامج ومنشورات خاصة بالمؤتمر. وقد تولاها على خير نحو، وفي إخلاص وذكاء منقطعي النظير. وإليه يرجع الفضل في التنظيم العملي لهذا المؤتمر.

أمَّا رئاسة المؤتمر فقد عهدت إلى د. علي أكبر سياسي، وهو عالم فاضل ورجل مرموق المكانة من رجالات العهد القديم في ايران، وكان وزيراً للتربية والتعليم، وله دراسات جيدة عن ابن سينا نذكر منها: «النفس والبدن والرابطة

بينهما في نظر ابن سينا وغيره» («مجلة دانشگدة أدبيات طهران» عدد ١/٢، سنة ١٣٣٢ هـ ش ص ١٢ ـ ٣٨)؛ «النظر الغرضاني عند ابن سينا في حصول المعرفة والوصول إلى الحق» (نفس المجلة المذكورة عدد ١/٣ سنة ١٣٣٨ هـ ش ص ١ ـ ١٧).

أمّا رئاسة الجلسات فتولاّها عديدون. وقد توليت أنا رئاسة الجلسة الثالثة، أي جلسة الصباح في اليوم الثاني للمؤتمر.

والبحث الذي ألقيته كان بالفرنسية بعنوان: Al - Farabi, défenseur d'Aristote contre Galien وقد نشر في أعمال المؤتمر التي صدرت بعد ذلك بعامين. وأعدت نشره في كتابي: Thèmes et figures de la philosophie Islamique الذي صدر في سنة ١٩٧٩ عند الناشر Maison-neuve et la Rose في باريس. وقد استندت في بحثي هذا إلى رسالة للفارابي كنت قد نشرتها من قبل في كتابي: «رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجة وابن عدي» (مطبوعات الجامعة الليبية، بنغازي سنة ١٩٧٣).

في قزوين

وأتاح لي الأستاذ ايرج افشار رحلة جميلة حافلة إلى قزوين وآب علي وورمين وتقع قزوين على مسافة ١٢٥ كم شمالي غربي طهران على الطريق المؤدّي إمّا إلى تبريز، أو إلى كرمنشاه، وأو إلى بحر الخزر.

وعلى طول الطريق، وهو أوتوستراد عريض جداً وممتاز الرّصف، يشاهد المرء عن يمين وشمال بين القرى أضرحة يسمّى الواحد منها ضريح «امام زادة»، أي ضريح إمام صغير ربما كان من ذرية الأئمة وربما كان ـ وهو الغالب ـ مجرد وليّ من الأولياء الشيعة.

والمدينة قديمة جداً، اذ يرجع انشاؤها إلى سابور الأول (ذو الأكتاف)، الذي انتصر على الامبراطور الروماني ڤالريان، وكان فيها بيت للنار يقال ان موضعه الآن هو محراب مسجد جمعة في قزوين. وفتحها المسلمون في سنة ٢٤ هـ، وولّي عليها البَراء بن عازب. وفي عهد الأمويين تولاها سعيد بن العاص بن أمية. وفي عهد العباسيين كان فيها حامية. وقد أمر هارون الرشيد ببناء سور ضخم حول قزوين، باعتبارها مركزاً استراتيجياً وتجارياً مهماً. وبنى فيها مسجداً، وكتب اسمه على بابه.

واستمرت قزوين بعد ذلك في ازدهار وتقدم، حتى جاء المغول في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بجحافلهم المدمّرة المخرّبة فنهبوا قزوين، وأي مدينة لم يدمرها وينهبها هؤلاء المخرّبون أينما حلّوا وحيثما ساروا!

فلما أقام اسماعيل صفوي دولة الصفويين في ايران سنة ١٥٠١ اتخذ قزوين عاصمة له، لأنّه رأى ان تبريز قريبة من حدود بلاد العثمانيين أعدائه الألدّاء. واستمرت عاصمة لخلفائه: طهماسپ الأول (توفي سنة ١٥٧٦)، واسماعيل الثاني (١٥٧٦ ـ ١٥٧٧) ومحمد شاه (١٥٧٨ ـ ١٥٨٨). فلما تولّى عباس الأول (١٥٨٨ ـ ١٦٢٩) نقل عاصمة الملك إلى أصفهان.

ولما انتصر نادر شاه على الأفغان، توّج ملكاً في قزوين في سنة ١٧٣٦ (وقد استمر في الملك من ١٧٣٦ حتى ١٧٤٧). لكنه لم يستقر فيها، بل اتخذ عاصمة له مدينة مشهد لأنها أقرب إلى افغانستان والهند، وكان يطمع في الاستيلاء على كلتيهما.

فلما استولى القاجار على الحكم في ايران في سنة ١٧٩٥ نقلوا عاصمة الملك إلى طهران؛ حيث لا تزال حتى اليوم.

ومن أعيان الأئمة من أهل قزوين محمد بن يزيد بن ماجة، صاحب كتاب «السُّنن».

و عند مدخل قزوين بوابة مثلثة الأبواب، مزخرفة بالقيشاني الذي يغلب عليه اللون الأزرق وعن شمال الداخل يشاهد «الميدان الأخضر» (سبز ميدان. وفيه سرادق ذو عقود، وهو من بقايا قصر شاه اسماعيل الأول، وفيه الآن المتحف الاقليمي.

فإذا دخل المرء في جادّة سپه، وجد عند نهايته على اليمين مسجد جمعة، وهو مسجد قديم يرجع محرابه إلى القرن الخامس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، إذ أمر ببنائه خمارتش، الوالي من قبل ملكشاه. لكن سائر أبنية المسجد ترجع إلى عهد شاه عباس الثاني.

وفي أقصى جنوب المدينة يوجد ضريح «امام زادة حسين» وسط مقبرة واسعة يتمنى عامة الناس ان يدفنوا بها، تبركاً بضريح امام زادة حسين هذا الذي هو ابن الامام الرضا. وعلى جانبي مدخل المقبرة مئذنتان مغطاة كلتاهما بالقيشاني الذي على الطراز القاجاري.

ومن المعالم البارزة في قزوين المدرسة الحيدرية. والمحراب فيها من العصر

السلجوقي (القرن الخامس الهجري)، لكن جرت عليها تحسينات في عهد المغول. لكن البناء الرئيسي للمدرسة ـ وهي مدرسة دينية ـ يرجع إلى عهد القاجار، أي أوائل القرن التاسع عشر.

وشرقيها يوجد قبر حمدالله مستوفى القزويني (المتوفى سنة ٧٣٥ هـ/ ١٣٣٤ ـ ١٣٣٥ م) صاحب كتاب «ظفرنامه» الذي هو إكمال لملحمة «شاهنامه» للفردوس، وتتألف ملحمة قزويني، التي تصل إلى تاريخ سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) من ٧٥,٠٠٠ مثنوي. وقد استوزر لسلطان المغول أولجايتو. والقبر في مكان مرتفع، ومن هنا يطل المرء منه على مناظر جميلة في الربيع.

على قبر أحمد الغزالي

لكن القبر الذي تشوّقت إلى زيارته حقاً هو قبر أحمد الغزالي، وهو أخو حجة الاسلام محمد الغزالي. فقد توفي في قزوين سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م، وبها دُفن.

واسمه الكامل: شهاب الدين (أو مجد الدين) أحمد بن محمد الغزالي. وقد سافر إلى همدان، ثم إلى بغداد، فحلَّ محل أخيه في التدريس بالمدرسة النظامية لما ان تخلَّى أبو حامد عن التدريس فيها. وكان واعظاً شعبياً يجتذب العديد من السامعين. لكن لم يبق لنا من خُطبه هذه إلاّ شذرات أوردها ابن الجوزي، مع أنها كان قد جمعها في جزئين صاعد بن فارس اللّباني وفي إحداها دافع عن ابليس، على غرار ما فعل الحلاّج من قبل، وما سيفعل فريد الدين العطار.

وتوفي في قزوين سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م.

وقد ترجم له ابن خلكان (تحت رقم ٣٧)، وجامي في «نفحات الأنس» (برقم ٤٢٦)، وابن الجوزي في «المنتظم» (عن سنة ٥٢٠ هـ)، والسبكي في «طبقات الشافعية» (٤ : ٥٤) وابن العماد في «شذرات القلب» (٤ : ٦٠).

وله كتب بالعربية، وأخرى بالفارسية، نذكر منها:

١ ـ «كتاب التجريد في كلمة التوحيد، وطبع في استانبول سنة ١٢٨٥ هـ.

٢ ـ «بوارق الإلماع في الردّ على مَن يحرّم السماع»، نشره J. Robun على كتاب «ذم الملاحن» لابن أبي الدنيا، لندن سنة ١٩٣٨.

٣ ـ «كتاب الذخيرة لأهل البصيرة»، وهو خلاصة لآراء أخيه أبي حامد محمد.

٤ ـ «السوانح»، وهو باللغة الفارسية، وهو كلام في الحب، وكان ذا تأثير كبير، وترجمه إلى العربية عين القضاة الهمذاني، وتوجد هذه الترجمة في مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس (Une fonds persan, B, 38).

ورمين وآب علي

وفي يوم آخر تفضل الأستاذ ايرج افشار فصحبني إلى ورمين، وآب علي.

أمّا ورمين فمدينة صغيرة تشتهر الآن بالشمام، لكنها كانت ذات ماض حافل في القرنين الثالث عشر الميلادي والرابع عشر الميلادي.. ويشهد عل ذلك آثارها الاسلامية وخصوصاً مسجد جمعة الذي بني في سنة ١٣٢٦ م، ثم تداعى، لكن أُعيد بناؤه بعد ذلك بمائة عام. وبقايا المسجد القديم تتمثل خصوصاً في قيشاني بالمينا كان على الباب الشمالي وفي زخرفة من القرميد كانت على الأقبية. وثم إيوان مزيّن بالمقرنصات يؤدّي إلى المحراب. ويعلو المسجد قبة مزيّنة بالموزنك المطلي بالمينا.

وتوجد في ورمين بعض أضرحة لإمام زادة (أو أئمة زادة، ان صح التعبير)، أبرزها ضريح امام زادة عبدالله، وله قبة على شكل كير.

وتبعد ورمين عن ضاحية ري، الضاحية الجنوبية لطهران، بحوالى ٣٠ كم. وري، التي بالقرب منها أُنشئت طهران، وإليها ينسب كل مَن يسمّى: الرازي، من العلماء ـ تبعد حوالى ١٢ كم جنوب شرقي طهران. وري مدينة قديمة جداً يرجع تاريخها فيما يزعمون إلى سبعة آلاف سنة. وقد مرَّ بها الاسكندر المقدوني، وأمضى بها عدة ليالٍ؛ وفي عهد البارثيين حفلت بالمعابد الزرادشتية.

أمّا آب علي فتبعد ستين كيلومتراً عن طهران، على طريق إلى مازندران وآمل. وتمتاز بميزتين: الأولى: نبع ماء معدني، هو أشهر المياه المعدنية في طهران، وأكثر المياه المعدنية استهلاكاً على موائد الطعام.

أمّا الميزة الثانية فهي انها صارت منتجعاً شتوياً لمن يطلبون التزحلق على الجليد، ولهذا أُقيم فيها فندق فخم وفنادق أخرى أقل منه مستوى.

استطراد في شكوى الحال

شعرت وأنا أكتب هذه الصفحات الأخيرة في أيام ١ إلى ٣ مارس بآلام روماتيزم في مفصل الساق اليسرى، فرحت أشكو حالي بهذه الأبيات التي نظمتها في ٥ مارس سنة ١٩٨٨ :

أجـمـلُ الأيـام أيـامُ الـشـبـابْ ... إنَّ سنّ الشـيـخ مـلأى بـالـعـذاب
قـد يـقـال: الـفـقـر مـن حـظ الـصّبـا ... إنَّـمـا الإثـراء مـحـصـول الـغِـلاب
صـحّـة الأبـدان أوْلـى مِـن غـنـى ... فـي ذيـول الـعُـمْـر بـالأدوا مُـصـاب
أيُّ طـعـم فـي طـعـام فـاخـرٍ ... بينما الاسنان وافاها الخراب؟!
أيُّ إمـتـاع يُـرَجّـى بـعـدمـا ... غاضت الشهوة من كأس الشراب!!
الـقـلـيـل الأمـسِ يـكـفـي مُـتْـعـةً ... والـكـثـيـرُ الـيـومَ بـالـكـدّ بـهـيـج
بَـسْـمـةٌ بـالأمـس تُـجْـزِي لـلـهـوى ... والـتـحـام الـيـوم كـالـخـمـر الـمـزيـج
رَحِـم الله لـيـالـي الـمـلـتـقـى ... تحت ضوء البدر في الغاب المريج
لـم يَـعُـدْ فـي الأفـق بـدرٌ أو سـنـا ... لـم يَـعُـدْ فـي الأرض روضٌ أو أريـج
أيـن إحـسـاسـي بـأطـيـاف الـدُّجـى ... وانـتـشـائـي بـتـباريـح الـغَـلَـس؟!
ومـنـاجـاتـي لـطـيـرٍ مـنـشـد ... او لـطـيـر فـي ذرى الـدَّوح جـلـس
أيـن إعـجـابـي بـنـبـع هـادرٍ ... يطلب الغوث إذا الماء انحبس؟!
أيـن سَـكْـبُ الـدمـع مـدراراً إذا ... دقَّ لـلـتـوديـع والـبَـيْـن الـجَـرَس؟!
لـم أمَـتَّـعْ فـي حـيـاتـي مـطـلـقـاً ... غـيـرَ سـاعـاتٍ قـلـيـلات خُـلَـس

نظرة إلى إقامتي في ايران

وهكذا أقمت في ايران تسعة أشهر متصلة (من ١٤ سبتمبر حتى ١٦ يونيو سنة ١٩٧٤) ثم ثلاثة أسابيع في العام التالي (٢٤ يناير ـ ١٦ فبراير سنة ١٩٧٥)، إقامة كانت حافلة بالنشاط العلمي والشعور الوجداني:

١ ـ فقد اطلعت على عدد وافر جداً من المخطوطات التي تندرج في ميدان الفلسفة الاسلامية معظمها بالاطلاع المباشر على المخطوطات، والباقي بالاطلاع على مصوّراتها وميكروفلماتها، وهذه الأخيرة إمَّا انها توجد في مكتبات خارج ايران، وبخاصة في تركيا، وإمَّا انها توجد في مدن أخرى غير طهران، وخصوصاً مشهد. وبهذا أكملت نقصاً في هذا الباب كنت أتحفز منذ زمن بعيد لسدّه.

٢ ـ وأعانني هذا الاطلاع على تحقيق الكتب التالية، كلياً أو جزئياً.

أ ـ «صوان الحكمة» والرسائل الباقية لأبي سليمان المنطقي السجستاني، وقد تولّت نشره مؤسسة پهلوي الثقافية، طهران سنة ١٩٧٤.

ب ـ «أفلاطون في الإسلام»، وقد تولّى نشره فرع جامعة ماكجل (في مونتريال بكندا) في طهران، طهران سنة ١٩٧٤.

جـ ـ «آداب الفلاسفة» لحنين بن اسحُق. وقد تعاقدت مع قسم «انتشارات دانشگاه طهران» (= [مطبوعات] جامعة طهران) على نشره في مارس سنة ١٩٧٤. لكنهم تأخروا في نشره الى الآن، مما حملني على اعادة تحقيقه بصورة أخرى ونشره ضمن مطبوعات «معهد المخطوطات» التابع للجامعة العربية، ومركزه الكويت. وصدر هذا التحقيق في سنة ١٩٨٥ بالكويت.

٣ ـ هذا في مجال التحقيق للمخطوطات، أمَّا في مجال التأليف فقد توفّرت طوال العام الدراسي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ على كتابة «تاريخ التصوف الاسلامي» في

القرن الأول للهجرة وبعض القرن الثاني. وهذا الكتاب كان نصّ المحاضرات التي كنت أُلقيها في يوم الأحد، من الساعة الخامسة إلى السادسة ـ من كل أسبوع في دانشگدة إلهيات وعلوم إسلامي التي كنت أقوم بالتدريس فيها. وقد قمت بطبع هذا الكتاب لما ان انتقلت إلى جامعة الكويت، فصدر في الكويت في عام ١٩٧٥.

٤ ـ ثم شرعت في الاعداد للجزء الثالث من كتابي: «مذاهب الإسلاميين»، وهذا الجزء مخصص لمذهب الشيعة الاثني عشرية ولمذهب الخوارج.

وأمام وفرة المراجع عن الشيعة الاثني عشرية التي وجدتها في مكتبة جامعة طهران ومكتبة مجلس شواري ملّي، فقد آثرت ألاّ أبدأ الكتابة على الفور، بل رأيت ان أؤجّل ذلك الى العام التالي على أساس ما كان مفروضاً آنذاك من استمراري استاذاً في جامعة طهران عاماً آخر على الأقل. لكن حدث قبل التوقيع على عقد العمل مع جامعة طهران سنة أخرى أو أكثر ان جاءتني الدعوة من جامعة الكويت مشفوعة بذكر قيمة المرتّب، وهو مرتّب يزيد عن المرتّب الذي كنت أتقاضاه في جامعة طهران بثلاث مرات او يزيد، فآثرت تلبية دعوة جامعة الكويت. وهكذا غادرت ايرن، وصرفني ذلك عن متابعة العمل في الجزء الثالث من «مذاهب الإسلاميين» لأنّي لم أجد في الكويت واحداً في المائة من المراجع التي كانت جاهزة بين يدي في طهران. وظلّ تذكر هذا العدد الهائل من المراجع عن الشيعة الاثني عشرية يحتجزني ويصرفني كلما فكّرت في استئناف العمل في هذا الجزء. ولئن كان الأمل قد ظلّ يراودني بين الحين والحين، بأن أقضي اجازة الصيف الطويلة عامين او ثلاثة أعوام في طهران، فقد تبدد هذا الأمل ـ نهائياً ـ منذ قيام «الانقلاب الاسلامي» في ايران في فبراير سنة ١٩٧٩! فما بالك وقد تلته هذه الحرب الجنونية اللامعقولة بين ايران والعراق، ولا أحد يعلم متى تنتهي! ولا أحد يستطيع ان يتنبأ بما يتلوها إن انتهت!

٥ ـ وأهم من هذا كله تلك التجربة الحية الخصبة العميقة التي حييتها مع الشعب الايراني، ومع تاريخ ايران الماضي قبل الاسلام وبعده، والحاضر منذ بداية القرن السادس عشر حتى اليوم. لقد كنت منذ سن العاشرة من عمري مولعاً بالأدب الفارسي، أحفظ معظم رباعيات الخيام في ترجماته العربية الثلاث: السباعي، ووديع بستاني، وحامد الصرّاف. ولما تقدم بي العمر، أعني في الخامسة عشرة من عمري، وبمناسبة ما قرأته من مقالات وكتب بالانجليزية عن جيته الذي كان شديد الاعجاب بحافظ الشيرازي، أخذت أقرأ ترجمات انجليزية لبعض أشعار حافظ، وأديم الاطلاع على كتاب براون: «تاريخ الأدب الفارسي».

ولم أجد بداً في عام ١٩٣٢ وأنا في الخامسة عشرة، من البدء في تعلّم اللغة الفارسية بدون معلّم لأنّه لم تكن توجد مدرسة ليلية لتعلم الفارسية تابعة لسفارة ايران، كما كانت هي الحال بالنسبة إلى اللغات: الالمانية، والايطالية والاسپانية التي أخذت في تعلّمها آنذاك في المدارس الليلية التابعة لسفارات دول هذه اللغات الثلاث. ولم يوجد في العربية آنذاك - فيما كنت أعلم - كتاب في نحو اللغة الفارسية. لهذا استعنت بكتاب في مجموعة Hogo الشهيرة الانجليزية لتعلم اللغة الفارسية. ولما دخلت كلية الآداب بالجامعة المصرية في اكتوبر سنة ١٩٣٤ كان ما سبق لي ان حصلته من هذه اللغة يغني عن مواصلة تعلّمها في كلية الآداب، لأن مستوى تعليم الفارسية - في قسم اللغة العربية بكلية الآداب - كان مستوى المبتدئين، وكان كذلك حتى في السنة الرابعة بهذا القسم، أي بعد عامين من تعلّمها!! لقد كان تدريس اللغة الفارسية في قسم اللغة العربية بكلية الآداب عبثاً لا جدوى منه! ولم تتغير هذه الحال إلاّ حينما أُنشىء قسم خاص باللغات الشرقية في كلية الآداب بجامعة عين شمس ابتداء من العام الدراسي ١٩٥٠ - ١٩٥١. فمنذ ذلك التاريخ فقط أصبح تعليم اللغة الفارسية في الجامعات المصرية تعليماً جاداً حقاً، رغم ما شابه مع ذلك من مناقص. والفضل فيْ هذا إنّما يرجع إلى د. ابرهيم أمين الشواربي، الذي أسهم - إلى جانب التدريس - بقسط وافر في تعليم اللغة الفارسية بكتابه «قواعد اللغة الفارسية»، وفي دراسة الأدب الفارسي ونقله إلى اللغة العربية برسالة الدكتوراه عن «حافظ الشيرازي» وترجمته لديوان حافظ بعنوان: «أغاني شيراز» (في جزئين) وترجمته للجزء الثاني من كتاب ادورد ج. براون وعنوانه: «تاريخ الأدب في ايران».

ولئن كنت - أثناء سنوات الدراسة الأربع في كلية الآداب - قد انصرفت عن اللغة الفارسية، فقد كان يردّني إليها بين الحين والحين شاعران هما: محمد اقبال اللاهوري (المتوفى سنة ١٩٣٨)، وجلال الدين الرومي. إذ كنت أفزع اليهما احياناً حين يبهظني التجريد العقلي المفرط عند كَنْت وهيجل وهيدجر، فأقرأ لهما في ترجمة نيكلسون لكتاب: «أسرار خودي» (= أسرار الذات) لمحمد إقبال، ولكتاب «مثنوي معنوي» للجلال الرومي، ويدفعني ذلك في الوقت نفسه إلى قراءة بعض قصائدهما في نصّها الفارسي.

بيد أني عدت إلى اللغة الفارسية من جديد في عام ١٩٤٤ لما كنت أقوم بترجمة «الديوان الشرقي للمؤلف الغربي» لجيته. وكان عليَّ ان أتعمق قراءة ديوان حافظ الشيرازي مستعيناً بالترجمة الألمانية التي قام بها يوسف فون هَمّر، كما كان

عليّ ان أقرأ قصائد متفرقة وقصصاً شعرية لعبد الرحمن الجامي ونظامي گنجوي، فضلاً عن شرح سردي على ديوان حافظ.

وعن هذا الطريق صرت أتقن الفارسية اتقاناً يسمح لي بفهم النصوص الفارسية الشعرية منها والنثرية.

لكنني وقد عرفت الفارسية عن طريق الكتب فحسب، لم أكن أُحْسِن النطق بها ولا التحدث بها مع الآخرين. ولهذا فإنّي حين وصلت الى طهران في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٧٣ وحاولت التفاهم مع الناس بالفارسية، شعرت بعجز أثار الخجل في نفسي، فصممت على إطالة إقامتي في ايران بعد انتهاء مؤتمر البيروني، حتى أستطيع اتقان التخاطب بالفارسية. لقد كنت أقرأ الصحف اليومية وأفهمها بكل سهولة؛ أمّا التخاطب مع الناس وإجراء الحديث مع المثقفين الذين كنت ألتقي بهم كل يوم ـ فقد ظلَّ طوال شهرين امراً عسيراً، رغم إدامتي الاستماع إلى الاذاعة، ومواصلتي دراسة الفارسية من حيث النحو والصرف ومعجم الألفاظ.

وكان سيسهل عليّ الأمر لو أنّني كنت قد تعرّفت إلى فتاة ايرانية جميلة أطيل معها الحديث العذب كل يوم دون ملال، كما كانت تجربتي من قبل بالنسبة الى الألمانية والايطالية والفرنسية ـ لكن كان دون ذلك مصاعب جمّة!

٦ ـ فما أصعب التعرّف إلى الفتيات او السيدات في ايران! ومهما قيل عن تحرّر المرأة في ايران منذ بدأ بذلك الشاه السابق، رضا پهلوي، في سنة ١٩٣٥، فإن الاحتجاز والاحتشام استمرّا طبعاً أصيلاً في المرأة الايرانية. لقد كان تحرر المرأة في ملبسها فقط، اما في سلوكها فقد بقيت كما هي: شديدة المحافظة، حريصة كل الحرص على عفافها؛ وإن ابتسمت لم يكن في ابتسامتها ما يشجّع على طلب المزيد.

ولهذا سرعان ما تبددت الصورة التي كانت في مخيلتي عن المرأة الايرانية، تلك الصورة الوردية الزاهية التي طبعتها في خيالي التزويقات التي تحلّي «رباعيات» عمر الخيام بخاصة في طبعاتها الايرانية العديدة. وأدركت ان أكبر خطأ يرتكبه الانسان هو أن يستمد من «رباعيات» الخيام في نصها وفيما تحلّى به من تزويقات ـ أية فكرة صحيحة عن واقع الحال في طهران وسائر المدن الايرانية.

فلا حانات في طهران او غيرها من مدن ايران؛ ولا ساقي ولا مغنية، ولا ناي ولا عود ولا طنبور يعزف عليها في أماكن عامة. وكل ما يتداعى في البال من «غزليات» حافظ هو محض تخيّل وليس له مع الواقع أي سبب.

ولهذا أصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً ان جُلّ - إنْ لم يكن كل - ما ورد من صور ومعانٍ في «رباعيات» الخيام و«غزليات» حافظ، وما شابه ذلك عند سائر شعراء الفرس - هو من نسج الخيال المحض، ومن رؤى محرومين لم ينعموا في الواقع بأي متعة من المتع التي أفاضوا في التعبير عنها في شعرهم.

وإزاء خيبة أملي هذه، انطلقت أُعبّر عنها في هذه القصيدة:

شكوتُ إليك يا خيّا ... مُ من حالي بطهران
أتيتُ لدَرْس مخطوطٍ ... وظبي غُصْنُهُ داني
فضاع اليوم في المخطو ... ط دون الظبي والبان
فلا «شيرين» تبسم لي ... ولا «زهراً» تمنّاني
ولا مالٌ لأبذله ... ولا سِن الجوانان[1]

(١) جمع: جوان = شاب، فتى - بالفارسية.





سيرة حياتي 2

بالصدفة أتيت إلى هذا العالم ، وبالصدفة سأغادر هذا العالم !

وآية ذلك أنه لو لم تتطاير ورقة وتتساقط على الأرض فينحني والدي لالتقاطها ، لكان قد ودّع الحياة في ذلك اليوم من شهر أكتوبر سنة ١٩١٣ ؛ فقد استأجر أحد خصومه قاتلاً جاء إلى حيث يجلس في بيت العمديّة في مساء ذلك اليوم ، ثمّ أطلق عدّة رصاصات في اتّجاهه ، وفي هذه اللحظة عينها تطايرت هذه الورقة الرسميّة ، الّتي كان يراجعها (وهي من أوراق المحكمة الشرعيّة) ، فانحنى لالتقاطها ، فلم يصب الرصاص إلاّ الطرف الأعلي من العمامة واستقرّ في باب كان خلفه . وصاح : الله حيّ ؟ وصمت صمتاً تامّاً جعل القاتل يظنّ أنّه أصاب من والدي مقتلاً . وأخذ يعدو إلى منزل من استأجره . لكنّ والدي نهض فوراً وعدا في إثره مدركاً بحدسه المرهف أنّه لا بدّ في طريقه إلى بيت ذلك الخصم الشرّير الّذي كان يدعى جادو زرد . ونادى والدي على المارّة أن يهبّوا معه إلى منزل ذلك الرجل ، حتّى حاصروه . وفي أقلّ من نصف ساعة كانت القرية كلّها قد تجمّعت واقتحمت ذلك المنزل . ولمّا لم تجد الجاني ، لأنّه هرب إلى منزل مجاور مكشوف ، انقضّ عليه أحد الرجال وهو مختبئ في أحد أركانه ، وتمّ تكبيله بالحبال والقبض على من استأجره . وقام والدي بتبليغ الحادث بنفسه إلى مركز الشرطة ، فجاء رجال الشرطة من فارسكور ـ على مسافة ثمانية كيلومترات من شرباص ، وقام هؤلاء بالقبض على الجاني ومن استأجره ، وسيقوا إلى مركز الشرطة في فارسكور .

وكان ميلادي بعد ذلك بأربعين شهراً ، في الرابع من فبراير سنة ١٩١٧

ولو فتّشت تاريخ حياة أيّ إنسان لوجدت أنّ نوعاً من الصدفة هو الّذي تسبّب في ميلاده : صدفة في الزواج ؛ صدفة في الالتقاء بين الحيوان المنويّ في الرجل والبويضة في الأنثى ، إلخ.. إلخ. وواهم إذن من يظنّ أنّ ثمّ ترتيباً أو عناية أو غاية . إنّما هي أسباب عارضة يدفع بعضها بعضاً فتؤدّي إلى إيجاد من يوجد وإعدام من يعدم .

